الجزء الرابع

عجايب الآثار في التراجم والأخبار

عبد الرحمن الجبرتي

عجايب الآثار في التراجم والأخبار (الجزء الرابع)

عجايب الآثار في التراجم والأخبار (الجزء الرابع)

تأليف
عبد الرحمن الجبرتي



عجايب الآثار في التراجم والأخبار (الجزء الرابع)

عبد الرحمن الجبرتي

رقم إيداع ٢٠١٣/٤٦٤٣
تدمك: ٤ ٢٥١ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: هاني ماهر.

المحتويات

ذكر دخول الفرنساوية الإسكندرية سنة ثلاث عشرة ومايتين وألف (١٧٩٨م)

وهي أولى سِني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقايع النازلة والنوازل الهايلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن، واختلاف الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

وفي يوم الأحد العاشر من شهر محرم الحرام من هذه السنة وردت مكاتبات على يد السعاة من ثغر الإسكندرية، ومضمونها: أن في يوم الخميس ثامنه حضر إلى الثغر عشرة مراكب من مراكب الإنكليز، ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر، وبعد قليل حضر خمسة عشر مركبًا أيضًا فانتظر أهل الثغر ما يريدون، وإذا بقايق صغير واصل من عندهم، وفيه عشرة أنفار فوصلوا البر، واجتمعوا بكبار البلد والريس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض السيد محمد كريم الآتي ذكره، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم، فأخبروا أنهم إنكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس؛ لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات، ولا ندري أين قصدهم، فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم، ولا تتمكنون من منعهم! فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول، وظن أنها مكيدة، وجاوبوهم بكلام خشن، فقالت رسل الإنكليز: نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين على الثغر لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه، فلم يجيبوهم لذلك، وقالوا: هذه بلاد السلطان، وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل، فاذهبوا عنا فعندها عادت رسل الإنكليز، وأقلعوا في البحر ليمتاروا من غير الإسكندرية، وليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

ثم إن أهل الثغر أرسلوا إلى كاشف البحيرة ليجمع العربان، ويأتي معهم للمحافظة بالثغر فلما قريت هذه المكاتبات بمصر حصل بها اللغط الكثير من الناس، وتحدثوا بذلك فيما بينهم وكثرت المقالات والأراجيف.

ثم ورد في ثالث يوم بعد ورود المكاتيب الأول مكاتبات مضمونها أن المراكب التي وردت الثغر عادت راجعة، فاطمأن الناس وسكن القيل والقال، وأما الأمرا فلم يهتموا بشي من ذلك، ولم يكترثوا به اعتمادًا على قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون في مقابلتهم، وأنهم يدوسونهم بخيولهم فلما كان يوم الأربعا العشرون من الشهر المذكور وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بأن في يوم الاثنين ثامن عشره وردت مراكب وعمارات للفرنسيس كثيرة، فأرسوا في البحر، وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل وبعض أهل البلد، فلما نزلوا إليهم عوقوهم عندهم، فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلى جهة العجمي، وطلعوا إلى البر، ومعهم آلات الحرب والعساكر، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد، فعندها خرج أهل الثغر وما انضم إليهم من العربان المجتمعة وكاشف البحيرة، فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم، وانهزم الكاشف ومن معه من العربان.

ورجع أهل الثغر إلى التترس في البيوت والحيطان، ودخلت الإفرنج البلد، وانبث فيها الكثير من ذلك العدد، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون، وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون، فلما أعياهم الحال وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال، وليس ثم عندهم للقتال استعداد — لخُلُوِّ الأبراج من آلات الحرب والبارود، وكثرة العدو وغلبته — طلب أهل الثغر الأمان فأمنوهم، ورفعوا عنهم القتال ومن حصونهم أنزلوهم، ونادى الفرنسيس بالأمان في البلد، ورفع بنديراته وطلب أعيان الثغر فحضروا بين يديه فألزمهم بجمع السلاح وإحضاره إليه، وأن يضعوا الجوكار في صدورهم فوق ملبوسهم: «والجوكار ثلاث قطع من جوخ أو حرير أو غير ذلك مستديرة في قدر الريال سودًا وحمرًا وبيضًا توضع بعضها فوق بعض، بحيث تكون كل دايرة أقل من التي تحتها حتى تظهر الألوان الثلاثة كالدواير المحيط بعضها ببعض».

ولما وردت هذه الأخبار مصر حصل للناس انزعاج، وعول أكثرهم علي الفرار والهجاج.

وأما ما كان من حال الأمرا بمصر، فإن إبراهيم بك ركب إلى قصر العيني وحضر عنده مراد بك من الجيزة؛ لأنه كان مقيمًا بها، واجتمع باقي الأمرا والعلما والقاضي،

وتكلموا في شأن هذا الأمر الحادث، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مكاتبة بخبر هذا الحادث إلى إسلامبول، وأن مراد بك يجهز العساكر، ويخرج لملاقاتهم وحربهم، وانفض المجلس على ذلك وكتبوا المكاتبة وأرسلها بكر باشا مع رسوله على طريق البر ليأتيه بالترياق من العراق، وأخذوا في الاستعداد للثغر وقضا اللوازم والمهمات في مدة خمسة أيام، فصاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجون إليه بدون ثمن، ثم ارتحل مراد بك بعد صلاة الجمعة، وبرز خيامه ووطاقة إلى الجسر الأسود فمكث به يومين حق تكامل العسكر وصناجقه وعلي باشا الطرابلسي وناصف باشا، فإنهم كانوا من أخصايه ومقيمين معه بالجيزة، وأخذ معه عدة كثيرة من المدافع والبارود، وسار من البر مع العساكر الخيالة وأما الرجالة وهم الألداشات القلينجية والأروام والمغاربة، فإنهم ساروا في البحر مع الغلايين الصغار التي أنشاها الأمير المذكور.

ولما ارتحل من الجسر الأسود أرسل إلى مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد في غاية الثخن والمتانة، طولها ماية ذراع وثلاثون ذراعًا؛ لتنصب على البغاز عند برج مغيزل من البر إلى البر لتمنع مراكب الفرنسيس من العبور لبحر النيل، وذلك بإشارة علي باشا وأن يعمل عندها جسر من المراكب، وينصب عليها متاريس ومدافع ظنًّا منهم أن الإفرنج لا يقدرون على محاربتهم في البر، وأنهم يعبرون في المراكب ويقاتلونهم وهم في المراكب، وأنهم يصابرونهم ويطاولونهم في القتال حتى تأتيهم النجدة.

وكان الأمر بخلاف ذلك، فإن الفرنسيس عندما ملكوا الإسكندرية ساروا على طريق البر الغربي من غير ممانع، وفي أثنا خروج مراد بك والحركة، بدت الوحشة في الأسواق وكثر الهرج بين الناس والإرجاف، وانقطعت الطرق، وأخذت الحرامية في كل ليلة تطرق أطراف البلد، وانقطع مشي الناس من المرور في الطرق والأسواق من المغرب فنادى الأغا والوالي بفتح الأسواق والقهاوي ليلًا، وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين، وذلك لأمرين:

الأول: ذهاب الوحشة من القلوب وحصول الاستيناس.

والثاني: الخوف من الدخيل في البلد.

وفي يوم الاثنين وردت الأخبار بأن الفرنسيس وصلوا إلى دمنهور ورشيد وخرج معظم أهل تلك البلاد على وجوههم، فذهبوا إلى فوة ونواحيها، والبعض طلب الأمان وأقام ببلده وهم العقلا.

وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالإسكندرية كتبوا مرسومًا وطبعوه، وأرسلوا منه نسخًا إلى البلاد التي يقدمون عليها تطمينًا لهم، ووصل هذا المكتوب مع جملة من الأسارى الذين وجدوهم بمالطة، وحضروا صحبتهم، وحضر منهم جملة إلى بولاق، وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو بيومين ومعهم منه عدة نسخ، ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس، وهم على شكلهم من كفار مالطة ويعرفون باللغات.

وصورة ذلك المكتوب:

بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته.

يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذا والتعدي، فحضر الآن ساعة عقوبتهم، وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها، فأما رب العالمين القادر على كل شي فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم، يا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه والقرآن العظيم.

وقولوا أيضًا لهم إن جميع الناس متساوون عند الله، وإن الشي الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضايل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم، ويختصوا بكل شي أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة، فإن كانت الأرض المصرية التزامًا للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم! ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدًا لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلما والفضلا والعقلا بينهم سيدبرون الأمور، وبذلك يصلح حال الأمة كلها، وسابقًا كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة

والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر، وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك.

أيها المشايخ والقضاة والأيمة والجربجية وأعيان البلد، قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دايمًا يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعدا أعدايه — أدام الله ملكه — ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره، فما أطاعوا أصلًا إلا لطمع أنفسهم.

طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير، فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم.

طوبى أيضًا للذين يقعدون في مساكنهم غير مايلين لأحد من الفريقين المتحاربين، فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا، فلا يجدون بعد ذلك طريقًا إلى الخلاص، ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى: جميع القرى الواقعة في دايرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية، فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وُكَلا كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا، وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر.

المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار.

المادة الثالثة: كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي أيضًا تنصب صنجاق السلطان العثماني محبنا دام بقاه.

المادة الرابعة: المشايخ في كل بلد يختمون حالًا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التي تتبع المماليك، وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شي منها.

المادة الخامسة: الواجب على المشايخ والعلما والقضاة والأيمة أنهم يلازمون وظايفهم، وعلى كل أحد من أهالي البلدان أن يبقى في مسكنه مطمينًا، وكذلك

تكون الصلاة قايمة في الجوامع على العادة، والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضا دولة المماليك قايلين بصوت عالٍ: أدام الله إجلال السلطان العثماني، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي، لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية.

تحريرًا بمعسكر إسكندرية في ١٣ شهر مسيدور سنة ٦ من إقامة الجمهور الفرنساوي، يعني في آخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية. ا.هـ. بحروفه.

وفي يوم الخميس الثاني والعشرين من الشهر وردت الأخبار بأن الفرنسيس وصلوا إلى نواحي فوة، ثم إلى الرحمانية.

واستهل شهر صفر سنة ١٢١٣هـ «١٥ يوليو ١٧٩٨م»

وفي يوم الأحد غرة شهر صفر وردت الأخبار بأن في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم التقى العسكر المصري مع الفرنسيس، فلم تكن إلا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه، ولم يقع قتال صحيح وإنما هي مناوشة من طلايع العسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين، واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية، واحترق بها ريس الطبجية خليل الكردلي، وكان قد قاتل في البحر قتالًا عجيبًا، فقدر الله أن علقت نار بالقلع وسقط منها نار إلى البارود؛ فاشتعلت جميعها بالنار، واحترقت المركب بما فيها من المحاربين وكبيرهم، وتطايروا في الهواء.

فلما عاين ذلك مراد بك داخَلَه الرعب وولى منهزمًا، وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره، ونزلت المشاة في المراكب ورجعوا طالبين مصر، ووصلت الأخبار بذلك إلى مصر فاشتد انزعاج الناس، وركب إبراهيم بك إلى ساحل بولاق، وحضر الباشا والعلما وروس الناس، وأعملوا رأيهم في هذا الحادث العظيم، فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا، ويتولى الإقامة ببولاق إبراهيم بك وكشافه ومماليكه، وقد كانت العلما عند توجه مراد بك تجتمع بالأزهر كل يوم، ويقرون البخاري وغيره من الدعوات، وكذلك مشايخ فقرا الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوايف وأرباب الأشاير، ويعملون لهم مجالس بالأزهر، وكذلك أطفال المكاتب، ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسما.

وفي يوم الاثنين حضر مراد بك إلى بر إنبابة، وشرع في عمل متاريس هناك ممتدة إلى بشتيل وتولى ذلك هو وصناجقه وأمراه وجماعة من خشداشينه، واحتفل في ترتيب

ذلك وتنظيمه بنفسه هو وعلي باشا الطرابلسي ونصوح باشا، وأحضروا المراكب الكبار والغلايين التي أنشاها بالجيزة، وأوقفها على ساحل إنبابة، وشحنها بالعساكر والمدافع فصار البر الغربي والشرقي مملوين بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة، ومع ذلك فقلوب الأمرا لم تطمين بذلك، فإنهم من حين وصول الخبر لهم من الإسكندرية شرعوا في نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة إلى البيوت الصغار التي لا يعرفها أحد، واستمروا طول الليالي ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم، وأرسلوا البعض منها لبلاد الأرياف، وأخذوا أيضًا في تشهيل الأحمال، واستحضار دواب للشيل، وأدوات الارتحال.

فلما رأى أهل البلدة منهم ذلك داخلهم الخوف الكثير والفزع، واستعد الأغنيا وأولو المقدرة للهروب، ولولا أن الأمرا منعوهم من ذلك وزجروهم وهددوا من أراد النقلة لما بقي بمصر منهم أحدٌ.

وفي يوم الثلاثا نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس وكرروا المناداة بذلك كل يوم؛ فأغلق الناس الدكاكين والأسواق، وخرج الجميع لبر بولاق، فكانت كل طايفة من طوايف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خيامًا، أو يجلسون في مكان خرب أو مسجد ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التي جمعوها من بعضهم، وبعض الناس يتطوع بالإنفاق على البعض الآخر، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك، بحيث إن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم، فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشي يملكه، ولكن لم يسعفهم الدهر، وخرجت الفقرا وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات، وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة.

وصعد السيد عمر أفندي نقيب الأشراف إلى القلعة، فأنزل منها بيرقًا كبيرًا سَمَّتْه العامة البيرق النبوي، فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصي، يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور وغير ذلك.

وأما مصر فإنها باقية خالية الطرق لا تجد بها أحدًا سوى النسا في البيوت والصغار وضعفا الرجال الذين لا يقدرون على الحركة، فإنهم مستترون مع النسا في بيوتهم، والأسواق مصفرة والطرق مجفرة من عدم الكنس والرش، وغلا سعر البارود والرصاص بحيث بِيع الرطل البارود بستين نصفًا والرصاص بتسعين، وغلا جنس أنواع السلاح،

وقل وجوده، وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصي والمساوق، وجلس مشايخ العلما بزاوية علي بك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر، وأقام غيرهم من الرعايا: البعض بالبيوت، والبعض بالزوايا، والبعض في الخيام.

ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق، وأقام بها من حين نصب إبراهيم بك العرضي هناك إلى وقت الهزيمة سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكانًا ولا مأوى، فيرجعون إلى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون إلى بولاق.

وأرسل إبراهيم بك إلى العربان المجاورة لمصر، ورسم لهم أن يكونوا في المقدمة بنواحي شبرا وما والاها، وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية والقيعان وأولاد علي والهنادي وغيرهم، وفي كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقرا الذين يحصلون أقواتهم يومًا فيومًا لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد.

وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دهمهم.

وأما بلاد الأرياف فإنها قامت على ساق يقتل بعضهم بعضًا، وينهب بعضهم بعضًا، وكذلك العرب غارت على الأطراف والنواحي، وصار قطر مصر من أوله إلى آخره في قتل ونهب وإخافة طريق وقيام شر وإغارة على الأموال وإفساد المزارع وغير ذلك من أنواع الفساد الذي لا يحصى، وطلب أمرا مصر التجار من الإفرنج بمصر فحبسوا بعضهم بالقلعة، وبعضهم بأماكن الأمرا، وصاروا يفتشون في محلات الإفرنج على الأسلحة وغيرها، وكذلك يفتشون بيوت النصارى الشوام والأقباط والأروام والكنايس والأديرة على الأسلحة، والعامة لا ترضى إلا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم الحكام عنهم، ولولا ذلك المنع لقتلتهم العامة وقت الفتنة.

ثم في كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر، وتختلف الناس في الجهة التي يقصدون المجي منها: فمنهم من يقول إنهم واصلون من البر الغربي، ومنهم من يقول بل يأتون من الشرقي، ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين.

هذا وليس لأحد من أمرا العساكر همة أن يبعث جاسوسًا أو طليعة تناوشهم القتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى فناء المصر، بل كل من إبراهيم بك ومراد بك جمع عسكره، ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم، وليس ثمَّ قلعة ولا حصن ولا معقل، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو.

ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود، وأصبح يوم السبت فوصلوا إلى أم دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر، ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم، منحلة عزايمهم، مختلفة آراهم، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم، مختالون في ريشهم، مغترون بجمعهم، محتقرون شأن عدوهم، مرتبكون في رويتهم، مغمورون في غفلتهم، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم، وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين؛ بل أشيع في عرضي إبراهيم بك أنهم قادمون من الجهتين، فلم يأتوا إلا من البر الغربي.

ولما كان وقت القايلة، ركب جماعة من العساكر التي بالبر الغربي، وتقدموا إلى ناحيه بشتيل — بلدة مجاورة لإنبابة — فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس، فكروا عليهم بالخيول فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة الرمي، وأبلى الفريقان وقتل أيوب بك الدفتردار وعبد الله كاشف الجرف، وعدة كثيرة من كشاف محمد بك الألفي ومماليكهم وتبعهم طابور من الإفرنج في نحو الستة آلاف وكبيره (ويزه) الذي ولي على الصعيد بعد تملكهم.

وأما بونابارته الكبير فإنه لم يشاهد الواقعة، بل حضر بعد الهزيمة، وكان بعيدًا عن هولا بكثير، ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بك ترامى الفريقان بالمدافع، وكذلك العساكر المحاربون البحرية، وحضر عدة وافرة من عساكر الأرنؤد من دمياط وطلعوا إلى إنبابة، وانضموا إلى المشاة، وقاتلوا معهم في المتاريس، فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقي القتال ضج العامة والغوغا من الرعية وأخلاط الناس بالصياح، ورفع الأصوات بقولهم: يا رب يا لطيف ويا رجال الله، ونحو ذلك، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم، فكان العقلا من الناس يصرخون عليهم، ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب، لا برفع الأصوات والصراخ والنباح، فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه، ومن يقرا ومن يسمع!

وركب طايفة كبيرة من الأمرا والأجناد من العرض الشرقي، ومنهم إبراهيم بك الوالي، وشرعوا في التعدية إلى البر الغربي في المراكب، فتزاحموا على المعادي لكون التعدية من محل واحد، والمراكب قليلة جدًّا، فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين.

هذا والريح النكباء اشتد هبوبها، وأمواج البحر في قوة اضطرابها، والرمال يعلو غبارها، وتنسفها الريح في وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار، وكون الريح من ناحية العدو، وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه.

ثم إن الطابور الذي تقدم لقتال مراد بك انقسم على كيفية معلومة عندهم في الحرب، وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطًا بالعسكر من خلفه وأمامه ودق طبوله، وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع واشتد هبوب الريح، وانعقد الغبار، وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الرياح، وصمت الأسماع من توالي الضرب، بحيث خُيِّل للناس أن الأرض تزلزلت والسما عليها سقطت.

واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع ساعة، ثم كانت هذه الهزيمة على العسكر الغربي، فغرق الكثير من الخيالة في البحر لإحاطة العدو بهم وظلام الدنيا، والبعض وقع أسيرًا في أيدي الفرنسيس، وملكوا المتاريس وفر مراد بك ومن معه إلى الجيزة، فصعد إلى قصره وقضى بعض أشغاله في نحو ربع ساعة ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلية، وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرش ملقاة على الأرض ببر إنبابة تحت الأرجل.

وكان من جملة من ألقى نفسه في البحر سليمان بك المعروف بالأغا، وأخوه إبراهيم بك الوالي فأما سليمان بك فنجا، وغرق إبراهيم بك الصغير وهو صهر إبراهيم بك الكبير، ولما انهزم العسكر الغربي حول الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقي وضربوها، وتحقق أهل البر الآخر الهزيمة، فقامت فيهم ضجة عظيمة، وركب في الحال إبراهيم بك والباشا والأمرا والعسكر والرعايا، وتركوا جميع الأثقال والخيام كما هي لم يأخذوا منها شيًّا.

فأما إبراهيم بك والباشا والأمرا فساروا إلى جهة العادلية، وأما الرعايا فهاجوا وماجوا ذاهبين إلى جهة المدينة ودخلوها أفواجًا أفواجًا وهم جميعًا في غاية الخوف والفزع وترقب الهلاك، وهم يضجون بالعويل والنحيب ويبتهلون إلى الله من شر هذا اليوم العصيب، والنسا يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت، وقد كان ذلك قبل الغروب.

فلما استقر إبراهيم بك بالعادلية أرسل يأخذ حريمه، وكذلك من كان معه من الأمرا، فأركبوا النسا بعضهن على الخيول وبعضهن على البغال، والبعض على الحمير والجمال، والبعض ماشٍ كالجواري والخدم.

واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر، البعض بحريمه، والبعض ينجو بنفسه ولا يسأل أحد عن أحد، بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه فخرج

تلك الليلة معظم أهل مصر: البعض لبلاد الصعيد، والبعض لجهة الشرق وهم الأكثر، وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه لا يقدر على الحركة ممتثلًا للقضا متوقعًا للمكروه، وذلك لعدم قدرته وقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله ويصرفه عليهم في الغربة، فاستسلم للمقدور، ولله عاقبة الأمور.

والذي أزعج قلوب الناس بالأكثر أن في عشا تلك الليلة شاع في الناس أن الإفرنج عدوا إلى بولاق وأحرقوها وكذلك الجيزة، وأن أولهم وصل إلى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنسا.

وكان السبب في هذه الإشاعة أن بعض القلينجية من عسكر مراد بك الذي كان في الغليون بمرسى إنبابة لما تحقق الكسرة أضرم النار في الغليون الذي هو فيه، وكذلك مراد بك لما رحل من الجيزة أمر بانجرار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصحبه معه إلى جهة قبلي، فمشوا به قليلًا ووقف لقلة الماء في الطين، وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانة فأمر بحرقه أيضًا، فصعد لهيب النار من جهة الجيزة وبولاق فظنوا بل أيقنوا أنهم أحرقوا البلدين، فماجوا واضطربوا زيادة عما هم فيه من الفزع والروع والجزع، وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكابرهم ونقيب الأشراف، وبعض المشايخ القادرين، فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم، وتحركت عزايمهم للهروب واللحاق بهم.

والحال أن الجميع لا يدرون أي طريق يسلكون، وأي جهة يذهبون، وأي محل يستقرون، فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون، وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه، وخرج أكثرهم ماشيًا أو حاملًا متاعه على راسه وزوجته حاملة طفلها، ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه، وخرج غالب النسا ماشيات حاسرات وأطفالهن على أكتافهن يبكين في ظلمة الليل، واستمروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها، وأخذ كل إنسان ما قدر على حمله من مال ومتاع، فلما خرجوا من أبواب البلد، وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون، فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته، أو يسد جوعته.

فكان ما أخذته العرب شيًّا كثيرًا يفوق الحصر، بحيث إن الأموال والذخاير التي جاءت من مصر في تلك الليلة أضعاف ما بقي فيها بلا شك؛ لأن معظم الأموال عند الأمرا والأعيان وحريمهم وقد أخذوه صحبتهم، وغالب مساتير الناس وأصحاب المقدرة أخرجوا أيضًا ما عندهم، والذي أقعده العجز وكان عنده ما يعز عليه من مال أو مصاغ أعطاه

لجاره أو صديقه الراحل، ومثل ذلك أمانات وودايع الحجاج من المغاربة والمسافرين، فذهب ذلك جميعه، وربما قتلوا من قدروا عليه، أو دافع عن نفسه ومتاعه، وسلبوا ثياب النسا وفضحوهن وهتكوهن، وفيهم الخوندات والأعيان، فمنهم من رجع من قريب، وهم الذين تأخروا في الخروج، وبلغهم ما حصل للسابقين ومنهم من جازف متكلًا على كثرته وعزوته وخفارته فسلم أو عطب، وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر، ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين فما راءٍ كمن سمعا.

ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون لا يدرون ما يُفعَل بهم، ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ورجع الكثير من الفارين وهم في أسوأ حال من الهرج والفزع، فتبين أن الإفرنج لم يعدوا إلى البر الشرقي، وأن الحريق كان في المراكب المتقدم ذكرها، فاجتمع في الأزهر بعض العلما والمشايخ وتشاوروا، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الإفرنج، وينتظروا ما يكون من جوابهم ففعلوا ذلك، وأرسلوها صحبه شخص مغربي يعرف لغتهم، وآخر صحبته فغابا وعادا، فأخبر أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة، فقراها عليه ترجمانه ومضمونها الاستفهام عن قصدهم، فقال على لسان الترجمان: وأين عظماكم ومشايخكم؟ لمَ تأخروا عن الحضور إلينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة؟ وطمنهم وبش في وجوههم فقالوا: نريد أمانًا منكم، فقال: أرسلنا لكم سابقًا — يعنون الكتاب المذكور — فقالوا: وأيضًا لأجل اطمينان الناس، فكتبوا لهم ورقة أخرى مضمونها:

> من معسكر الجيزة خطابًا لأهل مصر، إننا أرسلنا لكم في السابق كتابًا فيه الكفاية، وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان، ولما حضرنا إلى البر الغربي خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه، وقتلنا بعضهم، وأسرنا بعضهم عندنا، وهرب بعضهم، ونحن في طلبهم حتى لم يبق أحد منهم بالقطر المصري، وأما المشايخ والعلما وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمينين، وفي مساكنهم ومتاجرهم مرتاحين إلى آخر ما ذكرناه، ثم قال لهم: لازم أن المشايخ والشربجية يأتون إلينا لنرتب لهم ديوانًا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور.

ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس، وركب الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي وآخرون إلى الجيزة فتلقاهم وضحك لهم، وقال: أنتم المشايخ الكبار؟

فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا، فقال: لأي شي يهربون؟ اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانًا لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة.

فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والأمان، ثم انفصلوا من معسكرهم بعد العشا، وحضروا إلى مصر واطمأن برجوعهم الناس، وكانوا في وجل وخوف على غيابهم، وأصبحوا فأرسلوا الأمان إلى المشايخ، فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى والمشايخ، ومن انضم إليهم من الناس الفارين من ناحية المطرية.

وأما عمر أفندي نقيب الأشراف فإنه لم يطمين ولم يحضر، كذلك الروزنامجي والأفندية، وفي ذلك اليوم اجتمعت الجعيدية وأوباش الناس ونهبوا بيت إبراهيم بك ومراد بك اللذين بخطة قوصون وأحرقوهما، ونهبوا أيضًا عدة بيوت من بيوت الأمرا، وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك وباعوه بأبخس الأثمان.

وفي يوم الثلاثا عدت الفرنساوية إلى بر مصر، وسكن بونابارته ببيت محمد بك الألفي بالأزبكية بخط الساكت الذي أنشأه الأمير المذكور في السنة الماضية، زخرفه وصرف عليه أموالًا عظمية، وفرشه بالفُرُش الفاخرة، وعند تمامه وسكناه فيه حصلت هذه الحادثة، فأخلوه وتركوه بما فيه، فكأنه إنما كان يبنيه لأمير الفرنسيس.

وكذلك حصل في بيت حسن كاشف جركس بالناصرية، ولما عدى كبيرهم وسكن بالأزبكية كما ذكر، استمر غالبهم بالبر الآخر، ولم يدخل المدينة إلا القليل منهم، ومشوا في الأسواق من غير سلاح ولا تعدٍّ بل صاروا يضاحكون الناس، ويشترون ما يحتاجون إليه بأغلى ثمن، فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطي صاحبها في ثمنها ريال فرانسة، ويأخذ البيضة بنصف فضة قياسًا على أسعار بلادهم وأثمان بضايعهم.

فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم، واطمأنوا لهم، وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وغير ذلك مثل: السكر والصابون والدخان والبن، وصاروا يبيعون عليهم بما أحبوا من الأسعار وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهاوي.

وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر أرسلوا بطلب المشايخ والوجاقلية عند قايمقام صاري عسكر.

فلما استقر بهم الجلوس خاطبوهم، وتشاوروا معهم في تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات فوقع الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاوي، والشيخ خليل البكري، والشيخ مصطفى الصاوي، والشيخ سليمان الفيومي، والشيخ محمد

المهدي، والشيخ موسى السرسي، والشيخ مصطفى الدمنهوري، والشيخ أحمد العريشي، والشيخ يوسف الشبرخيتي، والشيخ محمد الدواخلي. وحضر ذلك المجلس أيضًا مصطفى كتخدا بكر باشا والقاضي، وقلدوا محمد أغا المسلماني أغات مستحفظان، وعلي أغا الشعراوي والي الشرطة، وحسن أغا محرم أمين احتساب، وذلك بإشارة أرباب الديوان فإنهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك، فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم، وهؤلاء المذكورون من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم، وقلدوا ذا الفقار كتخدا محمد بك كتخدا بونابارته، ومن أرباب المشورة الخواجا موسى وكلا الفرنساوي ووكيل الديوان حنا بينو.

وفيه اجتمع أرباب الديوان عند ريسه، فذكر لهم ما وقع من نهب البيوت، فقالوا له: هذا فعل الجعيدية وأوباش الناس، فقال: لأي شي يفعلون ذلك، وقد أوصيناكم بحفظ البيوت والختم على متاع المماليك؟! فقالوا: هذا أمر لا قدرة لنا على منعه، وإنما ذلك من وظيفة الحكام، فأمروا الأغا والوالي أن ينادوا بالأمان، وفتح الدكاكين والأسواق والمنع من النهب، فلم يستمعوا ولم ينتهوا، واستمر غالب الدكاكين مغلقة، والأسواق على حالها مقفرة معطلة، والناس غير مطمينين وقلوبهم مرجوفة مرجفة وصدورهم ضيقة، والتفت جماعة الفرنسيس إلى فتح البيوت التي للأمرا فصاروا يفتحون البيوت المغلوقة التي للأمرا، ودخلوها وأخذوا منها أشيا، وخرجوا وتركوها مفتوحة، فعندما يخرجون منها يدخلها طايفة الجعيدية، ويستأصلون ما فيها، واستمروا على ذلك عدة أيام، ثم إنهم تتبعوا بيوت الأمرا وأتباعهم وختموا على بعضها، وسكنوا بعضها، فكان الذي يخاف على داره من جماعة الوجاقلية أو من أهل البلد يعلق له بنديرة على باب داره، أو يأخذ له ورقة من الفرنسيس بخطهم لا يعرف ما فيها ويلصقها على داره.

وفيه قلدوا برطلمين النصراني الرومي، وهو الذي تسميه العامة فرط الرمان كتخدا مستحفظان، وركب بموكب من بيت صاري عسكر، وأمامه عدة من طوايف الأجناد والبطالين مشاة بين يديه، وعلى رأسه حشيشة من الحرير الملون وهو لابس فروة بزٍّ عادة، وبين يديه الخدم بالحراب المفضضة، ورتب له بيوك باشي، وقلقات عينوا لهم مراكز بأخطاط البلد يجلسون بها، وسكن المذكور ببيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين، أخذه بما فيه من فرش ومتاع وجوارٍ، وغير ذلك.

والمذكور من أسافل نصارى الأروام العسكرية القاطنين بمصر، وكان من الطبجية عند محمد بك الألفي، وله حانوت بخط الموسكي يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة.

وقلدوا أيضًا شخصًا إفرنجيًّا وجعلوه أمين البحرين، وآخر جعلوه أغات الرسالة، وجعلوا الديوان ببيت قائد أغا بالأزبكية قرب الرويعي، وسكن به رئيس الديوان، وسكن «روتوي» قايمقام مصر ببيت إبراهيم بك الوالي المطل على بركة الفيل، وسكن شيخ البلد ببيت إبراهيم بك الكبير، وسكن «مجلون» ببيت مراد بك على رصيف الخشاب، وسكن «بوسليك» مدبِّر الحدود ببيت الشيخ البكري القديم، ويجتمع عنده النصارى القبط كل يوم، وطلبوا الدفاتر من الكتبة.

ثم إن عساكرهم صارت تدخل المدينة شيًّا فشيًّا، حتى امتلأت منها الطرقات، وسكنوا في البيوت، ولكن لم يشوشوا على أحد، ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها، ففجر السوقة وصغروا أقراص الخبز وطحنوه بترابه، وفتح الناس عدة دكاكين بجوار مساكنهم يبيعون فيها أصناف المأكولات، مثل: الطير والكعك والسمك المقلي واللحوم والفراخ المحمرة وغير ذلك.

وفتح نصارى الأروام عدة دكاكين لبيع أنواع الأشربة وخمامير وقهاويَ، وفتح بعض الإفرنج البلديين بيوتًا يصنع فيها أنواع الأطعمة والأشربة على طرايقهم في بلادهم، فيشتري الأغنام والدجاج والخضارات والأسماك والعسل والسكر وجميع اللوازم، ويطبخه الطباخون، ويصنعون أنواع الأطعمة والحلاوات، ويعمل على بابه علامة لذلك يعرفونها بينهم، فإذا مرت طايفة بذلك المكان تريد الأكل دخلوا إلى ذلك المكان، وهو يشتمل على عدة مجالس دون وأعلى، وعلى كل مجلس علامته، ومقدار الدراهم التي يدفعها الداخل فيه فيدخلون إلى ما يريدون من المجالس وفي وسطه دكة من الخشب، وهي الخوان التي يوضع عليها الطعام، وحولها كراسي فيجلسون عليها، ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم، فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه، وبعد فراغ حاجتهم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم.

وفيه تشفَّع أرباب الديوان في أسرى المماليك فقبلوا شفاعتهم وأطلقوهم، فدخل الكثير منهم إلى الجامع الأزهر وهم في أسوأ حال، وعليهم الثياب الزرق المقطعة، فمكثوا به يأكلون من صدقات الفقرا المجاورين به، ويتكففون المارين، وفي ذلك عبرة للمعتبرين.

وفي يوم السبت، اجتمعوا بالديوان وطلبوا دراهم سلفة، وهي مقدار خمسماية ألف ريال من التجار المسلمين والنصارى القبط والشوام وتجار الإفرنج أيضًا، فسألوا التخفيف فلم يُجابوا، فأخذوا في تحصيلها.

وفيه نادوا: من أخذ شيًّا من نهب البيوت يحضر به إلى بيت قايمقام، وإن لم يفعل وظهر بعد ذلك حصل له مزيد الضرر، ونادوا أيضًا على نسا الأمرا بالأمان، وأنهن

يسكن بيوتهن وإن كان عندهن شي من متاع أزواجهن يظهرنه، فإن لم يكن عندهن شي من متاع أزواجهن يصالحن على أنفسهن ويأمنَّ في دورهن، فظهرت الست نفيسة زوجة مراد بك، وصالحت عن نفسها وأتباعها من نسا الأمرا والكشاف بمبلغ قدره ماية وعشرون ألف ريال فرانسة، وأخذت في تحصيل ذلك من نفسها وغيرها، ووجهوا عليها الطلب، وكذلك بقية النسا بالوسايط المتداخلين في ذلك، كنصارى الشوام والإفرنج البلديين وغيرهم، فصاروا يعملون عليهن إرهاصات وتخويفات، وكذلك مصالحات على الغز والأجناد المختفين والغايبين والفارين، فجمعوا بذلك أموالًا كثيرة، وكتبوا للغايبين أوراقًا بالأمان بعد المصالحة، ويختم على تلك الأوراق المتقيدون بالديوان.

وفي يوم الأحد طلبوا الخيول والجمال والسلاح فكان شيًّا كثيرًا، وكذلك الأبقار والأثوار فحصل فيها أيضًا مصالحات، وأشاعوا التفتيش على ذلك، وكسروا عدة دكاكين بسوق السلاح وغيره، وأخذوا ما وجدوه فيها من الأسلحة، هذا وفي كل يوم ينقلون على الجمال والحمير من الأمتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك مما لا يحصى، ويستخرجون الخبايا والودايع، ويطلبون البنايين والمهندسين والخدام الذين يعرفون بيوت أسيادهم، بل يذهبون بأنفسهم ويدلونهم على أماكن الخبايا ومواضع الدفاين ليصير لهم بذلك قربة ووجاهة ووسيلة ينالون بها أغراضهم.

وفيه قبضوا على شيخ الجعيدية ومعه آخر، وبندقوا عليهما بالرصاص ببركة الأزبكية، ثم على آخرين أيضًا بالرميلة، وأحضر النهابون أشيا كثيرة من الأمتعة التي نهبوها عندما داخلهم الخوف، ودل على بعضهم البعض.

وفي يوم الثلاثا طلبوا أهل الحرف من التجار بالأسواق وقرروا عليهم دراهم على سبيل القرض والسلفة مبلغًا يعجزون عنه، وأجَّلوا لها أجلًا مقداره ستون يومًا؛ فضجوا واستغاثوا وذهبوا إلى الجامع الأزهر والمشهد الحسيني وتشفعوا بالمشايخ، فتكلموا لهم ولطفوها إلى نصف المطلوب، ووسَّعوا لهم في أيام المهلة.

وفيه شرعوا في تكسير أبواب الدروب والبوابات النافذة، وخرج عدة من عساكرهم يخلعون ويقلعون أبواب الدروب والعطف والحارات، فاستمروا على ذلك عدة أيام، وداخل الناس من ذلك وهم وخوف شديد، وظنوا ظنونًا وحصل عندهم فساد مخيلة ووسوسة تجسمت في نفوسهم بألفاظ نطقوا بها، وتصوروا حقيقتها وتناقلوها فيما بينهم، كقولهم: إن عساكر الفرنسيس عازمون على قتل المسلمين وهم في صلاة الجمعة، ومنهم من يقول غير ذلك، وذلك بعد أن كان حصل عندهم بعض اطمينان، وفتحوا بعض الدكاكين، فلما حصلت هاتان النكتتان انكمش الناس ثانية وارتجفت قلوبهم.

وفي عشرينه حضرت مكاتيب الحجاج من العقبة، فذهب أرباب الديوان إلى باش العسكر وأعلموه بذلك، وطلبوا منه أمانًا لأمير الحاج فامتنع، وقال: لا أعطيه ذلك إلا بشرط أن يأتي في قلة، ولا يدخل معه مماليك كثيرة ولا عسكر، فقالوا له: ومن يوصل الحجاج؟ فقال لهم: أنا أرسل لهم أربعة آلاف من العسكر يوصلونهم إلى مصر، فكتبوا لأمير الحاج مكاتبة بالملاطفة، وأنه يحضر بالحجاج إلى الدار الحمرا، وبعد ذلك يحصل الخير، فلم تصل إليهم الجوابات حتى كاتبهم إبراهيم بك يطلبهم — أي الحجاج — للحضور إلى جهة بلبيس فتوجهوا على بلبيس وأقاموا هناك أيامًا، وكان إبراهيم بك ومن معه ارتحل من بلبيس إلى المنصورة، وأرسلوا الحريم إلى القرين.

وفي ثالث عشرينه خرجت طايفة من العسكر الفرنساوي إلى جهة العادلية، وصار في كل يوم تذهب طايفة بعد أخرى، ويذهبون إلى جهة الشرق.

فلما كان ليلة الأربعا خرج كبيرهم بونابرته، وكانت أوايلهم وصلت إلى الخانكة وأبي زعبل، وطلبوا كلفة من أبي زعبل، فامتنعوا فقاتلوهم وضربوهم وكسروهم، ونهبوا البلدة وأحرقوها وارتحلوا إلى بلبيس.

وأما الحجاج فإنهم نزلوا ببلبيس، واكترت حجاج الفلاحين مع العرب فأوصلوهم إلى بلادهم بالغربية والمنوفية والقليوبية وغيرها، وكذلك فعل الكثير من الحجاج، فتفرقوا في البلد بحريمهم ومنهم من أقام ببلبيس، وأما أمير الحاج صالح بك، فإنه لحق بإبراهيم بك وصحبته جماعة من التجار وغيرهم.

وفي ثامن عشرينه مَلَكَ الفرنساوية مدينة بلبيس من غير قتال وبها من بقي من الحجاج، فلم يشوشوا عليهم، وأرسلوهم إلى مصر وصحبتهم طايفة من عساكرهم ومعهم طبل، فلما كان ليلة الأحد غايته جا الرد إلى الأمرا بالمنصورة وأخبرهم بوصول الإفرنج وقربهم منهم، فركبوا نصف الليل وترفعوا إلى جهة القرين وتركوا التجار وأصحاب الأثقال.

فلما طلع النهار حضر إليهم جماعة من العربان، واتفقوا معهم على أنهم يحملونهم إلى القرين وحلفوا لهم وعاهدوهم على أنهم لا يخونونهم، فلما توسطوا بهم الطريق نقضوا عهدهم وخانوهم ونهبوا حملوهم، وتقاسموا متاعهم وعرَّوْهم من ثيابهم، وفيهم كبير التجار السيد أحمد المحروقي، وكان ما يخصه نحو ثلثماية ألف ريال فرانسة نقودًا ومتجرًا من جميع الأصناف الحجازية، وصنعت العرب معهم ما لا خير فيه.

ولحقهم عسكر الفرنساوية، فذهب السيد أحمد المحروقي إلى صاري العسكر وواجهه وصحبته جماعة من العرب المنافقين، فشكا له ما حل به وبإخوانه، فلامهم على تنقلهم وركونهم إلى المماليك والعرب.

ثم قبض على أبي خشبة شيخ بلد القرين، وقال له: عرفني عن مكان المنهوبات، فقال: أرسل معي جماعة إلى القرين، فأرسل معه جماعة دلهم على بعض الأحمال، فأخذها الإفرنج ورفعوها ثم تبعوه إلى محل آخر فأوهمهم أنه يدخل ويخرج إليهم أحمالًا كذلك، فدخل وخرج من مكان آخر، وذهب هاربًا، فرجع أوليك العسكر بجمل ونصف جمل لا غير، وقالوا: هذا الذي وجدناه والرجل فر من أيدينا، فقال صاري عسكر: لا بد من تحصيل ذلك، فطلبوا منه الإذن في التوجه إلى مصر، فأصحب معهم عدة من عسكره أوصلوهم إلى مصر، وأمامهم طبل وهم في أسوأ حال، وصحبتهم أيضًا جماعة من النسا اللاتي كن خرجن ليلة الحادثة، وهن أيضًا في أسوأ حالة تسكب عند مشاهدتهن العبَرات.

واستهل شهر ربيع الأول بيوم الاثنين سنة ١٢١٣هـ (١٣ أغسطس ١٧٩٨م)

في ثانيه وصل الفرنساوي إلى نواحي القرين، وكان إبراهيم بك ومن معه وصلوا إلى الصالحية، وأودعوا مالهم وحريمهم هناك، وضمَّنوا عليها العربان وبعض الجند، فأخبر بعض العرب الفرنساوية بمكان الحملة، فركب صاري عسكر وأخذ معه الخيَّالة، وقصد الإغارة على الحملة، وعلم إبراهيم بك بذلك أيضًا، فركب هو وصالح بك وعدة من الأمرا والمماليك وتحاربوا معهم ساعة، أشرف فيها الفرنسيس على الهزيمة لكونهم على الخيول، وإذا بالخبر وصل إلى إبراهيم بك بأن العرب مالوا على الحملة يقصدون نهبها، فعند ذلك فرَّ بمن معه على إثره، وتركوا قتال الفرنسيس، ولحقوا بالعرب وجلَوْهم عن متاعهم، وقتلوا منهم عدة وارتحلوا إلى قَطْيَا، ورجع صاري عسكر إلى مصر، وترك عدة من عساكره متفرقين في البلاد، فدخل مصر ليلًا، وذلك ليلة الخميس رابعه.

وفي يوم الجمعة خامسه الموافق لثالث عشر مسرى القبطي كان وفا النيل المبارك، فأمر صاري عسكر بالاستعداد وتزيين العقبة كالعادة، وكذلك زينوا عدة مراكب وغلايين، ونادوا على الناس بالخروج إلى النزهة في النيل والمقياس والروضة على عادتهم، وأرسل صاري عسكر أوراقًا لكتخدا الباشا والقاضي وأرباب الديوان وأصحاب المشورة والمتولين للمناصب وغيرهم بالحضور في صبحها، وركب صحبتهم بموكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره إلى قصر قنطرة السد، وكسروا الجسر بحضرتهم، وعملوا شنك مدافع ونفوطًا

حتى جرى الماء في الخليج وركب وهم صحبته حتى رجع إلى داره، وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه في المراكب على العادة سوى النصارى الشوام والقبط والأروام والإفرنج البلديين ونسايهم، وقليل من الناس البطالين حضروا في صبحها.

وفيه تواترت الأخبار بحضور عدة مراكب من الإنكليز إلى ثغر إسكندرية، وأنهم حاربوا مراكب الفرنساوية الراسية بالمينا، وكانت أشيعت هذه الأخبار قبل، وتحدث الناس بها فصعب ذلك على الفرنساوية.

واتفق أن بعض النصارى الشوام نقل عن رجل شريف يسمى السيد أحمد الزرو من أعيان التجار بوكالة الصابون أنه تحدث بذلك فأمروا بإحضاره، وذكروا له ذلك، فقال: أنا حكيت ما سمعته من فلان النصراني فأحضروه أيضًا، وأمروا بقطع لسانيهما أو يدفع كل واحد منهماماية ريال فرانسة نكالًا لهما وزجرًا عن الفضول فيما لا يعنيهما، فتشفع المشايخ فلم يقبلوا، فقال بعضهم: أطلقوهما ونحن نأتيكم بالدراهم فلم يرضوا، فأرسل الشيخ مصطفى الصاوي، وأحضر مايتي ريال ودفعها في الحضرة، فلما قبضها الوكيل ردها ثانيًا إليه، وقال: فرقها على الفقرا، فأظهر أنه فرقها كما أشار وردها إلى صاحبها، فانكفَّ الناس عن التكلم في شأن ذلك.

والواقع أن الإنكليز حضروا في إثرهم إلى الثغر وحاربوا مراكبهم، فنالوا منهم وأحرقوا القايق الكبير المسمى بنصف الدنيا، وكان به أموالهم وذخايرهم، وكان مصفحًا بالنحاس الأصفر، واستمر الإنكليز بمراكبهم بمينا الإسكندرية يغدون ويروحون يرصدون الفرنسيس، وفي ذلك اليوم سافر عدة من عساكرهم إلى بحري وإلى الشرقية.

ولما جرى الماء في الخليج منعوا دخول الماء إلى بركة الأزبكية، وسدوا قنطرة الدكة بسبب وطاقهم ومدافعهم وآلتهم التي فيها.

وفيه سأل صاري عسكر عن المولد النبوي، ولماذا لم يعملوه كعادتهم؟ فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال، فلم يقبل، وقال: لا بد من ذلك، وأعطى له ثلثماية ريال فرانسة معاونة، وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل، واجتمع الفرنساوية يوم المولد، ولعبوا ميادينهم، وضربوا طبولهم ودبادبهم، وأرسل الطبلخانة الكبيرة إلى بيت الشيخ البكري، واستمروا يضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت داره، وهي عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية، وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة، وعملوا في الليل حراقة نفوط مختلفة وسواريخ تصعد في الهواء.

وفي ذلك اليوم ألبس الشيخ خليل البكري فروة وتقلد نقابة الأشراف، ونودي في المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها إلى النقيب.

وفيه ورد الخبر بأن إبراهيم بك والأمرا المصرية استقروا بغزة.

وفي خامس عشره سافر عدة كبيرة من عسكر الفرنساوية جهة الصعيد، وكبيرهم ديزه وصحبتهم يعقوب القبطي ليعرفهم الأمور، ويطلعهم على المخبآت.

وفيه حضر القاصد الذي كان أرسله كبير الفرنساوية بمكاتبات وهدية إلى أحمد باشا الجزار بعكا، وذلك عند استقرارهم بمصر، وصحبته أنفار من النصارى الشوام في صفة تجار، ومعهم جانب أرز، ونزلوا من ثغر دمياط في سفينة من سفاين أحمد باشا، فلما وصلوا إلى عكا وعلم بهم أحمد باشا أمر بذلك الفرنساوي، فنقلوه إلى بعض النقاير، ولم يواجهه ولم يأخذ منه شيًّا، وأمره بالرجوع من حيث أتى، وعوق عنده نصارى الشوام الذين كانوا بصحبته.

وفيه حضر جماعة من عسكر الفرنساوية إلى بيت رضوان كاشف بباب الشعرية وصحبتهم ترجمان ومهندس، فانزعجت زوجته، وكانت قبل ذلك بأيام صالحت على نفسها وبيتها بألف ريال وثلثماية ريال، وأخذت منهم ورقة ألصقتها على باب دارها، وردت ما كانت وزعته من المال والمتاع عند معارفها واطمأنت، فلما حضر إليها الجماعة المذكورون قالوا لها: بلغ صاري عسكر أن عندك أسلحة وملابس للماليك، فأنكرت ذلك، فقالوا: لازم من التفتيش، فقالت: دونكم، فطلعوا من مكان وفتحوا مخبأة فوجدوا بها أربعة وعشرين شروالًا وبلكات وأمتعة وغير ذلك، ووجدوا في أسفلها مخبأة أخرى بها عدة كثيرة من الأسلحة والبنادق والطبنجات وصناديق بارود وغير ذلك، فاستخرجوا جميع ذلك، ثم نزلوا إلى تحت السلالم وفجروا الأرض، وأخرجوا منها دراهم كثيرة وحجاب ذهب في داخله دنانير، ثم أنزلوا صاحبة الدار ومعها جارية بيضاء، وأخذوهما مع الجواري السود، وذهبوا بهن، فأقمن عندهم ثلاثة أيام، ونهبوا ما وجدوه بالدار من فرش وأمتعة، ثم قرروا عليها أربعة آلاف ريال أخرى قامت بدفعها، وأطلقوها ورجعت إلى دارها.

وبسبب هذه الحادثة شددوا في طلب الأسلحة ونادوا بذلك، وأنهم بعد ثلاثة أيام يفتشون البيوت، وقال الناس: إن هذه حيلة على نهب البيوت ثم بطل ذلك، والسبب في ذلك أنه حصل بينها وبين مباشرها القبطي منافسة، فذهب وأغرى بها ودل على ذلك.

وفي عشرينه قلدوا مصطفى بك كتخدا الباشا على إمارة الحاج، فحضروا إلى المحكمة عند القاضي، ولبس هناك الخلعة بحضرة مشايخ الديوان، والتزم بونابارته بتشهيل مهمات الحج، وعمل محملًا جديدًا.

وفيه سأل أصحاب الحصص الالتزام في التصرف في حصصهم، فطلبوا منهم حلوانًا فلم يرتضوا بذلك، فواعدهم لتمام التحرير والإملا، وقالوا: كل من كان له التزام وتقسيط ناطق باسمه يحضره ويمليه، ففعلوا ذلك في عدة أيام.

وفيه قدروا فرضة من المال على القرى والبلاد، ونشروا بذلك أوراقًا وذكروا فيها أنها تحسب من المال وقيدوا بذلك الصيارف من القبط، ونزلوا في البلاد مثل الحكام يحبسون ويضربون ويشددون في الطلب.

وفيه طلب صاري عسكر بونابارته المشايخ، فلما استقروا عنده نهض بونابارته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان، كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلي، فوضع منها واحدًا على كتف الشيخ الشرقاوي، فرمى به إلى الأرض، واستعفى وتغير مزاجه وانتقع لونه واحتد طبعه، فقال الترجمان: يا مشايخ أنتم صرتم أحبابًا لصاري عسكر، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس، وصار لكم منزلة في قلوبهم، فقالوا له: لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا من المسلمين، فاغتاظ لذلك وتكلم بلسانه، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوي: إنه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك، فلاطفه بقية الجماعة واستعفوه من ذلك، فقال: إن لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار في صدوركم — وهي العلامة التي يقال لها الوردة — فقالوا: أمهلونا حتى نتروَّى في ذلك، واتفقوا على اثني عشر يومًا.

وفي ذلك الوقت حضر الشيخ السادات باستدعا فصادفهم منصرفين، فلما استقر به الجلوس بشَّ له وضاحكه صاري عسكر، ولاطفه في القول الذي يعربه الترجمان، وأهدى له خاتم ألماس، وكلفه الحضور في الغد عنده، وأحضر له جوكار وأوثقه بفراجته، فسكت وسايره، وقام وانصرف، فلما خرج من عنده رفعه.

وفي ذلك اليوم نادى جماعة القلقات على الناس بوضع العلامات المذكورة المعروفة بالوردة — وهي إشارة الطاعة والمحبة — فأنف غالب الناس من وضعها، وبعضهم رأى أن ذلك لا يخل بالدين إذ هو مكروه، وربما ترتب على عدم الامتثال الضرر فوضعها، ثم في عصر ذلك اليوم نادوا بإبطالها من العامة، وألزموا بعض الأعيان، ومن يريد الدخول عندهم لحاجة من الحاجات بوضعها، فكانوا يضعونها إذا حضروا عندهم، ويرفعونها إذا انفصلوا عنهم، وذلك أيام قليلة وحصل ما يأتي ذكره فتركت.

وفي أواخره كان انتقال الشمس لبرج الميزان، وهو الاعتدال الخريفي فشرع الفرنساوية في عمل عيدهم ببركة الأزبكية، وذلك اليوم كان ابتدا قيام الجمهور ببلادهم،

فجعلوا ذلك اليوم عيدًا وتاريخًا فنقلوا أخشابًا وحفروا حفرًا، وأقاموا بوسط بركة الأزبكية صاريًا عظيمًا بآلة وبنا، وردموا حوله ترابًا كثيرًا عاليًا بمقدار قامة، وعملوا في أعلاه قالبًا من الخشب محدد الأعلى مربع الأركان مسلة، ولبسوا باقيه على سمت القالب قماشًا ثخينًا طلوه بالحمرة الجزعة، وعملوا أسفله قاعدة نقشوا عليها تصاوير سودا في بياض، ووضعوا قبالة باب الهوا بالبركة شبه بوابة كبيرة عالية من خشب مقفص، وكسوها بالقماش المدهون مثل لون الصاري، وفي أعلى القوصرة طلا أبيض، وبه تصاوير بالأسود مصور فيه مثل حرب المماليك المصرية معهم، وهم في شبه المنهزمين، بعضهم واقع على بعض، وبعضهم ملتفت إلى خلف، وعلى موازاة ذلك من الجهة الأخرى بناحية قنطرة الدكة التي يدخل منها الماء إلى البركة مثال بوابة أخرى على غير شكلها لأجل حراقة البارود، وأقاموا أخشابًا كثيرة منتصبة مصطفة منها إلى البوابة الأخرى شبه الدايرة متسعة محيطة بمعظم فضا البركة بحيث صار عمود الصاري الكبير المنتصف المذكور في المركز، وربطوا بين تلك الأخشاب حبالًا ممتدة، وعلقوا بها صفين من القناديل، وبين ذلك تماثيل لحراقة البارود أيضًا، وأقاموا في عمل ذلك عدة أيام.

واستهل شهر ربيع الثاني بيوم الأربعا سنة ١٢١٣هـ

فيه وردت الأخبار بأن مراد بك ومن معه لما بلغهم ورود الفرنسيس عليهم رجعوا إلى جهة الفيوم، وأن عثمان بك الأشقر عدى إلى البر الشرقي، وذهب من خلف الجبل إلى أستاذه إبراهيم بك بغزة، وخرج جماعة من الفرنساوية إلى جهة الشرق، ومعهم عدة جمال وأحمال، فخرج عليهم الغُزُّ والعرب الذين يصحبونهم، فأخذوا منهم عدة جمال بأحمالها ولم يلحقوهم.

وفي ثالثه حضرت مكاتبة من إبراهيم بك خطابًا للمشايخ وغيرهم، مضمونها: أنكم تكونون مطمينين ومحافظين على أنفسكم والرعية، وأن حضرة مولانا السلطان وجه لنا عساكر، وإن شا الله تعالى عن قريب نحضر عندكم، فلما وردت تلك المكاتبة، وقد كان سأل عنها بونابارته، فأرسلوها له وقريت عليه، فقال: المماليك كذابون.

ووافق أيضًا أنه حضر أغا رومي، وكان معوقًا بالإسكندرية، فمر بالشارع وذهب لزيارة المشهد الحسيني فشاهده الناس، فاستغربوا هيئته وفرحوا برؤيته، وقالوا: هذا رسول الحي حضر من عند السلطان بجواب للفرنسيس، يأمرهم بالخروج من مصر واختلفت رواياتهم وآراهم وأخبارهم، وتجمعوا بالمشهد الحسيني وتبع بعضهم بعضًا.

وصادف ذلك أن بونابارته في ذلك الوقت بلغه مما نقل وتناقل بين الناس أنه ورد مكتوب إلى المشايخ أيضًا وأخفوه، فركب من فوره وحضر إلى بيت الشيخ السادات بالمشهد الحسيني، وكان الوقت بعد الظهر فدخل على حين غفلة، ولم يكن تقدم له مجي، وهو في كبكبة وخيول كثيرة وعساكر، فانزعج الشيخ وكان منحرف المزاج، ونزل إليه وهو لا يعرف السبب في مجيه في مثل هذا الوقت على هذه الصورة، فعندما شاهده سأله عن ذلك المكتوب، فقال: لا علم لي بذلك، ولم يكن بلغه الخبر.

ثم جلس مقدار ساعة وركب ومر بعسكره وطوافيه من باب المشهد، والناس قد كثر ازدحامهم بالجامع والخطة وهم يلغطون ويخلطون.

فلما نظروه وشاهد هو جمعيتهم داخله أمر من ذلك، فصاحوا بأجمعهم وقالوا بصوت عالٍ (الفاتحة)، فشخص إليهم، وصار يسأل من معه عن ازدحامهم، فلطفوا له القول، وقالوا له: إنهم يدعون لك، وذهب إلى داره وكانت نكتة غريبة، وساعة اتفاقية عجيبة كاد ينشا منها فتنة.

وفيه شرعوا في خلع البوابات والدروب الغير النافذة أيضًا، ونقلوا الجميع إلى بركة الأزبكية عند رصيف الخشاب والبوابة الكبيرة يقطعونها نصفين، ويرفعونها بالعتالين إلى هناك، فاجتمع من ذلك شيء كثير جدًّا وامتلا من رصيف الخشاب إلى قريب وسط البركة.

وفي يوم السبت حادي عشره كان يوم عيدهم الموعود به، فضربوا في صبيحته مدافع كثيرة، ووضعوا على كل قايم من الخشب بنديرة من بنديراتهم الملونة، وضربوا طبولهم، واجتمعت عساكرهم بالبركة الخيالة والرجالة، واصطفوا صفوفًا على طرايقهم المعروفة بينهم، ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبطة والشوام، فاجتمعوا ببيت صاري عسكر بونابارته، وجلسوا حصة من النهار.

ولبسوا في ذلك اليوم ملابس الافتخار، ولبس المعلم جرجس الجوهري كركه بطرز قصب على أكتافها إلى أكمامها وعلى صدرها شمسات قصب بأزرار، وكذلك فلتيوس، وتعمموا بالعمايم الكشميري، وركبوا البغال الفارهة وأظهروا البشر والسرور في ذلك اليوم إلى الغاية، ثم نزل عظماهم وصحبتهم المشايخ والقاضي وكتخدا الباشا، فركبوا وذهبوا عند الصاري الكبير الموضوع بوسط البركة، وقد كانوا فرشوا في أسفله بسطًا كثيرة.

ثم إن العساكر لعبوا ميدانهم، وعملوا هيئة حربهم وضربوا البنادق والمدافع، فلما انقضى ذلك اصطفت العساكر صفوفًا حول ذلك الصاري، وقرأ عليهم كبير قسوسهم

ورقة بلغتهم لا يدري معناها إلا هم، وكأنها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ، ثم قاموا وانفض الجمع، ورجع صاري عسكر إلى داره، فمد سماطًا عظيمًا للحاضرين، فلما كان عند الغروب أوقدوا جميع القناديل التي على الجبال والتماثيل والأحمال التي على البيوت، وعند العشا عملوا حراقة بارود وسواريخ ونفوط وشبه سواقي ودواليب من قار ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل، واستمرت القناديل موقدة حتى طلع النهار.

ثم فكوا الحبال والتعاليق والتماثيل المصنوعة، وبقيت البوابة المقابلة لباب الهوا والصاري الكبير وتحته جماعة ملازمون الإقامة عنده ليلًا ونهارًا من عساكرهم؛ لأنه شعارهم وإشارة إلى قيام دولتهم في زعمهم.

وفي ثاني ليلة منه ركب كبيرهم إلى بر الجيزة وسفَّر عساكر إلى الجهة التي بها مراد بك، وكذلك إلى جهة الشرقية، ومعهم مدافع على عجل، وفيه أرسل دبوي قايمقام إلى الست نفيسة، وطلب منها إحضار زوجة عثمان بك الطنبرجي، فأرسلت إلى المشايخ تستغيث بهم، فحضر إليها الشيخ محمد المهدي والشيخ موسى السرسي، وقصدوا منعها فلم يمكنهم، فذهبوا صحبتها ونظروا في قصتها.

والسبب في طلبها أنهم وجدوا رجلًا فراشًا معه جانب دُخَان وبعض ثياب، فقبضوا عليه وقرروه فأخبر أنه تابعها، وأنها أعطته ذلك ووعدته بالرجوع إليها لتسلمه شبكي دخان وفروة وخمسماية محبوب ليوصل ذلك إلى سيده، فهذا هو السبب في طلبها، فقالوا: وأين الفراش؟ فبعثوا لإحضاره، وسألوها فأنكرت ذلك بالمرة، فانتظروا حضور الفراش إلى بعد الغروب فلم يحضر، فقال لهم المشايخ: دعوها تذهب إلى بيتها، وفي غد تأتي ونحقق هذه القضية، فقال دبوي: «نو نو»، ومعناه بلغتهم النفي، أي لا تذهب، فقالوا له: دعها تذهب هي ونحن نبيت عوضًا عنها، فلم يرضَ أيضًا، وعالجوا في ذلك بقدر طاقتهم، فلما أيسوا تركوها ومضوا، فباتت عندهم في ناحية من البيت وصحبتها جماعة من النسا المسلمات والنسا الإفرنجيات.

فلما أصبح النهار ركب المشايخ إلى كتخدا الباشا والقاضي فركبا معًا وذهبا إلى بيت صاري عسكر الكبير، فأحضرها وسلمها إلى القاضي، ولم يثبت عليها شي من هذه الدعوة، وقرروا عليها ثلاثة آلاف ريال فرانسة، وذهبت إلى بيت لها مجاور لبيت القاضي، وأقامت فيه لتكون في حمايته.

وفي يوم الخميس نادوا في الأسواق بأن كل من كان عنده بغلة يذهب بها إلى بيت قايمقام ببركة الفيل ويأخذ ثمنها، وإذا لم يحضرها بنفسه تؤخذ منه قهرًا، ويدفع ثلثماية

ريال فرانسة، وإن أحضرها باختياره يأخذ في ثمنها خمسين ريالًا، قلت قيمتها أو كثرت، فغنم صاحب الخسيس، وخسر صاحب النفيس، ثم ترك ذلك.

وفيه نادوا بوقود قناديل سهاري بالطرق والأسواق، وأن يكون على كل دار قنديل وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل، وأن يلازموا الكنس والرش، وتنظيف الطرق من العفوشات والقاذورات.

وفيه نادوا على الأغراب من المغاربة وغيرهم والخدامين البطالين ليسافروا إلى بلادهم، وكل من وجد بعد ثلاثة أيام يستاهل الذي يجري عليه، وكرروا المناداة بذلك، وأجلوها بعدها أربعًا وعشرين ساعة، فذهبت جماعة من المغاربة إلى صاري عسكر، وقالوا له: أرنا طريقًا للذهاب، فإن طريق البر غير مسلوكة والإنكليز واقفون بطريق البحر، يمنعون المسافرين، ولا نقدر على المقام في الإسكندرية من الغلا وعدم الماء بها فتركهم.

وفيه جعلوا إبراهيم أغات المتفرقة المعمار قبطان السويس، وسافر معه أنفار ببيرق فرنساوي فخرج عليهم العربان في الطريق فنهبوهم وقتلوا إبراهيم أغا المذكور ومن بصحبته، ولم يسلم منهم إلا القليل، وفيه أهمل أمر الديوان الذي يحضره المشايخ ببيت قايد آغا، فاستمروا أيامًا يذهبون، فلم يأتهم أحد فتركوا الذهاب فلم يطلبوا.

وفيه شرعوا في ترتيب ديوان آخر وسموه محكمة القضايا، وكتبوا في شأن ذلك طومار وشرطوا فيه شروطًا، ورتبوا فيه ستة أنفار من النصارى القبط، وستة أنفار من تجار المسلمين، وجعلوا قاضيه الكبير ملطي القبطي الذي كان كاتبًا عند أيوب بك الدفتردار، وفوضوا إليهم القضايا في أمور التجار والعامة والمواريث والدعاوى، وجعلوا لذلك الديوان قواعد وأركانًا من البدع السيئة، وكتبوا نسخًا من ذلك كثيرة، أرسلوا منها إلى الأعيان، ولصقوا منها نسخًا في مفارق الطرق وروس العطف وأبواب المساجد، وشرطوا في ضمنه شروطًا، وفي ضمن تلك الشروط شروطًا أخرى بتعبيرات سخيفة يفهم منها المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية، ومحصلة التحيل على أخذ الأموال، كقولهم بأن أصحاب الأملاك يأتون بحججهم وتمسكاتهم الشاهدة لهم بالتمليك، فإذا أحضروها وبينوا وجه تملكهم لها إما بالبيع أو الانتقال لهم بالإرث لا يُكتفَى بذلك؛ بل يومر بالكشف عليها في السجلات، ويدفع على ذلك الكشف دراهم بقدر عينوه في ذلك الطومار، فإن وجد تمسكه مقيدًا بالسجل طلب منه بعد ذلك الثبوت، ويدفع على ذلك الإشهاد بعد ثبوته وقبوله قدرًا آخر، ويأخذ بذلك تصحيحًا ويكتب له بعد ذلك تمكين، وينظر بعد ذلك في قيمته، ويدفع على كل ماية اثنين، فإن لم يكن له حجة أو كانت ولم

تكن مقيدة بالسجل، أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد، فإنها تضبط لديوان الجمهور، وتصير من حقوقهم وهذا شي متعذر، وذلك أن الناس إنما وضعوا أيديهم على أملاكهم إما بالشرا أو بأيلولتها لهم من مورثهم، أو نحو ذلك بحجة قريبة أو بعيدة العهد، أو بحجج أسلافهم ومورثيهم، فإذا طولبوا بإثبات مضمونها تعسر أو تعذر لحادث الموت أو الأسفار، أو ربما حضرت الشهود فلم تقبل، فإن قبلت فعل به ما ذكره.

ومن جملة الشروط مقررات على المواريث والموتى ومقاديرها متنوعة في القلة والكثرة، كقولهم: إذا مات الميت يشاورون عليه، ويدفعون معلومًا لذلك، ويفتحون تركته بعد أربع وعشرين ساعة، فإذا بقيت أكثر من ذلك ضبطت للديوان أيضًا ولا حق فيها للورثة، وإن فتحت على الرسم بإذن الديوان يدفع على ذلك الإذن مقررًا، وكذلك على ثبوت الورثة، ثم عليهم بعد قبض ما يخصهم مقرر، وكذلك من يدعي دَينًا على الميت يثبته بديوان الحشريات، ويدفع على إثباته مقررًا، ويأخذ له ورقة يستلم بها دينه، فإذا استلمه دفع مقررًا أيضًا.

ومثل ذلك في الرزق والأطيان بشروط وأنواع وكيفية أخرى غير ذلك، والهبات والمبايعات والدعاوى والمنازعات والمشاجرات والإشهادات الجزئيات والكليات، والمسافر كذلك لا يسافر إلا بورقة ويدفع عليها قدرًا، وكذلك المولود إذا ولد يقال له إثبات الحياة، وكذلك المؤجرات وقبض أجر الأملاك وغير ذلك.

وفيه نادى أصحاب الدرك على العامة بترك الفضول والكلام في أمور الدولة، فإذا مر عليهم جماعة من العسكر مجروحون أو منهزمون لا يسخرون بهم، ولا يصفقون عليهم كما هي عادتهم.

وفيه نهبوا أمتعة عسكر القلينجية الذين كانوا عسكرًا عند الأمرا، فأخذوا مكانًا بوكالة علي بك بساحل بولاق وبالجمالية، وأخذوا متاعهم ومتاع شركاهم محتجين بأنهم قاتلوا مع المماليك، وهربوا معهم.

وفيه أحضروا محمد كتخدا أبا سيف الذي كان سردارًا بدمياط من طرف الأمرا المصريين، وكان سابقًا كتخدا حسن بك الجداوي، فلما حضر حبسوه في القلعة، وحبسوا معه فراشًا لإبراهيم بك.

وفيه أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم، والنزول إلى المدينة ليسكنوا بها، فنزلوا وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع وهدموا بها أبنية كثيرة، وشرعوا في بناء حيطان وكرانك وأسوار، وهدموا أبنية عالية، وأعلوا مواضع منخفضة، وبنوا على

بدنات باب العزب بالرميلة وغيروا معالمها، وأبدلوا محاسنها، ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكما والعظما، وما كان في الأبواب العظام من الأسلحة والدرق والبلط والحوادث والحرب الهندية وأكر الفداوية، وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومحاسن الملوك والسلاطين ذوات الأركان الشاهقة والأعمدة الباسقة.

وفيه عينت عساكر إلى مراد بك، وذهبوا إليه ببحر يوسف جهة الفيوم.

وفي يوم الخميس سادس عشره نودي بأن كل من تشاجر مع نصراني أو يهودي، أو تشاجر معه نصراني أو يهودي يشهد أحد الخصمين على الآخر، ويطلبه لبيت صاري عسكر.

وفيه قتلوا شخصين وطافوا بروسهما، وهم ينادون عليهما، ويقولون: هذا جزاء من يأتي بمكاتيب من عند المماليك، أو يذهب إليهم بمكاتيب.

وفيه نبَّهوا الناس بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن كتربة الأزبكية والرويعي، ولا يدفنون الموتى إلا في القرافات البعيدة، والذي ليس له تربة بالقرافة يدفن ميته في ترب المماليك، وإذا دفنوا يبالغون في تسفيل الحفر، ونادوا أيضًا بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة عدة أيام، وتبخير البيوت بالبخورات المذهبة للعفونة، كل ذلك للخوف من حصول الطاعون وعدواه، ويقولون: إن العفونة تنحبس بأغوار الأرض، فإذا دخل الشتا وبردت الأغوار بسريان النيل والأمطار والرطوبات، خرج ما كان منحبسًا بالأرض من الأبخرة الفاسدة، فتعفن الهوا فيحصل الوبا والطاعون.

ومن قولهم أيضًا: إن مرض مريض فلا بد من الإخبار عنه، فيرسلون من جهتهم حكيمًا للكشف عليه إن كان مرضه بالطاعون أو بغيره، ثم يرون رأيهم فيه.

وفي يوم السبت ثامن عشره ذهبت جماعة من القوَّاسة الذين يخدمون الفرنساوية، وشرعوا في هدم التراكيب المبنية على المقابر بتربة الأزبكية وتمهيدها بالأرض، فشاع الخبر بذلك، وتسامع أصحاب الترب بتلك البقعة، فخرجوا من كل حدب ينسلون، وأكثرهم النسا الساكنات بحارة المدابغ وباب اللوق وكوم الشيخ سلامة والفوالة والمناصرة وقنطرة الأمير حسين وقلعة الكلاب، إلى أن صاروا كالجراد المنتشر، ولهم صياح وضجيج، واجتمعوا بالأزبكية، ووقفوا تحت بيت صاري عسكر، فنزل لهم المترجمون، واعتذروا بأن صاري عسكر لا علم له بذلك الهدم، ولم يأمر به وإنما أمر بمنع الدفن فقط، فرجعوا إلى أماكنهم، ورفع الهدم عنهم.

وفيه كتبوا من المشايخ كتابًا ليرسلوه إلى السلطان، وآخر إلى شريف مكة، ثم إنهم بصموا منه عدة نسخ، ولصقوها بالطرق والمفارق وصورته ملخصًا:

بعد الصدور وذكر ورودهم وقتالهم مع المماليك وهروبهم، وأن جماعة من العلما ذهبت إليه بالبر الغربي فأمنوهم، وكذلك الرعية دون المماليك، وذكروا فيه أنهم من أخصا السلطان العثماني وأعدا أعدايه، وأن السكة والخطبة باسمه، وشعاير الإسلام مقامة على ما هي عليه وباقية بمعنى الكلام السابق من قولهم إنهم مسلمون، وإنهم محترمون القرآن والنبي، وإنهم أوصلوا الحجاج المتشتتين وأكرموهم، وأركبوا الماشي، وأطعموا الجيعان، وسقوا العطشان، واعتنوا بيوم الزينة يوم جبر البحر، وعملوا له شنكًا ورونقًا استجلاب السرور للمومنين، وأنفقوا أموالًا برسم الصدقة على الفقرا، وكذلك اعتنوا بالمولد النبوي، وأنفقوا أموالًا في شأن انتظامه، واتفق رأينا ورأيهم على لبس حضرة الجناب المحترم مصطفى أغا كتخدا بكر باشا والي مصر حالًا، فاستحسنا ذلك لبقاء عُلقَة الدولة العلية، وهم أيضًا مجتهدون في إتمام مهمات الحرمين، وأمرونا أن نعلمكم بذلك والسلام.

وفيه وقعت حادثة جزئية من جملة الجزئيات، وهي أن رجلًا صيرفيًّا بجوار حارة الجوانية وقع من لفظه أنه قال: السيد أحمد البدوي بالشرق، والسيد إبراهيم الدسوقي بالغرب يقتلان كل من يمر عليهما من النصارى، وكان هذا الكلام بمحضر من النصارى الشوام، فجاوبه بعضهم وأسمعه قبيح القول، ووقع بينهما التشاجر، فقام النصراني وذهب إلى دبوي، وأخبره بالقصة فأرسل وقبض على ذلك الصيرفي وحبسه وسمر حانوته، وختم على داره، وتشفع فيه المشايخ عدة مرار، فأطلقوه بعد يومين وأرسلوه إلى بيت الشيخ البكري ليؤدب هناك بالضرب، أو يدفع خمسماية ريال فرانسة، فضرب ماية سوط وأطلق إلى سبيله، وكذلك أفرجوا عن بقية المسجونين.

وفي يوم الاثنين طاف أصحاب الدرك على الأخطاط والوكايل، فكتبوا أسماها وأسما البوابين، وأمروهم أن لا يسكنوا أحدًا من الأغراب، ولا يطلقوا أحدًا يسافر بلا إذن من أغات مستحفظان.

وفي يوم الثلاثا عمل المولد الحسيني، وكان من العزم تركه في هذا العام، فدس بعض المنافقين دسيسة عند الفرنسيس، وذلك أنه وقعت المذاكرة بأن من المعتاد أن يعمل المولد الحسيني بعد المولد النبي، فقال بونابارته: ولمَ لَمْ يعملوه؟ فقال ذلك المنافق: غرض الشيخ السادات عدم عمله إلا إذا حضر المسلمون، فبلغ شيخ السادات ذلك، فشرع في عمله على سبيل الاختصار، وحضر صاري عسكر وشاهد الوقدة ورجع داره بعد العشا.

وفيه حضر علما الإسكندرية وأعيانها، وكذلك رشيد ودمياط وبقية البنادر باستدعا صاري عسكر ليحضروا الديوان الشارعين فيه لترتيب النظام الذي سبقت الإشارة إليه.

وفيه سافر أيضًا جماعة من الفرنسيس إلى جهة مراد بك ومن معه، التقوا معهم وتراموا ساعة، ثم انهزموا عنهم، وفي أنفسهم، فتتبعوهم إلى أسفل جبل اللاهون، ثم خرجوا عليهم على مثل حالهم رجالًا، وتراموا معهم، وأكمنوا لهم وثبتوا معهم، وظهر عليهم المصريون، وقتل من الفرنساوية مقتلة كبيرة.

وفيه سقطت البوابة المصنوعة ببركة الأزبكية المقابلة لباب الهوا التي كانوا وضعوها في يوم عيدهم، وقد تقدم شرحها ووصفها، وسبب سقوطها أنهم لما منعوا الما من دخوله للبركة، وسدوا القنطرة كما تقدم، علا الماء في أرض البركة، وتخلخلت الأرض فسقطت تلك البوابة.

وفي يوم الجمعة رابع عشرينه نبَّهوا على المشايخ والأعيان والتجار ومن حضر من الأقطار بالحضور إلى الديوان العام ومحكمة النظام بكرة تاريخه، وذلك ببيت مرزوق بك بحارة عابدين، فلما أصبح يوم السبت أعادوا التنبيه بحضورهم بالديوان القديم ببيت قايد أغا بالأزبكية، فتوجه المشايخ المصرية والذين حضروا من الثغور والبلاد، وحضر الوجاقات وأعيان التجار ونصارى القبط والشوام، ومدبرو الديوان من الفرنسيس وغيرهم جمعًا موفورًا.

فلما استقر بهم الجلوس شرع ملطي القبطي الذي عملوه قاضي في قراة فرمان الشروط، وفي المناقشة فابتدر كبير المدبرين في إخراج طومار آخر، وناوله للترجمان فنشره وقراه، وملخصه ومضمونه:

الإخبار بأن قطر مصر هو المركز الوحيد، وأنه أخصب البلاد، وكان يجلب إليه المتاجر من البلاد البعيدة، وأن العلوم والصنايع والقراءة والكتابة التي يعرفها الناس في الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الأول، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم في تملكه، فملكه أهل بابل، وملكه اليونان والعرب والترك الآن، إلا أن دولة الترك شددت في خرابه؛ لأنها إذا حصلت الثمرة قطعت عروقها، فلذلك لم يبقوا بأيدي الناس إلا القدر اليسير، وصار الناس لأجل ذلك مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم.

ثم إن طايفة الفرنساوية بعدما تمهد أمرهم، وبعد صيتهم بقيامهم بأمور الحروب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هي فيه، وإراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلًا وغباوة فقدموا وحصل لهم النصرة، ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد من الناس، ولم يعاملوا الناس بقسوة، وإن غرضهم تنظيم أمور مصر، وإجراء خلجانها التي دثرت، ويصير لها طريقان: طريق إلى البحر الأسود، وطريق إلى البحر الأحمر، فيزداد خصبها

وريعها، ومنع القوي من ظلم الضعيف وغير ذلك، استجلابًا لخواطر أهلها، وإبقا للذكر الحسن.

فالمناسب من أهلها ترك الشغب وإخلاص المودة، وإن هذه الطوايف المحضرة من الأقاليم يترتب على حضورها أمور جليلة؛ لأنهم أهل خبرة وعقل، فيسألون عن أمور ضرورية ويجيبون عنها، فينتج لصاري عسكر من ذلك ما يليق صنعه إلى آخر ما سطروه من الكلام.

قلت: ولم يعجبني في هذا التركيب إلا قوله المفعمة جهلًا وغباوة بعد قوله اشتاقت أنفسهم، ومنها قوله بعد ذلك، ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد إلى آخر العبارة.

ثم قال الترجمان: نريد منكم يا مشايخ أن تختاروا شخصًا منكم يكون كبيرًا وريسًا عليكم ممتثلين أمره وإشارته، فقال بعض الحاضرين: الشيخ الشرقاوي، فقال: نو نو، وإنما ذلك يكون بالقرعة، فعملوا قرعة بأوراق، فطلع الأكثر على الشيخ الشرقاوي.

فقال: حينئذ يكون الشيخ عبد الله الشرقاوي هو الريس، فما تم هذا الأمر حتى زالت الشمس، فأذنوا لهم في الذهاب، وألزموهم بالحضور في كل يوم.

وفيه وقعت كاينة الحاج محمد بن قيمو المغربي التاجر الطرابلسي، وهو أنه كان بينه وبين بعض نصارى الشوام المترجمين منافسة، فأنهوا إلى عظما الفرنسيس أنه ذو مال، وأنه شريك عبد الله المغربي تابع مراد بك، فأرسلوا بطلبه، فذهب إلى بيت الشيخ عبد الله الشرقاوي لنسابة بينهما، فقال الشيخ للقواسة المرسلين بعد سؤالهم عن سبب طلبهم له، فقالوا: لدعوة ليست شرعية، فقال لهم: في غد أحضروا خصمه، ويتداعى معه، فإن توجه الحق عليه ألزمناه بدفعه، فرجعت الرسل، وتغيب الرجل لخوفه.

فبعد مضي مقدار نحو ساعة حضر نحو الخمسين عسكري من الفرنسيس إلى بيت الشيخ وطالبوه به، فأخبرهم أنه هرب، فلم يقبلوا عذره، وألحوا في طلبه، ووقفوا ببنادقهم وأرهبوا، فركب المهدي والدواخلي إلى صاري عسكر وأخبروه بالقضية وبهروب الرجل، فقال: ولأي شي يهرب؟ فقالوا: من خوفه، فقال: لولا أن جرمه كبير لما هرب، وأنتم غيبتموه وأظهر الحنق والغيظ، فلاطفاه واستعطفا خاطر الترجمان، فكلمه وسكن غيظه، ثم سأل عن منزله ومخزنه، فأخبراه عنهما، فقال: يذهب معكما من يختم عليهما حتى يظهر في غد، فاطمأنوا لذلك، ورجعوا عند الغروب، وختموا على مخزنه ومنزله، فلما أصبح النهار فلم يظهر الرجل فأخذوا ما وجدوه فيهما من البضايع والأمانات.

وفي يوم الأحد ذهبوا إلى الديوان وعملوا مثل عملهم الأول حتى تمموا أسما المنتخبين بديوان مصر من الثغور والمشايخ والوجاقلية والقبط والشوام وتجار المسلمين، وذلك الترتيب غير ترتيب الديوان السابق.

وفي يوم الاثنين اجتمعوا بالديوان ونادى المنادي في ذلك اليوم بالأسواق على الناس بإحضارهم حجج أملاكهم إلى الديوان، والمهلة ثلاثون يومًا، فإن تأخر عن الثلاثين يضاعف المقرر، ومهلة البلاد ستون يومًا.

ولما تكامل الجميع شرع ملطي في قراءة المنشور، وتعداد ما به من الشروط مسطور، وذكر من ذلك أشيا، منها:

أمر المحاكم والقضايا الشرعية وحجج العقارات، وأمر المواريث وتناقشوا في ذلك حصة من الزمن وكتبوا هذه الأربعة أشيا: أرباب ديوان الخاصة يدبرون رأيهم في ذلك، وينظرون المناسب والأحسن، وما فيه الراحة لهم وللرعية، ثم يعرضون ما دبروه يوم الخميس وما بين ذلك له مهلة، وانفض المجلس.

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الخميس الموعود سنة ١٢١٣هـ

واجتمعوا بالديوان ومعهم ما لخصوه واستأصلوه في الجملة، فأما أمر المحاكم والقضايا فالأولى إبقاؤها على ترتيبها ونظامها، وعرفوهم عن كيفية ذلك، ومثل ذلك ما عليه أمر محاكم البلاد، فاستحسنوا ذلك إلا أنهم قالوا: يحتاج إلى ضبط المحاصيل وتقريرها على أمر لا يتعداه القضاة ولا نوابهم، فقرروا ذلك.

وهو أنه إذا كان عشرة آلاف فما دونها يكون على كل ألف ثلاثون نصفًا، وإذا كان المبلغ ماية تكون على الألف خمسة عشر، فإن زاد على ذلك فعشرة، واتفقوا على تقرير القضاة ونوابهم على ذلك.

وأما حجج العقارات فإنه أمر شاق طويل الذيل، فالمناسب فيه والأولى أن يجعلوا عليها دراهم من بادي الرأي ليسهل تحصيلها، ويحسن عليها السكوت، ويكون المحصول أعلى وأدنى وأوسط، وبينوا القدر المناسب بتفصيل الأماكن، وكتبوه وأبقوه حتى يرى الآخرون رأيهم فيه، وانفض الديوان.

وفي ذلك اليوم نودي في الأسواق بنشر الثياب والأمتعة خمسة عشر يومًا، وقيدوا على مشايخ الأخطاط والحارات والقلقات بالفحص والتفتيش، فعينوا لكل حارة امرأة ورجلين يدخلون البيوت للكشف على ذلك، فتصعد المرأة إلى أعلى الدار وتخبرهم عن صحة نشرهم

الثياب، ثم يذهبون بعد التأكد على أهل المنزل والتحذير من ترك الفعل، وكل ذلك لذهاب العفونة الموجبة للطاعون، وكتبوا بذلك أوراقًا لصقوهم بحيطان الأسواق على عادتهم في ذلك.

وفيه حضر إلى بيت البكري جم غفير من أولاد الكتاتيب والفقها والعميان والمؤذنين، وأرباب الوظايف والمستحقين من المزمني والمرضى بالمارستان المنصوري، وأوقاف عبد الرحمن كتخدا، وشكوا من قطع رواتبهم وخبزهم؛ لأن الأوقاف تعطل إيرادها، واستولى على نظارتها النصارى القبط والشوام، وجعلوا ذلك مغنمًا لهم، فواعدهم على حضورهم الديوان، وينهوا شكواهم ويتشفع لهم فذهبوا راجعين.

وفيه قدمت مراكب من جهة الصعيد، وفيها عدة من العسكر مجروحون.

وفيه وضعوا على التلال المحيطة بمصر بيارق بيضا، فأكثر الناس من اللغط، ولم يعلموا سبب ذلك.

وفي يوم الأحد اجتمعوا بالديوان، وأخذوا فيما هم فيه، فذكروا أمر المواريث، فقال ملطي: يا مشايخ أخبرونا عما تصنعونه في قسمة المواريث؟ فأخبروه بفروض المواريث الشرعية، فقال: ومن أين لكم ذلك؟ فقالوا: من القرآن، وتلوا عليهم بعض آيات المواريث، فقال الإفرنج: نحن عندنا لا نورث الولد، ونورث البنت، ونفعل كذا وكذا بحسب تحسين عقولهم؛ لأن الولد أقدر على التكسب من البنت.

فقال ميخايل كحيل الشامي، وهو من أهل الديوان أيضًا: نحن والقبط يقسم لنا مواريثنا المسلمون، ثم التمسوا من المشايخ أن يكتبوا لهم كيفية القسمة ودليلها، فسايروهم ووعدوهم بذلك وانفضوا.

وفي ذلك اليوم عزلوا محمد أغا المسلماني أغات مستحفظان، وجعلوه كتخدا أمير الحاج، واستقروا بمصطفى أغا تابع عبد الرحمن أغا مستحفظان سابقًا عوضًا عنه، ونودي بذلك.

وفي يوم الاثنين عملوا لهم ديوانًا وكتبوا لهم كيفية قسمة المواريث، وفروض القسمة الشرعية وحصص الورثة والآيات المتعلقة بذلك، فاستحسنوا ذلك.

وفي يوم السبت عاشر جمادى الأولى عملوا الديوان، وأحضروا قايمة مقررات الأملاك والعقار، فجعلوا على الأعلى ثمانية فرانسة، والأوسط ستة، والأدنى ثلاثة، وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معافى، وأما الوكايل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت، فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع، وكتبوا

بذلك مناشير على عادتهم، وألصقوها بالمفارق والطرق، وأرسلوا منها نسخًا للأعيان، وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى.

وشرعوا في الضبط والإحصا وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوايم وضبط أسما أربابها، ولما أشيع ذلك في الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك، والبعض استسلم للقضا، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك، ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم ينظر في عواقب الأمور، ولم يتفكر أنه في القبضة مأسور، فتجمع الكثير من الغوغاء من غير ريس يسوسهم، ولا قايد يقودهم، وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح.

وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية، وزعر الحارات البرانية، ولهم صياح عظيم وهو جسيم ويقولون بصياح في الكلام: نصر الله دين الإسلام، فذهبوا إلى بيت قاضي العسكر، وتجمعوا وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر، فخاف القاضي العاقبة، وأغلق أبوابه وأوقف حجابه، فرجموه بالحجارة والطوب وطلب الهرب، فلم يمكنه الهروب، وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر.

وفي ذلك الوقت حضر دبوي بطايفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشارع الغورية، وعطف على خط الصنادقية، وذهب إلى بيت القاضي فوجد ذلك الزحام، فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة، وتلك الأخطاط بالخلايق مزحومة، فبادروا إليه وضربوه، وأثخنوا جراحاته، وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه، فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون، ومن كل حدب ينسلون، ومسكوا الأطراف الدايرة بمعظم أخطاط القاهرة، كباب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين، وما حاذاها، ولم يتعدوا جهة سواها وهدموا مساطب الحوانيت، وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة، لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس.

وأما الجهات البرانية والنواحي الفوقانية فلم يفزع منهم فازع، ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع، وكذلك شذ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاق، وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر.

ولم تزل طايفة المحاربين في الأزقة متترسين، فوصل جماعة من الفرنساوية وظهروا من ناحية المناخلية، وبندقوا على متراس الشوايين، وبه جماعة من مغاربة الفحامين، فقاتلوهم حتى أجلوهم وعن المناخلية أزالوهم.

وعند ذلك زاد الحال وكثر الرجف والزلزال، وخرجت العامة عن الحد، وبالغوا في القضية بالعكس والطرد، وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب، فهجموا على حارة الجوانية، ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام، وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام، وأخذوا الودايع والأمانات، وسبوا النسا والبنات، وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات وأكثروا من المعايب، ولم يفكروا في العواقب وباتوا تلك الليلة سهرانين، وعلى هذا الحال مستمرين.

وأما الإفرنج فإنهم أصبحوا مستعدين وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين، وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابر والبنبات، ووقفوا مستحضرين، ولأمر كبيرهم منتظرين، وكان كبير الفرنسيس أرسل إلى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها، ومل من المطاولة.

هذا والرمي متتابع من الجهتين، وتضاعف الحال ضعفين، حتى مضى وقت العصر وزاد القهر والحصر، فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات، على البيوت والحارات، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وجردوا عليه المدافع والقنبر، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحامين فلما سقط عليهم ذلك ورأوه، ولم يكونوا في عمرهم عاينوه نادوا يا سلام من هذه الآلام، يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف، وهربوا من كل سوق، ودخلوا في الشقوق، وتتابع الرمي من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الأركان، وهدمت في مرورها حيطان الدور، وسقطت في بعض القصور، ونزلت في البيوت والوكايل، وأصمت الآذان بصوتها الهايل.

فلما عظم هذا الخطب وزاد الحال والكرب، ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليدفع عنهم هذا النازل، ويمنع عسكره من الرمي المتراسل، ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال، والحرب خدعة وسجال، فلما ذهبوا إليه واجتمعوا عليه عاتبهم في التأخير، واتهمهم في التقصير، فاعتذروا إليه فقبل عذرهم، وأمر برفع الرمي عنهم، وقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان في المسالك.

وتسامع الناس بذلك، فردت فيهم الحرارة، وتسابقوا لبعضهم بالبشارة، واطمأنت منهم القلوب وكان الوقت قبل الغروب، وانقضى النهار وأقبل الليل، وغلب على الظن أن القضية لها ذيل، وأما الحسينية والعطوف البرانية فإنهم لم يزالوا مستمرين، وعلى الرمي والقتال ملازمين، ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود، والإفرنج أثخنوهم بالرمي المتتابع بالقنابر والمدافع إلى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات، وفرغت من عندهم الأدوات، فعجزوا عن ذلك وانصرفوا، وكف عنهم القوم وانحرفوا.

وبعد هجعة من الليل دخل الإفرنج المدينة كالسيل، ومروا في الأزقة والشوارع لا يجدون لهم ممانع، كأنهم الشياطين أو جند إبليس، وهدموا ما وجدوه من المتاريس، ودخل طايفة من باب البرقية، ومشوا إلى الغورية، وكروا ورجعوا، وترددوا وما هجعوا، وعلموا باليقين أن لا دافع لهم ولا كمين، وتراسلوا أرسالًا ركبانًا ورجالًا، ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزاين الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودايع والمخبآت بالدواليب والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف على الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيه وتغوطوا، وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه، ومن ثيابه أخرجوه.

وأصبح يوم الثلاثا فاصطف منهم حزب بباب الجامع، فكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعًا ويسارع، وتفرقت طوايفهم بتلك النواحي أفواجًا، واتخذوا السعي والطواف بها منهاجًا، وأحاطوا بها إحاطة السوار ونهبوا بعض الديار بحجة التفتيش على النهب، وآلة السلاح والضرب، وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون، وللنجاة بأنفسهم طالبون، وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع، ويرغب الناس في سكناها، ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الضياع، والفرنساوية لا يمرون بها إلا في النادر، ويحترمونها عن غيرها في الباطن والظاهر.

فانقلب بهذه الحركة منها الموضوع، وانخفض على غير القياس المرفوع، ثم ترددوا في الأسواق ووقفوا صفوفًا مئينًا وألوفًا، فإن مَرَّ بهم أحد فتشوه وأخذوا ما معه وربما قتلوه، ورفعوا القتلى والمطروحين من الإفرنج والمسلمين، ووقف جماعة من الفرنسيس ونظفوا مراكز المتاريس، وأزالوا ما بها من الأتربة والأحجار المتراكمة، ووضعوها في ناحية لتصير طريق المرور خالية.

وتحزبت نصارى الشوام وجماعة أيضًا من الأروام الذين انتُهبت دورهم بالحارة الجوانية ليشكوا لكبير الفرنسيس ما لحقهم من الرزية، واغتنموا الفرصة في المسلمين، وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين، وضربوا فيهم المضارب، وكأنهم شاركوا الإفرنج في النوايب، وما قصدهم المسلمون ونهبوا ما لديهم إلا لكونهم منسوبين إليهم، مع أن المسلمين الذين جاوروهم نهبهم الزعر أيضًا وسلبوهم، وكذلك خان الملايات المعلوم الذي عند باب حارة الروم، وفيه بضايع المسلمين وودايع الغايبين، فسكت المصاب على غصته، واستعوض الله في قضيته؛ لأنه إن تكلم لا تسمع دعواه، ولا يلتفت إلى شكواه.

وانتدب برطلمين للعسس، على من حمل السلاح أو اختلس، وبث أعوانه في الجهات يتجسسون في الطرقات فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم، وما ينهيه النصارى من أبغاضهم، فيحكم فيهم بمراده ويعمل برأيه واجتهاده، ويأخذ منهم الكثير، ويركب في موكبه ويسير، وهم موثوقون بين يديه بالحبال، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال، فيودعونهم السجونات، ويطالبونهم بالمنهوبات، ويقررونهم بالعقاب والضرب، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب، ويدل بعضهم على بعض، فيضعون على المدلول عليهم القبض.

وكذلك فعل مثل ما فعله اللعين الأغا، وتجبر في أفعاله وطغى، وكثير من الناس ذبحوهم وفي بحر النيل قذفوهم، ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصي عددها إلا الله، وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم، ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم.

وأصبح يوم الأربع، فركب فيه المشايخ أجمع، وذهبوا لبيت صاري عسكر وقابلوه وخاطبوه في العفو ولاطفوه والتمسوا منه أمانًا كافيًا، وعفوًا ينادون به باللغتين شافيًا؛ لتطمين بذلك قلوب الرعية ويسكن روعهم من هذه الرزية، فوعدهم وعدًا مشوبًا بالتسويف، وطالبهم بالتبيين والتعريف عمن تسبب من المتعممين في إثارة العوام، وحرضهم على الخلاف والقيام، فغالطوه عن تلك المقاصد، فقال على لسان الترجمان: نحن نعرفهم بالواحد، فترجوا عنده في إخراج العسكر من الجامع الأزهر، فأجابهم لذلك السؤال، وأمر بإخراجهم في الحال، وأبقوا منهم السبعين أسكنوهم في الخطة كالضابطين ليكونوا للأمور كالراصدين وبالأحكام متقيدين.

ثم إنهم فحصوا على المتهمين بإثارة الفتنة فطلبوا الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طايفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوي، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي، والشيخ يوسف المصيلحي، والشيخ إسماعيل البراوي وحبسوهم ببيت البكري، وأما السيد بدر المقدسي فإنه تغيب وسافر إلى جهة الشام وفحصوا عليه فلم يجدوه، وتردد المشايخ لتخليص الجماعة المعوقين فغولطوا، واتهم أيضًا إبراهيم أفندي كاتب البهار بأنه جمع له جمعًا من الشطار، وأعطاهم الأسلحة والمساوق، وكان عنده عدة من المماليك المخفيين، والرجال المعزولين، فقبضوا عليه وحبسوه ببيت الأغا.

وفي يوم الأحد ثامن عشره توجه شيخ السادات وباقي المشايخ إلى بيت صاري عسكر الفرنسيس، وتشفعوا عنده في الجماعة المسجونين ببيت الأغا وقايمقام والقلعة فقيل لهم: وسعوا بالكم ولا تستعجلوا، فقاموا وانصرفوا.

وفيه نادوا في الأسواق بالأمان، ولا أحد يشوش على أحد مع استمرار القبض على الناس وكبس البيوت بأدنى شبهة، ورد بعضهم الأمتعة التي نهبت للنصارى.

وفيه توسط القلقجي لمغاربة الفحامين، وجمع منهم ومن غيرهم عدة وافرة، وعرضهم على صاري عسكر، فاختار منهم الشباب وأولي القوة، وأعطاهم سلاحًا وآلات حرب ورتبهم عسكرًا، وريسهم عمر المذكور، وخرجوا وأمامهم الطبل الشامي على عادة عسكر المغاربة، سافروا إلى جهة بحري بسبب أن بعض البلاد قام على عسكر الفرنساوية وقت الفتنة وقاتلوهم، وضربوا أيضًا مركبين بها عدة من عساكرهم، فحاربوهم وقاتلوهم.

فلما ذهب أوليك المغاربة سكنوا الفتنة وضربوا عشمًا، وقتلوا كبيرها المسمى بابن شعير ونهبوا داره ومتاعه وماله وبهايمه، وكان شيًّا كثيرًا جدًّا، وأحضروا إخوته وأولاده وقتلوهم، ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير جعلوه شيخًا عوضًا عن أبيهم.

وسكن العسكر المغربي بدار عند باب سعادة، ورتبوا له من الفرنسيس جماعة يأتون إليهم في كل يوم، ويدربونهم على كيفية حربهم وقانونهم، ومعنى إشارتهم في مصافاتهم، فيقف المعلم والمتعلمون مقابلون له صفًّا وبأيديهم بنادقهم، ويشير إليهم بألفاظ بلغتهم كأن يقول مردبوش فيرفعونها قابضين بأكفهم على أسافلها، ثم يقول مرش فيمشون صفوفًا إلى غير ذلك.

وفيه سافر برطلمين إلى ناحية سرياقوس، ومعه جملة من العسكر بسبب الناس الفارين إلى جهة الشرق، وأخذ فِرَد من البلاد، وعسف في تحصيلها ورجع بعد أيام.

وفي يوم الأربعا خاطب الشيخ محمد المهدي صاري عسكر في أمر إبراهيم أفندي كاتب البهار، وتلطف به بمعونة بوسليك المعروف بمدبر الحدود، وهو عبارة عن الروزنامجي، ونقله من بيت الأغا إلى داره، فطلبوا منه قايمة كشف عما يتعلق بالمماليك بدفتر البهار.

وفي يوم الخميس سافر عدة من المراكب نحو الأربعين بها عسكر الفرنسيس إلى جهة بحري.

وفي ليلة السبت رابع عشرينه حضر هجان من ناحية الشام وعلى يده مكاتبات، وهي صورة فرمان وعليه طرة ومكتوب من أحمد باشا الجزار وآخر من بكر باشا إلى كتخدايه مصطفى بك، ومكتوب من إبراهيم بك خطابًا للمشايخ، وذلك كله بالعربي، ومضمون ذلك بعد براعة الاستهلال والآيات القرآنية والأحاديث والآثار المتعلقة بالجهاد، ولعن طايفة الإفرنج والحط عليهم وذكر عقيدتهم الفاسدة وكذبهم وتحيلهم، كذلك بقية المكاتبات بمعنى ذلك فأخذها مصطفى بك كتخدا، وذهب بها إلى صاري عسكر.

فلما اطلع عليها قال: هذا تزوير من إبراهيم بك ليوقع بيننا وبينكم العداوة والمشاحنة، وأما أحمد باشا فهو رجل فضولي لم يكن واليًا بالشام ولا مصر؛ لأن والي الشام إبراهيم باشا، وأما والي مصر فهو عبد الله باشا بن العظم الذي هو الآن والي الشام، فأنا أعلم بذلك وسيأتي بعد أيام والي ويقيم معه كما كانت المماليك مع الولاة.

وورد خبر أيضًا بانفصال محمد باشا عزت عن الصدارة، وعزل كذلك أنفارٍ من رجال الدولة، وفي مدة هذه الأيام بطل الاجتماع بالديوان المعتاد، وأخذوا في الاهتمام في تحصين النواحي والجهات، وبنوا أبنية على التلول المحيطة بالبلد، ووضعوا بها عدة مدافع وقنابر، وهدموا أماكن بالجيزة وحصنوها تحصينًا زايدًا، وكذلك مصر العتيقة ونواحي شبرا، وهدموا عدة مساجد منها المساجد المجاورة لقنطرة إنبابة ومسجد المقس المعروف الآن بأولاد عنان على الخليج الناصري بباب البحر، وقطعوا نخيلًا كثيرة وأشجارًا لعمل الحصون والمتاريس، وهدموا جامع الكازروني بالروضة، وأشجار الجيزة التي عند أبي هريرة قطعوها، وحفروا هناك خنادق كثيرة وغير ذلك، وقطعوا نخيل جهة الحلي وبولاق، وخربوا دورًا كثيرة وكسروا شبابيكها وأبوابها، وأخذوا أخشابها لاحتياج العمل والوقود وغير ذلك.

وفي ليلة الأحد حضر جماعة من عسكر الفرنسيس إلى بيت البكري نصف الليل وطلبوا المشايخ المحبوسين عند صاري عسكر ليتحدث معهم، فلما صاروا خارج الدار وجدوا عدة كثيرة في انتظارهم فقبضوا عليهم وذهبوا بهم إلى بيت قايمقام بدرب الجماميز، وهو الذي كان به دبوي قايمقام المقتول وسكنه بعده الذي تولى مكانه، فلما وصلوا بهم هناك عروهم من ثيابهم، وصعدوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح فأخرجوهم وقتلوهم بالبنادق وألقوهم من السور خلف القلعة، وتغيب حالهم عن أكثر الناس أيامًا.

وفي ذلك اليوم ركب بعض المشايخ إلى مصطفى بك كتخدا الباشا، وكلموه في أن يذهب معهم إلى صاري عسكر، ويشفع معهم في الجماعة المذكورين ظنًّا منهم أنهم على قيد الحياة، فركب معهم إليه وكلموه في ذلك، فقال لهم الترجمان: اصبروا ما هذا وقته، وتركهم وقام ليذهب في بعض أشغاله، فنهض الجماعة أيضًا، وركبوا إلى دورهم.

وفي يوم الثلاثا حضر عدة من عسكر الفرنسيس، ووقفوا بحارة الأزهر فتخيل الناس منهم المكروه، ووقعت فيهم كرشة وأغلقوا الدكاكين، وتسابقوا إلى الهروب وذهبوا إلى البيوت والمساجد، واختلفت آراهم، ورأوا في ذلك أقضية بحسب تخمينهم وظنهم وفساد مخيلهم، فذهب بعض المشايخ إلى صاري عسكر وأخبروه بذلك، وتخوف الناس،

فأرسل إليهم وأمرهم بالذهاب، فذهبوا وتراجع الناس وفتحوا الدكاكين، ومر الأغا والوالي وبرطلمين ينادون بالأمان وسكن الحال، وقيل إن بعض كبرايهم حضر عند القلق الساكن بالمشهد، وجلس عنده حصة، وهولا كانوا أتباعه ووقفوا ينتظرونه، ولعل ذلك قصدًا للتخويف والإرهاب خشية من قيام فتنة لما أشيع قتل المشايخ المذكورين وهو الأرجح.

وفيه كتبوا أوراقًا وألصقوها بالأسواق تتضمن العفو والتحذير من إثارة الفتنة، وأن من قتل من المسلمين في نظير من قتل من الفرنسيس.

وفيه شرعوا في إحصا الأملاك والمطالبة بالمقرر، فلم يعارض في ذلك معارض ولم يتفوه بكلمة، والذي لم يرضَ بالتوت يرضى بحطبه.

وفيه أيضًا قلعوا أبواب الدروب والحارات الصغيرة غير النافذة، وهي التي كانت تركت وسومح أصحابها، وبرطلوا عليها وصالحوا عليها قبل الحادثة، وبرطلوا القلقات والوسايط على إبقايها، كذلك دروب الحسينية.

فلما انقضت هذه الحادثة ارتجعوا عليها وقلعوها ونقلوها إلى ما جمعوه من البوابات بالأزبكية، ثم كسروا جميعها وفصلوا أخشابها، ورفعوا بعضها على العربات إلى حيث أعمالهم بالنواحي والجهات، وباعوا بعضها حطبًا للوقود وكذلك ما بها من الحديد وغيره.

وفي ليلة الخميس هجم المنسر على بوابة سوق طولون كسروها وعبروا منها إلى السوق، فكسروا القناديل وفتحوا ثلاثة حوانيت، وأخذوا ما بها من متاع المغاربة التجار، وقتلوا القلق الذي هناك، وخرجوا بدون مدافع ولا منازع.

وفي يوم الخميس المذكور ذهب المشايخ إلى صاري عسكر وتشفعوا في ابن الجوسقي شيخ العميان الذي قتل أبوه، وكان معوقًا ببيت البكري، فشفعهم فيه وأطلقوه.

واستهل شهر جمادى ثانية بيوم السبت سنة ١٢١٣هـ

فيه كتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ، وأرسلوها إلى البلاد وألصقوا منها نسخًا بالأسواق والشوارع.

وصورتها: «نصيحة من كافة علما الإسلام بمصر المحروسة: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونبرأ إلى الله من الساعين في الأرض بالفساد، نعرف أهل مصر المحروسة من طرف الجعيدية وأشرار الناس الذين حركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنساوية، بعدما كانوا أصحابنا وأحبابنا بالسوية، وترتب على ذلك قتل جملة

من المسلمين ونهبت بعض البيوت، ولكن حصلت ألطاف الله الخفية، وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابرته.

وارتفعت هذه البلية؛ لأنه رجل كامل العقل، عنده رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة إلى الفقرا والمساكين، ولولاه لكانت العسكر أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال، وقتلوا كامل أهل مصر.

فعليكم ألا تحركوا الفتن، ولا تطيعوا أمر المفسدين، ولا تسمعوا كلام المنافقين، ولا تتبعوا الأشرار، ولا تكونوا من الخاسرين سُفها العقول الذين لا يقرون العواقب؛ لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمينوا على عيالكم وأديانكم، فإن الله — سبحانه وتعالى — يوتي ملكه من يشا، ويحكم بما يريد، ونخبركم أن كل من تسبب في تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم، وأراح الله منهم العباد والبلاد، ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم، وادفعوا الخراج الذي عليكم — والدين النصيحة — والسلام.»

وفيه أمروا بقية السكان على بركة الأزبكية وما حولها بالنقلة من البيوت ليُسكِنوا بها جماعتهم المتباعدين منهم ليكون الكل في حومة واحدة، وذلك لما دخلهم من المسلمين، حتى إن الشخص منهم صار لا يمشي بدون سلاح بعد أن كانوا من حين دخلوهم البلد لا يمشون به أصلًا إلا لغرض، والذي لم يكن معه سلاح يأخذ في يده عصا أو سوطًا أو نحو ذلك، وتنافرت قلوبهم من المسلمين وتحذروا منهم، وانكف المسلمون عن الخروج والمرور بالأسواق من الغروب إلى طلوع النهار.

ومن جملة من انتقل من الدرب الأحمر إلى الأزبكية كفرلي المسمى بأبي خشبة، وهو يمشي بها بدون معين، ويصعد الدرج ويهبط منها أسرع من الصحيح، ويركب الفرس ويرمحه وهو على هذه الحالة، ولهم به عناية عظيمة واهتمام زايد، كان يسكن ببيت مصطفى كاشف طرا.

وفي وقت الحادثة هجمت على الدار العامة ونهبوها، وقتلوا منها بعض الفرنساوية وفرَّ الباقون، فأخبروا من بالقلعة الكبيرة، فنزل منهم عدة وافرة، وقف بعضهم خارج الدار بعد أن طردوا المزدحمين ببابها، وضربوهم بالبندق، ودخل الباقون فقتلوا من وجدوه بها من المسلمين، وكانوا جملة كثيرة.

وكان بتلك الدار شيٌّ كثير من آلات الصنايع والنظارات الغريبة والآلات الفلكية والهندسية والعلوم الرياضية وغير ذلك، مما هو معدوم النظير، كل آلة لا قيمة لها إلا

عند من يعرف صنعتها ومنفعتها، فبدد ذلك كله العامة وكسروه قطعًا، وصعب ذلك على الفرنسيس جدًّا، وقاموا مدة طويلة يفحصون عن تلك الآلات، ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجعالات، وممن قتل في وقعة هذه الدار الشيخ محمد الزهار.

وفي خامسه أفرجوا عن إبراهيم أفندي كاتب البهار، وتوجه إلى بيته.

وفي ثامنه قتلوا أربعة من القبط منهم اثنان من النجارين، قيل إنهم سكروا في الخمارة ومروا في سكرهم، وفتحوا بعض الدكاكين وسرقوا منها أشيا، وقد تكرر منهم ذلك عدة مرار فاغتاظ لذلك القبطة.

وفيه كتبوا عدة أوراق وأرسلوا منها نسخًا للبلاد، وألصقوا منها بالأخطاط والأسواق، وذلك على لسان المشايخ أيضًا، ولكن تزيد صورتها عن الأولى، وصورتها:

نصيحة من علماء الإسلام بمصر المحروسة، نخبركم يا أهل المداين والأمصار من المؤمنين ويا سكان الريف من العربان والفلاحين — أن إبراهيم بك ومراد بك وبقية دولة المماليك أرسلوا عدة مكاتبات ومخاطبات إلى سائر الأقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة بين المخلوقات، وادَّعوا أنها من حضرة مولانا السلطان، ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان.

وبسبب ذلك حصل لهم شدة الغم والكرب الزايد، واغتاظوا غيظًا شديدًا من علما مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم، ويتركوا عيالهم وأوطانهم، فأرادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنساوية، لأجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية، وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزايد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية، ولو كانوا في هذه الأوراق صادقين بأنها من حضرة سلطان السلاطين لأرسلها جهارًا مع أغوات معينين.

ونخبركم أن الطايفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوايف الإفرنجية دايمًا يحبون المسلمين وملتهم، ويبغضون المشركين، وطبيعتهم أحباب لمولانا السلطان قايمين بنصرته وأصدقا له ملازمون لمودته وعشرته ومعونته، يحبون من والاه، ويبغضون من عاداه.

ولذلك بين الفرنساوية والموسكوف غاية العداوة الشديدة من أجل عداوة المسكوف القبيحة الردية.

والطايفة الفرنساوية يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلادهم إن شاء الله تعالى، ولا يبقون منهم بقية، فننصحكم أيتها الأقاليم المصرية أنكم لا

تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعارضوا العساكر الفرنساوية بشي من أنواع الأذية، فيحصل لكم الضرر والهلاك، ولا تسمعوا كلام المفسدين، ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين، وإنما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين لتكونوا بأوطانكم سالمين، وعلى أموالكم وعيالكم آمنين مطمينين؛ لأن حضرة صاري عسكر الكبير أمير الجيوش بونابارته اتفق معنا على أنه لا ينازع أحدًا في دين الإسلام، ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الأحكام، ويرفع عن الرعية ساير المظالم، ويقتصر على أخذ الخراج، ويزيل ما أحدثه الظلمة من المغارم، فلا تعلقوا آمالكم بإبراهيم ومراد، وارجعوا إلى مولاكم مالك الملك وخالق العباد، فقد قال نبيه ورسوله الأكرم: الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الأمم، عليه أفضل الصلاة والسلام.

وفي ثالث عشره قتلوا شخصين عند باب زويلة أحدهما يهودي، لم يتحقق السبب في قتلهما.

وفيه أخرجوا من بيت نسيب إبراهيم كتخدا صناديق ضمنها مصاغ وجواهر وأواني ذهب وفضة وأمتعة وملابس كثيرة.

وفي خامس عشره حضر جماعة من الفرنساوية بباب زويلة، وفتحوا بعض دكاكين السكرية، وأخذوا منها سكرًا وضاع على أصحابه.

وفيه دلوا على إنسان عنده صندوقان وديعة لأيوب بك الدفتردار، فطلبوه وأمروه بإحضارهما، فأحضرهما بعد الإنكار والجحد عدة مرار، فوجدوا ضمنهما أسلحة وجواهر وسبح لؤلؤ وخناجر مجوهرة، وغير ذلك.

وفي عشرينه كتبوا عدة أوراق مطبوعة، وألصقوها بالأسواق، مضمونها:

أن في يوم الجمعة حادي عشرينه قصدنا أن نطير مركبًا ببركة الأزبكية في الهواء بحيلة فرنساوية، فكثر لغط الناس في هذا كعادتهم، فلما كان ذلك اليوم قبل العصر تجمع الناس والكثير من الإفرنج ليروا تلك العجيبة، وكنت بجملتهم، فرأيت قماشًا على هيئة الأوية على عمود قايم، وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على مثل دايرة الغربال، وفي وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الأدهان، وتلك المسرجة مصلوبة بسلوك من حديد منها إلى الدايرة، وهي مشدودة ببكر وأحبال، وأطراف الأحبال بأيدي أناس قايمين بأسطحة البيوت القريبة منها، فلما كان بعد العصر بنحو ساعة أوقدوا تلك الفتيلة، فصعد دخانها

إلى ذلك القماش وملأه فانتفخ وصار مثل الكرة، وطلب الدخن الصعود إلى مركزه، فلم يجد منفذًا فجذبها معه إلى العلو، فجذبوها بتلك الأحبال مساعدة لها حتى ارتفعت عن الأرض، فقطعوا تلك الحبال، فصعدت إلى الجو مع الهوا ومشت هنيهة لطيفة، ثم سقطت طارتها بالفتيلة، وسقط أيضًا ذلك القماش وتناثر منها أوراق كثيرة من نسخ الأوراق المبصومة.

فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها، ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة، ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات، بل ظهر أنها مثل الطيارة التي يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح.

وفي تلك الليلة طاف منهم أنفار بالأسواق، ومعهم مقاطف بها لحوم مسمومة، فأطعموها للكلاب فمات منها جملة كثيرة، فلما طلع النهار وجد الناس الكلاب مرمية وطرحى بالأسواق، وهي موتى، فاستأجروا لها من أخرجها إلى الكيمان، وسبب ذلك أنهم لما كانوا يمرون بالأسواق في الليل وهم سكوت كانت الكلاب تنبحهم، وتعدو خلفهم، ففعلوا بها ذلك وارتاحوا هم والناس منها.

وفي خامس عشرينه سافر عدة عساكر إلى جهة مراد بك، وكذلك إلى جهة كرداسة بسبب العربان، وكذلك إلى السويس والصالحية، وأخذوا جمال السقايين بروايها وحميرهم، ولكن يعطونهم أجرتهم فشح الماء وغلا، وبلغت القربة عشرة أنصاف فضة.

وفيه ظفروا بعدة ودايع وخبايا بأماكن متعددة بها صناديق وأمتعة وأسلحة وأواني صيني وأواني نحاس قناطير وغير ذلك، وانقضى هذا الشهر، وما حصل به من الحوادث الكلية والجزئية التي لا يمكن ضبطها لكثرتها.

منها أنهم أحدثوا بغيط النوبي المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة منزهة، يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة في أوقات مخصوصة، وجعلوا على كل من يدخل إليه قدرًا مخصوصًا يدفعه أو يكون مأذونًا وبيده ورقة.

ومنها أنهم هدموا وبنوا بالمقياس والروضة، وهدموا أماكن بالجيزة، ومهدوا التل المجاور لقنطرة الليمون، وجعلوا في أعلاه طاحونًا تدور في الهوا عجيبة، وتطحن الأرادب من البر، وهي بأربعة أحجار، وطاحونًا أخرى بالروضة تجاه مساطب النشاب، وهدموا الجامع المجاور لقنطرة الدكة.

وشرعوا في ردم جهات حوالي بركة الأزبكية، وهدموا الأماكن المقابلة لبيت صاري عسكر حتى جعلوها رحبة متسعة، وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الأخرى والجنائن

التي خلف ذلك، وقطعوا أشجارها وردموا مكانها بالأتربة الممهدة على خط معتدل من الجهتين مبتدأ من حد بيت صاري عسكر إلى قنطرة المغربي.

وجددوا القنطرة المذكورة، وكانت آلت إلى السقوط، وفعلوا بعدها كذلك الوضع والنسق بحيث صار جسرًا عظيمًا ممتدًّا ممهدًا مستويًا على خط مستقيم من الأزبكية إلى بولاق، وينقسم بقرب بولاق قسمين: قسم إلى طريق أبي العلا، وقسم يذهب إلى جهة التبانة وساحل النيل، وبطريقه الطريق المسلوكة الواصلة من طريق أبي العلاء وجامع الخطيري إلى ناحية المدابغ، وحفروا في جانبي ذلك الجسر من مبداه إلى منتهاه خندقين، وغرسوا بجانبه أشجارًا وسيسبانًا.

وأحدثوا طريقًا أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوي عند المكان المعروف بالشيخ شعيب، حيث معمل الفواخير، وردموا جسرًا ممتدًّا ممهدًا مستطيلًا يبتدئ من الحد المذكور، وينتهي إلى جهة المذبح خارج الحسينية، وأزالوا ما يتخلل بين ذلك من الأبنية والغيطان والأشجار والتلول.

وقطعوا جانبًا كبيرًا من التل الكبير المجاور لقنطرة الحاجب، وردموا في طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلي، وقطعوا أشجار بستان كاتب البهار المقابل لجسر بركة الرطلي، وأشجار الجسر أيضًا، والأبنية التي بين باب الحديد والرحبة التي بظاهر جامع المقس، وساروا على المنخفض بحيث صارت طريقًا ممتدة من الأزبكية إلى جهة قبة النصر المعروفة بقبة العزب جهة العادلية على خط مستقيم من الجهتين.

وقيدوا بذلك أنفارًا منهم يتعاهدون تلك الطرق، ويصلحون ما يخرج منها عن قالب الاعتدال بكثرة الدوس وحوافز الخيول والبغال والحمير.

وفعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم في أقرب زمن، ولم يسخروا أحدًا في العمل، بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة، ويصرفونهم من بعد الظهيرة، ويستعينون في الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة الأخذ السهلة التناول المساعدة في العمل، وقلة الكلفة، كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من خلف يملؤها الفاعل ترابًا أو طينًا أو أحجارًا من مقدمها بسهولة، بحيث تسع مقدار خمسة غلقان، ثم يقبض بيديه على خشبتها المذكورتين، ويدفعها أمامه فتجري على عجلتها بأدنى مساعدة إلى محل العمل، فيميلها بإحدى يديه، ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة، وكذلك لهم فوس وقزم محكمة الصنعة متقنة الوضع، وغالب الصناع من جنسهم، ولا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية على الزوايا القايمة، والخطوط المستقيمة.

وجعلوا جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية قلعة، ومنارته برجًا، ووضعوا على أسواره مدافع، وأسكنوا به جماعة من العسكر، وبنوا في داخله عدة مساكن تسكنها العسكر المقيمة به، وكان هذا الجامع معطل الشعاير من مدة طويلة، وباع نظاره منه أنقاضًا وعمدًا كثيرة.

ومنها أنهم أحدثوا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية أبنية وكرانك وأبراجًا، وضعوا فيها عدة من آلات الحرب والعساكر المرابطين فيه، وهدموا عدة دور من دور الأمرا، وأخذوا أنقاضها ورخامها لأبنيتهم، وأفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية، حيث الدرب الجديد، وما به من البيوت مثل بيت قاسم بك، وأمير الحاج المعروف بأبي يوسف، وبيت حسن كاشف جركس القديم والجديد الذي أنشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالًا عظيمة من مظالم العباد، وعند تمام بياضه وفرضه حدثت هذه الحادثة، ففر مع الفارين وتركه.

فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة، ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين، ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها، فيحضرها الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر.

وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم، ويتلقونه بالبشاشة والضحك، وإظهار السرور بمجيئه إليهم، وخصوصًا إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعًا للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكورات البلاد، والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات، وتواريخ القدما وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم، وحوادث أممهم مما يحير الأفكار.

ولقد ذهبت إليهم مرارًا، وأطلعوني على ذلك، فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي ﷺ ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم، وهو قايم على قدميه ناظر إلى السماء كالمرهب للخليقة، وبيده اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب، وحوله الصحابة (رضي الله عنهم) بأيديهم السيوف، وفي صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين، وفي الأخرى صورة المعراج والبراق، وهو ﷺ راكب عليه من صخرة

بيت المقدس، وصورة بيت المقدس والحرم المكي والمدني، وكذلك صورة الأئمة المجتهدين، وبقية الخلفاء والسلاطين، ومثال إسلامبول وما بها من المساجد العظام كآيا صوفية، وجامع السلطان سليمان، وهيئة صلاة الجمعة فيه، وأبي أيوب الأنصاري وهيئة صلاة الجنازة فيه.

وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام وبرابي الصعيد، والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها، وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنبات والأعشاب وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الأثقال.

وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم، ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضي عياض، ويعبرون عنه بقولهم: شفا شريف، والبردة للبوصيري، ويحفظون جملة من أبياتها وترجموها بلغتهم، ورأيت بعضهم يحفظ سورًا من القرآن.

ولهم تطلع زايد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات واجتهاد كبير في معرفة اللغة والمنطق، ويدأبون في ذلك الليل والنهار.

وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها، بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أي لغة كانت إلى لغتهم في أقرب وقت.

وعند توت الفلكي وتلامذته في مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن المصنوعة من الصفر المموه، وهي تركب ببراريم مصنوعة محكمة، كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة، بحيث إذا ركبت صارت آلة كبيرة أخذت قدرًا من الفراغ، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئي، وإذا انحل تركيبها وضعت في ظرف صغير.

وكذلك نظارات للنظر في الكواكب وأرصادها، ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها، وأنواع المنكابات والساعات التي تسير بثواني الدقايق الغريبة الشكل الغالية الثمن، وغير ذلك.

وأفردوا لجماعة منها بيت إبراهيم كتخدا السناري، وهم المصورون لكل شي، ومنهم أريجو المصور، وهو يصور صور الآدميين تصويرًا يظن من يراه أنه بارز في الفراغ مجسم يكاد ينطق، حتى إنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته في دايرة، وكذلك غيرهم من الأعيان، وعلقوا ذلك في بعض مجالس ساري عسكر.

وآخر في مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات، وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها، ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذي لا يوجد ببلادهم فيضعون

جسمه بذاته في ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ولا يبلى، ولو بقي زمنًا طويلًا.

وكذلك أفردوا أماكن للمهندسين وصناع الدقايق، وسكن الحكيم (رويبا) ببيت ذي الفقار كتخدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه في ناحية، وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح، وقدورًا عظيمة وبرامات، وجعل له مكانًا أسفل وأعلى وبهما رفوف عليها القدور المملوة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة وبها كذلك عدة من الأطباء والجرايحية.

وأفردوا مكانًا في بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوي، وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع، وآلات تصاعيد الأرواح، وتقاطير المياه، وخلاصات المفردات وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات، واستخراج المياه الجلاءة والحلالة، وحول المكان الداخل قوارير وأوانٍ من الزجاج البلوري المختلفة الأشكال والهيئات على الرفوف والسدلات، وبداخلها أنواع المستخرجات.

ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقدمين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيًّا في كأس، ثم صب عليها شيًّا من زجاجة أخرى فَعَلَا المآن وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكاس، وصار حجرًا أصفر فقلبه على البرجات حجرًا يابسًا أخذناه بأيدينا ونظرناه، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرًا أزرق، وبأخرى فجمد حجرًا أحمر ياقوتيًّا، وأخذ مرة شيًّا قليلًا جدًّا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف، فخرج له صوت هايل كصوت القربانة انزعجنا منه، فضحكوا منها، وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص، وأدخل معها أخرى على غير هيئتها، وأنزلهما في الماء وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء في إحداهما، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء وقرب الآخر الشعلة إليها في الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس، وفرقع بصوت هايل أيضًا.

وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبايع، ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة، فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شي كثيف، ويظهر له صوت طقطقة، وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطًا لطيفًا متصلًا بها ولمس آخر الزجاجة الدايرة، أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه، وارتعد

جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة، ومن لمس هذا اللامس أو شيًّا من ثيابه أو شيًّا متصلًا به حصل له ذلك، ولو كانوا ألفًا أو أكثر، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتايج لا يسعها عقول أمثالنا.

وأفردوا أيضًا مكانًا للنجارين وصناع الآلات والأخشاب وطواحين الهوا والعربات واللوازم لهم في أشغالهم وهندساتهم وأرباب صنايعهم.

ومكان آخر للحدادين وبنوا فيه كوانين عظامًا وعليها منافيخ كبار يخرج الهواء متصلًا كثيرًا بحيث يجذبه النافخ من أعلى بحركة لطيفة، وصنعوا السندانات والمطارق العظام لصناعات الآلات من الحديد والمخارط، وركبوا مخارط عظيمة لخرط القلوزات الحديد العظيمة.

ولهم فلكات مثقلة يديرها الرجال للمعلم الخراط للحديد بالأقلام المتينة الجافية، وعليها حق صغير معلق مثقوب، وفيه ماء يقطر على محل الخرط لتبريد النارية الحادثة من الاصطكاك، وبأعلى هذه الأمكنة صناع الأمور الدقيقة مثل: البركارات وآلات الساعات والآلات الهندسية المتقنة، وغير ذلك.

شهر رجب سنة ١٢١٣

استهل بيوم الأحد في ثالثه قتلوا شخصًا من الأجناد يقال له مصطفى كاشف من جماعة حسين بك المعروف بشفت وكان قد فر مع الفارين، ثم رجع من غير استيذان، وأقام أيامًا مستترًا ببيت الشيخ سليمان الفيومي، فسلمه لمصطفى أغا مستحفظان ليأخذ له أمانًا، فأخبر الفرنسيس بشأنه وأغراهم عليه، فأمروه بقتله، فقطع رأسه، وطافوا بها ينادون عليها بقولهم: «هذا جزا من يدخل إلى مصر بغير إذن الفرنسيس.»

وفي يوم الخميس حضر كبير الفرنسيس الذي بناحية قليوب وصحبته سليمان الشواربي شيخ الناحية وكبيرها، فلما حضر حبسوه بالقلعة، قيل إنهم عثروا له على مكتوب أرسله وقت الفتنة السابقة إلى سرياقوس لينهض أهل تلك النواحي في القيام، ويأمرهم بالحضور وقت أن يرى الغلبة على الفرنسيس، ولما حبسوه حبسوا معه أربعة من الأجناد أيضًا.

وفيه أحدثوا مزمارًا يضربونه في كل وقت الزوال؛ لأن ذلك الوقت عندهم ابتداء اليوم.

وفي يوم الأربعا عاشره نادوا في الأسواق بأن من أراد أن يشتري فرسًا أو حمارًا فليحضر يوم الجمعة ثالث عشره ببولاق ويشتري من الفرنساوية ما أحب ذلك، وكتبوا بذلك أوراقًا وألصقوها بالأسواق والأزقة وهي مطبوعة وعليها الصورة، ونصها:

فليكن معلومًا عند كافة الرعايا المصرية أن في يوم الجمعة ثلاثة عشر من شهر رجب الساعة اثنين يباع في بولاق جملة خيل من المشيخة الفرنساوية، فلأجل هذا المشتري كل من أراد أن يقتني خيلًا، فمنحنا له الإجازة أنه يقتني كما يريد ويشاء، انتهى.

وفي يوم الاثنين سادس عشره سافر ساري عسكر بونابرته إلى السويس.

وأخذ صحبته السيد أحمد المحروقي وإبراهيم أفندي كاتب البهار، وأخذ معه أيضًا بعض المديرين والمهندسين والمصورين وجرجس الجوهري، وألطون أبو طاقية وغيرهم وعدة كثيرة من عساكر الخيالة والمشاة، وبعض مدافع وعربات وتختروان وعدة جمال لحمل الذخيرة والماء والقومانية.

وفيه شرعوا في ترتيب الديوان على تنظيم آخر وعينوا له ستين نفرًا، منهم أربعة عشر يقال لهم خصوص، وهم الذين يحضرون دايمًا، ويقال لهم الديوان الخصوصي والديوان الديمومي، والباقي بحسب الاقتضا، والأربعة عشر هم: من المشايخ: الشرقاوي والمهدي والصاوي والبكري والفيومي، ومن التجار: المحروقي وأحمد محرم، ومن النصارى القبطة: لطف الله المصري، ومن الشوام: يوسف فرحات ومخاييل كحيل ورواحة الإنكليزي وبودني وموسى كافرلي الفرنساوي، ومعهم وكلا ومباشرون من الفرنسيس ومترجمون.

وأما العمومي فأكثرهم مشايخ حرف، وكتبوا بذلك طومار كبيرًا بصموا منه نسخًا كثيرة، وأرسلوا منها نسخًا كثيرة للأعيان، وألصقوا منها بالأسواق على العادة، وأرسلوا الذين عينوا بالديوان أوراقًا بأسمايهم شبه التقارير وصورة صدر ذلك الطومار المكتتب في شأن ذلك، وقد أوردت ذلك وإن كان فيه بعض طول للاطلاع على ما فيه من التمويهات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات التي تنادي على بطلانها بديهة العقل فضلًا عن النظر، وهي مقولة على لسان بونابارته كبير الفرنسيس ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من أمير الجيوش الفرنساوي خطابًا إلى كافة أهالي مصر الخاص والعام، نعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول الخالين من المعرفة وإدراك العواقب سابقًا أوقعوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصر، فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة، والباري — سبحانه وتعالى — أمرني بالشفقة والرحمة على العباد فامتثلت أمره وصرت رحيمًا بكم شفوقًا عليكم، ولكن كان حصل عندي غيظ وغم شديد بحسب تحريك هذه الفتنة بينكم، ولأجل ذلك أبطلت الديوان الذي كنت رتبته لنظام البلد وصلاح أحوالكم من مدة شهرين، والآن توجه خاطرنا إلى ترتيب الديوان كما كان؛ لأن حسن أحوالكم ومعاملتكم في المدة المذكورة أنسانا ذنوب الأشرار وأهل الفتنة التي وقعت سابقًا، أيها العلما والأشراف أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره، فلا يجد ملجأً ولا مخلصًا ينجيه مني في هذا العالم، ولا ينجو من بين يَدَي الله لمعارضته لمقادير الله — سبحانه وتعالى — والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله — تعالى — وإرادته وقضايه، ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة، وأعلموا أيضًا أمتكم أن الله قدَّر في الأزل هلاك أعدا الإسلام وتكسير الصلبان على يدي، وقدر في الأزل أني أجي من المغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها، وإجراء الأمر الذي أمرت به، ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضاه، وأعلموا أيضًا أمتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل، وأشار في آيات أخرى إلى أمور تقع في المستقبل، وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يتخلف، إذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات في آذانكم فلترجع أمتكم جميعًا إلى صفاء النية وإخلاص الطوية فإن منهم من يمتنع عن الغي وإظهار عداوتي خوفًا من سلاحي وشدة سطوتي، ولم يعلموا أن الله مطلع على السراير يعلم خاينة الأعين وما تخفي الصدور، والذي يفعل ذلك يكون معارضًا لأحكام الله ومنافقًا، وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب.

واعلموا أيضًا أني أقدر على إظهار ما في نفس كل أحد منكم؛ لأنني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه، وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده، ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة أن كل ما فعلت وحكمت

به فهو حكم إلهي لا يرد، وأن اجتهاد الإنسان غاية جهده وما يمنعه عن قضا الله الذي قدره وأجراه على يدي، فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم مع صفا النية وإخلاص السريرة والسلام.

ورتبوا لأرباب الديوان الديمومي شهرية تدفع إليهم نظير تقيدهم بمصالح العامة والدعاوى، وما يترتب عليه النظام بينهم وبين المسلمين.

وفي ثامن عشره طافوا على الطواحين واختاروا من كل طاحون فرسًا أخذوها.

وفي رابع عشرينه حضر السيد المحروقي وكاتب البهار من السويس، وكان ساري عسكر ذهب إلى ناحية بلبيس فاستأذنوه في ذهابهم إلى مصر فأذن لهم، وأرسل معهم خمسين عسكريًّا ليوصلوهم إلى مصر، فلما حضروا حكوا أن أهل السويس لما بلغهم مجي الفرنساوية هربوا وأخلوا البلدة فذهبوا إلى الطور وذهب البعض إلى العرب بالبادية، فنهب الفرنسيس ما وجدوه بالبندر من البن والمتاجر والأمتعة وغير ذلك، وهدموا الدور وكسروا الأخشاب وخوابي الماء، فلما حضر كبيرهم وكان متأخرًا عنهم، كلَّمه التجار الذاهبون معه وأعلموه أن هذا الفعل غير صالح، فاسترد من العسكر بعض الذي أخذوه ووعدهم باسترجاع الباقي أو دفع ثمنه بمصر، وأن يكتبوا قايمة بالمنهوبات.

ثم إنه وجد مركبين حضرا إلى قريب من السويس بهما بن ومتاجر فغرقت إحداهما، فنزلت طايفة من الفرنسيس في مراكب صغار، وذهبوا إليها في الغاطس وأخرجوها بآلات ركبوها واصطنعوها من علم جر الأثقال.

وفي مدة إقامته بالسويس صار يركب ويتأمل في النواحي وجهات ساحل البحر والبر ليلًا ونهارًا، وكان معه من الأدم في هذه السفرة ثلاثة طيور دجاج محمرة ملفوفة في ورق وليس معه طباخ ولا فراش ولا فرش ولا خيمة، وكل شخص من عسكره معه رغيف كبير مرشوق في طرف حربته يتزود منه، ويشرب من سقاء لطيف من صفيح معلق في عنقه.

وفي يوم السبت حضر عدة من العسكر الفرنساوية من ناحية بلبيس، ومعهم عدة من العربان نحو الثلاثين نفرًا موثقون بالحبال وأسروا أيضًا عدة من أولادهم ذكورًا وإناثًا، ودخلوا بهم إلى مصر يزفونهم بالطبول أمامهم ومعهم أيضًا ثلاثة حمول من حمول التجار، وبعض جمال مما كان نهب منهم عند رجوعهم من الحج.

وفي ليلة الاثنين غايته حضر ساري عسكر من ناحية بلبيس إلى مصر ليلًا، وأحضر معه عدة عربان وعبد الرحمن أباظة أخو سليمان أباظة شيخ العبايدة وخلافه رهاين، وضربوا أبو زعبل والمنير وأخذوا مواشيهم، وحضروا بهم إلى القاهرة وخلفهم أصحابهم رجالًا ونساءً وصغارًا.

وفي ذلك اليوم قتلوا شيخ العرب سليمان الشواربي شيخ قليوب ومعه أيضًا ثلاثة رجال يقال لهم عرب الشرقية، فأنزلوهم من القلعة إلى الرميلة على يد الأغا وقطعوا روسهم، وحملوا جثة الشواربي مع رأسه في تابوت، وأخذه أتباعه في بلدة قليوب ليدفن هناك عند أسلافه، وانقضى هذا الشهر وحوادثه الجزئية والكلية.

منها أن في ليلة السابع والعشرين منه أتت جماعة إلى دار الشيخ محمد بن الجوهري الكاين بالأزبكية بالقرب من باب الهوا، فخلعوا الشباك المطل على البركة، ودخلوا منه وصعدوا إلى أعلى الدار وكان بها ثلاثة من النسا الخدامات وابنة خدامة أيضًا وبواب الدار، ولم يكن رب الدار بها ولا الحريم بل كانوا قد انتقلوا إلى دار أخرى لما سكن معظم العسكر بالأزبكية، فاستيقظ النسا وصرخن فضربوهن وقتلوا منهن امرأة واختفت البنت في جهة، وعاثوا في الدار وأخذوا متاعًا ومصاغًا ونزلوا واستيقظ البواب فاختفى خوفًا منهم، فلما طلع النهار وشاع الخبر وكان ساري عسكر غايبًا فلم يقع كلام في شأن ذلك، فلما قدم من سفره ركب مشايخ الديوان وأخبروه، فاغتم لذلك وأظهر الغيظ وذم فاعل ذلك لما فيه من العار الذي يلحقه، واهتم في الفحص عمن فعل ذلك وقتله.

ومنها كثرة تعدي القلقات وتشديدهم على وقود القناديل بالأزقة وهم من أهل البلد، وإذا مروا بالليل ووجدوا قنديلًا أطفاه الهوا أو فرغ زيته سمروا الحانوت أو الدار التي هو عليها، ولا يقلعون المسمار حتى يصالحهم صاحبها على ما أحبوه من الدراهم، وربما تعمدوا كسر القناديل لأجل ذلك، واتفق أن المطر أطفأ عدة قناديل بسوق أمير الجيوش بسبب كونها في ظروف من الورق والجريد، فابتل الورق وسال الماء فأطفا القناديل فسمروا حوانيت السوق وأصبح أهلها صالحوا عليها، ووقع مثل ذلك في طرق عديدة، فجمعوا في ذلك اليوم جملة من الدراهم وأمثال ذلك حتى في الأزقة والعطف غير النافذة حتى كأن الناس ليس لهم شغل إلا القناديل وتفقد حالها وخصوصًا في ليل الشتا الطويل.

شهر شعبان المعظم سنة ١٢١٣

استهل بيوم الثلاثا، فيه قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس وبندقوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة قيل إنهم من المتسلقين على الدور، وفيه أخبر السفار بأن مراد بك ومن معه ترفعوا إلى قبلي ووصلوا إلى عقبة الهوا، وكلما قرب منهم عسكر الفرنساوية انتقلوا، وقبلوا ولقد داخلهم من الفرنساوية خوف شديد، ولم يقع بينهم ملاقاة ولا قتال.

وفيه قدمت رِباعة تحمل البن الذي حضر من السويس بالمركب الداو بصحبة جماعة من الفرنساوية لخفارتها من قطاع الطريق.

وفي يوم الأحد سادسه نادى القبطان الفرنساوي الساكن بالمشهد الحسيني على أهل تلك الخطة وما جاورها بفتح الحوانيت والأسواق لأجل مولد الحسين، وشدد في ذلك وأوعد من أغلق حانوته بتسميره، وتغريمه عشرة ريال فرانسة مكافأة له على ذلك، وكان السبب في ذلك والأصل فيه أن هذا المولد ابتدعه السيد بدوي بن فتيح مباشر وقف المشهد، فكان قد اعتراه مرض الحب الإفرنجي فنذر على نفسه هذا المولد إن شفاه الله تعالى، فحصلت له بعض إفاقة فابتدا به وأوقد في المسجد والقبة قناديل وبعض شموع ورتب فُقَها يقرون القرآن بالنهار مدارسة، وآخرين بالمسجد يقرون بالليل دلايل الخيرات للجزولي، ثم زاد الحال وانضم إليهم كثير من أهل البدع كجماعة العفيفي والسمان والعربي والعيسوية، فمنهم من يتحلق ويذكر الجلالة ويحرفها وينشد له المنشدون القصايد والموالات، ومنهم من يقول أبياتًا من بردة المديح للبوصيري ويجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبي.

وأما العيسوية فهم جماعة من المغاربة وما دخل فيهم من أهل الأهوا ينسبون إلى شيخ من أهل المغرب يقال له سيدي محمد بن عيسى، وطريقتهم أنهم يجلسون قبالة بعضهم صفين ويقولون كلامًا معوجًا بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها، وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها على قدر النغم ضربًا شديدًا مع ارتفاع أصواتهم، وتقف جماعة أخرى قبالة الذين يضربون بالدفوف، فيضعون أكتافهم في أكتاف بعض لا يخرج واحد عن الآخر، ويلتوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم، كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزايدة بحيث لا يقوم هذا المقام إلا كل من عُرِف بالقوة، وهذه الحركات والإيقاعات على نمط الضرب بالدفوف فيقع بالمسجد دوي عظيم وضجات من هولا ومن غيرهم من جماعة الفقرا كل أحد له طريقة وكيفية تباين الآخر، هذا مع ما ينضم إلى ذلك من جمع العوام، وتحلقهم بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك، والتلفت إلى حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعي خلفهم والافتتان بهم، ورمي قشور اللب والمكسرات والمأكولات في المسجد، وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه وسقاة الما، فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقًا بالأسواق المتهنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم زاد الحال على ذلك بقدوم جماعة الأشاير من الحارات البعيدة والقريبة، وبين أيديهم مناور القناديل والجوامع العظيمة التي تحملها الرجال والشموع والطبول والزمور، ويتكلمون بكلام محرف يظنون أنه ذِكْر وتوسلات يثابون عليها وينسبون

من يلومهم أو يعترضهم إلى الاعتزال والخروج والزندقة، وغالبهم السوقة وأهل الحرف السافلة ومن لا يملك قوت ليلته، فتجد أحدهم يجتهد بقوة معينه، ويبيع متاعه أو يستدين الجملة من الدراهم ويصرفها في وقود القناديل وأجرة الطبالة والزمارة، وكل يجتمع عليه ما هو من أمثاله من الحرافيش، ثم يقطع ليلته تلك سهرانًا ويصبح دايخًا كسلانًا، ويظن أنه بات يتعبد ويذكر ويتهجد.

واستمر هذا المولد أكثر من عشر سنين، ولم يزدد الناذر لذلك إلا مرضًا ومقتًا، واستجلب خدمة الضريح ما لاح لهم من خساف العقول مثل الشمع والدراهم، واتخذوا ذلك حيالة لأكل أموال الناس بالباطل.

فلما حصلت هذه الحادثة بمصر ترك هذا المولد في جملة المتروكات، ثم حصلت الفتنة التي حصلت وسكن هذا الفرنساوي في خط المشهد الحسيني لضبط تلك الجهة، وفيه مسايرة ومداهنة فصار يظهر المحبة للمسلمين ويلاطفهم ويدخل بيوت الجيران ويقبل شفاعة المتشفعين، ويجل الفقها ويعظمهم ويكرمهم وأبطل وقوف عسكره بالسلاح كعادتهم في غير هذه الجهة، وكذلك منع ما يفعله القلقات من أنواع التشديد على الناس في مثل القناديل، فاطمأن به أهل الخطة وتراجعوا للبكور إلى الصلاة في المساجد بعد تخوفهم من العسكر الذي رتب معهم وتركهم التبكير، فلما أنسوا به وعرفوا أخلاقه رجعوا لعادتهم ومشوا بالليل أيضًا بدون فزع وخوف وترجمانه على مثل طريقته، وهو رجل شريف من أهل حلب كان أسيرًا بمالطة، فاستخلصه الفرنسيس في جملة من استخلصوه من أسرى مالطة وقدم معهم مصر.

فلما أجلس هذا لضبط الخط كان ترجمانه يهوديًا، فاحتال بعض أعيان الجهة ورتب هذا الشريف المذكور ليكون فيه راحة للناس ففتح له قهوة بالخط بالقرب من دار مخدومه، وجمع الناس للجلوس فيها والسهر حصة من الليل، وأمرهم بعدم غلق الحوانيت مقدارًا من الليل كعادتهم القديمة، فاستأنسوا بالاجتماعات والتسلي والخلاعات وعم ذلك جهات تلك الخطة، ووافق ذلك هوى العامة؛ لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخلاعة، وتلك هي طبيعة الفرنساوية، فصاروا يجتمعون عنده للسمر والحديث واللعب والممازحة ويحضر معهم ذلك الضابط ومعه زوجته وهي من أولاد البلد المخلوعين أيضًا، فانساق الحديث لذكر هذا المولد الشهري وما يقع في لياليه من الجمعيات والمهرجان، وحسنوا له إعادته فوافقهم على ذلك، وأمر بالمناداة وفتح الحوانيت ووقود القناديل وشدد في ذلك.

وفي يوم الأربعا كتبوا أوراقًا بتطيير طيارة ببركة الأزبكية مثل التي سبق ذكرها وفسدت، فاجتمعت الناس لذلك وقت الظهر وطيروها وصعدت إلى الأعلى، ومرت إلى أن وصلت تلال البرقية وسقطت، ولو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة وقالوا إنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم.

وفيه سافر الخواجة مجلون إلى الصعيد واليًا على جرجا لتحرير البلاد، وقبض الأموال والغلال المتأخرة بالنواحي للغز.

وفيه سافرت قافلة بها أحمال كثيرة ومواشٍ ونسا إفرنجيات وصناديق قيل إنهم أرسلوها إلى الطور وصحبتهم عدة من العسكر.

وفي يوم الخميس عاشره حضر طايفة من العسكر الفرنساوية إلى وكالة ذي الفقار بالجمالية، ففتحوا طبقة كانت لكتخدا علي باشا الطرابلسي، وأخذوا ما وجدوه بها من الأمتعة وختموا عدة حواصل وطباق بذلك الخان، وبالوكالة الجديدة وغيرها للمسافرين والهاربين والقليونجية، وضبطوا ما بها وقبضوا على جماعة من الأتراك والقليونجية التجار وسجنوهم بالقلعة، وصاروا يفتشون على من بقي منهم بالقاهرة وبولاق خصوصًا الكرتلية الذين كانوا عسكرًا لمراد بك.

وأخذوا الكثير من نصارى الأروام والقليونجية الذين كانوا مع مراد بك، وبعضهم كان بمصر فأدخلوهم في عسكرهم وزيوهم بزيهم وأعطوهم أسلحة وانتظموا في سلكهم.

وفيه تواترت الأخبار أن علي باشا ونصوح باشا فارقا مراد بك، وذهبا من خلف الجبل على الهجن إلى جهة الشام، وصحبتهم جماعة إبراهيم بك، وكان ذهابهم في أواخر رجب.

وفيه نادوا بإبطال القناديل التي توقد في الليل على البيوت والدكاكين، وأن يوقدوا عوضها في وسط السوق مجامع في كل مجمع أربعة قناديل بين كل مجمع ثلاثون ذراعًا، ويقوم بذلك الأغنيا دون الفقرا ولا علاقة للقلقات في ذلك، ففرح بذلك فقرا الناس وانفرجت عنهم هذه الكربة.

وفيه نادوا أيضًا أن كل من كان له دعوى شرعية أو ظلامة فليذهب إلى العلما والقاضي.

وفيه ذهبت طايفة من العسكر وضربوا عرب الكوامل، ورجعوا بمنهوباتهم من الغنم والمعز والدجاج والإوز والحمير وغير ذلك.

وفيه حضر رجل من ناحية غزة يطلب أمانًا للست فاطمة زوجة مراد بك ولابنة المرحوم محمد أفندي البكري، وزوجها الأمير ذي الفقار وخشداشينه، والخطاب للشيخ خليل البكري.

فعرض ذلك على ساري عسكر وترجَّى عنده فكتب له أمانًا بحضورهم وأرسل لهم نفقة، وكان ذلك حيلة منهم لتأتيهم النفقة وبعض الاحتياجات، وأخبر ذلك الرسول أن عبد الله باشا ابن العظم بغزة وإبراهيم بك ومن معه خارج البلد وهم في ضيق وحصر وحيز عنهم داخل البلد.

وفيه ذهب عدة من العسكر الفرنساوية إلى قطيا وشرعوا في بنا أبنية هناك، وأشيع سفر ساري عسكر إلى جهة الشام والإغارة عليها.

وفي ليلة الأحد ثالث عشره كان انتقال الشمس لبرج الدلو، وهو أول شهر من شهورهم، وعملوا تلك الليلة حراقة بارود وسواريخ كما هي عاداتهم عند كل انتقال الشمس من برج إلى برج.

وفي يوم الاثنين رابع عشره نادى المحتسب على اللحم الضاني بسبعة أنصاف الرطل وكان بثمانية، واللحم الجاموسي بخمسة وكان بستة.

وفيه ذهب طايفة من العسكر وضربوا عرب العيايدة نواحي الخانكة، وقتلوا منهم طايفة ونهبوهم ووجدوا من منهوبات الناس وأمتعة عسكر الفرنساوية وأسلحتهم جملة، فأخذوا ذلك مع ما أخذوه وأحضروا معهم بعض رجال ونسا حبسوهم بالقلعة.

وفيه ذهب عدة من العسكر إلى صنافير وأجهور الورد وقرنفيل وكفر منصور، وبلاد أخرى للتفتيش على العرب، فأخذوا ما وجدوه للعرب من بهايم وغيرها، والذي عصى عليهم ضربوه ونهبوه أيضًا ونهبوا جمالاً وبهايم ممن لم يعصِ أيضًا، ودخلوا بذلك المدينة فصاروا يبيعون البقرة بريالين وثلاثة، والنعجة وابنها بريال؛ فاشترى غالب ذلك نصارى القبط.

وفي يوم السبت قتلوا بالقلعة نحو التسعين نفرًا، وغالبهم من المماليك الذين وجدوهم هاربين في البلاد والذين عَسَّ عليهم الخبيث الأغا وبرطلمين والقلقات، ووجدوهم مختفين في البيوت.

وفيه قبضوا على خمسة أنفار من اليهود وامرأتين، فألقوا الجميع في بحر النيل.

وفيه نادوا بأن كل من اشترى شيًّا من منهوبات العرب التي نهبتها العسكر يحضره لبيت ساري عسكر.

وفيه كثر الاهتمام والحركة بسفر الفرنسيس إلى جهة الشام، وطلبوا وهيئوا جملة من الهجن وأحضروا جمال عرب الترابين ليحملوا عليها الذخيرة والدقيق والعليق والبقسماط، ثم رسموا على الأهالي عدة كبيرة من الحمير وكذلك عدة من البغال، فطلب شيخ الحمارة وأمر بجمع ذلك، وكذلك الركبدارية، أمرهم بجمع البغال فاختفى غالب أصحاب الحمير، وخاف الناس على حميرهم فامتنع خروج السقايين الذين ينقلون الما بالقرب على الحمير وسقايي الجمال والبراسمية، فحصل للناس ضيق بسبب ذلك.

وفي يوم الاثنين حادي عشرينه كتبوا أوراقًا، وألصقوها بالأسواق على العادة ونصها:

الحمد لله وحده، هذا خطاب إلى جميع أهل مصر من خاص وعام من محفل الديوان الخصوصي من عقلا الأنام علما الإسلام والوجاقات والتجار الفخام، نعلمكم — معاشر أهل مصر — أن حضرة ساري عسكر الكبير بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية صفح الصفح الكلي عن كامل الناس والرعية؛ بسبب ما حصل من أراذل أهل البلد والجعيدية من الفتنة والشر مع العساكر الفرنساوية، وعفا عفوًا شاملًا وأعاد الديوان الخصوصي في بيت قايد أغا بالأزبكية، ورتبه من أربعة عشر شخصًا أصحاب معرفة وإتقان خرجوا بالقرعة من ستين رجلًا كان انتخبهم بموجب فرمان، وذلك لأجل قضايا حوايج الرعايا وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام، وتنظيمها على أكمل نظام وأحكام، كل ذلك من كمال عقله وحسن تدبيره، ومزيد حبه بمصر، وشفقته على سكانها من صغير القوم قبل كبيره، رتبهم بالمنزل المذكور كل يوم لأجل خلاص المظلوم من الظالم، وقد اقتص من عسكره الذين أساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهري، وقتل منهم اثنين بقراميدان، وأنزل طايفة منهم عن مقامهم العالي إلى أدنى مقام؛ لأن الخيانة ليست من عادة الفرنسيس خصوصًا مع النسا الأرامل، فإن ذلك قبيح عندهم لا يفعله إلا كل خسيس.

ووضع القبض بالقلعة على رجل نصراني مكاس؛ لأنه بلغه أنه زاد المظالم في الجمرك بمصر القديمة على الناس، ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمتنع غيره من الظلم ومراده رفع الظلم عن كاهل الخلق، ويفتح الخليج الموصل من بحر النيل إلى بحر السويس؛ لتخف أجرة الحمل من مصر إلى قطر الحجاز الأفخم، وتحفظ البضايع من اللصوص وقطاع الطريق، وتكثر عليهم أسباب التجارة من الهند واليمن وكل فج عميق، فاشتغلوا بأمر دينكم وأسباب دنياكم، واتركوا

الفتنة والشرور ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم، وعليكم بالرضا بقضا الله وحسن الاستقامة لأجل خلاصكم من أسباب العطب والوقوع في الندامة.

رزقنا الله وإياكم التوفيق والتسليم، ومن كانت له حاجة فليأت إلى الديوان بقلب سليم إلا من كان له دعوى شرعية فليتوجه إلى قاضي العسكر المتولي بمصر المحمية بخط السكرية، والسلام عن أفضل الرسل على الدوام.

وفيه أرسلوا للوالي لينبه على السقايين بنقل الماء وعدم التعرض لهم ولحميرهم.

وفي ليلة الأربعا ثالث عشرينه خرجت عدة كبيرة من العسكر، وطلب كبير الفرنساوية بونابارته أن يأخذ معه أمير الحاج ويأخذ أيضًا قاضي العسكر بجمقشي زاده وأربعة أنفار من المتعممين، وهم الفيومي والصاوي والعريشي والدواخلي وجماعة أيضًا من التجار والوجاقلية ونصارى القبط والشوام.

وفي سادس عشرينه نادوا للناس بالأمان وفتح الأسواق ليلًا في رمضان حكم المعتاد.

وفيه انتقل قايمقام من بيته المطل على بركة الفيل، وهو بيت إبراهيم بك الوالي وسكن بيت أيوب بك الكبير المطل على بركة الفيل، وانتقلوا جميعهم إلى بركة الأزبكية.

وفيه أعرض حسن أغا محرم المحتسب لساري عسكر أمر ركوبه المعتاد لإثبات هلال رمضان فرسم له بذلك على العادة القديمة، فاحتفل لذلك المحتسب احتفالًا زايدًا وعمل وليمة عظيمة في بيته أربعة أيام أولها السبت وآخرها الثلاثا، دعا في أول يوم العلما والفقها والمشايخ والوجاقلية وغيرهم، وفي ثاني يوم التجار والأعيان، وكذلك ثالث يوم ورابع يوم دعا أيضًا أكابر الفرنساوية وأصاغرهم، وركب يوم الثلاثا بالأبهة الكاملة زيادة عن العادة وأمامه مشايخ الحرف بطبولهم وزمورهم، وشق القاهرة على الرسم المعتاد ومر على قايمقام وأمير الحاج وساري عسكر بونابارته، ثم رجع بعد الغروب إلى بيت القاضي بين القصرين، فأثبتوا هلال رمضان ليلة الأربعا، ثم ركب من هناك بالموكب وأمامه المشاعل الكثيرة والطبول والزمور والنقاقير والمناداة بالصوم، وخلفه عدة خيالة عارية روسهم وشعورهم مرخية على أقفيتهم بشكل بشيع مهول وانقضى شهر شعبان وحوادثه.

فمنها أن أهل مصر جروا على عادتهم في بدعهم التي كانوا عليها، وانكمشوا عن بعضها واحتشموها خوفًا من الفرنسيس، فلما تدرجوا فيها وأطلق لهم الفرنساوية القيد ورخصوا لهم وسايروهم رجعوا إليها، وانهمكوا في عمل مواليد الأضرحة التي يرون فرضيتها، وأنها قربة تنجيهم بزعمهم من المهالك وتقربهم إلى الله زلفى في المسالك،

فرمحوا في غفلاتهم مع ما هم فيه من الأسر وكساد غالب البضايع وغلوها وانقطاع الأخبار ومنع الجالب، ووقوف الإنكليز في البحر وشدة حجزهم على الصادر والوارد، حتى غلت أسعار جميع الأصناف المجلوبة من البحر الرومي.

وانقطع أثر كثير من أرباب الصنايع التي كسدت لعدم طلابها، واحتاجوا إلى التكسب بالحرف الدنية كبيع الفطير وقلي السمك وطبخ الأطعمة والمأكولات والأكل في الدكاكين، وإحداث عدة قهاوي، وأما أرباب الحرف الدنية الكاسدة فأكثرهم عمل حمارًا مكاريًا حتى صارت الأزقة خصوصًا جهات العسكر مزدحمة بالحمير التي تُكرَى للتردد في شوارع مصر، فإن للفرنسيس بذلك عناية عظيمة ومغالاة في الأجرة، بحيث إن الكثير منهم يظل طول النهار فوق ظهر الحمار بدون حاجة، سوى أن يجري به مسرعًا في الشارع، وكذلك تجتمع الجماعة منهم ويركبون الحمير ويجهدونها في المشي والإسراع وهم يغنون ويضحكون ويصيحون ويتمسخرون ويشاركهم المكارية في ذلك، كما أن لهم العناية وبذل الأموال والتردد إلى حانات الراح والتغالي في شرا الفواكه والبواطي والأقداح.

كما قال في ذلك صاحبنا الشيخ حسن العطار:

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم في مصرنا بين حمَّار وخمّار
وعن قريب لهم في الشام مهلكة يضيع لهم فيها آجال أعمار

ومن طبعهم في الشرب أنهم يتعاطون لحد النشوة وترويح النفس، فإن زادوا عن ذلك الحد لا يخرجون من منازلهم، ومَن سكر وخرج إلى السوق ووقع منه أمر مخل عاقبوه وعزروه.

ومنها ترفُّع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول، وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيهم الخيلا وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم المسلمين، كل ذلك بما كسبت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد، والحال الحال والمركوز في الطبع ما زال، والبعض استهوته الشياطين ومرق والعياذ بالله من الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومنها تواتر الأخبار من ابتدا شهر رجب بأن رجلًا مغربيًّا يقال له الشيخ الكيلاني كان مجاورًا بمكة والمدينة والطايف، فلما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز، وأنهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك وضجوا بالحرم وجردوا الكعبة، وإن هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين،

وقرأ بالحرم كتابًا مولفًا في معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس، وبذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستماية من المجاهدين، وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضم إليهم من أهل ينبع وخلافه.

فورد الخبر في أواخره أنه انضم إليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممن كان خرج معهم مع غز مصر عند وقعة إنبابة، وركب الغز معهم أيضًا وحاربوا الفرنسيس فلم تثبت الغز كعادتهم، وانهزموا وتبعهم هوارة الصعيد المتجمعة من القرى وثبت الحجازيون ثم انكفوا لقلتهم وذلك بناحية جرجا، وهرب الغز والمماليك إلى ناحية إسنا وصحبتهم حسن بك الجداوي وعثمان بك حسن تابعه.

ووقع بين أهل الحجاز والفرنسيس بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع، وينفصل الفريقان بدون طايل.

ومنها أن الفرنسيس عملوا كرنتيله بجزيرة بولاق، وبنوا هناك بنا فيحجزون بها القادمين من السُّفَّار أيامًا معدودة كل جهة من الجهات القبلية والبحرية بحسبها، والله أعلم.

ثم استهل شهر رمضان المعظم بيوم الأربعا سنة ١٢١٣

وفيه أخذ بونابارته في الاهتمام بالسفر إلى جهة الشام، وجهزوا طلبًا كثيرًا وصاروا في كل يوم يخرج منهم طايفة بعد طايفة.

وفي يوم السبت عمل ساري عسكر ديوانًا وأحضر المشايخ والوجاقات، وتكلم معهم في أمر خروجه للسفر وأنهم قتلوا المماليك الفارين بالصعيد، وأجلوا باقيهم إلى أقصى الصعيد، وأنهم متوجهون إلى الفرقة الأخرى بناحية غزة فيقطعونهم ويمهدون البلاد الشامية لأجل سلوك الطريق، ومشي القوافل والتجارات برًّا وبحرًا، لعمار القطر وصلاح الأحوال، وأننا نغيب عنكم شهرًا ثم نعود وعند عودنا نرتب النظام في البلاد والشرايع وغير ذلك، فعليكم ضبط البلد والرعية في مدة غيابنا، ونبهوا مشايخ الأخطاط والحارات كل كبير يضبط طايفته خوفًا من الفتن مع العسكر المقيمين بمصر، فالتزموا له بذلك وكتبوا له أوراقًا مطبوعة على العادة في معنى ذلك وألصقوها بالطرق، وفي ذلك اليوم خرج القاضي ومصطفى كتخدا الباشا والمشايخ المعينون للسفر إلى جهة العادلية، وخرج أيضًا عدة كبيرة من عسكرهم ومعهم أحمال كثيرة حتى الأسرة والفرش والحصر، وعدة مواهي ومحفات للنسا والجواري البيض والسود والحبوش اللاتي أخذوها من بيت الأمرا، وتزيا أكثرهن بزي نساهم الإفرنجيات وغير ذلك.

وفي يوم الأحد خامسه ركب ساري عسكر الفرنسيس، وخرج أيضًا إلى العادلية وذلك في الساعة الرابعة بطالع الحمل وفيه القمر في تربيع زحل وأبقى بمصر عدة من العسكر بالقلعة والأبراج التي بنوها على التلول وقايمقام وبوسليك وساري عسكر ويزة بجملة من العسكر في الصعيد، وكذلك سواري عسكر الأقاليم كل واحد معه عسكر في جهة من الجهات، وأخذ معه المدبرين وأصحاب المشورة والمترجمين، وأرباب الصنايع منهم كالحدادين والنجارين ومهندسي الحروب وكبيرهم أبو خشبة، وأبقى أيضًا بعض أكابرهم، ثم تراسل المتخلفون في الخروج كل يوم يخرج منهم جماعة.

وفي يوم الثلاثا سابعه انتدب للنميمة ثلاث من النصارى الشوام، وعرفوهم أن المسلمين قاصدون الوثوب على الفرنسيس في يوم الخميس تاسعه، فأرسل قايمقام خلف المهدي والأغا فأحضرهما وذكر لهما ذلك، فقالا له: هذا كذب لا أصل له، وإنما هذه نميمة من النصارى كراهة منهم في المسلمين، ففحص عمن اختلق ذلك فوجدوهم ثلاثة من النصارى الشوام، فقبضوا عليهم وسجنوهم بالقلعة حتى مضى يوم الخميس، فلم يظهر صحة ما نقلوه فأبقاهم في الاعتقال.

ثم إن نصارى الشوام رجعوا إلى عادتهم القديمة في لبس العمايم السود والزرق، وتركوا لبس العمايم البيض والشيلان الكشميري الملونة والمشجرات، وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك، نبهوا أيضًا بالمناداة في أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولًا، ولا يتجاهرون بالأكل والشرب في الأسواق ولا يشربون الدخان ولا شيًّا من ذلك بمرأى منهم، كل ذلك للاستجلاب لخواطر الرعية، حتى إن بعض الرعية من الفقها مر على بعض النصارى وهو يشرب الدخان فانتهزه فرد عليه ردًّا شنيعًا، فنزل ذلك المتعمم وضرب النصراني، واجتمع عليه الناس وحضر حاكم الخطة فرفعهما إلى قايمقام، فسأل من النصارى الحاضرين عن عادتهم في ذلك، فأخبروه أن من عادتهم القديمة أنه إذا استهل شهر رمضان لا يأكلون ولا يشربون في الأسواق ولا بمرأى من المسلمين أبدًا، فضرب النصراني وترك المتعمم لسبيله.

وفي تاسع عشرينه أحضروا مراد أغا تابع سليمان بك الأغا، ومعه آخر من الأجناد من ناحية قبلي فأصعدوهما للقلعة قبل قتلهما.

وفي خامس عشرينه ورد الخبر بأن الفرنساوية ملكوا قلعة العريش، وطاف رجل من أتباع الشرطة ينادي في الأسواق أن الفرنساوية ملكوا قلعة العريش، وأسروا عدة من المماليك وفي غد يعملون شنكًا، ويضربون مدافع فإذا سمعتم ذلك فلا تفزعوا، فلما أصبح

يوم الأحد حضر المماليك المذكورة وهم ثمانية عشر مملوكًا وأربعة من الكشاف وهم راكبون الحمير، ومتقلدون بأسلحتهم ومعهم نحو المائة من عسكر الفرنسيس وأمامهم طبلهم، وخرج بعض الناس فشاهدوهم، ولما وصلوا إلى خارج القاهرة حيث الجامع الظاهري خرج الأغا وبرطلمين بطوافيهما ينتظرانهم ومعهم طبول وبيارق وطوايف ومشوا معهم إلى الأزبكية من الطريق التي أحدثوها، ودخلوا بهم إلى بيت قايمقام فأخذوا سلاحهم وأطلقوهم فذهبوا إلى بيوتهم وفيهم أحمد كاشف تابع عثمان بك الأشقر وآخر يقال له حسن كاشف الدويدار وكاشفان آخران، وهما يوسف كاشف وإسماعيل الرومي كاشف تابع أحمد كاشف المذكور.

وكان من خبرهم أنهم كانوا مقيمين بقلعة العريش في صحبتهم نحو ألف عسكري مغاربة وأرنؤد فحضر لهم الفرنسيس الذين كانوا في المقدمة في أواخر شعبان، فأحاطوا بالقلعة وحاربوهم من داخلها ونالوا منهم ما نالوه، ثم حضر إليهم ساري عسكر بجموعه بعد أيام، وألحوا في حصارهم فأرسل من بالعريش إلى غزة فطلب نجدة فأرسلوا لهم نحو السبعماية، وعليهم قاسم بك أمين البحرية فلم يتمكنوا من الوصول إلى القلعة لتحلق الفرنساوية بها وإحاطتهم حولها فنزلوا قريبًا من القلعة فكبستهم عسكر الفرنسيس بالليل فاستشهد قاسم بك وغيره وهزم الباقون، ولم يزل أهل القلعة يحاربون ويقاتلون حتى فرغ ما عندهم من البارود والذخيرة، فطلبوا عند ذلك الأمان فأمنوهم ومن القلعة أنزلوهم وذلك بعد أربعة عشر يومًا، فلما نزلوا على أمانهم أرسلوهم إلى مصر مع الوصية بهم وتخلية سبيلهم، فحضروا إلى مصر كما ذكر وأخذوا سلاحهم وخلوا سبيلهم، وصاروا يترددون عليهم ويعظمونهم ويلاطفونهم ويفرجونهم على صنايعهم وأحوالهم.

وأما العسكر الذين كانوا معهم بقلعة العريش، فبعضهم انضاف إليهم وأعطوا جامكية وعلوفة، وجعلوهم بالقلعة مع عسكر من الفرنسيس، والبعض لم يرضَ بذلك، فأخذوا سلاحهم وأطلقوهم إلى حال سبيلهم، وذهب الفرنسيس إلى ناحية غزة، وفي ذلك اليوم بعد الظهر عملوا الشنك الموعود به، وضربوا عدة مدافع بالقلعة والأزبكية وأظهر النصارى الفرح والسرور بالأسواق والدور، وأولموا في بيوتهم الولايم، وغيروا الملابس والعمايم وتجمعوا للهو والخلاعة وزادوا في القبح والشناعة.

وفي يوم الأربعا توفي أحمد كاشف المذكور فجأة، وفي عصر ذلك اليوم حضر جماعة من الفرنسيس نحو الخمسة والعشرين وهم راكبون الهجن، وعلى روسهم عمايم بيض ولابسون برانس بيض على أكتافهم، فذهبوا إلى بيت قايمقام بالأزبكية، فلما أصبح يوم

الخميس عملوا الديوان وقروا المكاتبة التي حضرت مع الهجانة، حاصلها أن الفرنسيس أخذوا غزة وخان يونس وأخبار مختلفة منها أنهم وجدوا إبراهيم بك ومن معه ارتحلوا من هناك، وكانوا أرسلوا حريمهم وأثقالهم إلى جبل نابلس، وقيل بل تحاربوا معهم وانهزموا.

وفي ذلك اليوم بعد العصر بنحو عشرين درجة حضر عدة من الفرنسيين ومهم كبير منهم وهم راكبون الخيول وعدة من المشاة وفيهم جماعة لابسون عمايم بيض، وجماعة أيضًا ببرانيط ومعهم نفير ينفخ فيه وبيدهم بيارق وهي التي كانت عند المسلمين على قلعة العريش إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر، فاصطفوا رجالًا وركبانًا بباب الجامع وطلبوا الشيخ الشرقاوي، فسلموه تلك البيارق وأمروه برفعها ونصبها على منارات الجامع الأزهر، فنصبوا بيرقين ملونين على المنارة الكبيرة ذات الهلالين عند كل هلال بيرقًا وعلى منارة أخرى بيرقًا ثالثًا، وعند رفعهم ذلك ضربوا عدة مدافع من القلعة بهجة وسرورًا وكان ذلك ليلة عيد الفطر، فلما كان عند الغروب ضربوا عدة مدافع أيضًا إعلامًا بالعيد، وبعد العشا الأخيرة طاف أصحاب الشرطة، ونادوا بالأمان وبخروج الناس على عادتهم لزيارة القبور بالقرافتين والاجتماع، وأرسلوها إلى البلاد ونصها:

فرمان عام موجه من أمير الجيوش إلى أهالي الشام قاطبة:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين، من طرف بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية إلى حضرة المفتين والعلما، وكافة أهالي نواحي غزة والرملة ويافا حفظهم الله تعالى، بعد السلام نعرفكم بأننا حررنا لكم هذه السطور نعلمكم أننا حضرنا في هذا الظرف لقصد طرد المماليك وعسكر الجزار عنكم، وإلى أي سبب حضور عسكر الجزار وتعديه على بلاد يافا وغزة التي ما كانت من حكمه، وإلى أي سبب أيضًا أرسل عساكره إلى قلعة العريش بذلك هجم على أراضي مصر، فلا شك كان مراده إجراء الحروب معنا ونحن حضرنا لنحاربه، فأما أنتم يا أهالي الأطراف المشار إليها فلم نقصد لكم أذية ولا أدنى ضرر، فأنتم استمروا في محلكم ووطنكم مطمينين ومرتاحين، وأخبروا من كان خارجًا عن محله ووطنه أن يرجع ويقيم في محله ووطنه، ومن قِبلنا عليكم ثم عليهم الأمان الكافي والحماية التامة، ولا أحد يتعرض لكم في مالكم وما تملكه يدكم، وقصدنا أن القضاة يلازمون خدمتهم ووظايفهم على ما كانوا عليه، وعلى الخصوص أن دين الإسلام لم يزل معتزًّا ومعتبرًا والجوامع عامرة بالصلاة وزيارة المؤمنين.

إن كل خير يأتي من الله تعالى وهو يعطي النصر من يشا، ولا يخفاكم أن جميع ما تأمر به الناس ضدنا فيغدو باطلًا ولا نفع لهم به؛ لأن كل ما نضع به يدنا لا بد عن تمامه بالخير، والذي يتظاهر لنا بالحب يفلح والذي يتظاهر بالغدر يهلك، ومن كل ما حصل تفهمون جيدًا أنَّنا نقمع أعدانا ونعضد من يحبنا، وعلى الخصوص من كونِنَا متَّصِفِين بالرحمة والشفقة على الفقرا والمساكين.

ولما أخذوا غزة أرسلوا طومارًا بصورة الواقعة، وبصموه نسخًا وقري بالديوان وألصقوا نسخه المطبوعة بالأسواق وصورته:

بسم الله الرحمن الرحيم، ولا عدوان إلا على الظالمين. نخبر أهل مصر وأقاليمها أنه حضر فرمان مكتوب من غزة من حضرة الجنرال إسكندر برتنيه خطابًا إلى حضرة ساري عسكر دوجا وكيل الجيوش بمصر، يخبره فيه بأن العساكر الفرنساوية باتوا ليلة تسعة عشر شهر رمضان في خان يونس، وفي فجر تلك الليلة توجهوا سايرين إلى ناحية غزة فكشفوا قبل الظهر بساعة عسكر المماليك وعسكر الجزار، فلما انتبهوا له فروا هاربين ووقع بينه وبين أطراف العساكر بعض مضاربة يسيرة لم ينجرح فيها إلا شخصان من الفرنساوية ومات عسكري واحد، ومات من عسكر المماليك والجزار ناس قلايل، وحين تشاغل ساري عسكر مراد بالمضاربة والمقاتلة دخل حضرة ساري عسكر كليبر الذي كان حاكمًا بالإسكندرية وكان ساكنًا بالأزبكية إلى بندر غزة، وملكها من غير معارض له ووجدوا فيها حواصل مشحونة بالذخاير من بقسماط وشعير وأربعماية قنطار بارود، واثني عشر مدفعًا وحاصلًا كبيرًا مملوًّا بالخيام الكثيرة وجللًا وبنبات مهيئات محضرات كصنعة الإفرنج، هذا ما وقع لملكهم لغزة، وقد أخبرناكم على ما وقع في كيفية ملك العريش سابقًا، فاستقيموا عباد الله وارضوا بقضاء الله، وتأدبوا في أحكام مولاكم الذي خلقكم وسواكم والسلام ختام.

وانقضى شهر رمضان ووقع به قبل ورود هذه الأخبار من السكون والطمأنينة وخلو الطرقات من العسكر وعدم مرور المتخلفين منهم إلا في النادر واختفاهم بالليل جملة كافية، وانفتاح الأسواق والدكاكين والذهاب والمجي وزيارة الإخوان ليلًا، والمشي

على العادة بالفوانيس ودونها، واجتماع الناس للسهر في الدور والقهاوي ووقود المساجد وصلاة التراويح وطواف المسحرين والتسلي بالرواية والنقول وترجي المأمول وانحلال الأسعار فيما عدا المجلوبات من الأقطار.

ومنها أن الفرنساوية صاروا يدعون أعيان الناس والمشايخ والتجار للإفطار والسحور، ويعملون لهم الولايم ويقدمون لهم المواير على نظام المسلمين وعاداتهم، ويتولى أمر ذلك الطباخون والفراشون من المسلمين تطميناً لخواطرهم، ويذهبون هم أيضًا ويحضرون عندهم الموايد، ويأكلون معهم في وقت الإفطار ويشاهدون ترتيبهم ونظامهم ويحذون حذوهم ووقع منهم من المسايرة للناس وخفض الجانب ما يتعجب منه، والله أعلم.

شهر شوال سنة ١٢١٣

استهل بيوم الجمعة وفي صبح ذلك اليوم ضربوا عدة مدافع لشنك العيد، واجتمع الناس لصلاة العيد في المساجد والأزهر، واتفق أن إمام الجامع الأزهر نسي قراءة الفاتحة في الركعة الثانية، فلما سلم أعاد الصلاة بعدما شنع عليه الجماعة، وخرج الرجال والنسا لزيارة القبور، فانتبذ بعض الحرافيش نواحي تربة باب النصر، وأسرع في مشيه وهو يقول: نزلت عليكم العرب يا ناس فهاجت الناس، وانزعجت النسا ورمحت الجعيدية والحرافيش، وخطفوا ثياب النسا، وأزرهن وما صادفوه من عمايم الرجال وغير ذلك، واتصل ذلك بتربة المجاورين وباب الوزير والقرافة، حتى إن بعض النسا مات تحت الأرجل ولم يكن لهذا الكلام صحة، وإنما ذلك من مخترعات الأوباش لينالوا أغراضهم من الخطف بذلك.

وفيه ركب أكابر الفرنسيس، وطافوا على أعيان البلد وهنوهم بالعيد، وجاملهم الناس بالمدارة أيضًا.

وفي أوايله وردت الأخبار بأن الأمرا المصرية القبليين تفرقوا من بعضهم: فذهب مراد بك وآخرون إلى نواحي إبراهيم بك، ومنهم من ذهب إلى ناحية أسوان، والألفي عدى بجماعته إلى البر الشرقي.

وفي خامسه قدم الشيخ محمد الدواخلي من ناحية القرين متمرضًا، وكان بصحبته الصاوي والفيومي متخلفين بالقرين، وسبب تخلفهم أن كبير الفرنسيس لما ارتحل من الصالحية أرسل إلى كتخدا الباشا والقاضي والجماعة الذين بصحبتهم يأمرهم بالحضور

إلى الصالحية؛ لأنهم كانوا يبعدون عنه مرحلة، فلما أرادوا ذلك بلغهم وقوف العرب بالطريق فخافوا من المرور، فذهبوا إلى العرين فأقاموا هناك، واتخذ عسكر الفرنسيس جمالهم فأقاموا بمكانهم فتقلق هولا الثلاثة، وخافوا سو العاقبة ففارقوهم وذهبوا للقرين، وتخلف عنهم الفيومي فأقام مع كتخدا الباشا والقاضي، فحصل للدواخلي توعك فحضر إلى مصر وبقي رفيقاه في حيرة.

وفي سابعه أحضر الأغا رجلًا ورمى عنقه عند باب زويلة، وشنق امرأة على شباك السبيل تجاه الباب، والسبب في ذلك أن الفرنساوي حاكم خط الخليفة وجهة الركبية ويسمى دلوي أحضر باعة الغلال بالرميلة، وصادرهم ومنعهم من دفع معتاد الوالي فاجتمعوا وذهبوا إلى كبير الفرنسيس الذي يقال له شيخ البلد وشكوا إليه، وكان الأمير ذو الفقار حاضرًا وهو يسكن تلك الجهة، فعضدهم وعرف شيخ البلد عن شكواهم، فأرسل شيخ البلد إلى دلوي فانتهره وأمره برد ما أخذه، فأخبر أتباعه أن ذا الفقار هو الذي عضدهم وأنهى شكواهم إلى كبيرهم، فقام دلوي المذكور ودخل على ذي الفقار في بيته وسبه وشتمه بلغته وفزع عليه ليضربه، فلما خرج من عنده قام وذهب إلى كبيرهم وأخبره بفعل دلوي معه، فأمر بإحضاره وحبسه بالقلعة.

ثم أخبر بعض الناس شيخ البلد أن التعرض الذي وقع من دلوي لباعة الغلة إنما هو بإغرا خادمه، وعرفه أن خادمه المذكور مولع بامرأة رقاصة من الرميلة تأتيه بأشكالها ومن على طريقتها، ويجتمع هو وأضرابه وترقص لهم تلك المرأة في القهوة التي بخطهم ليلًا ونهارًا، وتبيت معهم في البيت ويصبحون على حالهم، فلما حبس أميرهم اختفوا فدلوا على الرجل والمرأة فقبضوا عليهما وفعلوا بهما ما ذكر، ولا بأس بما حصل.

وفي ثامنه يوم الجمعة نودي في الأسواق بموكب كسوة الكعبة المشرفة من قراميدان، والتنبيه باجتماع الوجاقات وأرباب الأشاير وخلافهم على العادة في عمل المواكب، فلما أصبح يوم السبت اجتمع الناس في الأسواق وطريق المرور وجلسوا للفرجة فمروا بذلك وأمامها الوالي والمحتسب وعليهم القفاطين والبينشات وجميع الأشاير بطبولهم وزمورهم وكاساتهم ثم برطلمين كتخدا مستحفظان وأمامه نفر الينكجرية من المسلمين نحو المايتين وأكثر وعدة كثيرة من نصارى الأروام بالأسلحة والملازمين بالبراقع وهو لابس فروة عظيمة، ثم مواكب القلقات ثم موكب ناظر الكسوة وهو تابع مصطفى كتخدا الباشا وخلفه النوبة التركية، فكانت هذه الركبة من أغرب المواكب وأعجب العجايب لما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال وتنوع الأمثال، واجتماع الملل وارتفاع السفل، وكثرة

الحشرات وعجايب المخلوقات، واجتماع الأضداد ومخالفة الوضع المعتاد، وكان نسيج الكسوة بدار مصطفى كتخدا المذكور وهو على خلاف العادة من نسجها بالقلعة.

وفي يوم الأربعا ثالث عشره حضر عدة من الفرنسيس وهم راكبون الهجن ومعهم عدة بيارق وأعلام بعد الظهر، وأخبروا أن الفرنسيس ملكوا قلعة يافا وبيدهم مكاتبة من ساري عسكرهم بالإخبار عما وقع، فلما كان يوم الخميس واجتمع أرباب الديوان، فقرأ عليهم تلك المراسلة بعد تعريبها وتوصيفها على هذه الكيفية، وهي عن لسان رؤسا الديوان إلى الكافة، وذلك بإلزامهم وأمرهم بذلك، وصورتها:

> بسم الله الرحمن الرحيم، سبحان مالك الملك يفعل في ملكه ما يريد، سبحان الحكم العدل الفاعل المختار، ذي البطش الشديد، هذه صورة تمليك الله — سبحانه وتعالى — جمهور الفرنساوية لبندر يافا من الأقطار الشامية، نعرف أهل مصر وأقاليمها من ساير البرية أن العساكر الفرنساوية انتقلوا من غزة ثالث عشرين رمضان، ووصلوا إلى الرملة في الخامس والعشرين منه في أمن واطمينان، فشاهدوا عسكر أحمد باشا الجزار هاربين بسرعة قايلين الفرار.

ثم إن الفرنساوية وجدوا في الرملة ومدينة «لد» مقدارًا كبيرًا من مخازن البقسماط والشعير، ورأوا فيها ألفًا وخمسماية قربة مجهزة جهزها الجزار يسير بها إلى إقليم مصر مسكن الفقرا والمساكين، ومراده أن يتوجه إليها بأشرار العربان من سطح الجبل، ولكن تقادير الله تفسد المكر والحيل، قاصدًا سفك دما الناس مثل عوايده الشامية، وتجبره وظلمه مشهور؛ لأنه تربية المماليك الظلمة المصرية ولم يعلم من خسافة عقله وسوء تدبيره أن الأمر لله كل شي بقضاه وتدبيره.

وفي سادس عشرين شهر رمضان وصلت مقدمات الفرنساوية إلى بندر يافا من الأراضي الشامية، وأحاطوا بها وحاصروها من الجهة الشرقية والغربية، وأرسلوا إلى حاكمها وتحيل الجزار أن يسلمهم القلعة قبل أن يحل به وبعسكره الدمار، فمن خسافة رأيه وسو تدبيره سعى في هلاكه وتدميره ولم يرد لهم جواب، وخالف قانون الحرب والصواب.

وفي أواخر ذلك اليوم السادس والعشرين تكاملت العساكر الفرنساوية على محاصرة يافا، وصاروا كلهم مجتمعين، وانقسموا على ثلاثة طوابير:

الطابور الأول توجه على طريق عكا بعيدًا عن يافا بأربع ساعات، وفي السابع والعشرين من الشهر المذكور أمر حضرة ساري عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور؛

لأجل أن يعملوا متاريس أمينة وحصارات متقنة حصينة؛ لأنه وجد سور يافا ملآن بالمدافع الكثيرة ومشحونة بعسكر الجزار الغزيرة.

وفي تاسع عشرين الشهر لما قرب حفر الخندق إلى السور مقدار ماية وخمسين خطوة أمر حضرة ساري عسكر المشار إليه أن ينصب المدافع على المتاريس، وأن يضعوا أهوان القنبر بإحكام وتأسيس، وأمر بنصب مدافع أخر بجانب البحر لمنع الخارجين إليهم من مراكب المينا؛ لأنه وجد في المينا بعض مراكب أعدها عسكر الجزار للهروب، ولا ينفع الهروب من القدر المكتوب، ولما رأت عساكر الجزار الكاينون بالقلعة المحاصرون أن عسكر الفرنساوية قلايل في رأي العين للناظرين لمداراة الفرنساوية في الخنادق وخلف المتاريس غرهم الطمع فخرجوا لهم من القلعة مسرعين مهرولين، وظنوا أنهم يغلبون الفرنساوية، فهجم عليهم الفرنسيس، وقتلوا منهم جملة كثيرة في تلك الواقعة، وألجأوهم للدخول ثانيًا في القلعة.

وفي يوم الخميس غاية شهر رمضان حصل عند ساري عسكر شفقة قلبية، وخاف على أهل يافا من عسكره إذا دخلوا بالقهر والإكراه فأرسل إليهم مكتوبًا مع رسول مضمونه:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

بسم الله الرحمن الرحيم، من حضرة ساري عسكر إسكندر برتية كتخدا العسكر الفرنساوي إلى حضرة حاكم يافا، نخبركم أن حضرة ساري عسكر الكبير بونابارته أمرنا أن نعرفك في هذا الكتاب أن سبب حضوره إلى هذا الطرف إخراج عسكر الجزار فقط من هذه البلدة؛ لأنه تعدى بإرسال عسكره إلى العريش ومرابطته فيها، والحال أنها من إقليم مصر التي أنعم الله بها علينا فلا يناسبه الإقامة بالعريش؛ لأنها ليست من أرضه فقد تعدى على ملك غيره، ونعرفكم يا أهل يافا أن بندركم حاصرناه من جميع أطرافه وجهاته، وربطناه بأنواع الحرب وآلات المدافع الكثيرة والجلل والقنابر وفي مقدار ساعتين ينقلب سوركم وتبطل آلاتكم وحروبكم، ونخبركم أن حضرة ساري عسكر المشار إليه لمزيد رحمته وشفقته خصوصًا بالضعفا من الرعية خاف عليكم من سطوة عسكر المحاربين إذا دخلوا عليكم بالقهر أهلكوكم أجمعين، فلزمنا أننا نرسل لكم هذا الخطاب أمانًا كافيًا لأهل البلد والأغراب، ولأجل ذلك أخَّر ضرب المدافع والقنابر الصاعدة عنكم ساعة فلكية واحدة، وإني لكم لمن الناصحين، وهذا

آخر جواب الكتاب، فجعلوا جوابنا حبس الرسول مخالفين للقوانين الحربية والشريعة المطهرة المحمدية وحالًا في الوقت والساعة هيج ساري عسكر، واشتد غضبه على الجماعة وأمر بابتدا ضرب المدافع والقنابر الموجب للتدمير، وبعد مضي زمان يسير تعطلت مدافع يافا المقابلة لمدافع المتاريس، وانقلب عسكر الجزار في وبال وتنكيس، وفي وقت الظهر من هذا اليوم انخرق سور يافا وارتج له القوم ونقب من الجهة التي ضرب فيها المدافع من شدة النار، ولا راد لقضا الله ولا مدافع، وفي الحال أمر حضرة ساري عسكر بالهجوم عليهم، وفي أقل من ساعة ملكت الفرنساوية جميع البندر والأبراج ودار السيف في المحاربين، واشتد بحر الحرب وهاج وحصل النهب فيها تلك الليلة.

وفي يوم الجمعة غرة شوال وقع الصفح الجميل من حضرة ساري عسكر الكبير، ورق قلبه على أهل مصر من غني وفقير الذين كانوا في يافا، وأعطاهم الأمان وأمرهم برجوعهم إلى بلدهم مكرمين، وكذلك أمر أهل دمشق وحلب برجوعهم إلى أوطانهم سالمين لأجل أن يعرفوا مقدار شفقته ومزيد رأفته ورحمته، يعفو عند المقدرة ويصفح وقت المعذرة مع تمكينه ومزيد إتقانه وتحصينه.

وفي هذه الواقعة قتل أكثر من أربعة آلاف من عسكر الجزار بالسيف والبندق لما وقع منهم من الانحراف.

وأما الفرنساوية فلم يقتل منهم إلا القليل، والمجروحون منهم ليسوا بكثير، وسبب ذلك سلوكهم إلى القلعة من طريقٍ أمينةٍ خافيةٍ عن العيون، وأخذوا ذخاير كثيرة وأموالًا غزيرة، وأخذوا المراكب التي في المينة واكتسبوا أمتعة غالية ثمينة، ووجدوا في القلعة أكثر من ثمانين مدفعًا ولم يعلموا مع مقادير الله أن آلات الحرب لا تنفع، فاستقيموا عباد الله وارضوا بقضا الله ولا تعترضوا على أحكام الله وعليكم بتقوى الله، واعلموا أن الملك لله يؤتيه من يشا والسلام عليكم ورحمة الله.

فلما تحقق الناس هذا الخبر تعجبوا وكانوا يظنون، بل يتيقنون استحالة ذلك خصوصًا في المدة القليلة ولكن المقضي كاين.

وفي يوم الجمعة خامس عشره شق جماعة من أتباع الشرطة في الأسواق والحمامات والقهاوي، ونبهوا على الناس بترك الفضول والكلام واللغط في حق الفرنسيس ويقولون

لهم: من كان يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر فلينته ويترك الكلام في ذلك، فإن ذلك مما يهيج العداوة، وعرفوهم أنه إن بلغ الحاكم من المتجسسين عن أحد تكلم في ذلك عوقب أو قتل، فلم ينتهوا وربما قبض على البعض وعاقبوه بالضرب والتغريم.

وفي ذلك اليوم كان التحويل الربيعي وانتقال الشمس لبرج الحمل وهو أول شهر من شهورهم، فعملوا ليلة السبت شنكًا وحراقة سواريخ وتجمعوا بدار الخلاعة نسا ورجالًا وتراقصوا وتسابقوا وأوقدوا سراجًا وشموعًا وغير ذلك وأظهر الأقباط والشوام مزيد الفرح والسرور.

وفي يوم السبت المذكور أرسلوا الأعلام والبيارق التي أحضروها من قلعة يافا وعدتها ثلاثة عشر، وفيها من له طلايع فضة كبار إلى الجامع الأزهر، وكانوا أنزلوا أعلام قلعة العريش قبل ذلك بيوم من أعلى المنارات، وأرسلوا بدلها أعلام يافا وعملوا لها موكبًا بطايفة من العسكر يتقدمهم طبلهم، وخلفهم الأغا بجماعته وطايفته والمحتسب ومدبرو الديوان، وخلفهم طبل آخر يضربون عليه بإزعاج شديد، وخلف ذلك الطبل جماعة من العسكر يحملون البنادق على أكتافهم كالطايفة الأولى، وبعدهم عدة من العسكر على روسهم عمايم بيض يحملون تلك الأعلام الكبار والبيارق المذكورة، خلفهم جماعة خيالة من كبار العسكر وآخرون راكبون على حمير المكارية، فلما وصلوا إلى باب الجامع الأزهر رتبوا تلك الأعلام، ووضعوها على أعلى الباب الكبير فوق المكتب منشورة، وبعضها على الباب الآخر من الجهة الأخرى عند حارة كتامة المعروفة الآن بالعينية، ولم يصعدوا منها على المنارات كما صنعوا في أعلام العريش.

وفي يوم الأحد سابع عشره رتبوا أوامر وكتبوها في أوراق مبصومة وألصقوها بالأسواق، إحداها بسبب مرض الطاعون، وأخرى بسبب الضيوف الأغراب، ومضمون الأولى بتقاسيمه ومقالاته:

> خطابًا لأهل مصر وبولاق ومصر القديمة ونواحيها أنكم تمثلون هذه الأوامر وتحافظون عليها ولا تخالفوها، وكل من خالفها وقع له مزيد الانتقام والعقاب الأليم والقصاص العظيم، وهي المحافظة من تشويش الكُبَة وكل من تيقن أو ظننتم أو توهمتم أو شككتم فيه ذلك في محل من المحلات أو بيت أو وكالة أو رَبْع يلزمكم ويتحتم عليكم أن تعملوا كرنتيلة، ويجب قفل ذلك المكان ويلزم شيخ الحارة أو السوق الذي فيه ذلك أن يخبر حالًا قلق الفرنساوية حاكم ذلك الخط، والقلق يخبر شيخ البلد قايمقام مصر وأقاليمها ويكون ذلك فورًا.

وكذلك كل ملة من سكان مصر وأقاليمها وجوانبها والأطبا إذا تحققوا وعلموا حصول ذلك المرض يتوجه كل طبيب إلى قايمقام، ويخبره ليأمره بما هو مناسب للصيانة والحفظ من التشويش، وكل من كان عنده خبر من كبار الأخطاط أو مشايخ الحارات وقلقات الجهات ولم يخبر بهذا المرض يعاقب بما يراه قايمقام، ويجازَى مشايخ الحارات بماية كرباج جزا للتقصير، وملزوم أيضًا مَن أصابه هذا التشويش أو حصل في بيته لغيره من عيلته أو عشيرته وانتقل من بيته إلى آخر أن يكون قصاصه الموت وهو الجاني على نفسه بسبب انتقاله، وكل ريس ملة في خط إذا لم يخبر بالكبة الواقعة في خطه أو بمن مات بها إيضاحًا فوريًّا كان عقاب ذلك الريس وقصاصه الموت، والمغسل إن كان رجلًا أو امرأة إذا رأى الميت أنه مات بالكُبَة أو شكَّ في موته ولم يخبر قبل مضي أربع وعشرين ساعة كان جزاه وقصاصه الموت، وهذه الأوامر الضرورية بلزوم أغات الينكجرية، وحكام البلد الفرنساوية والإسلامية تنبيه الرعية واستيقاظهم لها فإنها أمور مخفية، وكل من خالف حصل له مزيد الانتقام من قايمقام، وعلى القلقات البحث والتفتيش عن هذه العلة الردية لأجل الصيانة والحفظ لأهل البلد والحذر من المخالفة والسلام.

ومضمون الثانية: الخطاب السابق من ساري عسكر دوجا الوكيل وحاكم البلد دسني قايمقام.

يلزم المديرين بالديوان أنهم يشهرون الأوامر وينتبهون لها، وكل من خالف يحصل له مزيد الانتقام، وهو أنه يتحتم ويلزم صاحب كل خمارة أو وكالة أو بيت الذي يدخل في محله ضيف أو مسافر أو قادم من بلدة أو إقليم أن يعرِّف عنه حالًا حاكم البلد، ولا يتأخر عن الإخبار إلا مدة أربع وعشرين ساعة يعرفه عن مكانه الذي قدم منه وعن سبب قدومه وعن مدة سفره ومن أي طايفة أو ضيفًا أو تاجرًا أو زايرًا أو غريمًا مخاصمًا، لا بد لصاحب المكان من إيضاح البيان والحذر ثم الحذر من التلبيس والخيانة، وإذا لم يقع تعريف عن كامل ما ذكر في شأن القادم بعد الأربع وعشرين ساعة بإظهار اسمه وبلده وسبب قدومه يكون صاحب المكان متعديًا ومذنبًا وخاينًا وموالسًا مع المماليك.

ونخبركم معاشر الرعايا وأرباب الخمامير والوكايل أن تكونوا ملزومين بغرامة عشرين ريالًا فرانسة في المرة الأولى، وأما في المرة الثانية فإن الغرامة تضاعف ثلاث مرات، ونخبركم أن الأمر بهذه الأحكام مشترك بينكم وبين الفرنسيس الفاتحين للخمامير والبيوت والوكايل، والسلام.

وفيه اجتمعوا بالديوان وتفاوضوا في شأن مصطفى بك كتخدا الباشا المولى أمير الحاج، وهو أنه لما ارتحل مع ساري عسكر وصحبته القاضي والمشايخ الذين عينوا للسفر والوجاقلية والتجار، وافترق منهم عند بلبيس وتقدم هو إلى الصالحية، ثم إنهم انتقلوا إلى العرين فحضر جماعة من العساكر المسافرين، فاحتاجوا إلى الجمال فأخذوا جمالهم.

فلما وصل ساري عسكر إلى وطنه أرسل يستدعيهم إلى الحضور فلم يجدوا ما يحملون عليه متاعهم، وبلغهم أن الطريق مخيفة من العرب فلم يمكنهم اللحاق به، فأقاموا بالعرين (بالعين المهملة) عدة أيام، وأهمل أمرهم ساري عسكر، ثم إن الشيخ الصاوي والعريشي والدواخلي وآخرين خافوا عاقبة الأمر ففارقوهم وذهبوا إلى القرين (بالقاف) وحصل للدواخلي توعك وتشويش، فحضر إلى مصر كما تقدم ذكر ذلك، وانتقل مصطفى بك المذكور والقاضي وصحبتهم الشيخ الفيومي وآخرون من التجار والوجاقلية إلى كفور نجم وأقاموا هناك أيامًا.

واتفق أن الصاوي أرسل إلى داره مكتوبًا، وذكر في ضمنه أن سبب افتراقهم من الجماعة أنهم رأوا من كتخدا الباشا أمورًا غير لايقة، فلما حضر ذلك المكتوب طلبه الفرنساوية المقيمون بمصر، وقروه وبحثوا عن الأمور الغير اللايقة فأَوَّلَها بعض المشايخ أنه قصَّر في حقهم والاعتنا بشأنهم، فسكتوا وأخذوا في التفحص، فظهر لهم خيانته ومخامرته عليهم، واجتمع عليه الجبالي وبعض العرب العصاة وأكرمهم وخلع عليهم، وانتقل بصحبتهم إلى منية غمر ودقدوس وبلاد الوقف، وجعل يقبض منهم الأموال، وحين كانوا على البحر مر بهم مواكب تحمل الميرة والدقيق إلى الفرنسيس بدمياط، فقاطعوا عليهم وأخذوا منهم ما معهم قهرًا وأحضروا المراكبية بالديوان، فحكوا على ما وقع لهم معه، فأثبتوا خيانة مصطفى بك المذكور وعصيانه، وأرسلوا هجانًا بإعلام ساري عسكرهم بذلك، فرجع إليهم بالجواب يأمرهم فيه بأن يرسلوا له عسكرًا ويرسلوا إلى داره جماعة ويقبضون عليه ويختمون على داره ويحبسون جماعته.

وفي يوم الأحد رابع عشرينه عينوا عليه عسكرًا، وأرسلوا إلى داره جماعة ومعهم وكلا فقبضوا على كتخدايه الذي كان ناظرًا على الكسوة وعلى ابن أخيه ومن معهم وأودعوهم السجن بالجيزة، وضبطوا موجوداته وما تركه مخدومه بكر باشا بقايمة وأودعوا ذلك بمكان بالقلعة، فوجدوا غالب أمتعة الباشا وبرقه وملابسه وعبى الخيل والسروج وغيرها شيًّا كثيرًا.

ووجدوا بعض خيول وجمال أخذوها أيضًا، فانقبض خواطر الناس لذلك، فإنهم كانوا مستأنسين بوجوده ووجود القاضي، ويتوسلون بشفاعتهما عند الفرنسيس وكلمتهما عندهم مقبولة وأوامرهما مسموعة، ثم إنهم أرسلوا أمانًا للمشايخ والوجاقلية والتجار بالحضور إلى مصر مكرمين ولا بأس عليهم.

وفيه ورد الخبر بأن السيد عمر أفندي نقيب الأشراف حضر إلى دمياط وصحبته جماعة من أفندية الروزنامة الفارين مثل: عثمان أفندي العباسي، وحسن أفندي كاتب الشهر، ومحمد أفندي ثاني قلفة وباش جاجرت، والشيخ قاسم المصلي وغيرهم، وذلك أنهم كانوا بقلعة يافا فلما حاصرها الفرنساوية وملكوا القلعة والبلد لم يتعرضوا للمصريين، وطلبهم إليه وعاتبهم على نقلهم وخروجهم من مصر وألبسهم ملابس وأنزلهم في مركب وأرسلهم إلى دمياط من البحر.

وفي يوم الاثنين نادوا في الأسواق على المماليك والغز والأجناد الأغراب بأنهم يحضرون إلى بيت الوكيل، ويأخذون لهم أوراقًا بعد معرفتهم والتضمين على أنفسهم، ومن وجد من غير وثيقة في يده بعد ذلك يستاهل الذي يجري عليه، وسبب ذلك إشاعة دخول الكثير منهم إلى مصر خفية بصفة الفلاحين.

وفي يوم الثلاثا نادوا في الأسواق والشوارع بأن من أراد الحج فليحج في البحر من السويس صحبة الكسوة والصرة، وذلك بعد أن عملوا مشورة في ذلك.

وفيه حضر إمام كتخدا الباشا ومعه مكتوب فيه الثنا على الفرنساوية وشكر صنيعهم واعتنايهم بعملهم موكب الكسوة والدعا لهم، وأنه مستمر على مودته ومحبته معهم ويطلب منهم الإجازة بالحضور إلى مصر ليسافر بصحبة الكسوة والحجاج، فإن الوقت ضاق ودخل أوان السفر للحج، وفي آخر المكتوب: وإن بلغكم من المنافقين عنا شي فهو كذب ونميمة فلا تصدقوه فقُرِيَ كتابه بالديوان، فلما فهمه الفرنسيس كذبوه ولم يصغوا إليه، وقالوا: إن خيانته ثبتت عندنا فلا ينفعه هذا الاعتذار، ثم كتبوا له جوابًا وأرسلوه صحبة إمامه مضمونه: إن كان صادقًا في مقالته فليذهب إلى جهة ساري عسكر بالشام، وأمهلوه ست ساعات بعد وصول الجواب إليه، وإن تأخر زيادة عليها كان كاذبًا في مقالته، وأمروا العسكر بمحاربته والقبض عليه.

وفيه كتبوا أوراقًا ونادوا بها في الشوارع وهي:

يا أهل مصر نخبركم أن أمير الحاج رفعوه عن سفره بالحاج بسبب ما حصل منه، وأن أهل مصر علما ووجاقات ورعايا لم يخالطوه في هذا الأمر ولم ينسب

لهم شيء، فالحمد لله الذي برأ أهل مصر من هذه الفتنة وهم حاضرون سالمون غانمون ما عليهم سو، ومن كان مراده الحج يؤهل نفسه ويسافر صحبة الصرة والكسوة في البحر والمراكب حاضرة والمعينون المحافظون من أهل مصر صحبة الحاج حاضرون، يكون في علمكم أن تكونوا مطمنين واتركوا كلام الحشاشين.

وفي يوم السبت غايته حضر المشايخ والوجاقات والتجار ما خلا القاضي، فإنه لم يحضر وتخلف مع مصطفى كتخدا.

وانقضى هذا الشهر وما تجدد به من الحوادث التي منها أن الفرنساوية عملوا جسرًا من مراكب مصطفة، وعليها أخشاب مسمرة من بر مصر بالقرب من قصر العيني إلى الروضة قريبًا من موضع طاحون الهوا، تسير عليه الناس بدوابهم وأنفسهم إلى البر الآخر، وعملوا كذلك جسرًا عظيمًا من الروضة إلى الجيزة.

ومنها أن توت الفلكي رسم في فسحة دارهم العليا ببيت حسن كاشف جركس خطوط البسيطة لمعرفة فضل الدايرة لنصف النهار على البلاط المفروش بطول الفسحة، ووضع لها بدل الشاخص دايرة مثقوبة بثُقَب عديدة في أعلى الرفوف مقابلة لعرض الشمس ينزل الشعاع من تلك الثقب، ويمر على الخطوط المرسومة المقسومة، ويعرف منه الباقي للزوال ومدارات البروج شهرًا شهرًا وعلى كل برج صورته ليعلم منه درجة الشمس، ورسم أيضًا مزولة بالحايط الأعلى على حوش المكان الأسفل المشترك بين الدارين بشاخص على طريق وضع المنحرفات والمزاول، ولكن للساعات قبل الزوال وبعده، خلاف الطريق المعروفة عندنا بوقت العصر، وفضل دايرة الغروب وقوس الشفق والفجر وسمْت القبلة، وتقسيم الدرَج وأمثال ذلك، لأجل تحقيق أوقات العبادة وهم لا يحتاجون إلى ذلك فلم يعاينوه، ورسم أيضًا بسيطة على مربعة من نحاس أصفر منزلة بخطوط عديدة في قاعدة عمود قصير طوله أقل من قامة قايم بوسط الجنينة، وشاخصها مثلث من حديد يمر ظل طرفه على الخطوط المتقاطعة، وهي متقنة الرسم والصناعة، وحولها معاريفها واسم واضعها بالخط السلس العربي المجود حفرًا في النحاس، وفيها تنازيل الفضة على طريقة أوضاع العجم وغير ذلك.

ومنها أنهم لما سخطوا على كتخدا الباشا وقبضوا على أتباعه وسجنوهم وفيهم كتخداه الذي كان ناظرًا على الكسوة، فقيدوا في النظر على مباشرة إتمامها صاحبنا السيد إسماعيل الوهبي المعروف بالخشاب أحد العدول بالمحكمة، فنقلها لبيت أيوب

جاويش بجوار مشهد السيدة زينب وتمموها هناك وأظهروا أيضًا الاهتمام بتحصيل مال الصرة، وشرعوا في تحرير دفتر إرسالية خاصة.

واستهل شهر القعدة بيوم الأحد سنة ١٢١٣

في سادسه يوم الجمعة حضرت هجانة من الفرنسيس، ومعهم مكاتبة مضمونها أنهم أخذوا حيفا وبعدها ركبوا على عكا، وضربوا عليها وهدموا جانبًا من سورها وأنهم بعد أربع وعشرين ساعة يملكونها، وأنهم استعجلوا في إرسال هذه الهجانة لطول المدة والانتظار لئلا يحصل لأصحابهم القلق فكونوا مطمينين وبعد سبعة أيام نحضر عندكم، والسلام.

وفيه حضرت مغاربة حجاج إلى بر الجيزة فتحدث الناس وكثر لغطهم وتقوَّلوا بأنهم عشرون ألفًا حضروا لينقذوا مصر من الفرنسيس؛ فأرسل الفرنسيس للكشف عليهم فوجدوهم طايفة من خلايا وقرى فاس مثل الفلاحين، فأذنوا لهم في تعدية بعض أنفار منهم لقضا أشغالهم.

فحضر شخص منهم إلى الفرنسيس ووشى إليهم أنهم قدموا لمحاربهتم والجهاد فيهم، وأنهم اشتروا خيلًا وسلاحًا، وقصدهم إثارة فتنة فأرسل الفرنسيس إليهم جماعة ينظرون في أمرهم، فذهبوا إليهم وتكلموا معهم ومع كبيرهم وعن الذي نقل عنهم، فقالوا: إنما جينا بقصد الحج لا لغيره.

ثم رجعوا وصحبتهم كبير المغاربة وسألوه وناقشوه، فقال: إنا لم نأت إلا بقصد الحج، فقيل له: ولأي شيء تشترون الأسلحة والخيول؟ فقال: نعم لازم لنا ذلك ضرورة، فقيل له: إنه نقل عنكم أنكم تريدون محاربة الفرنساوية وتقولون: الجهاد أفضل من الحج، فقال: هذا كلام لا أصل له، فقيل له: إن الناقل لذلك رجل منكم، فقال: إن هذا الرجل حرامي أمسكناه بالسرقة وضربناه وحمله الحقد على ذلك، وإن هذه البلاد ليست لنا ولا لسلطاننا حتى نقاتل عليها، ولا يصح أن نقاتلكم بهذه الشرذمة القليلة، وليس معنا إلا نصف قنطار بارود، ثم اتفقوا معه على أن يجمعوا سلاحهم، ويقيم كبيرهم عندهم رهينة حتى يعدي جماعته ويسافروا ويلحقهم بعد يومين بالسلاح، فأجابهم إلى ذلك فشكروه وأهدوا له هدية.

فلما كان يوم السبت خرجت عدة من العسكر إلى بولاق ومعهم مدفعان ليقفوا للمغاربة حتى يعدوا البحر ويمشوا معهم إلى العادلية، فلما رأى الناس خروج العسكر

والمدافع فزعوا في المدينة وبولاق ورمحوا كعادتهم في كرشاتهم وصياحهم، وأشاعوا أن الفرنسيس خرجت لقتال المغاربة، وأغلقوا غالب الأسواق والدكاكين وأمثال ذلك من تخيلاتهم، فلم يعدِّ المغاربة ذلك اليوم وعدوا في ثاني يوم ومشى معهم عسكر الفرنسيس إلى العادلية وهم يضربون الطبول، وأمامهم مدفع وخلفهم مدفع مع جملة من العساكر.

وفي يوم الثلاثا عاشره سافر عدة من عسكر الفرنسيس إلى عرب الجزيرة، فإن مصطفى بك كتخدا الباشا ذهب إليهم والتجا لهم فعينوا عليهم تلك العساكر.

وفي يوم الأربعا فرجوا عن جماعة من القليونجية وغيرهم الذين كانوا محبوسين بالقلعة، وفيهم المعلم نقولا النصراني الآرمني الذي كان ريس مركب مراد بك الحربية التي أنشأها بالجيزة وأسكنوه ببيت حسن كتخدا بباب الشعرية.

وفيه حضر ابن شديد شيخ عرب الحويطات بأمان، وكان عاصيًا فأعطوه الأمان، وخلعوا عليه وسفروا معه قافلة دقيق وبقسماط للعسكر بالشام.

وفي يوم السبت حادي عشرينه حضر «مجلون» من الناحية القبلية وصحبته أموال البلاد والغنايم من بهايم وخلافها.

وفيه عملوا كرنتيلة عند العادلية لمن يأتي من بر الشام من العسكر إلى ناحية شرق إطفيح بسبب محمد بك الألفي.

وفيه حضر الذين كانوا ذهبوا إلى عرب الجزيرة، فضربوهم ونالوا منهم بعض النيل، وأما مصطفى بك فلم تعلم عنه حقيقة حال، قيل إنه ذهب إلى الشام.

وفي خامس عشرينه وصلت مراسلة من المذكور خطابًا للمشايخ مضمونها: أنهم يعرفون أكابر الفرنسيس أنه متوجه إلى ساري عسكرهم بالشام، ويرجون الإفراج عن قريبه وكتخدايه ويتحفظون على الأمتعة التي أخذوها، فإنها من متعلقات الدولة، فلما أطلعوهم على تلك المكاتبة قالوا: لا يمكن الإفراج عن المذكورين حتى نتحقق أنه ذهب إلى ساري عسكر، ويأتينا منه خطاب في شأنه، فإنه من الجايز أنه يكذب في قوله.

وفيه ثبت أن محمد بك الألفي مَرَّ من خلف الجبل وذهب إلى عرب الجزيرة، ومعه من جماعته نحو الماية وقيل أكثر، والتف عليه الكثير من الغز والمماليك المشردين بتلك النواحي وقدم له العربان التقادم والكلف، فأرسل له الفرنسيس عدة من العسكر.

وفي سابع عشرينه لخص الفرنساوية طومارًا قُرِيَ بالديوان، وطبع منه عدة نسخ وألصقت بالأسواق على العادة، وكان الناس أكثروا من اللغط بسبب انقطاع الأخبار عن الفرنسيس المحاصرين لعكا، والروايات عمن بالصعيد والكيلاني والأشراف الذين معه وغير ذلك، وصورتها:

من محفل الديوان الكبير بمصر:

بسم الله الرحمن الرحيم ولا عدوان إلا على الظالمين، نخبر أهل مصر أجمعين، أنه حضر جواب من عكا من حضرة ساري عسكر الكبير خطابًا منه إلى حضرة ساري عسكر الوكيل بثغر دمياط تاريخه تاسع القعدة سنة تاريخه، يخبر فيه أننا أرسلنا لكم نقيرتين لدمياط: الأولى أرسلناها في خمسة وعشرين شوال، والثانية في ثمانية وعشرين منه، أخبرناكم فيهما عن مطلوبنا إرسال جانب جلل وذخاير إلى عساكرنا المحافظين في غزة ويافا لأجل زيادة المحافظة والصيانة، وأما من قبل العرضي فإن الجلل عندنا كثيرة والذخاير والمآكل والمشارب والخيرات غزيرة، حتى إنها زادت عندنا الجلل بكثرة، جمعناها ممارمته الأعدا فكأن أعدانا أعانونا، ونخبركم أننا عملنا لغمًا مقدار عمقه ثلاثون قدمًا وسرنا به حتى قربناه إلى السور الجواني بمسافة نحو ثمانية عشر قدمًا، وقد قربت عساكرنا من الجهة التي تحارب فيها حتى صار بينهم وبين السور ثمانية وأربعون قدمًا، بمشيئة الله تعالى عند وصول كتابنا إليكم، وقبل إتمام قراءته عليكم نكون ظافرين بملك قلعة عكا أجمعين، فإننا تهيأنا إلى دخولها، يأتيكم خبر ذلك بعد هذا الكتاب، وأما بقية إقليم الشام وما يلي عكا من البلاد فإنهم لنا طيعون وبالاعتنا ومزيد المحبة راغبون، يأتوننا بكل خير عظيم ويحضرون لنا أفواجًا أفواجًا بالهدايا الكثيرة والحب الجسيم من القلب السليم، وهذا من فضل الله علينا، ومن شدة بغضهم الجزار باشا.

ونخبركم أيضًا أن الجنرال جونوت انتصر على أربعة آلاف مقاتل حضروا من الشام خيالة ومشاة، فقابلهم بثلثماية عسكري مشاة من عسكرنا، فكسروا التجريدة المذكورة وأوقع منهم نحو ستماية نفس ما بين مقتول ومجروح، وأخذ منهم خمسة بيارق وهذا أمر عجيب لم يقع نظيره في الحروب أن ثلثماية نفس تهزم نحو أربعة آلاف نفس، فعلمنا أن النصرة من عند الله لا بالقلة ولا بالكثرة.

هذا آخر كتاب ساري عسكر الكبير إلى وكيله بدمياط، وأرسل إلينا بالديوان حضرة الوكيل ساري عسكر دوجا الوكيل بمصر المحروسة يخبرنا بصورة هذا المكتوب ويأمرنا أننا نلزم الرعايا من أهل مصر والأرياف أن يلزموا الأدب والإنصاف، ويتركوا الكذب والخراف، فإن كلام الحشاشين يوقع

الضرر للناس المعتبرين، فإن حضرة ساري عسكر دوجا الوكيل بلغه أن أهل مصر وأهل الأرياف يتكلمون بكلام لا أصل له من قبل الأشراف.

والحال أن الأشراف الذين يذكرونهم ويكذبون عليهم جاءت أخبارهم من حضرة ساري عسكر الصعيد يخبر الوكيل دوجا بأن الأشراف المذكورين الذين صحبة الكيلاني قد مُزِّقوا كل ممزق، وانهزموا وتفرقوا فلم يكن الآن في بلاد الصعيد شي يخالف المراد، وسلم من الفتن والعناد، فأنتم يا أهل مصر ويا أهل الأرياف اتركوا الأمور التي توقعكم في الهلاك والتلاف، وامسكوا أدبكم قبل أن يحل بكم الدمار ويلحقكم الندم والعار، والأَوْلى للعاقل اشتغاله بأمر دينه ودنياه، وأن يترك الكذب وأن يسلم لأحكام الله وقضاه، فإن العاقل يقرأ العواقب وعلى نفسه يحاسب، هذا شأن أهل الكمال يتركون القيل والقال، ويشتغلون بإصلاح الأحوال، ويرجعون إلى الكبير المتعال، والسلام.

وفي هذا الشهر كتبوا أوراقًا بأوامر ونصها:

من محفل الديوان العمومي إلى جميع سكان مصر وبولاق ومصر القديمة، إننا قد تأملنا وميزنا أن الواسطة الأقرب والأيمن لتلطيف أو لمنع الخطر الضروري، وهو تشويش الطاعون عدمُ المخالطة مع النسا المشهورات؛ لأنهن الواسطة الأولى للتشويش المذكور، فلأجل ذلك حتمنا ورتبنا ومنعنا إلى مدة ثلاثين يومًا من تاريخه أعلاه لجميع الناس إن كان فرنساويًّا أو مسلمًا أو روميًّا أو نصرانيًّا أو يهوديًّا من أي ملة كان، كل من أدخل إلى مصر أو بولاق أو مصر القديمة من النسا المشهورات، إن كان في بيوت العسكر أو كل من كان داخل المدينة فيكون قصاصه بالموت، كذلك من قبل النسا والبنات المشهورات بالعسكر إن دخلن من أنفسهن أيضًا يقاصصن بالموت.

ومن حوادث هذا الشهر أنه حضر إلى القلزم مركبان إنكليزيان وقيل أربعة وقفوا قبالة السويس وضربوا مدافع، ففر أناس من سكان السويس إلى مصر، وأخبروا بذلك أنهم صادفوا بعض داوات تحمل البن والتجارة، فحجزوها ومنعوها من الدخول إلى السويس.

ومنها أن طايفة من عرب البحيرة يقال لهم عرب الغز جاءوا وضربوا دمنهور وقتلوا عدة من الفرنسيس، وعاثوا في نواحي تلك البلاد حتى وصلوا إلى

الرحمانية ورشيد وهم يقتلون من يجدونه من الفرنسيس وغيرهم وينهبون البلاد والزروعات.

ومنها أن الكيلاني المذكور آنفًا تُوفي إلى رحمة الله تعالى وتفرقت طايفته في البلاد حتى إنه حضر منهم جملة إلى مصر، وكان أكثر من يخامر عليهم أهل بلاد الصعيد فيوهمونهم معاونتهم، وعند الحروب يتخلون عنهم، وبعض البلاد يضيفهم ويسلط عليهم الفرنسيس فيقبضون عليهم.

ومنها أنه حضر إلى مصر الأكثر من عسكر الفرنسيس الذين كانوا بالجهة القبلية، وضربوا في حال رجوعهم بني عدي، بلدة من بلاد الصعيد مشهورة، وكان أهلها ممتنعين عليهم في دفع المال والكلف، ويرون في أنفسهم الكثرة والقوة والمنعة، فخرجوا عليهم وقاتلوهم، فملك عليهم الفرنسيس تلًّا عاليًا وضربوا عليهم بالمدافع فأتلفوهم وأحرقوا جرونهم، ثم كبسوا عليهم وأسرفوا في قتلهم ونهبهم، وأخذوا شيًّا كثيرًا وأموالًا عظيمة وودايع جسيمة للغز وغيرهم من مساتير أهل البلاد القبلية لظن منعتهم، وكذلك فعلوا بالميمون.

واستهل شهر ذي الحجة بيوم الثلاثا سنة ١٢١٣

في ثانيه خرج نحو الألف من عسكر الفرنسيس للمحافظة على البلاد الشرقية لتجمع العرب والمماليك على الألفي، وكذلك تجمع الكثير من الفرنسيس وذهبوا إلى جهة دمنهور، وفعلوا بها ما فعلوا في بني عدي من القتل والنهب لكونهم عصوا عليهم، بسبب أنه ورد عليهم رجل مغربي يدَّعي المهدوية ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد، وصحبته نحو الثمانين نفرًا، فكان يكاتب أهل البلاد ويدعوهم إلى الجهاد، فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا إلى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنساوية، واستمر أيامًا كثيرة تجتمع عليه أهل تلك النواحي وتفترق، والمغربي المذكور تارة يغرب وتارة يشرق.

وفيه أشيع أن الألفي حضر إلى بلاد الشرقية، وقاتل من بها من الفرنسيس ثم ارتحل إلى الجزيرة.

وفي سابعه حضر جماعة من فرنسيس الشام إلى الكرنتيلة بالعادلية، وفيهم مجاريح وأخبر عنهم بعضهم أن الحرب لم تزل قايمة بينهم وبين أحمد باشا بعكا، وأن مهندس حروبهم المعروف بأبي خشبة عند العامة واسمه كفرللي مات وحزنوا لموته؛ لأنه كان من

دهاتهم وشياطينهم وكان له معرفة بتدبير الحروب ومكايد القتال وإقدام عند المصاف، مع ما ينضم لذلك من معرفة الأبنية وكيفية وضعها وكيفية أخذ القلاع ومحاصرتها.

وفي يوم الأربعا كان عيد النحر وكان حقه يوم الخميس، وعند الغروب من تلك الليلة ضربوا مدافع من القلعة إعلامًا بالعيد وكذلك عند الشروق، ولم يقع في ذلك العيد أضحية على العادة لعدم المواشي ولكونها محجوزة في الكرنتيلة والناس في شغل عن ذلك.

ومن الحوادث في ذلك اليوم أن رجلًا روميًّا من باعة الرقيق عنده غلام مملوك ساكن في طبقة بوكالة ذي الفقار بالجمالية، خرج لصلاة العيد ورجع إلى طبقته فوجد ذلك الغلام متقلدًا بسلاح ومتزييًا بمثل ملابس القليونجية فقال له: من أين لك هذا اللباس؟ فقال: من عند جارنا فلان العسكري، فأمره بنزع ذلك فلم يستمع له ولم ينزعه، فشتمه ولطمه على وجهه، فخرج من الطبقة وحدثته نفسه بقتل سيده، ورجع يريد ذلك فوجد عند سيده ضيفًا فلم يتجاسر عليه لحضور ذلك الضيف، فوقف خارج الباب ورآه سيده فعرف من عينه الغدر، فلما قام ذلك الضيف قام معه وخرج وأغلق الباب على الغلام، فصعد الغلام على السطح وتسلق إلى سطح آخر ثم تدلى بحبل إلى أسفل الخان، وخرج إلى السوق وسيفه مسلول بيده ويقول: الجهاد يا مسلمون اذبحوا الفرنسيس، ونحو ذلك من الكلام، ومر إلى جهة الغورية فصادف ثلاثة أشخاص من الفرنسيس فقتل منهم شخصًا وهرب الاثنان، ورجع على أثره والناس يعدون خلفه من بعد، إلى أن وصل إلى درب بالجمالية غير نافذ، فدخله وعبر إلى دار وجدها مفتوحة وربها واقف على بابها والفرنسيس تجمع منهم طايفة وظنوا ظنونًا أخر، وبادروا إلى القلاع وحضرت منهم طايفة من القلق يسألون عن ذلك المملوك، وهاجت العامة ورمحت الصغار وأغلق بعض الناس حوانيتهم، ثم لم تزل الفرنسيس تسأل عن ذلك المملوك، والناس يقولون لهم: ذهب من هنا حتى وصلوا إلى ذلك الدرب فدخلوه فلما أحس بهم نزع ثيابه، وتدلى ببير في تلك الدار فدخلوا الدار وأخرجوه من البير، وأخذوه وسكنت الفتنة وسألوه عن أمره وما السبب في فعله ذلك، فقال: إنه يوم الأضحية فأحببت أن أضحي على الفرنسيس، وسأله عن السلاح فقال: إنه سلاحي فحبسوه لينظروا في أمره وطلبوا سيده فوجدوه عند الشيخ المهدي، وأخذوا بعض جماعة من أهل الخان، ثم أطلقوهم بدون ضرر، وأخذوا سيده من عند المهدي وحبسوه، وحضر الأغا وبرطلمين إلى الخان بعد العشا وطلبوا البواب والخانجي والجيران، وصعدوا إلى الطباق وفتشوا على السلاح حتى قلعوا البلاط

فلم يجدوا شيًّا، وأرادوا فتح الحواصل فمنعهم السيد أحمد بن محمود محرم فخرجوا وأخذوا معهم الخانجي وجيران الطبقة وجملة أنفار وحبسوهم أيضًا، وقتلوا المملوك في ثاني يوم، واستمر الجماعة في الحبس إلى أن أطلقوهم بعد أيام عديدة من الحادثة.

وفي ذلك اليوم أيضًا مر نصراني من الشوام على المشهد الحسيني وهو راكب على حمار فرآه ترجمان ضابط الخطة ويسمى السيد عبد الله، فأمره بالنزول إجلالًا للمشهد على العادة، فامتنع فانتهره وضربه وألقاه على الأرض، فذهب ذلك النصراني إلى الفرنسيس، وشكا إليهم السيد عبد الله المذكور فأحضروه وحبسوه فشفع فيه مخدومه فلم يطلقوه، وادعى النصراني أنه كان بعيدًا عن المشهد، وأحضر من شهد له بذلك وأن السيد عبد الله متهور في فعله، وادعى أنه ضاع له وقت ضربه دراهم كانت في جيبه، واستمر الترجمان محبوسًا عدة أيام حتى دفع تلك الدراهم وهي ستة آلاف درهم.

وفيه أرسل فرنسيس مصر إلى ريس الشام ميرة على جمال العرب نحو الثمانماية جمل، وذهب صحبتها برطلمين وطايفة من العسكر، فأوصلوها إلى بلبيس ورجعوا بعد يومين.

وفيه حضر إلى السويس تسعة داوات بها بن وبهار وبضايع تجارية، وفيها لشريف مكة نحو خمسماية فرق بن وكانت الإنكليز منعتهم الحضور، فكاتبهم الشريف فأطلقوهم بعد أن حددوا عليهم أيامًا مسافة التنقيل والشحنة، وأخذوا منهم عشورًا وسامح الفرنسيس ابن الشريف من العشور؛ لأنه أرسل لهم مكاتبة بسبب ذلك وهدية قبل وصول المراكب إلى السويس بنحو عشرين يومًا، وطبعوا صورتها في أوراق وألصقوها بالأسواق وهي خطاب لبوسليك، وصورته:

> من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة إلى عين أعيانه وعمدة إخوانه بوسليك مدبر أمور جمهور الفرنساوية، ممهد بنيان السياسة بسداد همته الوفية، وبعد؛ فإنه وصل إلينا كتابك وفهمنا كامل ما حواه خطابك مما ذكرت من وصول قنجتنا، وأنك أرسلت هجانًا برفع العشور عن البن، وبذلت الهمة في شأن التصرف في نفاذ بيعه، وتأملنا في كتابك فوجدنا من صدق مقاله ما أوجب تمسكنا بوثاق الاعتماد عن تموه غياهب الشك في كل المراد.
>
> ووجب الآن علينا تكوين أسباب المصادقة والمبادرة فيما ينظم مهمات تسليك الطرق بيننا وبينكم من الوعث وزوال المناكرة، وشهلنا الآن إلى طرفكم خمسة مراكب مشحونة من نفس بندرنا المعمورة في هذا الأوان، ولا أمكن

لنا خروج هذا المقدار إلا بمشقة علاج مع سلب اطمينان التجار؛ لأن كثرة أكاذيب الأخبار أوجبت لهم مزيد الارتياب والأعذار بحيث ما بيننا وبينكم إلا العربان المختلفة رواياتهم على ممر الأزمان، وأما نحن فقد جاتنا منكم قبل هذا المكاتيب التي أوجبت عندنا من خطاب كتبكم زوال تلك الظنون والأكاذيب، فخاطِرُنا مستقر بالطمانينة من قبلكم لما ثبت عندنا من ألفاظ كتبكم، والمطلوب في حال وصول كتابنا إليكم إرسال عسكر من لديكم إلى بندر السويس لأجل حفظ أموال الناس، ويصلوا بالأبنان إلى مصر، ويبيع التجار ويزول وقف الأسباب والباس، وتهتموا في رجوعهم كذلك قبل بأوان ليكون ذلك سببًا في كثرة وفود الأبنان، وعند رجوعهم بعد المبيع من مصر إلى السويس كذلك تصحبوهم بالعسكر من طرفكم الوثيق؛ ليكونوا محافظين لهم من شرور الطريق؛ لأن هذه المرة ما أرسل إليكم هذا المقدار إلا تجربة واستخبار من أعيان التجار.

وعند مشاهدة الإكرام والاحتفال بهم في كل حال يرسلون إليك نفايس أموالهم، ويهرعون بالجلب لطرفكم ويزول الريب عن قلوبهم، ونرجو الله بهمتنا تسليك الطرقات وتنجيح المطلب وتحصيل الميراث بأحسن مما كانت من الأمان، وأعظم مما سبق في غابر الأزمان، ويكثر بحول الله الوارد إليكم من الأسباب الحجازية.

وكذلك لنا بن في المراكب فمأمولنا منكم إلقا النظر على خدامنا، وبذلك الهمة على ما هو من طرفنا، وأنتم كذلك لكم عندنا مزيد الإكرام في كل مرام، ولا يخفاك أنه ورد علينا قبلُ بأيام كتب من طرف أمير العسكر الفرنساوية محبنا بونابارته، فما كان لنا منها فتأملناه وصار إليه الجواب توصله إليه، وما كان منهما معولًا في إرساله علينا إلى نواحي الهند وابن حيدر وإمام مسكت ووكيلكم الذي في المخا، فجميعًا أصدرناها من طرفنا مع من نعتمده إلى أربابها، وإن شا الله عن قريب يأتيكم الجواب، والسلام.

تحريرًا في ثمانية عشر شهر ذي القعدة سنة ألف ومايتين وثلاثة عشر.

وبآخره قد وصل هذا الكتاب لمصر في ستة عشر يومًا خلت من شهر ذي الحجة، فيكون مدة وصوله من مكة المشرفة إلى مصر ثمانية وعشرين يومًا.

وانقضى هذا الشهر ولما يأتِ خبر صحيح عن فرنسيس الشام، وما جرى لهم أو عليهم إلا روايات لا يوثق بها ولا يصح بالتواتر منها إلا تكرار هجوم الفرنسيس على حصون عكا، ولم يتركوا من حيلهم ومكايدهم شيًّا إلا فعلوه ولم ينالوا غرضًا منها.

وانقضت هذه السنة وما حصل بها من الحوادث التي لم يتفق مثلها، ومن أعظمها انقطاع سفر الحج من مصر، ولم يرسلوا الكسوة ولا الصرة، وهذا لم يقع نظيره في هذه القرون ولا في دولة بني عثمان، والأمر لله وحده.

وأما من مات في هذه السنة ومن الأعيان ومن له ذكر في الناس

مات الإمام العمدة الفقيه العلامة المحقق الفهامة المتقن المتفنن المتبحر عين أعيان الفضلا الأزهرية الشيخ أحمد بن موسى بن أحمد بن محمد البيلي العدوي المالكي.

ولد ببني عدي سنة إحدى وأربعين وماية وألف، وبها نشأ فقرأ القرآن وقدم الجامع الأزهر ولازم الشيخ عليًّا الصعيدي ملازمة كلية حتى تمهر في العلوم وبهر فضله في الخصوص والعموم.

وكان له قريحة جيدة وحافظة غريبة يملي في تقريره خلاصة ما ذكره أرباب الحواشي مع حسن سبك، والطلبة يكتبون ذلك بين يديه.

وقد جمع من تقاريره على عدة كتب كان يقروها حتى صارت مجلدات، وانتفع بها الطلبة انتفاعًا عامًّا، ودرس في حياة شيخه سنينًا عدة، واشتهر بالفتوح، وكان الشيخ الصعيدي يأمر الطلبة بحضوره وملازمته، وكان في إنصاف زايد وتؤدة ومروة وتوجه إلى الحق.

ولديه أسرار ومعارف وفوايد وتمايم وعلم بتنزيل الأوفاق والوفق المئيني العددي والحرفي، وطرايق تنزيله بالتطويق والمربعات وغير ذلك.

ولما تُوفِّي الشيخ محمد حسن جلس موضعه للتدريس بإشارة من أهل الباطن.

ولما توفي الشيخ أحمد الدردير وَلِيَ مشيخة رواق الصعايدة، وله مولفات، منها: مسايل كل صلاة بطلت على الإمام وغير ذلك.

ولم يزل على حالته وإفادته وملازمة دروسه والجماعة حتى توفي في هذه السنة ودفن في تربة المجاورين، رحمة الله تعالى عليه.

ومات العلامة الفاضل الفقيه الشيخ أحمد بن إبراهيم الشرقاوي الشافعي الأزهري، قرا على والده وتفقه وأنجب ولم يزل ملازمًا لدروسه حتى توفي والده، فتصدر للتدريس

في محله، واجتمعت عليه طلبة أبيه وغيرهم، ولازم مكانه بالأزهر طول النهار يملي ويفيد ويفتي على مذهبه، ويأتي إليه الفلاحون من جيرة بلاده بقضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم فيقضي بينهم، ويكتب لهم الفتاوى في الدعاوى التي يحتاجون فيها إلى المرافعة عند القاضي، وربما زجر المعاند منهم وضربه وشتمه، ويستمعون لقوله ويمتثلون لأحكامه، وربما أتوه بهدايا ودراهم.

واشتهر ذكره وكان جسيمًا عظيم اللحية فصيح اللسان.

ولم يزل على حالته حتى اتُّهم في فتنة الفرنسيس المتقدمة، ومات مع من قتل بيد الفرنساوية بالقلعة ولم يعلم له قبر.

ومات الشيخ الإمام العمدة الفقيه الصالح القانع الشيخ عبد الوهاب الشبراوي الشافعي الأزهري، تفقه على أشياخ العصر وحضر دروس الشيخ عبد الله الشبراوي والحفني والبراوي وعطية الأجهوري وغيرهم، وتصدر للإقرا والتدريس والإفادة بالجوهرية وبالمشهد الحسيني، ويحضر درسه فيه الجم الغفير من العامة ويستفيدون منه، ويقرا به كتب الحديث كالبخاري ومسلم، وكان حسن الإلقا سلس التقرير جيد الحافظة جميل السيرة مقبلًا على شانه.

ولم يزل ملازمًا على حالته حتى اتُّهم في إثارة الفتنة، وقتل بالقلعة شهيدًا بيد الفرنسيس في أواخر جمادى الأولى من السنة ولم يعلم له قبر.

ومات الشاب الصالح والنبيه الفالح الفاضل الفقيه الشيخ يوسف المصيلحي الشافعي الأزهري، حفظ القرآن والمتون وحضر دروس أشياخ العصر كالشيخ الصعيدي والبراوي والشيخ عطية الأجهوري والشيخ أحمد العروسي، وحضر الكثير على الشيخ محمد المصيلحي، وأنجب وأملى دروسًا بجامع الكردي بسويقة اللالا، وكان مهذب النفس لطيف الذات حلو الناطقة مقبول الطلعة خفيف الروح، ولم يزل ملازمًا على حاله حتى اتهم أيضًا في حادثة الفرنسيس، وقتل مع من قتل شهيدًا بالقلعة.

ومات العمدة الشهير الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طايفة العميان بزاويتهم المعروفة الآن بالشنواني، تولى شيخًا على العميان المذكورين بعد وفاة الشيخ الشبراوي، وسار فيهم بشهامة وصرامة وجبروت وجمع بجاههم أموالًا عظيمة وعقارات، فكان يشتري غلال المستحقين المعطلة بالأبعاد بدون الطفيف ويخرج كشوفاتها وتحاويلها على الملتزمين ويطالبهم بها كيلًا وعينًا، ومن عصى عليه أرسل إليه الجيوش الكثيرة من العميان، فلا يجد بدًّا من الدفع وإن كانت غلاله معطلة صالحه بما أحب من الثمن،

وله أعوان يرسلهم إلى الملتزمين بالجهة القبلية يأتون إليه بالسفن المشحونة بالغلال والمعاوضات من السلع والسكر والزيت وغير ذلك، ويبيعها في سني الغلوات بالسواحل والرقع بأقصى القيمة، ويطحن منها على طواحينه دقيقًا، ويبيع خلاصته في البطط بحارة اليهود، ويعجن نخالته خبزًا لفقرا العميان يتقوتون به مع ما يجمعونه من الشحاذة في طوافهم آناء الليل وأطراف النهار بالأسواق والأزقة وتغنيهم بالمدايح والخرافات وقراة القرآن في البيوت ومساطب الشوارع وغير ذلك، ومن مات منهم ورثه الشيخ المترجم المذكور وأحرز لنفسه ما جمعه ذلك الميت، وفيهم من وجد له الموجود العظيم ولا يجد له معارضًا في ذلك، واتفق أن الشيخ الحفني نقم عليه في شي فأرسل إليه من أحضره موثوقًا مكشوف الرأس مضروبًا بالنعالات على دماغه وقفاه من بيته إلى بيت الشيخ بالموسكي بين ملأ العالم.

ولما انقضت تلك السنون وأهلها صار المترجم من أعيان الصدور المشار إليهم في المجالس تخشى سطوته وتسمع كلمته، ويقال قال الشيخ كذا وأمر الشيخ بكذا، وصار يلبس الملابس والفراوي ويركب البغال وأتباعه محدقة به، وتزوج الكثير من النساء الغنيات الجميلات، واشترى السراري البيض والحبش السود، وكان يقرض الأكابر المقادير الكثيرة من المال ليكون له عليهم الفضل والمنة، ولم يزل حتى حمله التفاخر في زمن الفرنسيس على تولية كِبر إثارة الفتنة التي أصابته وغيره وقتل فيمن قتل بالقلعة ولم يعلم له قبر، وكان ابنه معوقًا ببيت البكري، فلما علم بموته قلق وكاد يخرج من عقله خوفًا على ما يعلم مكانه من مال أبيه حتى خلص في ثاني يوم بشفاعة المشايخ، ولم يكن مقصودًا بالذات بل حضر ليعود أباه فحجزه القومة عليهم زيادة في الاحتياط.

ومات الأجل المفوه العمدة الشيخ إسماعيل البراوي بن أحمد البراوي الشافعي الأزهري، وهو ابن أخي الشيخ عيسى البراوي الشهير الذكر، تصدر بعد وفاة والده في مكانه، وكان قليل البضاعة؛ لأنه تغلب عليه النباهة واللسانة والسلاطة والتداخل، وذلك هو الذي أوقعه في حبايل الفرنساوية وقتل مع من قتل شهيدًا ولم يعلم له قبر، غفر الله لنا وله.

ومات الوجيه الأجل الأمثل السيد محمد كريم السكندري، وكريم بضم الكاف وفتح الراء وتشديد الياء مكسورة وسكون الميم مقتولًا بيد الفرنسيس.

وخبره أنه كان في أول أمره قبانيًّا يزن البضايع في حانوت بالثغر، وعنده خفة في الحركة وتودد في المعاشرة، فلم يزل يتقرب إلى الناس بحسن التودد ويستجلب خواطر

حواشي الدولة وغيرهم من تجار المسلمين والنصارى، ومن له وجاهة وشهرة في أبناء جنسه حتى أحبه الناس.

واشتهر ذكره في ثغر الإسكندرية ورشيد ومصر، واتصل بصالح بك حتى كان وكيلًا بدار السعادة، وله الكلمة النافذة في ثغر رشيد وتملكها وضواحيها واسترق أهلها.

وقلد أمرها لعثمان خجا فاتحد به وبمخدومه السيد محمد المذكور، واتصل بمراد بك بعد صالح أغا فتقرب إليه، ووافق منه الغرض، ورفع شأنه على أقرانه وقلده أمر الديوان والجمارك بالثغر، ونفذت كلمته وأحكامه، وتصدر لغالب الأمور وزاد في المكوسات والجمارك ومصادرات التجار خصوصًا من الإفرنج.

ووقع بينه وبين السيد شهبة الحادثة التي أوجبت له الاختفا بالصهريج وموته فيه، فلما حضر الفرنسيس ونزلوا الإسكندرية قبضوا على السيد محمد المذكور، وطالبوه بالمال وضيقوا عليه وحبسوه في مركب.

ولما حضروا إلى مصر وطلعوا إلى قصر مراد بك، وجدوا فيه مطالعة بأخبارهم وبالحث والاجتهاد على حربهم وتهوين أمرهم وتنقيصهم، فاشتد غيظهم عليه فأرسلوا وأحضروه إلى مصر وحبسوه، فتشفع فيه أرباب الديوان عدة مرار، فلم يمكن إلى أن كانت ليلة الخميس، فحضر إليه مجلون وقال له: المطلوب منك كذا وكذا من المال، وذكر له قدرًا يعجز عنه وأجله اثنتي عشرة ساعة، وإن لم يحضر ذلك القدر وإلا يقتل بعد مضيها.

فلما أصبح أرسل إلى المشايخ وإلى السيد أحمد المحروقي، فحضر إليه بعضهم فترجاهم وتداخل عليهم واستغاث وصار يقول لهم: اشتروني يا مسلمون، وليس بيدهم ما يفتدونه به، وكل إنسان مشغول بنفسه ومتوقع لشي يصيبه، وذلك في مبادي أمرهم.

فلما كان قريب الظهر وقد انقضى الأجل أركبوه حمارًا، واحتاط به عدة من العسكر وبأيديهم السيوف المسلولة، ويقدمهم طبل يضربون عليه وشقوا به الصليبة إلى أن ذهبوا إلى الرميلة وكتفوه وربطوه مشبوحًا، وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلونه ثم قطعوا راسه ورفعوها على نبوت وطافوا بها بجهات الرميلة، والمنادي يقول: هذا جزاء من يخالف الفرنسيس، ثم إن أتباعه أخذوا رأسه ودفنوها مع جثته وانقضى أمره، وذلك يوم الخميس خامس عشرى ربيع الأول.

ومات الأمير إبراهيم بك الصغير المعروف بالدالي، وهو من مماليك محمد بك أبي الدهب، وتقلد الزعامة بعد موت أستاذه، ثم تقلد الإمارة والصنجقية في أواخر جمادى الأولى سنة اثنتين وتسعين وماية وألف.

وهو أخو سليمان بك المعروف بالأغا، وعندما كان هو واليًا كان أخوه أغات مستحفظان وأحكام مصر والشرطة بينهما.

وفي سنة سبع وتسعين تعصب مراد بك وإبراهيم بك على المترجم، وأخرجوه منفيًّا هو وأخوه سليمان بك وأيوب بك الدفتردار، ولما أمروه بالخروج ركب في طوايفه ومماليكه وعدى إلى بر الجيزة، فركب خلفه علي بك أباظة ولاجين بك ولحقوا حملته عند المعادي، فحجزوها وأخذوها وأخذوا هجنه ومتاعه وعَدُّوا خلفه، فأدركوه عند الأهرام فاحتالوا عليه وردوه إلى قصر العيني، ثم سفروه إلى ناحية السرو ورأس الخليج، فأقام بها أيامًا وكان أخوه سليمان بك بالمنوفية.

فلما أرسلوا بنفيه إلى المحلة ركب بطوايفه، وحضر إلى مسجد الخضيري وحضر إليه أخوه المترجم وركبا معًا وذهبا إلى جهة البحيرة، ثم ذهبا إلى طندتا، ثم ذهبا إلى شرقية بلبيس، ثم توجها من خلف الجبل إلى جهة قبلي، وكان أيوب بك بالمنصورة فلحق بهما أيضًا، وكان بالصعيد عثمان بك الشرقاوي ومصطفى بك فالتفا عليهما وعصى الجميع، وأرسل مراد بك وإبراهيم بك محمد كتخدا أباظة وأحمد أغا شويكار إلى عثمان بك ومصطفى بك يطلبانهما إلى الحضور، فأبيا وقالا: لا نرجع إلى مصر إلا بصحبة إخواننا وإلا فنحن معهم أينما كانوا.

ورجع المذكوران بذلك الجواب، فجهزوا لهم تجريدة وسافر بها إبراهيم بك الكبير وضمهم وصاحبهم، وحضر بصحبة الجميع إلى مصر فحنق مراد بك ولم يزل حتى خرج مغضبًا إلى الجيزة ثم ذهب إلى قبلي، وجرى بينهما ما تقدم ذكره من إرسال الرسل ومصالحة مراد بك ورجوعه وإخراج المذكورين ثانيًا، فخرجوا إلى ناحية القليوبية، وخرج مراد بك خلفهم، ثم رجوعهم إلى جهة الأهرام وقبض مراد بك عليهم ونفيهم إلى جهة بحري، وأرسل المترجم إلى طندتا ثم ذهبوا إلى قبلي خلا مصطفى بك وأيوب بك، ثم رجعوا إلى مصر بعد خروج مراد بك إلى قبلي.

واستمر أمرهم على ما ذكر حتى ورد حسن باشا، وخرج الجميع وجرى ما تقدم ذكره.

وتولى المترجم إمارة الحاج سنة مايتين وألف، ولم يسافر به، ولما رجعوا إلى مصر بعد الطاعون وموت إسماعيل بك ورجب بك صاهره إبراهيم بك الكبير وزوَّجه ابنته كما تقدم.

ولم يزل في سيادته وإمارته حتى حضر الفرنساوية ووصلوا إلى بر إنبابة ومات هو في ذلك اليوم غريقًا ولم تظهر رِمَّته، وذلك يوم السبت سابع صفر من السنة المذكورة.

ومات الأمير علي بك الدفتردار المعروف بكتخدا الجاويشية، وأصله مملوك سليمان أفندي من خشداشين كتخدا إبراهيم القازدغلي.

وكان سيده المذكور رغب عن الإمارة ورضي بحاله وقنع بالكفاف ورغب في معاشرة العلما والصلحا، وفي الانجماع عن أبناء جنسه والتداخل في شونهم.

وكان يأتي في كل يوم إلى الجامع الأزهر ويحضر دروس العلما ويستفيد من فوايدهم، ولازم دروس الشيخ أحمد السليماني من الفقه الحنفي إلى أن مات، فتقيد بحضور تلميذه الشيخ أحمد الغزي كذلك.

واقترن في حضوره بالشيخ عبد الرحمن العريشي، وكان إذ ذاك مقتبل الشبيبة مجردًا عن العلايق فكان يعيد معه الدروس، فاتحد به لما رأى فيه من النجابة فجذبه إلى داره وكساه، وواساه واستمر يطالع معه في الفقه ويعيد معه الدروس ليلًا، وزوَّجه وأغدق عليه، وكان هو مبدأ زواجه.

ولم يزل ملازمًا حتى توفي سليمان أفندي المذكور في سنة خمس وسبعين وماية وألف، فتزوج المترجم بزوجة سيده، واستمر هو وخشداشه الأمير أحمد بمنزل أستاذهم.

وتتوق نفس المترجم للترفع والإمارة فتردد إلى بيوت الأمرا كغيره من الأجناد، فقلده علي بك الكبير كشوفية شرق أولاد يحيى في سنة اثنتين وثمانين وماية وألف، فتقلدها بشهامة وقتل البغاة وأخاف الناحية وجمع منها أموالًا، واستمر حاكمًا بها إلى أن خالف محمد بك أبو الدهب على سيده علي بك، وخرج من مصر إلى الجهة القبلية فلما وصل إلى الناحية كان المترجم أول من أقبل عليه بنفسه وما معه من المال والخيام، فسر به محمد بك وقربه وأدناه، ولم يزل ملازمًا لركابه حتى جرى ما جرى وتملك محمد بك الديار المصرية، فقلده أغاوية المتفرقة أيامًا قليلة.

ثم خيَّره في تقليد الصنجقية أو كتخدا الجاويشية فقال له: حتى أستخير في ذلك، وحضر إلى المرحوم الشيخ الوالد وذكر له ذلك فأشار عليه بأن يتقلد كتخدا الجاويشية، فإنه منصب جليل واسع الإيراد وليس على صاحبه تعب ولا مشقة غفر ولا سفر تجاريد ولا كثرة مصاريف فكان كذلك، وذلك في سنة ست وثمانين، وسكن ببيت سليمان أغا كتخدا الجاويشية بدرب الجماميز على بركة الفيل.

ونما أمره واتسع حاله واشتهر وانتظم في عداد الأمرا، ولم يزل على ذلك إلى أن مات محمد بك، فاستقل بإمارة مصر إبراهيم بك ومراد بك فكان المترجم ثالثهما، واتحد بإبراهيم بك اتحادًا عظيمًا حتى كان إبراهيم بك لا يقدر على مفارقته ساعة زمانية،

وصار معه كالأخ الشقيق والصاحب الشفيق، وصار في قبول ووجاهة عظيمة وكلمة نافذة في جميع الأمور.

ولم يزل على ذلك حتى حضر حسن باشا بالصورة المتقدمة وخرج إبراهيم بك ومراد بك وباقي الأمرا، فتخلف عنهم المترجم وقد كان راسل حسن باشا سرًّا، فلما استقر حسن باشا أقبل عليه وسلمه مقاليد الأمور وقلده الصنجقية، وأضاف إليه الدفتردارية وفوض إليه جميع الأمور الكلية والجزئية، فانحصرت فيه رياسة مصر وصار عزيزها وأميرها ووزيرها، وقايد جيوشها ولا يتم أمر إلا عن مشورته ورأيه.

واجتمعت ببيته الدواوين وقلد الإمريات والمناصب كما يختار، وقرب وأدنى وأبعد وأقصى من يختار، واشتهر ذكره في إقليم مصر والشام والروم.

وأشار بتقليد مراد كاشف الصنجقية وإمارة الحاج، وسموه محمد بك المبدول كراهة في اسم مراد واشتهر بالمبدول، ونجز له لوازم الحاج والصرة في أيام قليلة، وسافر بالحاج على النسق المعتاد، وشهل أيضًا التجاريد والعساكر خلف الأمرا المطرودين، واستمر مطلق التصرف في مملكة مصر بقية السنة.

ولما استهل رمضان أرسل لجميع الأمرا والأعيان اليلكات والكساوي لهم ولحريمهم ومماليكهم بالأحمال، وكذلك إلى العلما والمشايخ حتى الفقها الخاملين المحتاجين، وظن أن الوقت قد صفا له ولم يزل على ذلك حتى استقر إسماعيل بك وسافر حسن باشا، وظهر له أمر حسن بك الجداوي وخشداشينه أخذ يناكد المترجم ويعارضه في جميع أموره وهو يسامح له في كل ما يتعرض له فيه ويساير حاله بينهم، ويكظم غيظه ويكتم قهره، وهو مع ذلك وافر الحرمة.

واعتراه صداع في رأسه وشقيقة زاد ألمه بها ووجعه أشهرًا، وأتلف إحدى عينيه وعوفي قليلًا، واستمر على ذلك حتى وقع الطاعون بمصر سنة خمس، ومات ابن له مراهق أحزنه موته، وكذلك ماتت زوجته وأكثر جواريه ومماليكه.

ومات إسماعيل بك وأمراه ومماليكه ورضوان بك العلوي، وبقي هو وحسن بك الجداوي فتجاذبا الإمارة ولم يرضَ أحدهما بالآخر، فوقع الاتفاق على تأمير عثمان بك طبل تابع إسماعيل بك ظنًّا منهما أنه يصلح لذلك، وأنه لا يمالي الأعدا فكان الأمر بخلاف ذلك.

وكره الإمارة هو أيضًا لمناكدة حسن بك له، وراسل الأمرا القبليين سرًّا حتى حضروا على الصورة المتقدمة، وقصد حسن بك وعلي بك الاستعداد لحربهم وخرجوا إلى ناحية

طرا وتأهبوا لمبارزتهم، وصار عثمان بك يثبطهما ويظهر لهما أنه يدبر الحيل والمكايد، ولم يعلما ضميره ولا يخطر ببالهما ولا غيرهما خيانته، بل كان كل منهما يظن بالآخر حتى حصل ما تقدم ذكره في محله.

وفر المترجم وحسن بك إلى ناحية قبلي، فاستمر هناك مدة ثم انفصل عن حسن بك وسافر من القصير إلى بحر القلزم، وظلع إلى المويلح وأرسل بعض ثقاته فأخذ بعض الاحتياجات سرًّا، وذهب من هناك إلى الشام واجتمع بأحمد باشا الجزار ونزل بحيفا وأقام بها مدة.

وراسل الدولة في أمره فطلبوه إليهم، فلما قرب من إسلامبول أرسلوا إليه من أخذه وذهب به إلى برصا فأقام هناك وعينوا له كفايته في كل شهر وولد له هناك أولاد، ثم أحضروه في حادثة الفرنسيس وأعطوه مراسيم إلى إبراهيم باشا ساري عسكر في ذلك الوقت، فلما وصل بيروت راسل أحمد باشا وأراد الاجتماع به، وعلم أحمد باشا ما بيده من المرسومات إلى إبراهيم باشا، فتنكر له وانحرف طبعه منه وأرسل إليه يأمره بالرحيل، وصادف ذلك عزل إبراهيم باشا، فارتحل مقهورًا إلى نابلس فمات هناك بقهره.

وحضر من بقي من مماليكه إلى مصر وسكنوا بداره التي بها مملوكه عثمان كاشف وابنته التي تركها بمصر صغيرة، وقد كبرت وتأهلت للزواج فتزوج بها خازنداره الذي حضر، وهو إلى الآن مقيم معها صحبة خشداشينه ببيتهم الذي بدرب الحجر.

وكان المترجم أميرًا لا بأس به يميل إلى فعل الخير حسن الاعتقاد، ويحب أهل العلم والفضايل ويعظمهم ويكرمهم ويقبل شفاعتهم، وفيه رقة طبع وميل للخلاعة والتجاهر، غفر الله له وسامحهم.

ومات أيضًا الأمير أيوب بك الدفتردار وهو من مماليك محمد بك، تولى الإمارة والصنجقية بعد موت أستاذه، وقد تقدم ذكره غير مرة، وكان ذا دها ومكر ويتظاهر بالانتصار للحق وحب الأشراف والعلما، ويشتري المصاحف والكتب ويحب المسامرة والمذاكرة وسير المتقدمين، ويواظب على الصلاة في الجماعة، ويقضي حوايج السايلين والقاصدين بشهامة وصرامة وصدع للمعاند، خصوصًا إذا كان الحق بيده.

ويتعلل كثيرًا بمرض البواسير وسمعت من لفظه رؤيا رآها قبل ورود الفرنسيس بنحو شهرين تدل على ذلك وعلى موته في حربهم.

ولما حصل ذلك وحضروا إلى بر إنبابة عدى المترجم قبل بيومين، وصار يقول: أنا بعت نفسي في سبيل الله، فلما التقى الجمعان لبس سلاحه بعدما توضأ وصلى ركعتين

وركب في مماليكه، وقال: اللهم إني نويت الجهاد في سبيلك، واقتحم مصاف الفرنساوية وألقى نفسه في نارهم، واستشهد في ذلك اليوم.

وهي منقبة اختص بها دون أقرانه بل ودون غيرهم من جميع أهل مصر، كما قال فيه الشيخ خليل المنير من قصيدة حكى فيها أمرهم، وما حصل للمترجم بقوله:

لم يبر منهم سوى أيوب من ألم ... مجانس داء خصم قادم حنق
بانت له من حسان الحور قايلة ... اركض برجلك للخيرات واستبق
واترك مرادًا إلى الدنيا ولُمَّ بنا ... إنا الحياة فمل الروح واعتنق
أُمَّ الجهادَ شهير السيف مجتهدًا ... في كلمة الحق إعلاء على الفرق
الله أكبر والتوحيد يصحبها ... نداؤه في عجاج مظلم غسق
لقد تولى على عرض الصفوف إلى ... أن ضمه القلب فاستولى على حلق
ما زال يقتض حتى انقض كوكبه ... وطار منه بَهاء النور للأفق
مضى شهيدًا وحيدًا طاهرًا سمحًا ... مغسَّلًا بدم الهيجاء لا غرق
تميز الجوهر المكنون من صدق ... ثم انجلى في الحلى يدعى بمؤتلق
كان الجلاء له عين الجلاء لهم ... فأدبروا بائعين الخُلد بالفلق

إلى آخر ما قال، وقوله (بدم الهيجاء لا غرق) يشير بذلك إلى إبراهيم بك الوالي حين ولَّى مدبرًا وغرق في البحر.

ومات الأمير صالح بك أمير الحاج في تلك السنة وهو أيضًا من مماليك محمد بك أبي الدهب، وتولى زعامة مصر بعد إبراهيم بك الوالي وأحسن فيها السيرة ولم يتشك منه أحد ولم يتعرض لأحد بأذية.

وتقلد أيضًا كتخدا الجاويشية عندما خرج إبراهيم بك مغاضبًا لمراد بك، وكان خصيصًا به فلما اصطلحا ورجع إبراهيم بك وعلي أغا كتخدا الجاويشية تقلد عليٌّ منصبه كما كان واستمر المترجم بطالًا، لكنه وافر الحرمة معدود في الأعيان.

ولما خرجوا من مصر في حادثة حسن باشا أرسله خشداشينه إلى الروم، وكاد يتم لهم الأمر فقبض عليه حسن باشا وكان إذ ذاك بالعرضي في السفر.

ولما رجعوا إلى مصر بعد موت إسماعيل بك سكن ببيت البارودي، وتزوج بزوجته وهي أم أيوب التي كانت سرية مراد بك ثم سافر ثانيًا إلى الروم بمراسلة وهدية، وقضى أشغاله ورجع بالوكالة وأخذ بيت الحبانية من مصطفى أغا، وعزله من وكالة

دار السعادة وسكن بالبيت، واختص بمراد بك اختصاصًا زايدًا وبنى له دارًا بجانبه بالجيزة وصار لا يفارقه قط، وصار هو بابه الأعظم في المهمات.

وكان فصيح اللسان مهذب الطبع يفهم بالإشارة، يظن من يراه أنه من أولاد العرب لطلاقة لسانه وفصاحة كلامه، ويميل بطبعه إلى الخلاعة وسماع الألحان والأوتار، ويعرف طرقها ويباشر الضرب عليها بيده.

ثم ولي الصنجقية وتقلد إمارة الحج سنة اثنتي عشرة ومايتين وألف، وتمم أشغاله وأموره ولوازمه على ما ينبغي.

وطلع بالحج في تلك السنة في أبهة عظيمة على القانون القديم في أمن وأمان ورخا وسخا، وراج موسم التجار في تلك السنة إلى الغاية.

وفي أيام غيابه بالحج وصل الفرنساوية إلى القطر المصري، وطار إليهم الخبر بسطح العقبة، وأرسلوا من مصر مكاتبة بالأمان وحضوره بالحج في طايفة قليلة، فأرسل إليهم إبراهيم بك يطلبهم إلى بلبيس، فعرج المترجم بالحاج إلى بلبيس، وجرى ما تقدم ذكره.

ولم يزل حتى مات بالديار الشامية، وبعد مدة أرسلت زوجته فأحضرت رمته ودفنتها بمصر بتربة المجاورين.

ومات العمدة الفاضل والنحرير الكامل الفقيه العلامة السيد مصطفى الدمنهوري الشافعي، تفقه على أشياخ العصر وتمهر في المعقولات ولازم الشيخ عبد الله الشرقاوي ملازمة كلية، واشتهر بنسبته إليه.

ولما ولي مشيخة الأزهر صار المترجم عنده هو صاحب الحل والعقد في القضايا والمهمات والمراسلات عند الأكابر والأعيان، وكان عاقلًا ذكيًّا وفيه ملكة واستحضار جيد للفروع الفقهية، وكان يكتب على الفتاوى على لسان شيخه المذكور ويتحرى الصواب وعبارته سلسة جيدة.

وكان له شغف بكتب التاريخ وسير المتقدمين، واقتنى كتبًا في ذلك مثل كتاب «السلوك»، و«الخطط» للمقريزي، وأجزاء من «تاريخ العيني والسخاوي» وغير ذلك.

ولم يزل حتى ركب يومًا بغلته وذهب لبعض أشغاله، فلما كان بخط الموسكي قابله خيال فرنساوي يخج فرسه، فجفلت بغلة السيد مصطفى المذكور وألقته من على ظهرها إلى الأرض، وصادف حافر فرس الفرنساوي أذنه فرض صماخه فلم ينطق ولم يتحرك، فرفعوه في تابوت إلى منزله ومات من ليلته، رحمه الله.

ومات عبد الله كاشف الجرف وهو عبد إسماعيل كاشف الجرف تابع عثمان بك ذي الفقار الكبير، وكان معروفًا بالشجاعة والإقدام كسيده وأدرك بمصر إمارة وسيادة ونفاذ كلمة، واشترى المماليك الكثيرة والخيول المسومة والجواري والعبيد، وعنده عدة من الأجناد والطوايف، وعمر دارًا عظيمة داخل الدرب المحروق، ولم يزل حتى قتل يوم السبت تاسع صفر بحرب الفرنساوية بإنبابة، وكان جسيمًا أسود ذا شهامة وفروسية مشهورة وجبروت.

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومايتين وألف
(١٧٩٩م)

استهل شهر المحرم بيوم الأربعا، فيه حضر جماعة من الفرنسيس إلى العادلية فضربوا خمسة مدافع لقدومهم، فلما كان في ثاني يوم عملوا الديوان وأبرزوا مكتوبًا مترجمًا ونسخته:

صورة جواب بونابرت من أمام أسوار عكا عشرين فريبال الموافق لحادي عشر شهر الحجة سنة ثلاث عشرة ومايتين وألف.

من بونابارته ساري عسكر أمير الجيوش الفرنساوية إلى محفل ديوان مصر: نخبركم عن سفره من بر الشام إلى مصر فإني بغاية العجلة بحضوري لطرفكم نسافر بعد ثلاثة أيام تمضي من تاريخه، ونصل عندكم بعد خمسة عشر يومًا وجايب معي جملة محابيس بكثرة وبيارق، ومحقت سراية الجزار وسور عكا وبالقنبر هدمت البلد، ما أبقيت فيها حجرًا على حجر، وجميع سكانها انهزموا من البلد إلى طريق البحر، والجزار مجروح ودخل بجماعته داخل برج من ناحية البحر وجرحه يبلغ لخطر الموت، ومن جملة ثلاثين مركبًا موسوقة عساكر الذين حضروا يساعدون الجزار ثلاثة غرقت من كثرة مدافع مراكبنا، وأخذنا منها أربعة موقرة مدافع، والذي أخذ هذه الأربعة فرقاطة من بتوعنا والباقي تلف وتبهدل والغالب منهم عدم، وإني بغاية الشوق إلى مشاهدتكم؛ لأني بشوف أنكم عملتم غاية جهدكم من كل قلبكم، لكن جملة فلاتية دايرون بالفتنة لأجل ما يحركون الشر في وقت دخولي، كل هذا يزول

مثل ما يزول الغيم عند شروق الشمس «وفنتوره» مات من تشويش، هذا الرجل صعب علينا جدًّا، والسلام.

وفنتوره هذا ترجمان ساري عسكر وكان لبيبًا متبحرًا، ويعرف باللغة التركية والعربية والرومية والطلياني والفرنساوي.

ولما عجز الفرنساوية عن أخذ عكا، وعزموا على الرجوع إلى مصر أرسل بونابارته مكاتبة إلى الفرنساوية المقيمين بمصر يقول فيها:

إن الأمر الموجب للانتقال عن محاصرة عكا خمسة عشر سببًا:

الأول: الإقامة تجاه البلدة وعدم الحرب ستة أيام إلى أن جات الإنكليز وحصنوا عكا باصطلاح الإفرنج.

الثاني: الستة مراكب التي توجهت من الإسكندرية فيها المدافع الكبار أخذها الإنكليز قدام يافا.

الثالث: الطاعون الذي وقع في العسكر، ويموت كل يوم خمسون وستون عسكريًّا.

الرابع: عدم الميرة لخراب البلاد قريب عكا.

الخامس: وقعة مراد بك مع الفرنساوية في الصعيد مات فيها مقدار ثلثماية فرنساوي.

السادس: بلغنا توجه أهل الحجاز صحبة الجيلاني لناحية الصعيد.

السابع: المغربي محمد الذي صار له جيش كبير وادَّعى أنه من سلاطين المغرب.

الثامن: ورود الإنكليز تجاه الإسكندرية ودمياط.

التاسع: ورود عمارة الموسقو قدام رودس.

العاشر: ورود خبر نقض الصلح بين الفرنساوية والنمسا.

الحادي عشر: ورود جواب مكتوب منَّا «لتيبو» أحد ملوك الهند كنا أرسلناه قبل توجهنا لعكا، وتيبو هذا هو الذي كان حضر إلى إسلامبول بالهدية التي من جملتها طائران يتكلمان بالهندية والسرير والمنبر من خشب العود،

وطلب منه الإمداد والمعاونة على الإنكليز المحاربين له في بلاده، فوعدوه ومنوه وكتبوا له أوراقًا وأوامر.

وحضر تيبو إلى مصر وذلك في سنة اثنتين ومايتين وألف أيام السلطان عبد الحميد، وقد سبقت الإشارة إليه في حوادث تلك السنة، وهو رجل كان مقعدًا تحمله أتباعه في تخت لطيف بديع الصنعة على أعناقهم، ثم إنه توجَّه إلى بلاد فرنسا واجتمع بسلطانها، وذلك قبل حضوره إلى مصر، واتفق معه على أمر في السر لم يطَّلع عليه أحد غيرهما، ورجع إلى بلاده على طريق القلزم، فلما قدم الفرنساوية لمصر كاتبه كبيرهم بذلك السر؛ لأنه اطلع عليه عند قيام الجمهور وتملكه خزانة كتب السلطان.

ثم إن تيبو المذكور بقي في حرب الإنكليز إلى أن ظفروا به في هذه السنة وقتلوه وثلاثة من أولاده، فهذا ملخص معنى السبب.

الثاني عشر: موت كفرللي الذي عملت المتاريس بمقتضى رأيه، وإذا تولى أمرها غيره يلزم نقضها، ويطول الأمر، وكفرللي هذا هو المعروف بأبي خشبة المهندس.

الثالث عشر: سماع أن رجلًا يقال له مصطفى باشا أخذه الإنكليز من إسلامبول، ومرادهم أن يرموه على بر مصر.

الرابع عشر: أن الجزار أنزل ثقله بمراكب الإنكليز، وعزم على أنه عندما نملك البلد ينزل في مراكبهم ويهرب معهم.

الخامس عشر: لزوم محاصرة عكا ثلاثة شهور أو أربعة وهو مضر لكل ما ذكرناه من الأسباب. ا.هـ.

وفي يوم الثلاثا سابعه حضر جماعة أيضًا من العسكر بأثقالهم، وحضرت مكاتبة من كبير الفرنساوية أنه وصل إلى الصالحية وأرسل دوجا الوكيل، ونبه على الناس بالخروج لملاقاته بموجب ورقة حضرت من عنده يأمر بذلك.

فلما كان ليلة الجمعة عاشره أرسلوا إلى المشايخ والوجاقات وغيرهم، فاجتمعوا بالأزبكية وقت الفجر بالمشاعل ودقت الطبول، وحضر الحكام والقلقات بمواكب وطبول وزمور ونوبات تركية وطبول شامية، وملازمون وجاويشية وغير ذلك، وحضر الوكيل وقايمقام وأكابر عساكرهم، وركبوا جميعًا بالترتيب من الأزبكية إلى أن خرجوا إلى

العادلية، فقابلوا ساري عسكر بونابارته هناك وسلموا عليه، ودخل معهم إلى مصر من باب النصر بموكب هايل بعساكرهم وطبولهم وزمورهم وخيولهم وعرباتهم ونساهم وأطفالهم في نحو خمس ساعات من النهار إلى أن وصل إلى داره بالأزبكية، وانفض الجمع وضربوا عدة مدافع عند دخولهم المدينة، وقد تغيرت ألوان العسكر القادمين واصفرَّت ألوانهم، وقاسوا مشقة عظيمة من الحر والتعب، وأقاموا على حصار عكا أربعة وستين يومًا حربًا مستقيمًا ليلًا ونهارًا، وأبلى أحمد باشا وعسكره بلاءً حسنًا وشهد له الخصم.

ولصاحبنا الفاضل النجيب والأديب اللبيب السيد علي الصيرفي الرشيدي، نزيل عكا المحروسة في هذه الواقعة قصيدة لطيفة من بحر الخفيف يقول فيها:

وأراهم قبيحهم حسنَ قصد   نحو عكا ذات السعود البادي
فاستعدوا لها بآلات حرب   ورجال كثيرة كالجراد
خيموا حولها بجيش وخيش   ومتاريس ضاق منها الوادي
أشبهوا قوم صالح في فعال   ينحتون الجبال لاستعداد
في حصون من التراب تراهم   شيدوها بقوة وعماد
فكأنَّ الجن الشياطين فيهم   يسرعون الأعمال عند التنادي
حاصروها وشددوا في حصار   واستمدوا بكل نوع مراد

ومنها:

ثم دارت رحى الحروب لدينا   بضروب مدامة الترداد
كل يوم وليلة في رعود   وبروق من غيم ذاك الوادي
كم نهارٍ أضحى كليلٍ بهيم   من دخان الوغى عدا في ازدياد

إلى آخر ما قال وهي طويلة.

وفيه قبضوا على إسماعيل القلق الخرَّبطلي وهو متولي كتخدا العزب، وكان ساكنًا بخط الجمالية وأخذوا سلاحه وأصعدوه إلى القلعة وحبسوه.

والسبب في ذلك أنه عمل في تلك الليلة وليمة، ودعا أحبابه وأصدقاءه وأحضر لهم آلات اللهو والطرب وبات سهرانًا بطول الليل، فلما كان آخر الليل غلب عليهم السهر

والسكر، فناموا إلى ضحوة النهار وتأخر عن الملاقاة، فلما أفاق ركب ولاقاهم عند باب النصر فنقموا عليه بذلك وفعلوا معه ما ذكر.

ولما وصل ساري عسكر الفرنساوية إلى داره بالأزبكية تجمع هناك أرباب الملاهي والبهالوين وطوايف الملاعبين والحواة والقرادين والنسا الراقصات والخلابيص، ونصبوا أراجيح مثل أيام الأعياد والمواسم، واستمروا على ذلك ثلاثة أيام وفي كل يوم من تلك الأيام يعملون شنكًا وحراقات ومدافع وسواريخ.

ثم انفضَّ الجمع بعدما أعطاهم ساري عسكر دراهم وبقاشيش.

وفي يوم الأحد عزلوا «دستان» قايمقام، وتولى عوضه «دوجا» الذي كان وكيلًا عن ساري عسكر، وتهيأ المعزول للسفر إلى جهة بحري، وأصبح مسافرًا وصحبته نحو الألف من العسكر، وسافر أيضًا منهم طايفة إلى جهة البحيرة.

وفيه طلبوا من طوايف النصارى دراهم سلفة مقدار ماية وعشرين ألف ريال.

وفي خامس عشره أرسلوا إلى زوجات حسن بك الجداوي، وختموا على دورهن ومتاعهن وطالبوهن بالمال، وذلك لسبب أن حسن بك التف على مراد بك وصار يقاتل الفرنسيس معه.

وقد كانت الفرنسيس كاتبت حسن بك وأمنته وأقرته على ما بيده من البلاد، وأن لا يخالف ويقاتل مع الأخصام فلم يقبل منهم ذلك، فلما وقع لنساه ذلك ذهبن إلى الشيخ محمد المهدي، ووقعن عليه فصالح عليهن بمبلغ ثلاثة آلاف فرانسة.

وفي تاسع عشره هلك مخاييل كحيل النصراني الشامي — وهو من رجال الديوان الخصوصي — فجأة وذلك لقهره وغمه، وسبب ذلك أنهم قرروا عليه في السلفة ستة آلاف ريال فرانسة، وأخذ في تحصيلها ثم بلغه أن أحمد باشا الجزار قبض على شريكه بالشام، واستصفى ما وجده عنده من المال، فورد عليه الخبر وهو جالس يتحدث مع إخوانه حصة من الليل فخرجت روحه في الحال.

وفيه كتبوا أوراقًا وطبعوها وألصقوها بالأسواق وذلك بعد أن رجعوا من الشام واستقروا، وهي من ترصيف وتنميق بعض الفصحا، وصورتها:

> من محفل الديوان الخصوصي بمحروسة مصر خطابًا بالأقاليم مصر الشرقية والغربية والمنوفية والقليوبية والجيزة والبحيرة.
>
> النصيحة من الإيمان.
>
> قال تعالى في محكم القرآن: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

وقال تعالى وهو أصدق القايلين في الكتاب المكنون: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

فعلى العاقل أن يتدبر في الأمور قبل أن يقع في المحذور، نخبركم معاشر المؤمنين أنكم لا تسمعوا كلام الكاذبين، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

وقد حضر إلى محروسة مصر المحمية أمير الجيوش الفرنساوية حضرة بونابارته محب الملة المحمدية، ونزل بعسكره في العادلية سليمًا من العطب والأسقام، ودخل إلى مصر من باب النصر يوم الجمعة في موكب عظيم وشنك جليل فخيم، وصحبته العلما والوجاقات السلطانية وأرباب الأقلام الديوانية وأعيان التجار المصرية.

وكان يومًا عظيمًا مشهودًا، وخرجت أهل مصر لملاقاته فوجدوه هو الأمير الأول بذاته وصفاته، وظهر لهم أن الناس يكذبون عليه شرح الله صدره للإسلام.

والذي أشاع عنه الأخبار الكاذبة العربان الفاجرة والغز الهاربة، ومرادهم بهذه الإشاعة هلاك الرعية وتدمير أهل الملة الإسلامية، وتعطيل الأموال الديوانية ولا يحبون راحة العبيد، وقد أزال الله دولتهم من شدة ظلمهم ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

وقد بلغنا أن الألفي توجه إلى الشرقية مع بعض المجرمين من عربان بليِّ والعيايدة الفجرة المفسدين، يسعون في الأرض بالفساد وينهبون أموال المسلمين ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

ويزورون على الفلاحين المكاتيب الكاذبة، ويدعون أن عساكر السلطان حاضرة والحال أنها ليست بحاضرة، فلا أصل لهذا الخبر ولا صحة لهذا الأثر، وإنما مرادهم وقوع الناس في الهلاك والضرر، مثل ما كان يفعل إبراهيم بك في غزة حيث كان، ويرسل فرمانات بالكذب والبهتان، ويدعي أنها من طرف السلطان ويصدقه أهل الأرياف خسفاء العقول، ولا يقرون العواقب فيقعون في المصايب.

وأهل الصعيد طردوا الغز من بلادهم خوفًا على أنفسهم وهلاك عيالهم وأولادهم، فإن المجرم يؤخذ مع الجيران، وقد غضب الله على الظلمة ونعوذ بالله من غضب الديان، فكان أهل الصعيد أحسن عقلًا من أهل بحري بسبب هذا الرأي السديد.

ونخبركم أن أحمد باشا الجزار سموه بهذا الاسم لكثرة قتله الأنفس، ولا يفرِّق بين الأخيار والأشرار، وقد جمع الطموش الكثيرة من العسكر والغز والعرب وأسافل العشيرة، وكان مراده الاستيلاء على مصر وأقاليمها، وأحبوا اجتماعهم عليهم لأجل أخذ أموالها وهتك حريمها، ولكن لم تساعده الأقدار، والله يفعل ما يشا ويختاره.

وقد كان أرسل بعض هذه العساكر إلى قلعة العريش، ومراده أن يصل إلى قطيا، فتوجه حضرة ساري عسكر أمير الجيوش الفرنساوية وكسر عسكر الجزار الذين كانوا في العريش ونادوا (الفرار الفرار) بعدما حصل بعسكرهم القتل والدمار، وكانوا نحو ثلاثة آلاف، وملك قلعة العريش وأخذ غزة وهرب من كان فيها وفروا، ولما دخل غزة نادى في رعيتها بالأمان وأمر بإقامة الشعائر الإسلامية وإكرام العلما والتجار والأعيان.

ثم انتقل إلى الرملة وأخذ ما فيها من بقسماط وأرز وشعير وقِرب أكثر من ألفي قِربة كبار كان قد جهزها الجزار لذهابه إلى مصر.

ثم توجه إلى يافا وحاصرها ثلاثة أيام، ثم أخذها وأخذ ما فيها من ذخاير الجزار بالتمام، ومن نحوسات أهلها أنهم لم يرضوا بأمانه ولم يدخلوا تحت طاعته وإحسانه، فدوَّر فيهم السيف من شدة غيظه وقوة بأسه وسلطانه، وقتل منهم نحو أربعة آلاف أو يزيدون بعدما هدم سورها وأكرم من كان بها من أهل مصر، وأطعمهم وكساهم، وجهزهم في المراكب إلى مصر، وغفرهم بعسكره خوفًا عليهم من العربان، وأجزل عطاياهم.

وكان في يافا نحو خمسة آلاف من عسكر الجزار هلكوا جميعًا، وبعضهم ما نجَّاه إلا الفرار، ثم توجه من يافا إلى جبل نابلس فكسر من كان فيه من العساكر بمكان يقال له فاقوم، وحرق خمسة بلاد من بلادهم وما قدر كان، ثم أخرب سور عكا وهدم قلعة الجزار التي كانت حصينة لم يبقَ فيها حجر على حجر، حتى إنه يقال كان هناك مدينة.

وقد كان بنى حصونها وشيد بنيانها في نحو عشرين من السنين، وظلم في بنيانها عباد الله، وهكذا عاقبة بنيان الظالمين، ولما توجه إليه أهل بلاد الجزار من كل ناحية كسرهم كسرة شنيعة، فهل ترى لهم من باقية، نزل عليهم كصاعقة من السما ثم توجه راجعًا إلى مصر المحروسة لأجل شيئين: الأول:

أنه وعدنا برجوعه إلينا بعد أربعة أشهر، والوعد عند الحر دين، والسبب الثاني: أنه بلغه أن بعض المفسدين من الغز والعربان يحركون في غيابه الفتن والشرور في بعض الأقاليم والبلدان، فلما حضر سكنت الفتنة وزالت الأشرار والفجرة من الرعية، وحبه لمصر وإقليمها شي عجيب، ورغبته في الخير لأهلها ونيلها بفكره وتدبيره المصيب، ويرغب أن يجعل فيها أحسن التحف والصناعة.

ولما حضر من الشام أحضر معه جملة من الأسارى من خاص وعام، وجملة مدافع وبيارق اغتنمها في الحروب من الأعدا والأخصام.

فالويل كل الويل لمن عاداه، والخير كل الخير لمن والاه، فسلموا يا عباد الله وارضوا بتقدير الله، وامتثلوا لأحكام الله، ولا تسعوا في سفك دمايكم وهتك عيالكم، ولا تتسببوا في نهب أموالكم، ولا تسمعوا كلام الغز الهربانين الكاذبين.

ولا تقولوا إن في الفتنة إعلاء كلمة الدين، حاشا لله لم يكن فيها إلا الخذلان وقتل الأنفس وذل أمة النبي — عليه الصلاة والسلام — والغز والعربان يطمعونكم ويغرونكم لأجل أن يضروكم فينهبوكم، وإذا كانوا في بلد وقدمت عليهم الفرنسيس فروا هاربين منهم كأنهم جند إبليس.

ولما حضر ساري عسكر إلى مصر أخبر أهل الديوان من خاص وعام أنه يحب دين الإسلام ويعظم النبي — عليه الصلاة والسلام — ويحترم القرآن ويقرأ منه كل يوم بإتقان، وأمر بإقامة شعاير المساجد الإسلامية وإجرا خيرات الأوقاف السلطانية، وأعطى عوايد الوجاقلية، وسعى في حصول أقوات الرعية، فانظروا هذه الألطاف والمزية ببركة نبينا أشرف البرية.

وعرفنا أن مراده أن يبني لنا مسجدًا عظيمًا بمصر لا نظير له في الأقطار، وأنه يدخل في دين النبي المختار — عليه أفضل الصلاة وأتم السلام — انتهى بحروفه.

وكان أشيع بمصر قبل مجيهم وعودهم من الشام بأن ساري عسكر بونابارته مات بحرب عكا، وتناقله الناس وأنهم ولوا أخلافه، فهذا هو السبب في قولهم في ذلك الطومار: «وقد حضر سليمًا من العطب، فوجدوه هو الأمير الأول بذاته وصفاته.» إلى آخر السياق المتقدم.

وفي ثاني عشرينه أرسل ساري عسكر جماعة من العسكر وقبضوا على ملازاده ابن قاضي العسكر، ونهبوا بعضًا من ثيابه وكتبه وطلعوا به إلى القلعة، فانزعج عليه عياله وحريمه ووالدته انزعاجًا شديدًا.

وفي صبحها اجتمع أرباب الديوان بالديوان، وحضر إليهم ورقة من كبير الفرنسيس قريت عليهم، مضمونها أن ساري عسكر قبض على ابن القاضي وعزله، وأنه وجه إليكم أن تقترعوا وتختاروا شيخًا من العلما يكون من أهل مصر ومولودًا بها، يتولى القضا ويقضي بالأحكام الشرعية كما كانت الملوك المصرية يولون القضا برأي العلما للعلما.

فلما سمعوا ذلك أجاب الحاضرون بقولهم: إننا جميعًا نتشفع ونترجى عنده في العفو عن ابن القاضي فإنه إنسان غريب ومن أولاد الناس الصدور، وإن كان والده وافق كتخدا الباشا في فعله فولده مقيم تحت أمانكم، والمرجو انطلاقه وعوده إلى مكانه، فإن والدته وجدته وعياله في وجد وحزن عظيم عليه، وساري عسكر من أهل الشفقة والرحمة.

وتكلم الشيخ السادات بنحو ذلك، وزاد في القول بأن قال: وأيضًا إنكم تقولون دايمًا إن الفرنساوية أحباب العثمانية، وهذا ابن القاضي من طرف العثمانلي، فهذا الفعل مما يسي الظن بالفرنساوية ويكذب قولهم وخصوصًا عند العامة، فأجاب الوكيل بعدما ترجم له الترجمان بقوله: لا بأس بالشفاعة، ولكن بعد تنفيذ أمر ساري عسكر في اختيار قاضٍ خلافه، وألا تكونوا مخالفين ويلحقكم الضرر بالمخالفة.

فامتثلوا وعملوا القرعة فطلعت الأكثرية باسم الشيخ أحمد العريشي الحنفي، ثم كتبوا عرضحال بصورة المجلس والشفاعة، وكتب عليه الحاضرون، وذهب به الوكيل إلى ساري عسكر وعرفه بما حصل وبما تكلم به الشيخ السادات، فتغير خاطره عليه وأمر بإحضاره آخر النهار، فلما حضر لامه وعاتبه، فتكلم بينهما الشيخ محمد المهدي ووكيل الديوان الفرنساوي بالديوان، حتى سكن غيظه وأمره بالانصراف إلى منزله بعد أن عوقه حصة من الليل.

فلما أصبح يوم الجمعة عملوا جمعية في منزل «دوجا» قايمقام، وركبوا صحبته إلى بيت ساري عسكر ومعهم الشيخ أحمد العريشي فألبسه فروة مثمنة، وركبوا جميعًا إلى المحكمة الكبيرة بين القصرين ووعدهم بالإفراج عن ابن القاضي بعد أربع وعشرين ساعة، وقد كانت عياله انتقلوا من خوفهم إلى دار السيد أحمد المحروقي وجلسوا عنده، ولما كان في ثاني يوم أفرجوا عنه ونزل إلى عياله وصحبته أرباب الديوان والأغا، ومشوا معه في وسط المدينة ليراه الناس ويبطل القيل والقال.

وفيه كتبوا أوراقًا وطبعوا منها نسخًا وألصقوها بالأسواق، وصورتها:

جواب إلى محفل الديوان من حضرة ساري عسكر الكبير بونابارته أمير الجيوش الفرنساوية، محب أهل الملة المحمدية خطابًا إلى السادات العلما أنه وصل لنا مكتوبكم من شأن القاضي، نخبركم أن القاضي لم أعزله وإنما هو هرب من إقليم مصر، وترك أهله وأولادهم وخان صحبتنا من المعروف والإحسان الذي فعلناه معه، وكنت استحسنت أن ابنه يكون عوضًا عنه في محل الحكم في مدة غيبته ويحكم بدله، ولم يكن ابنه قاضيًا متوليًا للأحكام على الدوام؛ لأنه صغير السن ليس هو أهلًا للقضا، فعلمتم أن محل حكم الشريعة خالٍ الآن من قاضٍ شرعي يحكم بالشريعة، واعلموا أني لا أحب مصر خالية من حاكم شرعي يحكم بين المؤمنين، فاستحسنت أن يجتمع علما المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضيًا شرعيًّا من علما مصر وعقلاهم لأجل موافقة القرآن العظيم باتباع سبيل المؤمنين، وكذلك مرادي أن حضرة الشيخ العريشي الذي اخترتموه جميعًا أن يكون لابسًا من عندي وجالسًا في المحكمة، وهكذا كان فعل الخلفا في العصر الأول باختيار جميع المؤمنين.

وأخبركم أني تلقيت ابن القاضي بالمحبة والإكرام لما حضر لي وقابلني، ولم أزل لهذا الوقت أكرمه ولم أحب أن يضره أحد حكم أماننا له، ولما رفعناه إلى القلعة لم نرد ضرره بل رفعناه مكرمًا مثل ما يكون في بيته بالراحة والإكرام.

وسبب ما رفعناه إلى القلعة سكون الفتن والإصلاح بين الناس، وبعد لبس القاضي الجديد وجلوسه في محل الحكم مرادي أن أطلق ابن القاضي وأنزله من القلعة، وأرد له كامل تعلقاته وأطلق سبيله هو وعياله يتوجهون حيث أرادوا باختيارهم؛ لأنه في أماني وتحت حمايتي، وأعرف أن أباه ما كان يكرهني ولكنه ذهب عقله وفسد رأيه.

وأنتم يا أهل الديوان تهدون الناس إلى الصواب والنور من جنابكم لأهل العقول.

وعرفوا أهل مصر أنه انقضت وفرغت دولة العثمانلي من أقاليم مصر وبطلت أحكامها منها.

أخبروهم أن حكم العثمانلي أشد تعبًا من حكم المماليك وأكثر ظلمًا، والعاقل يعرف أن علما مصر لهم عقل وتدبير وكفاية وأهلية للأحكام الشرعية، يصلحون للقضا أكثر من غيرهم في ساير الأقاليم.

وأنتم يا أهل الديوان عرفوني عن المنافقين المخالفين أخرج من حقهم؛ لأن الله تعالى أعطاني القوة العظيمة لأجل ما أعاقبهم، فإن سيفنا طويل ليس فيه ضعف، ومرادي أن تعرفوا — أهل مصر — أن قصدي بكل قلبي حصول الخير والسعادة لهم مثل ما هو بحر النيل أفضل الأنهار وأسعدها، كذلك أهل مصر يكونون أسعد الخلايق أجمعين بإذن رب العالمين، والسلام. انتهى.

وفي تلك الليلة قتلوا شخصين: أحدهما علي جاويش ريس الريالة الذي كان بالإسكندرية عند حضور الفرنسيس، والثاني قبطان آخر، فلم يزالا بمصر يحبسونهما أيامًا ثم يطلقونهما، فحبسوهما آخرًا فلم يطلقوهما حتى قتلوهما.

وفي صبيحة ذلك اليوم قتلوا شخصين أيضًا من الأتراك بالرميلة.

وفيه أفرجوا عن زوجات حسن بك الجداوي.

وفي ثامن عشرينه جمعوا الوجاقلية وكتبوا أسماهم.

وفي تاسع عشرينه قبضوا على ثلاثة أنفار أحدهم يسمى حسن كاشف من أتباع أيوب بك الكبير، وآخر يسمى أبو كلس، والثالث رجل تاجر من تجار خان الخليلي يسمى حسين مملوك الدالي إبراهيم، فسجنوهم بالقلعة فتشفع الشيخ السادات في حسين التاجر المذكور فأطلقوه على خمسة آلاف فرانسة.

واستهل شهر صفر الخير بيوم الجمعة سنة ١٢١٤

فيه أفرجوا عن بعض قرابة كتخدا الباشا، وكان محبوسًا بالجيزة ثم نقل إلى القلعة مع كتخدا قريبه، فأُطلِق وبقي الآخر.

وفي يوم الأحد ثالثه حضر السيد عمر أفندي نقيب الأشراف سابقًا من دمياط إلى مصر، وكان مقيمًا هناك من بعد واقعة يافا ونزل مع الذين أنزلوهم من يافا إلى البحر وفيهم عثمان أفندي العباسي، وحسن أفندي كاتب الشهر وأخوه قاسم أفندي، وأحمد أفندي عرفة، والسيد يوسف العباسي، والحاج قاسم المصلي وغيرهم، فمنهم من عوق بالكرنتيلة ومنهم من حضر من البر خفية فحضر بعض الأعيان لملاقاة السيد عمر،

وركبوا معه بعد أن مكث هنيهة بزاوية علي بك التي بساحل بولاق حتى وصل إلى داره، وتوجه في ثاني يوم مع المهدي وقابل ساري عسكر فبش له ووعده بخير ورد إليه بعض تعلقاته واستمر مقيمًا بداره والناس تغدو وتروح إليه على العادة.

وفي رابعه حضر أيضًا حسن كتخدا الجربان بأمان، وكان بصحبته عثمان بك الشرقاوي.

وفيه أشيع أن مراد بك ذهب إلى ناحية البحيرة فرارًا من الفرنسيس الذين بالصعيد.

وفي خامسه قتلوا عبد الله أغا أمير يافا، وكان أُخِذَ أسيرًا وحُبِسَ ثم قُتِلَ.

وفيه قتل أيضًا يوسف جربجي أبو كلس ورفيقه حسن كاشف.

وفي سادسه عمل الشيخ محمد المهدي وليمة عرس لزواج أحد أولاده، ودعا صاري عسكر وأعيان الفرنساوية فتعشوا عنده وذهبوا.

وفيه أحضروا أربعة عشر مملوكًا أسرى وأصعدوهم إلى القلعة، قيل إنهم كانوا لاحقين بمراد بالبحيرة فأووا إلى قبة يستظلون بها وتركوا خيولهم مع السواس، فنزل عليهم طايفة من العرب فأخذوا الخيول فمروا مشاة، فدل الفلاحون عليهم عسكر الفرنسيس فمسكوهم، وقيل إنهم أووا إلى بلدة وطلبوا منهم غرامة فصالحوهم، فلم يرضوا بذلك بدون ما طلبوا فوعدوهم بالدفع من الغد وكانوا أكثر من ذلك، وفيهم كاشف من جماعة عثمان بك الطنبرجي فذهب الفلاحون إلى الفرنسيس وأعلموهم بمكانهم، فحضروا إليهم ليلًا وفر من فر منهم وقتل من قتل وأسر الباقي، وأما الكاشف فيسمى عثمان كاشف التجأ إلى كبير الفرنسيس فحماه وأخذه عنده، وأحضروا الأسرى إلى مصر وعليهم ثياب زرق وزعابيط وعلى روسهم عرقى من لباد وغيره، وأصعدوهم إلى القلعة وقتلوا منهم في ثاني ليلة أشخاصًا.

وفي تاسعه أحضروا أيضًا ستة أشخاص من المماليك وأصعدوهم إلى القلعة، وفي ذلك اليوم قتلوا أيضًا نحو العشرة من الأسرى المحابيس.

وفي يوم الأحد عاشره ركب في عصريته ساري عسكر وعدى إلى بر الجيزة وتبعته العساكر ولم يعلم سبب ذلك، ولما صاروا بالجيزة ضربوا نجع البطران ودهشور بسبب نزول مراد بك عندهم.

وفي هذا اليوم ظهر أن مراد بك رجع ثانيًا إلى الصعيد، وشاع الخبر أيضًا أن عثمان بك الشرقاوي وسليمان أغا الوالي وآخرين مروا من خلف الجبل وذهبوا إلى ناحية الشرق، فخرج عليهم جماعة من العسكر وفيهم برطلمين يني الرومي ريس عسكر الأروام

ومعهم عدة وافرة من أخلاط العسكر أروام وقبط والمماليك المنضمة إليهم وبعض فرنساوية، فأدركوهم بالقرب من بلبيس وأتوهم من خلاف الطريق المسلوكة فدهموهم على حين غفلة.

وكان عثمان بك يغتسل فلما أحسوا بهم بادروا للفرار، وركبوا وركب عثمان بك بقميص واحد على جسده وطاقية فوق رأسه، وهربوا وتركوا ثيابهم ومتاعهم وحملهم وقدور الطعام على النار، ولم يمت منهم إلا مملوكان وأسروا منهم اثنين، ووجدوا على فراش عثمان بك مكاتبة من إبراهيم بك يستدعيهم إلى الحضور إليه بالشام.

وفي ليلة الاثنين حادي عشره وردت أخبار ومكاتيب مع السعاة لبعض الناس من الإسكندرية وأبي قير، وأخبروا بأنه وردت مراكب فيها عسكر عثمانية إلى أبي قير، فتبين أن حركة الفرنساوية وتعديتهم إلى البر الغربي بسبب ذلك، وأخذوا صحبتهم جرجس الجوهري، وفي ضحوة اليوم الثاني عدى الكثير من العسكر أيضًا، واهتم حنا بينو المتولي على بحر بولاق بجمع المراكب وشحنها بالقومانية والذخيرة.

وداخل الفرنساوية من ذلك وهم كثير، ولما عدى كبيرهم إلى بر الجيزة أقام يوم الاثنين عند الأهرام حتى تجمعت العساكر وبعث بالمقدمة، وركب هو في يوم الثلاثا ثاني عشر، وأرسل مكتوبًا إلى أرباب الديوان بالسلام عليهم والوصية بالمحافظة وضبط البلد والرعية كما فعلوا في غيبته السابقة.

وفي سادس عشره ورد الخبر بأن عثمان خجا وصل إلى قلعة أبي قير صحبة السيد مصطفى باشا، فضربوا على القلعة وقاتلوا من بها من الفرنساوية وملكوها وأسروا من بقي بها، وعثمان خجا هذا هو الذي كان متولي إمارة رشيد من طرف صالح بك، وحج معه ورجع صحبته إلى الشام فلما توفي صالح بك سافر إلى الديار الرومية وحضر صحبة مصطفى باشا المذكور، فلما تحققت هذه الأخبار كثر اللغط في الناس وأظهروا البشر وتجاهروا بلعن النصارى.

واتفق أنه تشاجر بعض المسلمين بحارة البرابرة بالقرب من كوم الشيخ سلامة مع بعض نصارى الشوام، فقال المسلم للنصراني: إن شا الله تعالى بعد أربعة أيام نشتفي منكم، وكلامًا من هذا المعنى، فذهب ذلك النصراني إلى الفرنسيس مع عصبة من جنسه، وأخبروهم بالقصة وزادوا وحرفوا وعرفوهم أن قصد المسلمين إثارة فتنة.

فأرسل قايمقام إلى الشيخ المهدي وتكلم في شأن ذلك، وحاججه وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان فقام المهدي خطيبًا وتكلم كثيرًا، ونفى الريبة وكذَّب أقوال الأخصام وشدد في

تبرية المسلمين عما نسب إليهم، وبالغ في الحطيطة والانتقاص من جانب النصارى، وهذا المقام من مقاماته المحمودة، ثم جمعوا مشايخ الأخطاط والحارات وحبسوهم.

وفيه حضرت مكاتبة من الفرنسيس المتوجهين للمحاربة مع العسكر الوارد لجهة أبي قير، وصورتها:

لا إله إلا الله محمد رسول الله، نخبركم محفل الديوان بمصر المنتخب من أحسن الناس وأكملهم بالعقل والتدبير، عليكم سلام الله تعالى ورحمته وبركاته، بعد مزيد السلام عليكم وكثرة الأشواق الزايدة إليكم، نخبركم يا أهل الديوان المكرمين العظام بهذا المكتوب أننا وضعنا جماعات من عسكرنا بجبل الطرانة، وبعد ذلك سرنا إلى إقليم البحيرة لأجل ما نرد راحة الرعايا المساكين ونقاصص أعدانا المحاربين، وقد وصلنا بالسلامة إلى الرحمانية وعفونا عفوًا عموميًّا عن كامل أهل البحيرة، حتى صار أهل الإقليم في راحة تامة ونعمة عامة.

وفي هذا التاريخ نخبركم أنه وصل ثمانون مركبًا صغارًا وكبارًا، حتى ظهروا بثغر إسكندرية وقصدوا أن يدخلوها فلم يمكنهم الدخول من كثرة البنب وجلل المدافع النازلة عليهم، فرحلوا عنها وتوجهوا يرسون بناحية أبي قير وابتدوا ينزلون في البر، وأنا الآن تاركهم وقصدي أن يتكامل الجميع في البر وأنزل عليهم أقتل من لا يطيع وأخلي بالحياة الطايعين، وآتيكم بهم محبوسين تحت السيف لأجل أن يكون في ذلك شأن عظيم في مدينة مصر.

والسبب في مجي هذه العمارة إلى هذه الطرف العشم بالاجتماع على المماليك والعربان لأجل نهب البلاد، وخراب القطر المصري.

وفي هذه العمارة خلق كثير من الموسقو الإفرنج الذين كراهتهم ظاهرة لكل من كان يوحد الله، وعداوتهم واضحة لمن كان يعبد الله ويومن برسول الله، يكرهون الإسلام، ولا يحترمون القرآن، وهم نظرًا لكفرهم في معتقدهم يجعلون الآلهة ثلاثة، وأن الله ثالث تلك الثلاثة، تعالى الله عن الشركا، ولكن عن قريب يظهر لهم أن الثلاثة لا تعطي القوة وأن كثرة الآلهة لا تنفع، بل إنه باطل؛ لأن الله تعالى هو الواحد الذي يعطي النصرة لمن يوحده، هو الرحمن الرحيم المساعد المعين المقوي للعادلين الموحدين، الماحق رأي الفاسدين المشركين، وقد سبق في علمه القديم وقضاه العظيم أنه أعطاني هذا

الإقليم، وقدَّر وحَكَمَ بحضوري عندكم إلى مصر لأجل تغييري الأمور الفاسدة وأنواع الظلم وتبديل ذلك بالعدل والراحة مع صلاح الحكم، وبرهان قدرته العظيمة ووحدانيته المستقيمة أنه لم يقدر للذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة قوة مثل قوتنا؛ لأنهم ما قدروا أن يعملوا الذي عملناه ونحن المعتقدين وحداينة الإله، ونعرف أنه العزيز القادر القوي القاهر المدبر للكاينات والمحيط علمه بالأرضين والسماوات، القايم بأمر المخلوقات، هذا ما في الآيات والكتب المنزلات.

ونخبركم بالمسلمين إن كانوا صحبتهم يكونوا من المغضوب عليهم لمخالفتهم وصية النبي — عليه أفضل الصلاة والسلام — بسبب اتفاقهم مع الكافرين الفجرة الليام؛ لأن أعدا الإسلام لا ينصرون الإسلام، ويا ويل من كانت نصرته بأعدا الله وحاشا لله أن يكون المستنصر بالكفار مويدًا أو يكون مسلمًا ساقتهم المقادير للهلاك والتدمير مع السفالة والرذالة، وكيف لمسلم أن ينزل في مركب تحت بيرق الصليب ويسمع في حق الواحد الأحد الفرد الصمد من الكفار كل يوم تخريف واحتقار؟! ولا شك أن هذا المسلم في هذا الحال أقبح من الكافر الأصلي في الضلال.

نريد منكم يا أهل الديوان أن تخبروا بهذا الخبر جميع الدواوين والأمصار لأجل أن يمتنع أهل الفساد من الفتنة بين الرعية من ساير الأقاليم والبلاد؛ لأن البلد الذي يحصل فيه الشر يحصل لهم مزيد الضرر والقصاص، انصحوهم يحفظوا أنفسهم من الهلاك خوفًا عليهم أن نفعل فيهم مثل ما فعلناه في أهل دمنهور وغيرها من بلاد الشرور بسبب سلوكهم المسالك القبيحة قاصصناهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحريرًا في الرحمانية يوم الأحد خامس عشر صفر سنة أربعة عشر ومايتين وألف.

وطبعوا من ذلك نسخًا وألصقوها بالأسواق وفرقوا منها على الأعيان. انتهى.

وفي ثامن عشره وردت أخبار وعدة مكاتيب لكثير من الأعيان والتجار، وكلها على نسق واحد تزيد عن المية، مضمونها بأن المسلمين وعسكر العثمانيين ومن معهم ملكوا الإسكندرية في ثالث ساعة من يوم السبت سادس عشر صفر، فصار الناس يحكي بعضهم لبعض ويقول البعض: أنا قرأت المكتوب الواصل إلى فلان التاجر، ويقول الآخر مثل ذلك ولم يكن لذلك أصل ولا صحة، ولم يعلم من فعل هذه الفعلة واختلق هذه

النكتة، ولعلها من فعل بعض النصارى البلديين ليوقعوا بها فتنة في الناس ينشأ منها القتل فيهم والأذية لهم، وسبحان الله علام الغيوب.

وفي ليلة الأربعا عشرينه أشيع أن الفرنساوية تحاربوا مع العساكر الواردين على أبي قير، وظهروا عليهم وقتلوا الكثير منهم ونهبوهم وملكوا منهم قلعة أبي قير، وأخذوا مصطفى باشا أسيرًا وكذلك عثمان خجا وغيرهما، وأخبر الفرنسيس أنه حضرت لهم مكاتبة بذلك من أكابرهم، فلما طلع النهار ضربوا مدافع كثيرة من قلعة الجبل وباقي القلاع المحيطة وبصحن الأزبكية، وعملوا في ليلتها — أعني ليلة الأربعا — حراقة بالأزبكية من نفوط وبارود وسواريخ تصعد في الهواء.

وفي يوم الخميس ثامن عشرينه وصلت عدة مراكب وبها أسرى وعساكر جرحى، وكذلك يوم الجمعة تاسع عشرينه حضرت مكاتبة من الفرنسيس بحكاية الحالة التي وقعت لم أقف على صورتها.

واستهل شهر ربيع الأول بيوم السبت سنة ١٢١٤

في ثانيه وصلت مراكب من بحري وفيها جرحى من الفرنساوية.

وفيه قبضوا على الحاج مصطفى البشتيلي الزيات من أعيان أهالي بولاق وحبسوه ببيت قايمقام، والسبب في ذلك أن جماعة من جيرانه وشوا عنه بأن بداخل بعض حواصله الذي في وكالته عدة قدور مملوءة بالبارود، فكبسوا على الحواصل فوجدوا بها ذلك كما أخبر الواشي، فأخذوها وقبضوا عليه وحبسوه كما ذكر، ثم نقلوه إلى القلعة.

وفي سادسه حضر أيضًا جملة من العسكر وكثر لغط الناس على عادتهم في رواية الأخبار.

وفيه حضرت حجاج المغاربة ووصلوا صحبة الحاج الشامي، وأخبروا أنهم حجوا صحبته وأمير الحاج الشامي عبد الله باشا ابن العظم.

وفي ليلة الأحد تاسعه حضر ساري عسكر الفرنساوية بونابرته، ودخل إلى داره بالأزبكية وحضر صحبته عدة أناس من أسرى المسلمين، وشاع الخبر بحضوره فذهب كثير من الناس إلى الأزبكية ليتحققوا الخبر على جليته، فشاهدوا الأسرى وهم وقوف في وسط البركة ليراهم الناس، ثم إنهم صرفوهم بعد حصة من النهار، فأرسلوا بعضهم إلى جامع الظاهر خارج الحسينية وأصعدوا باقيهم إلى القلعة.

وأما مصطفى باشا ساري عسكر فإنهم لم يقدموا به لمصر بل أرسلوه إلى الجيزة مكرمًا، وأبقوا عثمان خجا بالإسكندرية، ولما استقر ساري عسكر بونابارته في منزله

ذهب للسلام عليه المشايخ والأعيان وسلموا عليه، فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان: إن ساري عسكر يقول لكم إنه لما سافر إلى الشام كانت حالتكم طيبة في غيابه، وأما في هذه المرة فليس كذلك؛ لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيس لا يرجعون بل يموتون عن آخرهم، فكنتم فرحانين ومستبشرين وكنتم تعارضون الأغا في أحكامه، وأن المهدي والصاوي ما هم «بونو»، أي ليسوا بطيبين ونحو ذلك، وسبب كلامه هذا الحكاية المتقدمة التي حبسوا بسببها مشايخ الحارات، فإن الأغا الخبيث كان يريد أن يقتل في كل يوم أناسًا بأدنى سبب، فكان المهدي والصاوي يعارضانه ويتكلمان معه في الديوان ويوبخانه ويخوفانه سوء العاقبة، وهو يرسل إلى ساري عسكر فيطالعه بالأخبار ويشكو منهما، فلما حضر عاتبهم في شأن ذلك، فلاطفوه حتى انجلى خاطره، وأخذ يحدثهم على ما وقع له من القادمين إلى أبي قير والنصر عليهم وغير ذلك.

وفي يوم الثلاثا حادي عشره عمل المولد النبوي بالأزبكية، ودعا الشيخ خليل البكري ساري عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده، وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وسواريخ، ونادوا في ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلًا وإسراج قناديل واصطناع مهرجان، وورد الخبر بأن الفرنسيس أحضروا عثمان خجا ونقلوه من الإسكندرية إلى رشيد، فدخلوا به البلد وهو مكشوف الرأس حافي القدمين وطافوا به البلد يزفونه بطبولهم حتى وصلوا به إلى داره فقطعوا رأسه تحتها، ثم رفعوا رأسه وعلقوها من شباك داره ليراها من يمر بالسوق.

وفي ثالث عشره أشيع بأن كبير الفرنسيس سافر إلى جهة بحري ولم يعلم أحد أي جهة يريد، وسيل بعض أكابرهم فأخبر أن ساري عسكر المنوفية دعاه لضيافته بمنوف حين كان متوجهًا إلى ناحية أبي قير ووعده بالعود إليه بعد وصوله إلى مصر، وراج ذلك على الناس وظنوا صحته.

ولما كان يوم الاثنين سادس عشره خرج مسافرًا من آخر الليل وخفي أمره على الناس.

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه الموافق لتاسع مسرى القبطي كان وفا النيل المبارك فنودي بوفائه على العادة، وخرج النصارى البلدية من القبطة والشوام والأروام، وتأهبوا للخلاعة والقصف والتفرج واللهو والطرب، وذهبوا تلك الليلة إلى بولاق ومصر العتيقة والروضة، واكتروا المراكب ونزلوا فيها وصحبتهم الآلات والمغاني، وخرجوا في تلك الليلة عن طورهم ورفضوا الحشمة وسلكوا مسلك الأمرا سابقًا، من النزول في المراكب الكثيرة

المقاديف، وصحبتهم نساهم وقحابهم وشرابهم، وتجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخرية والكفريات ومحاكاة المسلمين، وبعضهم تزيا بزي أمرا مصر ولبس سلاحًا وتشبه بهم وحاكى ألفاظهم على سبيل الاستهزا والسخرية وغير ذلك، وأجرى الفرنساوية المراكب المزينة وعليها البيارق، وفيها أنواع الطبول والمزامير في البحر ووقع في تلك الليلة بالبحر وساحله من الفواحش والتجاهر بالمعاصي والفسوق ما لا يكيف ولا يوصف، وسلك بعض غوغا العامة وأسافل العالم ورعاعهم مسالك تسفل الخلاعة ورذالة الرقاعة بدون أن ينكر أحد على أحد من الحكام أو غيرهم، بل كل إنسان يفعل ما تشتهيه نفسه وما يخطر بباله، وإن لم يكن من أمثاله.

إذا كان رب الدار بالدف ضاربًا فشيمة أهلِ الدار كلِّهم الرقص

وأكثرَ الفرنسيس في تلك الليلة وصباحها من رمي المدافع والسواريخ من المراكب والسواحل، وباتوا يضربون أنواع الطبول والمزامير.

وفي الصباح ركب دوجا قايمقام وصحبته أكابر الفرنسيس وأكابر أهل مصر، وحضروا إلى قصر السد وجلسوا به، واصطفت العساكر بين الروضة وبر مصر القديمة بأسلحتهم وطبولهم، وبعضهم في المراكب لضرب المدافع المتتالية إلى أن انكسر السد وجرى الما في الخليج فانصرفوا.

وفي خامس عشرينه طلبوا من كل طاحون من الطواحين فرسًا.

وفي سادس عشرينه كتبوا أوراقًا وألصقوها بالأسواق، مضمونها أن الناس يذهبون إلى بولاق يوم التاسع والعشرين ليحضروا سوق الخيل ويشتروا ما أحبوا من الخيل.

وفيه ألصقوا أوراقًا أيضًا مضمونها بأن من كان عليه مال ميري ملزوم بغلاقه، ومن لم يغلق ما عليه بعد مضي عشرين يومًا عوقب بما يليق به، ونادوا بموجب ذلك بالأسواق.

وفي سابع عشرينه كتبوا أوراقًا أيضًا مضمونها انقضا سنة مؤجرات أقلام المكوس، ومن أراد استئجار شي من ذلك فليحضر إلى الديوان ويأخذ ما يريده بالمزاد.

وفيه أفرج عن الأنفار التي قدم بها الفرنساوية من غزة، وحبست بالقلعة على مصلحة خمسة وسبعين كيسًا دفعوا بعضها، وضمنهم أهل وكالة الصابون في البعض الباقي، فأنزلوهم من القلعة على هذا الاتفاق بشرط أن لا يسافر منهم أحد إلا بعد غلاق ما عليه.

وفي ثامن عشرينه تشفع أرباب الديوان في أهل يافا المسجونين بالقلعة أيضًا، فوقع التوافق معهم على الإفراج عنهم بمصلحة ماية كيس، فاجتمع الرويسا والتجار وترووا واشتوروا في مجلس خاص بينهم فاتفق الحال على تقسيطها وتأجيلها في كل عشرين يومًا خمسة وعشرون كيسًا، فدفع التجار خمسة وعشرين كيسًا، وأفرج عنهم من القلعة وأجلوا الباقي على الشرح المذكور.

وفيه ورد من بونابارته ساري عسكر الفرنساوية كتاب من الإسكندرية خطابًا لأهل مصر وسكانها، فأحضر قايمقام دوجا الرويسا المصرية وقرأ عليهم الكتاب، مضمونه: أنه سافر يوم الجمعة حادي عشرين الشهر المذكور إلى بلاد الفرنساوية لأجل راحة أهل مصر وتسليك البحر، فيغيب نحو ثلاثة أشهر ويقدم مع عساكره، فإنه بلغه خروج عمارتهم ليصفو له ملك مصر، ويقطع دابر المفسدين وأن المولى على أهل مصر وعلى رياسة الفرنساوية جميعًا كليبر ساري عسكر دمياط.

فتحير الناس وتعجبوا في كيفية سفره ونزوله البحر مع وجود مراكب الإنكليز ووقوفهم بالثغر، ورصدهم الفرنساوية من وقت قدومهم الديار المصرية صيفًا وشتًا، ولكيفية خلوصه وذهابه أنبا وحيل لم أقف على حقيقتها.

وفي يوم السبت تاسع عشرينه قدم ساري عسكر كليبر صبيحة ذلك اليوم، فضربوا لقدومه المدافع من جميع القلاع، وتلقته كبار الفرنساوية وأصاغرهم، وذهب إلى بيت بونابرته الذي كان ساكنًا به وهو بيت الألفي بالأزبكية وسكن مكانه، وفي ذلك اليوم قدمت طايفة من العسكر من جهة الشرقية، وصحبتهم منهوبات كثيرة من بلد عصت عليهم فضربوها ونهبوها ومعهم نحو السبعين من الرجال والصغار وبعض النسا وهم موثوقون بالحبال فسجنوهم بالقلعة.

وفيه ذهب أكابر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة ساري عسكر الجديد للسلام عليه، فلم يجتمعوا به ذلك اليوم ووعدوا إلى الغد، فانصرفوا وحضروا في ثاني يوم فقابلوه، فلم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابرته، فإنه كان بشوشًا ويباسط الجلسا ويضحك معهم.

واستهل شهر ربيع الثاني بيوم الأحد سنة ١٢١٤ (١٧٩٩م)

في أوايله ابتدوا في عمل مولد المشهد الحسيني، وقهروا الناس وكرروا المناداة بفتح الحوانيت والسهر ووقود القناديل عشر ليالٍ متوالية آخرها ليلة الخميس ثاني عشره.

وفيه طلب ساري عسكر الجديد من النصارى القبط ماية وخمسين ألف ريال فرانسة في مقابلة بواقي سنة اثنتي عشرة ومايتين وألف وشرعوا في تحصيلها.

وفي يوم الجمعة سادسه ركب ساري عسكر الجديد من الأزبكية، ومشى في وسط المدينة في موكب حافل حتى صعد إلى القلعة، وكان أمامه نحو الخمسماية قواس وبأيديهم النبابيت وهم يأمرون الناس بالقيام والوقوف على الأقدام لمروره، وكان صحبته عدة كثيرة من خيالة الإفرنج، وبأيديهم السيوف المسلولة والوالي والأغا وبرطلمين بمواكبهم، وكذلك القلقات والوجاقلية وكل من كان مولى من جهتهم ومنضمًّا إليهم ما عدا رويسا الديوان من الفقها، فلم يطلبوهم للحضور ولا للمشي في ذلك الموكب، ولما صعد إلى القلعة ضربوا له عدة مدافع، وتفرج على القلعة ثم نزل بذلك الموكب إلى داره.

وفي يوم السبت سابعه ركب أغات الينكجرية في أبهة عظيمة وجبروت، وأمامه عدة من عسكر الفرنسيس وأمامه المنادي يقول: حكم ما رسم ساري عسكر خطابًا للأغا أن جميع الدعاوى والقضايا العامية لا تعمل إلا ببيت الأغا، وكل من تعدى من الرعايا أو وقع منه قلة أدب يستاهل ما يجري عليه.

وفيه ركب ساري عسكر الكبير في موكب دون الأول، ووصل إلى بيت ريس الديوان الشيخ عبد الله الشرقاوي ثم رجع إلى داره.

وفي يوم الأحد ثامنه عمل ساري عسكر وليمة في بيته، ودعا الأعيان والتجار والمشايخ فتعشوا عنده ثم انصرفوا إلى دورهم.

وفي يوم الثلاثا عاشره كان آخر المولد الحسيني، وحضر ساري عسكر الفرنساوية مع أعيانهم إلى بيت شيخ السادات بعد العصر في موكب عظيم وأمامه الأغا والوالي والمحتسب، وعدة كبيرة من عسكرهم وبيدهم السيوف المسلولة، فتعشوا هناك وركبوا بعد المغرب وشاهدوا وقود القناديل.

وفي سادس عشره نودي بنشر الحوايج وكتبوا بذلك أوراقًا وألصقوها بالأسواق، وشددوا في ذلك بالتفتيش والنظر بجماعة من طرف مشايخ الحارات، ومع كل منهم عسكري من طرف الفرنساوية وامرأة أيضًا للكشف عن أماكن النسا، فكان الناس يأنفون من ذلك ويستثقلونه ويستعظمونه وتحدثهم أوهامهم بأمور يتخيلونها كقولهم

إنما يريدون بذلك الاطلاع على أماكن الناس ومتاعهم، مع أنه لم يكن شي سوى التخوف من العفونة والوبا.

وفي عشرينه نودي بعمل مولد السيد علي البكري المدفون بجامع الشرايبي بالأزبكية بالقرب من الرويعي، وأمروا الناس بوقود قناديل بالأزقة في تلك الجهات، وأذنوا لهم بالذهاب والمجي ليلًا ونهارًا من غير حرج.

وقد تقدم ذكر بعض خبر هذا السيد وأنه كان رجلًا من البُلْه، وكان يمشي بالأسواق عريانًا مكشوف الراس والسوأتين غالبًا، وله أخ صاحب دها ومكر لا يلتم به، واستمر على ذلك مدة سنين، ثم بدا لأخيه فيه أمر لما رأى من ميل الناس لأخيه واعتقادهم فيه، كما هي عادة أهل مصر في أمثاله فحجر عليه ومنعه من الخروج من البيت، وألبسه ثيابًا وأظهر للناس أنه أذن له بذلك، وأنه تولى القطبانية ونحو ذلك، فأقبلت الرجال والنسا على زيارته والتبرك به، وسماع ألفاظه والإنصات إلى تخليطاته وتأويلها بما في نفوسهم، وطفق أخوه المذكور يرغبهم، ويبث لهم في كراماته وأنه يطلع على خطرات القلوب والمغيبات وينطق بما في النفوس فانهمكوا على الترداد إليه، وقلد بعضهم بعضًا وأقبلوا عليه بالهدايا والنذور والإمدادات الواسعة من كل شي، وخصوصًا من نسا الأمرا والأكابر، وراج حال أخيه واتسعت أمواله ونفقت سلعته وصادت شبكته وسمن الشيخ من كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار مثل البو العظيم، فلم يزل على ذلك إلى أن مات في سنة سبع بعد المايتين كما تقدم، فدفنوه بمعرفة أخيه في قطعة حجر عالية من هذا المسجد من غير مبالاة ولا مانع، وعمل عليه مقصورة ومقامًا وواظب عنده بالمقريين والمداحين وأرباب الأشاير والمنشدين بذكر كراماته وأوصافه في قصايدهم ومدحهم ونحو ذلك، ويتواجدون ويتصارخون ويمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه، ويغرفون بأيديهم من الهوا المحيط به ويضعونه في أعبابهم وجيوبهم، كما قال البدر الحجازي في بعض منظوماته:

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا … كل ذي جنة لدى الناس قطبًا
عَلَمًا هم به يلوذون بل قد … اتخذوه من دون ذي العريش ربًّا
إذا نسوا الله قائلين فلان … عن جميع الأنام يفرج كربًا
وإذا مات يجعلوه مزارًا … وله يهرعون عجمًا وعربا

بعضهم قبَّل الضريح وبعض عتبَ الباب قَبَّلوه وتربا

هكذا المشركون تفعل مع أصنامهم تبتغي بذلك قربًا.
إلى أن قال:

كل ذا من عمى البصيرة والويـ ـل لشخص أعمى له الله قلبًا
والحجازي من سمى حسنًا ينـ ـظر ما خالف الشريعة صعبًا

وفي المعنى:

ألا قل لمكى مقول نصوح وحق النصيحة أن تستمع
متى سمع الناس في دينهم بأن الغنا سنة تتبع
وأن يأكل المرء أكل البعير ويرقص في الجمع حتى يقع
ولو كان طاوي الحشا جايعًا لما زاد من طرب واستمع
وقالوا سكرنا بحب الإله وما أسكر القوم إلا القصع
كذاك الحمير إذا أخصبت تنهق من ريها والشبع

فهرعت لزيارة قبره النسا والرجال بالنذور والشموع وأنواع المأكولات، وصار ذلك المسجد مجمعًا وموعدًا، فلما حضر الفرنساوية إلى مصر تشاغل عنه الناس وأُهمِلَ شأنه في جملة المهملات وتُرِكَ مع المتروكات، فلما فُتِحَ أمر الموالد والجمعيات ورخص الفرنساوية ذلك للناس لِمَا رأوا فيه من الخروج عن الشرايع، واجتماع النسا واتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات، أعيد هذا المولد مع جملة ما أعيد.

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الجمعة سنة ١٢١٤

فيه اهتم الفرنسيس بعمل عيدهم المعتاد وهو عند الاعتدال الخريفي وانتقال الشمس لبرج الميزان، فنادوا بفتح الأسواق والدكاكين ووقود القناديل وشددوا في ذلك، وعملوا عزايم وولايم وأطعمة ثلاثة أيام آخرها يوم الاثنين، ولم يعملوه على هيئة العام الماضي من الاجتماع بالأزبكية عند الصاري العظيم المنتصب والكيفية المذكورة؛ لأن ذلك الصاري سقط وامتلأت البركة بالماء.

فلما كان يوم الأحد نبهوا على الأمرا والأعيان بالبكور إلى بيت ساري عسكر، فاجتمع الجميع في صبح يوم الاثنين فركب ساري عسكر معهم في موكب كبير، وذهبوا إلى قصر العيني، فمكثوا هناك حصة، وعرضت عليهم العساكر جميعها على اختلاف أنواعها من خيالة ورجالة وهم بأسلحتهم وزينتهم ولعبوا لعبهم في ميدان الحرب، وخلع ساري عسكر على الشيخ الشرقاوي والقاضي وأغات الينكجرية خلع سمور، ثم رجعوا إلى منازلهم ثم نودي في جميع الأسواق بوقود أربع قناديل على كل دكان في تلك الليلة، ومن لم يفعل ذلك عوقب، ثم عملوا بالأزبكية حراقة نفوط ومدافع وسواريخ ولعبوا في المراكب طول ليلهم.

وفي سابعه بعد عيد الصليب نقص ما النيل، وكان من أول زيادته قاصرًا عن العادة وزيادته شحيحة، فضج الناس وانكبوا على شرا الغلة وازدحموا في الرقع والسواحل وطلب باعة الغلة الزيادة في السعر، فجمع الفرنساوية كل من كان له مدخل في تجارة الغلال وزجروهم وخوفوهم، وقالوا لهم: هذه الغلة الموجودة الآن إنما هي زراعة العام الماضي، وأما هذا العام فلا تخرج زراعته إلا في العام المستقبل، فانزجروا وباعوا بالسعر الحاضر، وقد كاد يقع الغلا العظيم لولا ألطاف الله حفت، ونعمه العميمة الشاملة حصلت.

وفيه أرسلوا جملة عساكر من الفرنساوية إلى مراد بك بناحية الفيوم وعليهم كبير، فوقع بينهم وبينه أمور لم أتحقق تفصيلها، وترددت بينه وبين ساري عسكر الرسل والمراسلات، ووقع بينه وبينهم الهدنة والمهاداة واصطلح معهم على شروط منها تقليد إمارة الصعيد تحت حكمهم.

وفي هذا الشهر كثرت الإشاعة باجتماع عساكر عثمانية جهة الشام، فكثر اهتمام الفرنساوية بإخراج الجبخانات والمدافع وآلات الحرب والقومانية والعساكر وتحصين الصالحية والقرين وبلبيس.

واستهل شهر رجب بيوم الجمعة سنة ١٢١٤

وفيه كثرت الأقوال وتواترت الأخبار بوصول الوزير الأعظم يوسف باشا إلى الديار الشامية، وصحبته نصوح باشا وعثمان أغا كتخدا الدولة وحسين أغا نزله أمين ومصطفى أفندي الدفتردار وباقي رجال الدولة، وعسفوا في البلاد الشامية وضربوا عليهم الضرايب العظيمة، وجبوا الأموال وفعلوا ما لا خير فيه من الظلم وقتل الأنفس بسبب استخلاص

الأموال، فلما كان في منتصفه وردت الأخبار بوصولهم إلى غزة والعريش، وأنهم حاصروا قلعة العريش، وقاتلوا من بها من عسكر الفرنساوية حتى ملكوها في تاسع عشره، واحتووا على ما كان فيها من الذخيرة والجبخانة وآلات الحرب، وصعد مصطفى باشا الذي باشر أخذ القلعة مع جملة من العسكر وبعض الأجناد المصرية، وضربت النوبة وحصل لهم الفرح العظيم.

فاتفق أنه وقعت نار على مكان الجبخانة والبارود المخزون بالقلعة، وكان شيًّا كثيرًا فاشتعلت وطارت القلعة بمن فيها واحترقوا وماتوا وفيهم الباشا المذكور ومن معه ومحمد أغا أرنؤد الجلفي وغيره من المصرلية، ومات كثير ممن كان خارجًا عنها وبقربها مما نزل عليهم من النار والأحجار المتطايرة في أسرع وقت.

ولما تحقق الفرنساوية أخذ العريش، وأن عساكر العثمانيين زاحفة إلى جهة الصالحية، تهيأ ساري عسكر الفرنساوية، واستعد للخروج والسفر في أسرع وقت وخرج بعساكره وجنوده إلى الصالحية، وقد كان قبل أخذ العثمانيين قلعة العريش أرسل الفرنساوية إلى سيدني كبير الإنكليز مراسلات ليتوسط بينهم وبين العثمانيين.

ثم ورد فرمان من حضرة الوزير قبل وصوله لجهة العريش خطابًا إلى جمهور الفرنساوية باستدعا رجلين من روساهم وعقلاهم ليتشاور معهم ويتفق معهم على أمر يكون فيه المصلحة للفريقين على ما سيشترطونه بينهم، فوجهوا إليه من طرفهم «بوسليك» ريس الكتاب وديزه ساري عسكر الصعيد، فنزلوا في البحر على دمياط وطالت مدة غيابهم، وبعث كليبر ساري عسكر رسلًا من طرفه لاستفسار الأخبار.

واستهل شهر شعبان المعظم سنة ١٢١٤

فورد الخبر بقدومهما في اثنين وعشرين فيه إلى الصالحية فأرسلوا لهم الخيول وما يحتاجان إليه، وحضرا إلى مصر وشاع أمر الصلح، وحضر من طرف العثمانيين ريس الكتاب والدفتردار لتقرير الصلح، وجنح كل من الفريقين إلى ذلك لما فيه من كف الحرب وحقن الدما.

وأظهر الفرنساوية الخداع والخضوع حتى تم عقد الصلح على اثنين وعشرين شرطًا رسمت وطبعت في طومار كبير، وورد الخبر بذلك إلى مصر، وفرح الناس بذلك فرحًا شديدًا.

وأرسل ساري عسكر الفرنساوية مكاتبة بصورة الحال إلى دوجا قايمقام، فجمع أهل الديوان وقرا عليهم ذلك، ولما ورد ذلك الطومار المتضمن لعقد الصلح والشروط،

وعربوه وطبعوا منه نسخًا كثيرة فرقوا منها على الأعيان، وألصقوا منها بالأسواق والشوارع.

وصورته بما فيه من الفصول والشروط بالحرف الواحد ما عدا ترجمة الأسطر التي باللغة الفرنسية:

هذه صورة الشروط الواقعة لخلو مصر ما بين حضرة الجنرال ديزه متفرقة، وحضرة بوسليك مدبر الحدود العام نواب سر العسكر العام كليبر المفوضين بكامل السلطان، وجناب سامي المقام مصطفى رشيد أفندي دفتردار ومصطفى راسيسه أفندي ريس كتاب الوكلا المفوضين بكامل السلطان عن جناب حضرة الوزير سامي المقام، إن للجيش الفرنساوي بمصر عندما قصد أن يوضح ما في نفسه من وفور الشوق لحقن الدما، ويرى نهاية الخصام المضر الذي قد حصل ما بين المشيخة الفرنساوية والباب العالي، فقد ارتضى أن يسلم بخلو الإقليم المصري بحسب هذه الشروط الآتي ذكرها، يأمل أن بهذا التسليم يمكن أن يتجه ذلك إلى الصلح العام في بلاد المغرب قاطبة.

الشرط الأول: أن الجيش الفرنساوي يلزمه أن يتنحى بالأسلحة والعزال بالأمتعة إلى الإسكندرية ورشيد وأبو قير لأجل أن يتوجه وينتقل بالمراكب إلى فرنسا إن كان ذلك في مراكبهم الخاصة بهم، أم في تلك التي يُقتضَى للباب العالي أن يقدمها لهم بقدر الكفاية، ولأجل تجهيز المراكب المذكورة بأقرب نوال فقد وقع الاتفاق أنه من بعد مضي شهر واحد من تقرير هذه الشروط يتوجه إلى قلعة إسكندرية نايب من قِبَل الباب العالي وصحبته خمسون نفرًا.

الشرط الثاني: فلا بد عن المهلة وتوقف الحرب بمدة ثلاثة أشهر بالإقليم المصري، وذلك من عهد إمضاء شروط الاتفاق هذه، وإذا صادف الأمر أن هذه المهلة تمضي قبل أن المراكب الواجب تجهيزها من قبل الباب العالي تحضر جاهزة، فالمهلة المذكورة يُقتضَى مطاولتها إلى أن ينجز الرحيل على التمام والكمال، ومن الواضح أنه لا بد عن إصراف الوسايط الممكنة من قبل الفريقين؛ لكي لا يحصل ما يمكن وقوعه من التجسس كان ذلك من الجيش أم من أهل البلاد، إذا كانت هذه المهلة قد حصل الاتفاق بها لأجل راحتهم.

الشرط الثالث: فرحيل الجيش الفرنساوي يقتضي تدبيره بيد الوكلا القادمين لهذه الغاية من قبل الباب الأعلى وسر العسكر كليبر، وإذا حصل خصام ما بين الوكلا المذكورين بوقت الرحيل في هذا الصدد فلينتخب من قِبَل حضرة سيدني سميث رجل لينهي المخاصمات المذكورة بحسب قواعد السياسة البحرية السالكون عليها ببلاد الإنكليز.

الشرط الرابع: قطية والصالحية لا بد عن خلوهما عن الجيش الفرنساوي في ثامن يوم، وأعظم ما يكون في عاشر يوم من إمضا شروط الاتفاق هذه، ومدينة المنصورة يكون خلوها من بعد خمسة عشر يومًا، وأما دمياط وبلبيس فمن بعد عشرين يومًا، وأما السويس فيكون خلوه ستة أيام قبل مدينة مصر، وأما المحلات الكاينة في الجهة الشرقية من بحر النيل فيكون خلوها في اليوم العاشر والدلط، أي الأقاليم البحرية يكون خلوها خمسة عشر يومًا من بعد خلو مصر.

والجهة الغربية وما يتعلق بها تستمر بيد الفرنسيس إلى حد خلو مدينة مصر، ولكن من حيث إنها لا بد أن تستمر بيد الفرنساوية إلى أن يكون انحدار العسكر من جهات الصعيد فجهة الغربية وتعلقاتها كما ذكر، فممكن أنه لا يتيسر خلوها إلا من بعد انقضا وقت المهلة المعين إذا لم يمكن خلوها قبل هذا الميعاد، والمحلات التي تترك من الجيش فتسلم إلى الباب الأعلى كما هي في حالتها الآن.

الشرط الخامس: ثم إن مدينة مصر إن أمكن ذلك يكون خلوها بعد أربعين يومًا وأكثر بمدة خمسة وأربعين يومًا من وقت إمضا الشروط المذكورة.

الشرط السادس: أنه لقد وقع الاتفاق صريحًا على أن الباب الأعلى يصرف كل اعتناه في أن الجيش الفرنساوي الموجود في الجهة الغربية من بحر النيل عندما يقصد التنحي بكامل ما له من السلاح والعزال لنحو معسكرهم لا تصير عليه مشقة، ولا أحد يشوش عليه إن كان ذلك مما يتعلق بشخص كل واحد منهم أو بأمتعته أو بكرامته، وذلك إما من أهالي البلاد وإما من جهة العسكر السلطاني العثماني.

الشرط السابع: وحفظًا لإتمام الشرط المذكور أعلاه، وملاحظة لمنع ما يمكن وقوعه من الخصام والمعاداة، فلا بد عن استعمال الوسايط وأن عسكر الإسلام يكون دايمًا متباعدًا عن العسكر الفرنساوي.

الشرط الثامن: فمن تقرير وإمضا هذه الشروط، فكل من كان من الإسلام أم من باقي الطوايف من رعايا الباب الأعلى بدون تميز الأشخاص أوليك الواقع عليها الضبط أم الذين واقع عليهم الترسيم ببلاد فرنسا أو تحت أمر الفرنساوية بمصر يعطى لهم الإطلاق والتعلق، وبمثل ذلك فكل الفرنساوية المسجونين في كامل البلدان والأساكل من مملكة العثملي، وكذلك كامل الأشخاص من إيما طايفة كانت أوليك الذين كانوا في تعلق خدمة المراسلات والقناصل الفرنساوية لا بد عن انعتاقهم.

الشرط التاسع: فترجيع الأموال والأملاك المتعلقة بسكان البلاد والرعايا من الفريقين أم دفع مبالغ أثمانها لأصحابها فيكون الشروع به حالًا من بعد خلو مصر، والتدبير في ذلك يكون بيد الوكلا في إسلامبول المقامين بوجه خاص من الفريقين لهذا المقصد.

الشرط العاشر: فلا يحصل التشويش لأحد من سكان الإقليم المصري من أي ملة كانت، وذلك لا في أشخاصهم ولا في أموالهم نظرًا إلى ما يمكن أن يكون قد حصل من الاتحاد ما بينهم وبين الفرنساوية من إقامتهم بأرض مصر.

الشرط الحادي عشر: ولا بد أن يُعطَى للجيش الفرنساوي إن كان من قبل الباب الأعلى أو من قبل المملكتين المرتبطتين معه أعني بهما مملكة إنكليزة ومملكة الموسكوب — فرمان الإذن والأوراق المحافظة بالطريق، وبمثل ذلك السفن اللازمة لرجوع الجيش المذكور بالأمن والأمان إلى بلاد فرنسا.

الشرط الثاني عشر: وعند نزول الجيش الفرنساوي المذكور الكاين بمصر الآن، فالباب الأعلى وباقي الممالك المتحدة معه يعاهدون بأجمعهم أنهم من وقت ينزلون بالمراكب إلى حين وصولهم إلى أراضي فرنسا لا يحصل عليهم شي قط مما يكدرهم، وبنظير ذلك فحضرة الجنرال كليبر سر العسكر العام يعاهد من قبله وصحبته الجيش الفرنساوي الكاين بمصر بأنه لا يصدر منهم مما يؤول إلى المعاداة على الإطلاق ما دامت المدة المذكورة، وذلك لا

ضد العمارة ولا ضد بلدة من بلدان الباب الأعلى وباقي الممالك المرتبطة معه، وكذلك إن السفن التي يسافر بها الجيش المشار إليه ليس لها أن تُرَى في حد من الحدود إلا بتلك التي تختص بأراضي فرنسا، ما لم يكن ذلك في حادث ما ضروري.

الشرط الثالث عشر: ونتيجة ما قد وقع الاتفاق عليه من الإمهال المشترط أعلاه بما يلاحظ خلو الإقليم المصري، فالجهات الواقع بينهم هذا الاشتراط قد اتفقوا على أنه إذا حضر في حد هذه المدة المذكورة مركب من بلاد فرنسا بدون معرفة غلايين الممالك المتحدة، ودخل بمينا إسكندرية، فلازم عن سفره حالًا، وذلك من بعد أن يكون قد تحوج بالما والزاد اللازم، ويرجع إلى فرنسا وذلك بسندات أوراق الإذن من قبل الممالك المتحدة، وإذا صادف الأمر أن مركبًا من هذه المراكب تحتاج إلى الترقيع فهذه لا غير يباح لها الإقامة إلى أن ينتهي إصلاحها المذكور، وفي الحال من ثم تتوجه إلى بلاد فرنسا نظير التي قد تقدم القول عنها عند أول ريح يوافقها.

الشرط الرابع عشر: وقد يستطيع حضرة الجنرال كليبر ساري العسكر العام أن يرسل خبرًا إلى أرباب الأحكام الفرنساوية في الحال، ومن يصحب هذا الخبر لا بد أن تعطى له أوراق الإذن بالإطلاق، كما يُقتضَى ليسهل بهذه الوساطة وصول الخبر إلى أصحاب الحكم بفرنسا.

الشرط الخامس عشر: وإذا قد اتضح أن الجيش الفرنساوي يحتاج إلى المعاش اليومي ما دامت الثلاثة أشهر المعينة لخلو الإقليم المصري، وكذلك لمعاش الثلاثة الأشهر الأخرى التي يكون مبتداها من يوم نزولهم بالمراكب فقد وقع الاتفاق على أنه يقدم له مقدار ما يلزمه من القمح واللحم والأرز والشعير والتبن، وذلك بموجب القايمة التي تقدمت الآن من وكلا الجمهور الفرنساوي إن كان ذلك مما يخص إقامتهم أو ما يلاحظ سفرهم والذي يكون قد أخذه الجيش المذكور مقدار ما كان من شونه، وذلك من بعد إمضا هذه الشروط فينخصم مما قد لزم ذاته بتقدمته الباب الأعلى.

الشرط السادس عشر: ثم إن الجيش الفرنساوي منذ ابتدا وقوع إمضا هذه الشروط المذكورة ليس له أن يفرد على البلاد فردة ما من الفوايد

قطعًا بالإقليم المصري، لا بل وبالعكس فإنه يخلي للباب الأعلى كامل فرد المال وغيره مما يمكن توجب قبضه، وذلك إلى حين سفرهم، وبمثل ذلك الجمال والهجن والجبخانة والمدافع وغير ذلك مما يتعلق بهم ولا يريدون أن يحملوه معهم، ونظير ذلك شون الغلال الواردة لهم من تحت المال، وأخيرًا مخازن الخرج فهذه كلها لا بد عن الفحص عنها وتسعيرها من أناس وكلا موجهين من قبل الباب الأعلى لهذه الغاية ومن أمين البحر الإنكليزي وبرفقة الوكلا المتصرفين بأمر الجنرال كليبر ساري العسكر، وهذه الأمتعة لا بد عن قبولها من وكلا الباب الأعلى المتقدم ذكرهم بموجب ما وقع عليه السعر إلى حد قدر مبلغ ثلاثة آلاف كيس التي تُقتضَى للجيش الفرنساوي المذكور لسهولة انتقاله عاجلًا ونزوله بالمراكب، وإذا كانت الأسعار في هذه الأمتعة المذكورة لا توازي المبلغ المرقوم أعلاه، فالخسيس والنقص في ذلك لا بد من دفعه بالتمام من قبل الباب الأعلى على جهة السلفة تلك التي يلزم بوفائها أرباب الأحكام الفرنساوية بأوراق التمسكات المدفوعة من الوكلا المعينين من الجنرال كليبر ساري العسكر العام لقبض واستلام المبلغ المذكور.

الشرط السابع عشر: ثم إنه إذا كانت تُقتضَى للجيش الفرنساوي بعض مصاريف لخلوهم مصر فلا بد أن تقبض، وذلك من بعد تقرير تمسك الشروط المذكورة القدر المحدد أعلاه بالوجه الآتي ذكره، أعني فمن بعد مضي خمسة عشر يومًا خمسماية كيس، وفي غلاق الثلاثين يومًا خمسماية كيس أخرى، وبتمام الأربعين يومًا ثلثماية كيس أخرى، وعند تمام الخمسين يومًا ثلثماية كيس شرحه، وعند غلاق الستين يومًا ثلثماية كيس أخرى، وفي السبعين يومًا ثلثماية كيس أخرى، وعند تمام الثمانين يومًا ثلثماية كيس أخرى، وعند غلاق التسعين يومًا خمسماية كيس أخرى، وكل هذه الأكياس المذكورة هي عن كل كيس خمسماية غرش عثملي، ويكون قبضها على سبيل السلفة من يد الوكلا المعينين لهذه الغاية من قبل الباب الأعلى، ولكي يسهل إجرا العمل بما وقع الاعتماد عليه، فالباب الأعلى من بعد وضع الإمضا على النسختين من الفريقين يوجه حالًا الوكلا إلى مدينة مصر وإلى بقية البلاد المستقر بها الجيش.

الشرط الثامن عشر: ثم إن فرد المال الذي يكون قد قبضه الفرنساوية من بعد تاريخ تحرير الشروط المذكورة وقبل أن يكون قد اشتهر هذا الاتفاق

في الجهات المختلفة بالإقليم المصري، فقد تخصم من قدر مبلغ الثلاثة آلاف كيس المتقدم القول عنها.

الشرط التاسع عشر: ثم إنه لكي يسهل خلو المحلات سريعًا، فالنزول في المراكب الفرنساوية المختصة بالحمولة والموجودة في البر بالإقليم المصري مباح به ما دامت مدة الثلاثة أشهر المذكورة المعينة للمهلة، وذلك من دمياط ورشيد حتى إلى الإسكندرية، ومن إسكندرية حتى إلى رشيد ودمياط.

الشرط العشرون: فمن حيث إنه للطمان الكلي في جهات البلاد الغربية يُقتضَى الاحتراس الكلي لمنع الوبا الطاعوني عن أنه يتصل هناك، فلا يباح ولا لشخص من المرضى أو من أوليك الذين مشكوك بهم بريحة من هذا الدا الطاعوني أن ينزل بالمراكب، بل إن المرضى بعلة الطاعون أو بعلة أخرى أينما كانت تلك التي بسببها لا يُقتضَى أن يسمح بسفرهم بمدة خلو الإقليم المصري الواقع عليها الاتفاق يستمرون في بيمارستان المرضى حيث هم الآن تحت أمان جناب الوزير الأعظم عالي الشان، ويعالجهم الأطبا من الفرنساوية أوليك الذين يجاورونهم بالقرب منهم إلى أن يتم شفاهم يسمح لهم بالرحيل الشي الذي لا بد عن اقتضا الاستعجال به بأسرع ما يمكن، ويحصل لهم ويبدو نحوهم ما ذكر في الشرطين الحادي عشر والثاني عشر من هذا الاتفاق، نظير ما يجري على باقي الجيش، ثم إن أمير الجيش الفرنساوي يبذل جهده في إبراز الأوامر الأشد صرامة لرويسا العساكر النازلة بالمراكب بأن لا يسمحوا لهم بالنزول بمينا خلاف المين التي تتعين لهم من رويسا الأطبا، تلك المين التي يتيسر لهم بها أن يقضوا أيام الكارنتينة بأوفر السهولة، من حيث إنها من مجرى العادة ولا بد عنها.

الشرط الحادي والعشرون: فكل ما يمكن حدوثه من المشاكل التي تكون مجهولة، ولم يمكن الاطلاع عليها في هذه الشروط، فلا بد عن نجازها بوجه الاستحباب ما بين الوكلا المعينين لهذا القصد من قبل الجناب الوزير الأعظم عالي الشان وحضرة الجنرال كليبر ساري العسكر العام بوجه يسهل ويحصل الإسراع بالخلو.

الشرط الثاني والعشرون: وهذه الشروط لا تعد صحيحة إلا من بعد إقرار الفريقين وتبديل النسخ، وذلك بمدة ثمانية أيام، ومن بعد حصول هذا

الإقرار لا بد عن حفظ هذه الشروط الحفظ اليقين من الفريقين كليهما، صح وثبت وتقرر بختوماتنا الخاصة بنا بالعسكر، حيث وقعت المداولة بحد العريش في شهر بلويوز سنة ثمانٍ من إقامة المشيخة الفرنساوية، وفي رابع عشرين شهر كانون الثاني عربي من سنة ألف وثمانماية الواقع في ثماني عشرين شعبان هلالية سنة أربعة عشر ومايتين وألف هجرية، المضيين الجنرال متفرقة دزه البلدي وبوسليك المفوضين بكامل سلطان الجنرال كليبر وجناب سامي مقام مصطفى رشيد أفندي دفتردار ومصطفى راسيسه أفندي ريس الكتاب المفوضين بكامل سلطان جناب الوزير الأعظم عالي الشان منقولة عن النسخة الأصلية الموافقة لتلك الموجهة بالفرنساوية إلى الوكلا العثملي بدلًا من التي قد وجهوها باللغة التركية، ممضي دزه وبوسليك تقرير الجنرال ساري العسكر العام محرر في آخر السنة التركية التي بقيت محفوظة بيد الوزير الأعظم، إنني أنا الواضع اسمي أدناه الجنرال سري العسكر العام أمير الجيش الفرنساوي بالإقليم المصري أثبت وأقرر شروط الاتفاق المذكور أعلاه للحصول على إجرايه بالعمل بالنوع والصورة إن كان من اللازم أن أتيقن بأن الاثنين وعشرين شرطًا المشروحة إلى الآن هي موافقة على التدقيق باللغة الفرنساوية المضي عليها من الوكلا أصحاب ولاية الوزير الأعظم، والمقررة من جناب عالي الشان، الترجمة التي لا بد عن الاعتماد بإجرايها كل مرة إن كان لسبب أم لآخر يمكن حصول بعض الاختلافات، ومن ثَمَّ فتقلد بعض المشاكل.

صح وجرى بمحل العسكر العام بالصالحية في ثامن شهر بليفيوز سنة ثمانٍ من المشيخة، ممضي كليبر عن نسخة صحيحة الجنرال متفرقة رأس صاحب ختام في الجيش الفرنساوي ممضي داماس.

انتهى بحروفه، وما فيه من خطأ وتحريف فيه طبق الأصل المطبوع بالمطبعة الفرنساوية باللغة العربية، ولم أغيِّر منه سوى ما في تواريخ الأشهر والسنين بالأرقام الهندية، والله أعلم.

واستهل شهر رمضان المعظم بيوم الأحد سنة ١٢١٤ (٢٦ يناير ١٨٠٠م)

في ثانيه حضر ساري عسكر الفرنساوية كليبر إلى ناحية العادلية، وصحبته أغا من رجال الدولة العثمانية يُسمَّى محمد أغا، فأرسل ساري عسكر إلى حسن أغا نجاتي المحتسب يأمره بأن يتلقاه، وينزله في بيته ويكرمه إكرامًا زايدًا، فلما كان بعد العشا دخل ذلك الأغا إلى مصر في موكب، فحصل للناس ضجة عظيمة وازدحموا على مشاهدتهم له والفرجة عليه، وارتفعت أصواتهم وعلا ضجيجهم وركبوا على مصاطب الدكاكين والسقايف وانطلقت النسا بالزغاريت من الطيقان، واختلفت آراهم في ذلك القادم ولم يعلموا ما هو، فدخل من باب النصر وشق القاهرة، ولم يزل سايرًا حتى وصل إلى بيت حسن أغا بسويقة اللالا، فنزل هناك، فلما استقر به الجلوس ازدحم الناس والأعيان للسلام عليه ولمشاهدته بالمشاعل والفوانيس.

فلما كان صبح تلك الليلة عمل ديوانًا، وجمع العلما والوجاقلية وأعيان الناس وكبار النصارى من الأقباط والشوام، فلما تكلموا أبرز لهم فرمانًا من الوزير فقُرِيَ عليهم بالمجلس، فدل مضمونه على أنه أغات الجمارك، أي المكوس بمصر وبولاق ومصر القديمة، وفيه التحكير على جميع الواردات من أصناف الأقوات فيشتريها بالثمن الذي يسعره هو بمعرفة المحتسب، ويودعه في المخازن.

وأبرز فرمانًا آخر قُرِيَ بالمجلس، مضمونه أن الوزير أقام مصطفى باشا الذي كان أُسِرَ بأبي قير وكيلًا عنه، وقايمقام بمصر إلى حين حضوره، وأن السيد أحمد المحروقي كبير التجار ملزوم، ومقيد بتحصيل الثلاثة الآلاف كيس المعينة لترحيل الفرنساوية.

وانفض المجلس على ذلك، وأخذ السيد أحمد المحروقي في تحصيل ذلك القدر من الناس، وفرضوه على التجار وأهل الأسواق والحرف، وشرعوا في تحكير الأقوات، فغلت أسعارها وضاقت مون الناس، ودُهِيَ الناس من أول أحكامهم بهاتين الداهيتين.

وكان أول قادم منهم أمير المكوسات ومحكر الأقوات، وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم، واجتهد السيد أحمد المحروقي في توزيع ذلك وجمعه في أيام قليلة، فكان كل من توجه عليه مقدار من ذلك اجتهد في تحصيله وأخرجه عن طيب قلب وانشراح خاطر، وبادر بالدفع من غير تأخير، لعلمه أن ذلك لترحيل الفرنساوية، ويقول: سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة، كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس ومسمعهم وهم يحقدون ذلك عليهم.

وحضر مصطفى باشا من الجيزة، وسكن ببيت عبد الرحمن كتخدا بحارة عابدين، وأرسل الوزير فرمانات إلى البلاد وعين المعينين والمباشرين بطلب المال والغلال والكلف من الأقاليم.

وأرسل إلى البنادر وجعل في كل بندر أميرًا ووكيلًا لجمع الغلال والمطلوبات من الذخيرة وجمعها بالحواصل، ولا يخفى ما يحصل في ضمن ذلك من الجزئيات التي سيتضح بعضها فيما بعد.

وأما الرعايا وهمج الناس من أهل مصر، فإنهم استولى عليهم سلطان الغفلة ونظروا للفرنسيس بعين الاحتقار، وأنزلوهم عن درجة الاعتبار، وكشفوا نقاب الحيا معهم بالكلية، وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية، ولم يفكروا في عواقب الأمور ولم يتركوا معهم للصلح مكانًا، حتى إن فقها المكاتب كانوا يجمعون الأطفال ويمشون بهم فرقًا وطوايف حسبة، وهم يجهرون ويقولون كلامًا مقفى بأعلى أصواتهم بلعن النصارى وأعوانهم وأفراد رويساهم كقولهم: الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان، ونحو ذلك، وظنوا فروغ القضية ولم يملكوا لأنفسهم صبرًا حتى تنقضي الأيام المشروطة.

على أن ذلك لم يثمر إلا الحقد والعداوة التي تأسست في قلوب الفرنسيس، وأوجبت ما حصل بعد ذلك من وقوع العذاب البئيس، كقول القايل:

أمور تضحك السفهاء منها ويبكي عندها الحبر اللبيب

وأيضًا:

وكم ذا بمصر من المضحكات ولـكـنـه ضـحـك كـالـبـكـا

وقد قيل: قاتل بجد وإلا فدع.

وقال الشعبي من جملة كلام:

وصادفنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقيا ولا فجرة أقويا.

وأخذ الفرنساوية في أُهْبَة الرحيل، وشرعوا في مبيع أمتعتهم وما فضل عن سلاحهم ودوابهم، وسلموا غالب الثغور والقلاع كالصالحية وبلبيس ودمياط والسويس، ثم إن العثمانيين تدرجوا في دخول مصر، وصار في كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة،

وأخذوا يشاركون الناس في صناعاتهم وحرفهم مثل القهوجية والحمامية والخياطين والمزينين وغيرهم، فاجتمع العامة وأصحاب الحرف إلى مصطفى باشا قايمقام، وشكوا إليه فلم يلتفت لشكواهم؛ لأن ذلك من سنن عساكرهم وطرايقهم القبيحة.

وورد الخبر بوصول حضرة الوزير إلى بلبيس وصحبته الأمرا المصرية، وأرسلوا إلى مراد بك ومن معه بالحضور إلى العرضي، فأجاب بالاعتذار عن الحضور لأنه في الصعيد فلم يقبلوا عذره، فأكدوا عليه بالحضور فاستأذن الفرنساوية سرًّا فأذنوا له في المقابلة، وكان سفيره في ذلك عثمان بك البرديسي، ثم إنه حضر وقابل الوزير بصحبة إبراهيم بك وخلع عليهما.

ورجع مراد بك فخيم جهة العادلية، وحضر حسن أغا نزله أمين ودخل مصر وأخلى الفرنساوية قلعة الجبل وباقي القلاع التي أحدثوها ونزلوا منها، فلم يطلع إليها أحد من العثمانيين ولم يلتفتوا لتحصينها ولا ربطها بالعساكر والجبخانة، وأعرضوا عن المحاذرة وركبهم الغرور لأجل نفاذ المقدور.

وحضر أيضًا غالب المصريين الفارين من مصر وقت مجي الفرنساوية إليها من الأغوات والوجاقلية والأفندية والكتبة، مثل إبراهيم أفندي الروزنامجي وثاني قلفة وغيرهما بنساهم وأولادهم يظنون فروغ القضية، والذي خافوا منه وقعوا فيه كما ستراه.

وأرسل إبراهيم بك إلى السيد أحمد المحروقي يطلب كساوى وثيابًا وطرابيش وسراويل للمماليك ولخاصة نفسه، فأرسل إليه مطلوبه وأخرجت لهم الخيام والتراتيب والنظام، وهيأت نسا الأمرا والأجناد احتياجاتهم وترتيباتهم، وجروا على عادتهم في التغالي ولازمت الخدم والفراشون الغدو والرواح إلى خيم ساداتهم، وهم راكبو البغال والرهوانات والحمير الفارهة، وفي حجورهم تعابي الثياب والبقج المزركشة بالذهب والفضة.

وكذلك الخدم الذين يحملون الخوانات وطبالي الأطبخة والأطعمة، وعليها الأغطية الحرير والوشي الملون وهم يتغنون برفع أصواتهم، ويتجاوبون بكلام وسخريات ولعن للنصارى البلدية والفرنسيس بمرأى منهم ومسمع، إلى غير ذلك مما يحرك الحفايظ ويوغر الصدور.

ولما استقر الوزير بمدينة بلبيس، وذلك في الثاني والعشرين من شهر رمضان استأذن العلما والتجار والأعيان المصرية مصطفى باشا في التوجه للسلام فاستأذن ثم

أذن لهم، فذهبوا أيضًا إلى ساري عسكر كليبر واستأذنوه فأذن لهم أيضًا، فذهبوا عند ذلك للسلام عليه فوصلوا إلى نصوح باشا والي مصر، وسلموا عليه وباتوا بوطاقه.

فلما وصلوا إليه واستقر بهم الجلوس سأل عن أسماهم، وكذلك عن التجار وأكابر النصارى ثم خلع عليهم خلعًا، وانصرفوا من عنده فطافوا على أكابر الدولة بالعرضي، وكذلك على الأمرا المصرية ورجعوا إلى مصر ودخلوها، وعليهم تلك الخلع وصحبتهم قاضي العسكر وهو لابس قبوط أسود، ووصل نصوح باشا والأمرا إلى جهة الخانكاه ثم إلى المطرية.

وفيه حضر درويش باشا والي الصعيد إلى خارج القاهرة جهة الشيخ قمر، فمكث أيامًا ثم توجه إلى قبلي وصحبته نحو الماية نفر، وكذلك ذهبت طايفة إلى السويس وإلى دمياط والمنصورة، وانبثوا في البلاد ودخلوا مصر شيًّا فشيًّا.

واستهل شهر شوال سنة ١٢١٤

في سابعه وقعت حادثة بين عسكر الفرنساوية والعثمانية، وهي أول الحوادث التي حصلت بينهم، وهو أن جماعة من عسكر العثمانية تشاجروا مع جماعة من عسكر الفرنساوية فقتل بينهم شخص فرنساوي، ووقعت في الناس زعجة وكرشة وأغلقوا الحوانيت وعمل العثمانية متاريس وتترسوا بها بناحية الجمالية وما والاها واجتمعوا هناك، ووقع بينهم مناوشة قتل فيها أشخاص قليلة من الفريقين وكادت تكون فتنة، وباتوا ليلتهم عازمين على الحرب، فتوسطت بينهم كبرا العسكر في تمهيد ذلك، وأزالوا المتاريس وانكف الفريقان، وبحث مصطفى باشا عمن أثار الفتنة وهم ستة أنفار، فقتلهم وأرسلهم إلى ساري عسكر الفرنساوية فلم يطب خاطره بذلك.

وقال: لا بد من خروج عسكركم إلى عرضيهم حتى تنقضي الأيام المشروطة، وإذا دخل منهم أحد إلى المدينة لا يدخلون إلا بطريقته وبدون سلاح، فعند ذلك أمر مصطفى باشا بخروج الداخلين من العساكر ولا يبقى منهم أحد، ووقف جماعة من الفرنساوية خارج باب النصر، فإذا أراد أحد من العسكر أو من أعيان العثمانية الدخول إلى المدينة فعند وصوله إليهم ينزل عندهم وينزع ما عليه من السلاح، ويدخل وصحبته شخص أو شخصان موكلان به يمشيان أمامه حتى يقضي شغله ويرجع، فإذا وصل إلى الفرنساوية الملازمين خارج البلد أعطوه سلاحه، فيلبسه ويمضي إلى أصحابه فكان هذا شأنهم.

وفي منتصفه توجه جماعة من أعيان الفرنساوية إلى الإسكندرية بمتاعهم وأثقالهم، وفيهم دوجا قايمقام وديزه ساري عسكر الصعيد وبوسليك ريس الكتاب ومدبر الحدود،

ونزل جماعة منهم إلى البحر يريدون السفر إلى بلادهم، فتعرض لهم الإنكليز يريدون معاكستهم، فأرسلوا إلى ساري عسكر بمصر وعرفوه الحال، فأرسل بذلك إلى الوزير، فأجابه بجواب لم يرتَضِه، وأصبح زاحفًا إلى سطح الخانكاه، وكان ذلك آخر أيام المهلة المتفق عليها في دخول الوزير إلى مصر وخروج الفرنساوية منها، فلما رأوا ذلك طلبوا ثمانية أيام آجلة زيادة على أيام المهلة فأجيبوا إلى ذلك، ووصل الأمرا المصرية وعرضي نصوح باشا، وجملة من العساكر العثمانية إلى ناحية المطرية، ونصبوا خيامهم ووطاقهم هناك.

ثم إن الفرنساوية جعلوا الثمانية أيام المذكورة ظرفًا لجمع عساكرهم وطوايفهم من البلاد القبلية والبحرية، ونصبوا وطاقهم بساحل البحر متصلًا بأطراف مصر ممتدًّا من مصر القديمة إلى شبرا، وترددوا إلى نواحي القلاع وهي لم يكن بها أحد، وشرعوا واجتهدوا في رد الجبخانة والذخيرة وآلات الحرب والبارود والجلل والمدافع والبنب على العربات ليلًا ونهارًا، والناس يتعجبون من ذلك، ومصطفى باشا قايمقام ومن معه يشاهدون ذلك ولا يقولون شيًّا، والبعض يقول إن الوزير أرسل إليهم وأمرهم برد ذلك كما كان، ونحو ذلك من الخرافات التي لا تروج على الفطن.

ويقال إن الفرنساوية أرسل إليهم بعض أصدقاهم من الإنكليز وعرفوهم أن الوزير اتفق مع الإنكليز على الإحاطة بالفرنساوية إذا صاروا بظاهر البحر، فلما حصل منهم معهم ما سبقت الإشارة إليه تحققوا ذلك، وأرسلوا ليوسف باشا بذلك فلم يجبهم بجواب شافٍ، وعجل بالرحيل والقدوم إلى ناحية مصر.

وقد كان الفرنساوية عندما تراسلوا وترددوا جهة العرضي تفرسوا في عرضي العثمانيين وعساكرهم وأوضاعهم، وتحققوا حالهم وعلموا ضعفهم عن مقاومتهم، فلما حصر ما ذكر تأهبوا للمقاومة والمحاربة وردوا آلاتهم إلى القلاع، فلما تمموا أمر ذلك وحصنوا الجهات وأبقوا من أبقوه وقيدوه بها من عساكرهم واستوثقوا من ذلك، خرجوا بأجمعهم إلى ظاهر المدينة جهة قبة النصر، وانتشروا في تلك النواحي، ولم يبقَ بداخل المدينة منهم إلا من كان بداخل القلاع وأشخاص ببيت الألفي بالأزبكية وبعض بيوت الأزبكية، وغلب على ظن الناس أنهم برزوا للرحيل.

وفي العشرين منه طلبوا مصطفى باشا وحسن أغا نزله أمين، فلما حضرا إليهم أرسلوهما للجيزة، فلما كان اليوم الثالث والعشرون من شوال ركب ساري عسكر كليبر قبل طلوع الفجر بعساكره، وصحبتهم المدافع وآلات الحرب، وقسَّم عساكره طوابير،

فمنهم من توجه إلى عرضي الوزير، ومنهم من مال على جهة المطرية فضربوا عليهم، فلم يسعهم إلا الجلا والفرار وتركوا خيامهم ووطاقهم، وركب نصوح باشا ومن كان معه وطلبوا جهة مصر، فتركهم الفرنساوية ولحقوا بالذاهبين من إخوانهم إلى جهة العرضي بالخانكاه، بعد أن نهبوا ما في عرضي ناصف باشا من المتاع والأغنام، وسمروا أفواه المدافع وتركوها وساروا إلى جهة العرضي، فلما قاربوه أرسلوا إلى الوزير يأمرونه بالرحيل بعد أربع ساعات، فلم يسعه إلا الارتحال والفرنساوية في أثره وغالب عساكره مفرقون ومنتشرون في البلاد والقرى والنواحي لجمع المال ومقررات الفرض وظلم الفقرا.

أما أهل مصر فإنهم لما سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال، ولم يدركوا حقيقة الحال، فهاجوا ورمحوا إلى أطارف البلد، وقتلوا أشخاصًا من الفرنساوية صادفوهم خارجين من البلد ليذهبوا إلى أصحابهم، وذهبت شرذمة من عامة أهل مصر فانتهبت الخشب وبعض ما وجدوه من نحاس وغيره حيث كان عرضي الفرنساوية.

وخرج السيد عمر أفندي نقيب الأشراف والسيد المحروقي وانضم إليهما أتراك خان الخليلي والمغاربة الذين بمصر، وكذلك حسين أغا شنن أخو أيوب بك الصغير، وتبعهم كثير من عامة أهل البلد وتجمعوا على التلول خارج باب النصر بأيدي الكثير منهم النبابيت والعصي والقليل معه السلاح، وكذلك تحزب كثير من طوايف العامة والأوباش والحشرات، وجعلوا يطوفون بالأزقة وأطارف البلد ولهم صياح وضجيج وتجاوب بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم وقاموا على ساق، وخرج الكثير منهم إلى خارج البلدة على تلك الصورة، فلما تضحى النهار حضر بعض الأجناد المصريين ودخلوا مصر وفيهم المجاريح، وطفق الناس يسألونهم فلم يخبروهم بشي لجهلهم أيضًا حقيقة الحال.

ثم لم يزل الحال كذلك إلى أن دخل وقت العصر، فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلد ولهم صياح وجلبة على الشرح المتقدم، وخلفهم عثمان كتخدا الدولة، ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من عساكرهم وصحبتهم السيد عمر النقيب والسيد أحمد المحروقي وحسن بك الجداوي وعثمان بك المرادي وعثمان بك الأشقر وعثمان بك الشرقاوي وعثمان أغا الخازندار وإبراهيم كتخدا مراد بك المعروف بالسناري، وصحبتهم مماليكهم وأتباعهم، فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح ومروا على الجمالية حتى وصلوا إلى وكالة ذي الفقار، فقال نصوح باشا عند ذلك للعامة: اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم، فعندما سمعوا منه ذلك القول صاحوا وهاجوا ورفعوا أصواتهم، ومروا مسرعين يقتلون

من يصادفون من نصارى القبط والشوام وغيرهم، فذهب طايفة إلى حارات النصارى وبيوتهم التي بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكي، فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان، ويأسرون حتى اتصل ذلك بالمسلمين المجاورين لهم، فتحزبت النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ما قدر عليه من العساكر الفرنساوي والأروام، وقد كانوا قبل ذلك محترسين، وعندهم الأسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الأمر، فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى تقاتل وترمي البندق والقرابين من طبقات الدور على المجتمعين بالأزقة من العامة والعسكر ويحامون عن أنفسهم، والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون الدور، ويتسورون عليها، وبات نصوح باشا وكتخدا الدولة وإبراهيم بك وبعض من صناجق مصر والكشاف والأتباع وطوايف من العساكر بخط الجمالية بوكالة ذي الفقار.

فلما أصبح الصباح أرسلوا إلى المطرية، وأحضروا منها ثلاثة مدافع فوجدوها مسدودة الفانية فعالجوها حتى فتحوها، وقام ناصف باشا وشمر عن ساعديه، وشد وسطه ومشى وصحبته الأمرا المصرية على أقدامهم، وجرُّوا أمامهم الثلاثة مدافع وسحبوها إلى الأزبكية وضربوا منها على بيت الألفي، وكان به أشخاص مرابطون من عساكر الفرنساوية، فضربوهم أيضًا بالمدافع والبنادق.

واستمر الحرب بين الفريقين إلى آخر النهار فسكن الحرب وباتوا ينادون بالسهر.

وفي هذا اليوم وضع أهل مصر والعسكر متاريس بالأطراف كلها وبجهة الأزبكية، وشرعوا في بنا بعض جهات السور، واجتهدوا في تحصين البلد بقدر الطاقة، وبات الناس في هذه الليلة خلف المتاريس.

فلما أظلم الليل أطلق الفرنساوية المدافع والبنب على البلد من القلاع، ووالوا الضرب بالخصوص على خط الجمالية لكون المعظم مجتمعًا بها، فلما عاين ذلك الجميع أجمع رأي الكبرا والروسا على الخروج من البلد في تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة وعدم آلات الحرب وعزة الأقوات والقلاع بيد الفرنساوية، ومصر لا يمكن محاصرتها لاتساعها وكثرة أهلها، وربما طال الحال فلا يجدون الأقوات؛ لأن غالب قوت أهلها يجلب من قراها في كل يوم، وربما امتنع وصول ذلك إذا تجسمت الفتنة، فاتفقوا على الخروج بالليل.

وتسامع الناس بذلك، فتجهز المعظم للخروج، وغصت خطة الجمالية وما والاها من الأخطاط بازدحام الناس الذين يريدون الخروج من المدينة، وركب بعضهم بعضًا وازدحمت تلك النواحي بالحمير والبغال والخيول والهجن والجمال المحملة بالأثقال، وباتوا على تلك الصورة.

ووقع للناس في هذه الليلة من الكرب والمشقة والانزعاج والخوف ما لا يوصف وتسامع أهل خان الخليلي من الألداشات وبعض مغاربة الفحامين والغورية ذلك، فجاءوا للجمالية وشنعوا على من يريد الخروج وعضدهم طايفة عساكر الينكجرية، وعمدوا إلى خيول الأمرا فحبسوها ببيت القاضي والوكايل، وأغلقوا باب النصر وبات في تلك الليلة معظم الناس على مساطب الحوانيت وبعض الأعيان في بيوت أصحابهم بالجمالية وأزقة الحارات أيضًا وكل متهيئ للخروج.

فلما حصل ذلك وأصبح يوم السبت فتهيأ كبرا العساكر والعساكر ومعظم أهل مصر ما عدا الضعيف الذي لا قوة له للحرب، وذهب المعظم إلى جهة الأزبكية وسكن الكثير في البيوت الخالية، والبعض خلف المتاريس، وأخذوا عدة مدافع زيادة عن الثلاثة المتقدمة وجدت مدفونة في بعض بيوت الأمرا، وأحضروا من حوانيت العطارين من المثقلات التي يزنون بها البضايع من حديد، وأحجار استعملوها عوضًا عن الجلل للمدافع، وصاروا يضربون بها بيت ساري عسكر بالأزبكية، واستمر عثمان كتخدا بوكالة ذي الفقار بالجمالية، وكان كل من قبض على نصراني أو يهودي أو فرنساوي أخذه وذهب به إلى الجمالية حيث عثمان كتخدا ويأخذ عليه البقشيش فيحبس البعض حتى يظهر أمره ويقتل البعض ظلمًا، وربما قتل العامة من قتلوه وأتوا برأسه لأجل البقشيش، وكذلك كل من قطع رأسًا من روس الفرنساوية يذهب بها إما لنصوح باشا بالأزبكية وإما لعثمان كتخدا بالجمالية ويأخذ في مقابلة ذلك الدراهم.

وبعد أيام أغلقوا باب القرافة وباب البرقية وباقي الأبواب التي في أطراف البلد، وزاد الناس في اصطناع المتاريس وفي الاحتراس، وجلس عثمان بك الأشقر عند متاريس باب اللوق وناحية المدابغ، وعثمان بك طبل عند متاريس المحجر، ومحمد بك المبدول عند الشيخ ريحان، ومحمد كاشف أيوب وجماعة أيوب بك الكبير والصغير عند الناصرية، ومصطفى بك الكبير بقناطر السباع، وسليمان كاشف المحمودي عند سوق السلاح، وأولاد القرافة والعامة وزعر الحسينية والعطوف عند باب النصر مع طايفة من الينكجرية وباب الحديد وباب القرافة، وجماعة خان الخليلي والجمالية عند باب البرقية المعروف الآن بالغريب.

وبالجملة كل من كان في حارة من أطراف البلد انضم إلى العسكر الذي بجهته بحيث صار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة بأطراف البلد عند الأبواب والمتاريس والأسوار، وبعض عساكر من العثمانية وما انضم إليهم من أهل مصر المتسلحين مكثت

بالجمالية، إذا جا صارخ من جهة من الجهات أمدوه طايفة من هولا، وصار جميع أهل مصر إما بالأزقة ليلًا ونهارًا، وهو مَن لا يمكنه القتال، وإما بالأطراف ورا المتاريس وهو من عنده إقدام وتمكن من الحرب.

ولم ينم أحد ببيته سوى الضعيف والجبان والخايف وناصف باشا وإبراهيم بك وجماعاتهم وعسكر من الينكجرية والأرنؤد والدلاة وغيرهم جهة الأزبكية ناحية باب الهوا والرحبة الواسعة التي عند جامع أزبك والعتبة الزرقا.

وأنشا عثمان كتخدا معملًا للبارود ببيت قايد أغا بخط الخرنفش، وأحضر القندقجية والعربجية والحدادين والسباكين لإنشا مدافع وبنبات وإصلاح المدافع التي وجدوها في بعض البيوت، وعمل العجل والعربات والجلل وغير ذلك من المهمات الجزئية، وأحضروا لهم ما يحتاجون إليه من الأخشاب وفروع الأشجار والحديد، وجمعوا إلى ذلك الحدادين والنجارين والسباكين وأرباب الصنايع الذين يعرفون ذلك، فصار هذا كله يصنع ببيت القاضي والخان الذي بجانبه، والرحبة التي عند بيت القاضي من جهة المشهد الحسيني، واهتم لذلك اهتمامًا زايدًا، وأنفق أموالًا جمة وأرسلوا فأحضروا باقي المدافع الكاينة بالمطرية، فكانوا كلما أدخلوا مدفعًا أدخلوه بجمع عظيم من الأوباش والحرافيش والأطفال، ولهم صياح ونباح وتجاوب بكلمات مثل قولهم: الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان، وغير ذلك.

وحضر محمد بك الألفي في ثاني يوم وتترس بناحية السويقة التي عند درب عبد الحق وعطفة البيدق وصحبته طوايفه ومماليكه وأشخاص من العثمانية، وبذل الهمة وظهرت منه ومن مماليكه شجاعة، وكذلك كشافه وخصوصًا إسماعيل كاشف المعروف بأبي قطية، فإنه لم يزل يحارب ويزحف حتى ملك ناحية رصيف الخشاب وبيت مراد بك الذي أصله بيت حسن بك الأزبكاوي وبيت أحمد أغا شويكار، وتترس فيهما، وحسن بك الجداوي تترس بناحية الرويعي، وربما فارق متراسه في بعض الليالي لنصرة جهة أخرى.

وحضر أيضًا رجل مغربي يقال إنه الذي كان يحارب الفرنسيس بجهة البحيرة سابقًا، والتفت عليه طايفة من المغاربة البلدية وجماعة من الحجازية ممن كانوا قد قدموا صحبة الجيلاني الذي تقدم ذكره، وفعل ذلك الرجل المغربي أمورًا تنكر عليه؛ لأن غالب ما وقع من النهب وقتل من لا يجوز قتله يكون صدوره عنه، فكان يتجسس على البيوت التي بها الفرنسيس والنصارى فيكبس عليهم ومعه جمع من العوام والعسكر،

فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النسا ويسلبون ما عليهن من الحلي والثياب، ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعًا فيما على راسها وشعرها من الذهب.

وتتبع الناس عورات بعضهم البعض وما دعتهم إليه حظوظ أنفسهم وحقدهم وضغائنهم، واتهم الشيخ خليل البكري بأنه يوالي الفرنسيس، ويرسل إليهم الأطعمة.

فهجم عليه طايفة من العسكر مع بعض أوباش العامة ونهبوا داره وسحبوه مع أولاده وحريمه وأحضروه إلى الجمالية وهو ماشٍ على أقدامه ورأسه مكشوفة، وحصلت له إهانة بالغة وسمع من العامة كلامًا مؤلًما وشتمًا، فلما مثلوه بين يدي عثمان كتخدا هاله ذلك، واغتم غمًّا شديدًا ووعده بخير وطيب خاطره، وأخذه سيدي أحمد بن محمود محرم التاجر مع حريمه إلى داره وأكرمهم وكساهم، وأقاموا عنده حتى انقضت الحادثة.

وباشر السيد أحمد المحروقي وباقي التجار ومساتير الناس الكلف والنفقات والمآكل والمشارب، وكذلك جميع أهل مصر كل إنسان سمح بنفسه، وبجميع ما يملكه وأعان بعضهم بعضًا، وفعلوا ما في وسعهم وطاقتهم من المعونة.

وأما الفرنساوية فإنهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالبلد، وببيت الألفي وما والاه من البيوت الخاصة بهم وبيوت القبطة المجاورين لهم، واستمر الناس بعد دخول الباشا والأمرا ومن معهم من العسكر إلى مصر أيامًا قليلة، وهم يدخلون ويخرجون من باب الفتوح وباب العدوى وأهل الأرياف القريبة تأتي بالميرة والاحتياجات من السمن والجبن واللبن والغلة والتبن والغنم، فيبيعونه على أهل مصر ثم يرجعون إلى بلادهم.

كل ذلك ولم يعلم أحد حقيقة حال الفرنساوية المتوجهين مع كبيرهم للحرب، واختلفت الروايات والأخبار، وأما الوزير فإنه لما ارتحل بالعرضي تخلف عنه ببلبيس جملة من العسكر، وأما عثمان بك حسن وسليم بك أبو دياب ومن معهما، فإنهما تقاتلا مع الفرنساوية، ثم رجعا إلى بلبيس فحاصروا من بها، وكان عثمان بك وسليم بك وعلي باشا الطرابلسي وبعض وجاقلية خرجوا منها وذهبوا إلى ناحية العرضي، فحارب الفرنساوية مَنْ في بلبيس من العسكر، ولم يكن لهم بهم طاقة فطلبوا الأمان فأمنوهم وأخذوا سلاحهم، وأخرجوهم حيث شاءوا، فذهبوا أشتاتًا في الأرياف يتكففون الناس ويأوون إلى المساجد الخربة، ومات أكثرهم من العري والجوع.

ثم لما لحق عثمان بك ومن معه بالعرضي ناحية الصالحية تكلموا مع الوزير وأوجعوه بالكلام فاعتذر إليهم بأعذار منها عدم الاستعداد للحرب، وتركه معظم

الجبخانة والمدافع الكبار بالعريش، اتكالًا على أمر الصلح الواقع بين الفريقين وظنه غفلة الفرنساوية عما دبره عليهم مع الإنكليز، فقال له عثمان بك: أرسل معنا العساكر وانتظرنا هنا، فخاطب العسكر وبذل لهم الرغايب فامتنعوا ولم يمتثل منهم إلا المطيع والمتطوع وهم نحو الألف، وعادوا على إثرهم وجمعوا منهم من كان مشتتًا ومنتشرًا في البلاد ورجعوا يريدون محاربة الفرنساوية، فنزلوا بوهدة بالقرب من القرين لكونهم نظروه في قلة من عسكره، وعلمهم بقرب من ذكر منهم فضاربوهم بالنبابيت والحجارة وأصيب سرج ساري عسكر بنبوت فانكسر وسقط ترجمانه إلى الأرض وتسامع المسلمون، فركبوا لنجدتهم واستصرخ الفرنساوية عساكرهم فلحقوا بهم ووقع الحرب بين الفريقين حتى حال بينهم الليل فانكف الفريقان وانحاز كل فريق ناحية، فلما دخل الليل واشتد الظلام أحاط العسكر الفرنساوي بعساكر المسلمين، فأصبح المسلمون وقد رأوا إحاطة العسكر بهم من كل جانب، فركبت الخيالة وتبعتهم المشاة واخترقوا تلك الدايرة، وسلم منهم من سلم وعطب من عطب ورجعوا على إثرهم إلى الصالحية، فعند ذلك ارتحل الوزير ورجع إلى الشام.

وأما مراد بك فإنه بمجرد ما عاين هجوم الفرنسيس على الباشا والأمرا بالمطرية، وكان هو بناحية الجبل ركب من ساعته هو ومن معه ومروا من سفح الجبل، وذهب إلى ناحية دير الطين ينتظر ما يحصل من الأمور وأقام مطمينًّا على نفسه، واعتزل الفريقين واستمر على صلحه مع الفرنساوية.

هذا حاصل خبر الشرقيين، ولما تحقق الباشا والأمرا الذين انحصروا بمصر ذلك أخفوه بينهم، وأشاعوا خلافه لئلا تنحل عزايم الناس عن القتال وتضعف نفوسهم، واستمر الباشا يظهر كتابة المراسلات وإرسال السعاة في طلب النجدة والمعونة، وربما افتعلوا أجوبة فزوروها على الناس، فتروج عليهم وتسري في غفلتهم ويقولون للناس في كل وقت إن حضرة الصدر الأعظم مجتهد في محاربة الفرنسيس، وفي غد أو بعد غد يقدم العساكر والجنود بعد قطع العدو، وعند حضوره ووصوله يحصل تمام الفتح وتهدم العساكر القلاع وتقلبها على من يبقى من الفرنساوية، وبعد ذلك ينظم البلاد ويريح العباد، واجتهدوا فيما أنتم فيه وتابعوا المناداة على الناس والعسكر باللسان العربي والتركي بالتحريض والاجتهاد والحرص على الصبر والقتال وملاقاة العدو ونحو ذلك، ووصل طايفة من عسكر الفرنساوية، ورجعوا من عرضيهم نجدة لأصحابهم الذين بمصر فقويت بهم نفوس الكاينين بمصر، ووقفت منهم طايفة خارج باب النصر

وخارج باب الحسينية ونهبوا زاوية الدمرداش وما حولها كقبة الغوري والمنيل، وحضر نحو خمسماية من عسكر الأرنؤد، وهم الذين كان الوزير وجههم إلى القرى لقبض الكلف والفرض، فلما قربوا من مصر عارضهم عسكر الفرنساوية الواقفة على التلول الخارجة، فحاموا ودافعوا عن أنفسهم وخلصوا منهم ودخلوا إلى مصر، وفرح الناس لقدومهم، وضجت العامة بحضورهم، واشتدت قواهم ولفقوا أن يقولوا للناس إذا سُيلوا إنهم حاضرون مددًا، وسيأتي في أثرهم عشرون ألفًا، وعليهم كبير ونحو ذلك.

وأما بولاق فإنها قامت على ساق واحد وتحزم الحاج مصطفى البشتيلي وأمثاله وهيجوا العامة، وهيئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصفحوا، وأول ما بدأوا به أنهم ذهبوا إلى وطاق الفرنسيس الذي تركوه بساحل البحر وعنده حرسية منهم، فقتلوا من أدركوه منهم، ونهبوا جميع ما فيه من خيام ومتاع وغيره، ورجعوا إلى البلد وفتحوا مخازن الغلال والودايع التي للفرنساوية، وأخذوا ما أحبوا منها، وعملوا كرانك حوالي البلد ومتاريس واستعدوا للحرب والجهاد، وقوي في روسهم العتاد واستطالوا على من كان ساكنًا ببولاق من نصارى القبط والشوام، فأوقعوا بهم بعض النهب وربما قتل منهم أشخاص، هذا ما كان من أمر هولا.

وأما ما كان من أمر ساري عسكر الفرنساوية ومن معه، فإنه لما استوثق بهزيمة الوزير وعدم عوده ونجاته بنفسه، لم يزل خلفه حتى بعد عن الصالحية فأبقى بها بعضًا من عسكر الفرنسيس محافظين، وكذلك بالقرين وبلبيس، ورجع إلى مصر وقد بلغت الأخبار بما حصل من دخول ناصف باشا والأمرا وقيام الرعية، فلم يزل حتى وصل إلى داره بالأزبكية، وأحاطت العساكر الفرنساوية بالمدينة وبولاق من خارج، ومنعوا الداخل من الدخول والخارج من الخروج، وذلك بعد ثمانية أيام من ابتدا الحركة، وقطعوا الجالب عن البلدين وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم، فكانت جماعة من المفوضين لهم المحصورين داخل المدينة كبعض القبطة ونصارى الشوام وغيرهم يهربون إليهم، ويتسلقون من الأسوار والحيطان بحريمهم وأولادهم، فعند ذلك اشتد الحرب وعظم الكرب وأكثروا من الرمي المتتابع بالمكاحل والمدافع، وأكثروا وأوصلوا وقع القنابر والبنبات من أعالي التلول والقلعات، خصوصًا البنبات الكبار على الدوام والاستمرار آناء الليل وأطراف النهار، في الغدو والبكور والأسحار، وعدمت الأقوات وغلت أسعار المبيعات وعزَّت المأكولات وفقدت الحبوب والغلات، وارتفع وجود الخبز من الأسواق، وامتنع الطوافون به على الأطباق، وصارت العساكر الذين مع الناس بالبلد يخطفون ما يجدونه

بأيدي الناس من المآكل والمشارب، وعلا سعر الماء المأخوذ من الآبار أو الأسبلة حتى بلغ سعر القربة نيفًا وستين نصفًا، وأما البحر فلا يكاد يصل إليه أحد، وتكفل التجار ومساتير الناس والأعيان بكلف العساكر المقيمين بالمتاريس المجاورة لهم، فألزموا الشيخ السادات بكلفة الذي عند قناطر السباع، وهم مصطفى بك ومن معه من العساكر.

وأما أكابر القبط مثل جرجس الجوهري وفلتيوس وملطي، فإنهم طلبوا الأمان من المتكلمين من المسلمين لكونهم انحصروا في دورهم وهم في وسطهم، وخافوا على نهب دورهم إذا خرجوا فارين، فأرسلوا إليهم الأمان، فحضروا وقابلوا الباشا والكتخدا والأمرا وأعانوهم بالمال واللوازم.

وأما يعقوب فإنه كرنك في داره بالدرب الواسع جهة الرويعي، واستعد استعدادًا كبيرًا بالسلاح والعسكر المحاربين، وتحصن بقلعته التي كان شيدها بعد الواقعة الأولى، فكان معظم حرب حسن بك الجداوي معه.

هذا والمناداة في كل وقت بالعربي والتركي على الناس بالجهاد والمحافظة على المتاريس.

واتهم مصطفى أغا مستحفظان بموالاته للفرنساوية، وأنه عنده في بيته جماعة من الفرنسيس، فهجمت العساكر على داره بدرب الحجر، فوجدوا أنفارًا قليلة من الفرنسيس فقاتلوا وحاموا عن أنفسهم، وقتل منهم البعض وهرب البعض على حمية حتى خلصوا إلى الناصرية، وأما الأغا فإنهم قبضوا عليه وأحضروه بين يدي عثمان كتخدا، ثم تسلمه الإنكشارية وخنقوه ليلًا بالوكالة التي عند باب النصر، ورموا جيفته على مزبلة خارج البلد، واستقر عوضه شاهين كاشف الساكن بالخرنفش، فاجتهد وشدد على الناس وكرر المناداة ومنعهم من دخول الدور وكل من وجده داخل داره مقته وضربه، فكان الناس يبيتون بالأزقة والأسواق حتى الأمرا والأعيان.

وهلكت البهايم من الجوع لعدم وجود العلف من التبن والفول والشعير والدريس بحيث صار يُنادَى على الحمار أو البغل المعدد الذي قيمته ثلاثون ريالًا وأكثر بماية نصف فضة أو ريال واحد وأقل، ولا يوجد من يشتريه، وفي كل يوم يتضاعف الحال وتعظم الأهوال.

وزحف المسلمون على جهة رصيف الخشاب، وترامى الفريقان بالمدافع والنيران حتى احترق ما بينهم من الدور.

وكان إسماعيل كاشف الألفي تحصن ببيت أحمد أغا شويكار الذي كان ببيته، وقد كان الفرنساوية جعلوا به لغمًا بالبارود المدفون، فاشتغل ذلك اللغم ورفع ما فوقه من الأبنية والنسا، وطاروا في الهوا واحترقوا عن آخرهم وفيهم إسماعيل كاشف المذكور، وانهدم جميع ما هناك من الدور والمباني العظيمة والقصور المطلة على البركة، واحترق جميع البيوت التي من عند بين المفارق بقرب جامع عثمان كتخدا إلى رصيف الخشاب والخطة المعروفة بالساكت بأجمعها إلى الرحبة المقابلة لبيت الألفي سكن ساري عسكر الفرنساوية، وكذلك خطة الفوالة بأسرها وكذلك خطة الرويعي بالسباطين العظيمين وما في ضمن ذلك من البيوت إلى حد حارة النصارى، وصارت كلها تلالًا وخرايب كأنها لم تكن مغنى صبابات ولا مواطن أنس ونزاهات، وفيها يقول صديقنا العلامة النحرير الفهامة الشيخ حسن العطار حفظه الله: وأما بركة الأزبكية فهي مسكن الأمرا ومواطن الرويسا قد أحدقت بها البساتين الوارفة الظلال العديمة المثال، فترى الخضرة في خلال تلك القصور المبيضة كثياب سندس خضر على أثواب من فضة، يوقد بها كثير من السرج والشموع فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع، وجمالها يدخل على القلب السرور، ويذهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور، ولطالما مضت لي بالمسرة فيها أيام وليالٍ هن في سمط الأيام من يتيم اللآلي وأنا أنظر إلى انطباع صورة البدر في وجناتها وفيضان لجين نوره على حافاتها وساحاتها، والنسيم بأذيال ثوب مائها الفضي لعاب، وقد سل على حافاتها من تلاعب الأمواج كل قرضاب، وقام على منابر أدواحها في ساحة أفراحها مغردات الطيور وجالبات السرور، فلذيذ العيش بها موصول وفيها أقول:

بالأزبكية طابت لي مسرات	ولَذَّ لي من بديع الأنس أوقات
حيث المياه بها والفلك سابحة	كأنها الزهر تحويها السموات
وقد أدير بها دُور مشيدة	كأنها لبدور الحسن هالات
مَدت عليها الروابي خضر سندسها	وغردت في نواحيها حمامات
والماء حين سرى رطب النسيم به	وحل فيه من الأدواح زهرات
كسابغات دروع فوقها نقط	من فضة واحمرار الورد طعنات
مراتع لظباء الترك ساحتها	وللأسود بها فيهن غيضات
وللنديم بها عيش تجدده	أيدي الزمان ولا تخشى جنايات
يروح منها صريع العقل حين يرى	على محاسنها دارت زجاجات

وللرفاق بها جمع ومفترق   لما غدت وهي للندمان حانات

قلت: وقد جنت عليها أيدي الزمان وطوارق الحدثان حتى تبدلت محاسنها وأقفرت مساكنها، وهكذا عقبى سوء ما عملوا فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا.

وأرسلوا إلى مراد بك يطلبونه للحضور أو يرسل الأمرا والأجناد التي عنده، فأرسل يعتذر عن الحضور، ويقول إنه محافظ على الجهة التي هو فيها، فأرسلوا إليه بالإرسال والاستكشاف عن أمر الوزير، فأرسل يخبر أنه أرسل هجانًا إلى الشرق من نحو عشرة أيام وإلى الآن لم يحضر، وأن الفرنساوية إذا ظفروا بالعثمانية لا يقتلونهم ولا يضربونهم وأنتم كذلك معهم، فاقبلوا نصحي واطلبوا الصلح معهم، واخرجوا سالمين، فلما بلغهم تلك الرسالة حنق حسن بك الجداوي وعثمان بك الأشقر وغيرهم، وسفهوا رأيه وقالوا: كيف يصح هذا الأمر وقد دخلنا إلى البلد وملكناها فكيف نخرج منها طايعين ونحو ذلك، هذا مما لا يكون أبدًا، فأشار إبراهيم بك برجوع البرديسي وصحبته عثمان بك الأشقر ليقول الأشقر لمراد بك ما يقوله، فلما اجتمع به ورجع لم يرجع على ما كان عليه حال ذهابه وفترت همته وجنح لرأي مراد بك.

واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب وشدة البلا والكرب، ووقوع البنبات على الدور والمساكن من القلاع والهدم والحرق، وصراخ النسا من البيوت والصغار من الخوف والجزع والهلع مع القحط، وفقد المآكل والمشارب وغلق الحوانيت والطوابين والمخابز، ووقوف حال الناس من البيع والشرا، وتفليس الناس وعدم وجدان ما ينفقونه إن وجدوا شيًّا، واستمر ضرب المدافع والقنابر والبنادق والنيران ليلًا ونهارًا حتى كان الناس لا يهنا لهم نوم ولا راحة ولا جلوس لحظة لطيفة من الزمن، ومقامهم دايمًا أبدًا بالأزقة والأسواق وكأنما على روس الجميع الطير، وأما النسا والصبيان فمقامهم بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية إلى غير ذلك.

وفي أثنا ذلك فرضوا على الناس من أهل الأسواق وغيرهم ماية كيس، فردوها على بعض الناس كالسادات والصاوي.

وصار مونة غالب الناس الأرز ويطبخونه بالعسل وباللبن، ويبيعون ذلك في طشوت وأوانٍ بالأسواق.

وفي كل ساعة تهجم العساكر الفرنساوية على جهة من الجهات، ويحاربون الذين بها ويملكون منهم بعض المتاريس فيصيحون على بعضهم بالمناداة، ويتسامع الناس ويصرخون على بعضهم البعض، ويقولون: عليكم بالجهة الفلانية، الحقوا إخوانكم

المسلمين، فيرمحون إلى تلك الخطة والمتاريس حتى يجلوهم عنها، وينتقلون إلى غيرها فيفعلون كذلك.

وكان المتحمل لغالب هذه المدافعات حسن بك الجداوي، فإنه كان عندما يبلغه زحف الفرنساوية على جهة من الجهات يبادر هو ومن معه للذهاب لنصرة تلك الجهة، ورأى الناس من إقدامه وشجاعته وصبره على مجالدة العدو ليلًا ونهارًا ما ينبي عن فضيلة نفس وقوة قلب وسمو همة، وقلَّ أن وقع حرب في جهة من الجهات إلا وهو مدير رحاها وريس كماتها، هذا والأغا والوالي يكررون المناداة، وكذلك المشايخ والفقها والسيد أحمد المحروقي والسيد عمر النقيب يمرون كل وقت، ويأمرون الناس بالقتال ويحرضونهم على الجهاد، وكذلك بعض العثمانية يطوفون من أتباع الشرطة وينادون باللغة التركية مثل ذلك.

وجرى على الناس ما لا يسطر في كتاب، ولم يكن لأحد في حساب، ولا يمكن الوقوف على كلياته فضلًا عن جزئياته، منها عدم النوم ليلًا ونهارًا، وعدم الطمأنينة وغلو الأقوات، وفقد الكثير منها خصوصًا الأدهان، وتوقع الهلاك كل لحظة والتكليف بما لا يطاق، أو مغالبة الجهلا على العقلا وتطاول السفها على الروسا، وتهور العامة ولغط الحرافيش وغير ذلك مما لا يمكن حصره.

ولم يزل الحال على هذا المنوال إلى نحو عشرة أيام، وكل هذا والرسل من قبل الفرنساوية وهم عثمان بك البرديسي تارة ومصطفى كاشف ورستم تارة أخرى، والاثنان من أتباع مراد بك يترددون في شأن الصلح وخروج العساكر العثمانية من مصر، والتهديد بحرقها وهدمها إذا لم يتم هذا الغرض، واستمروا على هذا العناد، ثم نصب الفرنساوية في وسط البركة فسطاطًا لطيفًا، وأقاموا عليه علمًا وأبطلوا الرمي تلك الليلة، وأرسلوا رسولًا من قبلهم إلى الباشا والكتخدا والأمرا يطلبون المشايخ يتكلمون معهم في شأن هذا الأمر، فأرسلوا الشرقاوي والمهدي والسرسي والفيومي وغيرهم، فلما وصلوا إلى ساري عسكر وجلسوا خاطبهم على لسان الترجمان بما حاصله أن ساري عسكر قد أمن أهل مصر أمانًا شافيًا، وأن الباشا والكتخدا ومن معهما من العساكر العثمانية يخرجون من مصر ويلحقون بالعرضي، وعلى الفرنساوية القيام بما يحتاجون إليه من المونة والذخيرة حتى يصلوا إلى معسكرهم، وأما الأجناد المصرية الداخلة معهم فمن أراد منهم المقام بمصر من المماليك والغز الداخلين معهم فليقم وله الإكرام، ومن أراد الخروج فليخرج والجرحى من العثملي يجردون من سلاحهم، وإن كان يأخذه

الكتخدا فليأخذه، وعلينا أن نداويهم حتى يبروا، ومن أقام بعد البرء منهم فعلينا مونته، ومن أراد الخروج بعد برئه فليخرج، وعلى أهل مصر الأمان فإنهم رعيتنا.

وتوافقوا على ذلك وتراضوا عليه، ولما كان الغد وشاع أمر الموادعة واستفاض أمر الصلح على هذا قال لهم: لأي شي تفعلون هذا الفعل، وهذه المحاربات والوزير بتاعكم ولى مهزومًا ورجع هاربًا، ولا يمكن عوده في هذا الحين إلا أن يكون بعد ستة أشهر، فاعتذروا له بأن هذا من فعل نصوح باشا وكتخدا الدولة وإبراهيم بك ومن معهم، فإنهم هم الذين أثاروا الفتنة وهيجوا الرعايا ومنوا الناس الأماني الكاذبة والعامة لا عقول لهم، فقال لهم بعد كلام طويل: قولوا لهم يتركون القتال ويخرجون فيلحقون بوزيرهم، فإنهم لا طاقة لهم على حربنا ويكون سببًا لهلاك الرعية وحرق البلدين مصر وبولاق، فقالوا له: نخشى أنهم إذا امتثلوا وجنحوا للموادعة وخرجوا وذهبوا إلى ساري عسكرهم تنتقمون منا ومن الرعايا بعد ذلك، فقال: لا نفعل ذلك، فإنهم إذا رضوا ومنعوا الحرب اجتمعنا معكم وإياهم وعقدنا صلحًا ولا نطالبكم بشي، والذي قتل منا في نظير الذي قتل منكم، وزودناهم وأعطيناهم ما يحتاجون من خيل وجمال، وأصبحنا معهم من يوصلهم إلى مأمنهم من عسكرنا ولا نضر أحدًا بعد ذلك.

فلما رجع المشايخ بهذا الكلام، وسمعه الإنكشارية والناس قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم، وضربوا الشرقاوي والسرسي ورموا عمايمهم وأسمعوهم قبيح الكلام، وصاروا يقولون: هولا المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين، وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس وتكلم السفلة والغوغا من أمثال هذا الفضول.

وتشدد في ذلك الرجل المغربي الملتف عليه أخلاط العالم ونادى من عند نفسه: الصلح منقوض، وعليكم بالجهاد، ومن تأخر عنه ضرب عنقه، وكان السادات ببيت الصاوي فتحير واحتال بأن خرج وأمامه شخص ينادي بقوله: الزموا المتاريس، ليقي بذلك نفسه من العامة، ووافق ذلك أغراض العامة لعدم إدراكهم لعواقب الأمور، فالتفوا عليه وتعضد كل بالآخر، وأن غرضه هو في دوام الفتنة، فإن بها يتوصل لما يريده من النهب والسلب والتصور بصورة الإمارة باجتماع الأوغاد عليه، وتكفل الناس له بالمأكل والمشرب هو ومن انضم إليه، واشتطَّ في المآكل مع فقد الناس لأدْوَن ما يوكل حتى إنه إذا نزل جهة من جهات المدينة لإظهار أنه يريد المعونة أو الحرس فيقدمون له بالطعام فيقول: لا آكل إلا الفراخ، ويظهر أنه صايم، فيكلف أهل تلك الجهة أنواع المشقات والتكلفات بتعنته في هذه الشدة بطلب أفحش المأكولات وما هو مفقود، ثم هو مع ذلك

لا يغني شيًّا بل إذا دهم العدو تلك الجهة التي هو فيها فارقها وانتقل لغيرها، وهكذا كان ديدنه وسبحه ثم هو ليس ممن له في مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال أو غير ذلك، بل كما قيل: لا ناقتي فيها ولا جملي، فإذا قدر ما قدر تخلص مع حزبه إلى بعض الجهات والتحق بالريف أو غيره، وحينئذ يكون كآحاد الناس ويرجع لحالته الأولى، وتبطل الهيئة الاجتماعية التي جعلها لجلب الدنيا فخًّا منصوبًا، ومخرق بها على سخاف العقول وأخفا الأحلام.

وهكذا حال الفتن تكثر فيها الدجاجلة، ولو أن نيته ممحضة لخصوص الجهاد لكانت شواهد علانيته أظهر من نار على علم، أو اقتحم كغيره ممن سمعنا عنهم من المخلصين في الجهاد وفي بيع أنفسهم في مرضاة رب العباد، لظا الهيجا ولم يتعنت على الفقرا، ولم يجعل همته السلب مصروفة وحال سلوكه عند الناس ليست معروفة.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وبالجملة فكان هذا الرجل سببًا في تهدم أغلب المنازل بالأزبكية، ومن جملة ما رميت به مصر من البلاء، وكان ممن ينادَى به عليه حين أشيع أمر الصلح وتكلم به الأشياخ: الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر ضرب عنقه، وهذا منه افتيات وفضول ودخول فيما لا يعني حيث كان في البلد مثل الباشا والكتخدا والأمرا المصرية فما قدر هذا الأهوج حتى ينقض صلحًا أو يبرمه، وأي شي يكون هو حتى ينادي أو ينصب نفسه بدون أن ينصبه أحد لذلك، لكنها الفتن يستنسر بها البغاث سيما عند هيجان العامة وثوران الرعاع والغوغا، إذ كان ذلك مما يوافق أغراضهم.

وذنب جرَّه سفهاء قوم وحلَّ بغير جانيه العذاب

على أن المشايخ لم يأمروا بشي ولم يذكروا صلحًا ولا غيره، إنما بلغوا صورة المجلس الذي طلبوا لأجله لحضرة الكتخدا، فبمجرد ذلك قامت عليهم العامة هذا المقام وسبوهم وشتموهم بل ضربوهم، وبعضهم رموا بعمامته إلى الأرض وأسمعوهم قبيح الكلام، وفعلوا ما فعلوا معهم، وصاروا يقولون: لولا أن الكفرة الملاعين تبين لهم الغلب والعجز ما طلبوا المصالحة والموادعة، وأن بارودهم وذخيرتهم فرغت ونحو ذلك من الظنون الفاسدة، ولم يردوا عليهم جوابًا بل ضربوا بالمدافع والبنادق، فأرسلوا أيضًا

رسلًا يسألونهم عن الجواب الذي توجه به المشايخ، فأرسل إليهم الباشا والكتخدا يقولان لهم: إن العساكر لم يرضوا بذلك ويقولون: لا نرجع عن حربهم حتى نظفر بهم أو نموت عن آخرنا، وليس في قدرتنا قهرهم على الصلح، فأرسل الفرنساوية جواب ذلك في ورقة يقولون في ضمنها: قد عجبنا من قولكم إن العساكر لم ترضَ بالصلح! وكيف يكون الأمير أميرًا على جيش ولا ينفذ أمره فيهم ونحو ذلك؟ وأرسلوا أيضًا رسولًا إلى أهل بولاق يطلبونهم للصلح وترك الحرب ويحذرونهم عاقبة ذلك، فلم يرضوا وصمموا على العناد، فكرروا عليهم المراسلة وهم لا يزدادون إلا مخالفة وشغبًا، فأرسلوا في خامس مرة فرنساويًّا يقول: أمان أمان سوا سوا، وبيده ورقة من ساري عسكر، فأنزلوه من على فرسه وقتلوه، وظن كامل أهل مصر أنهم إنما يطلبون صلحهم عن عجز وضعف وأشعلوا نيران القتال، وجدوا في الحرب من غير انفصال.

والفرنساوية لم يقصروا كذلك، وراسلوا رمي المدافع والقنابر والبندق المتكاثر وحضر الألفي إلى عثمان كتخدا برأي ابتدعه ظن أن فيه الصواب، وهو أن يرفعوا على هلالات المنارات أعلامًا نهارًا، ويوقدوا عليها القناديل ليلًا ليرى ذلك العسكر القادم فيهتدي، ويعلمون أن البلد بيد المسلمين وأنهم متصورون، وكذلك صنع معهم أهل بولاق، وذلك لغلبة ظن الناس أن هناك عسكرًا قادمين لنجدتهم.

وظن أهل بولاق أن الباعث على ذلك نصرتهم، فصمموا على ذلك للحرب، واستمر هذا الحال بين الفريقين إلى يوم الخميس ثاني عشرينه الموافق لعاشر برموده القبطي، وسادس نيسان الرومي فغيمت السما غيمًا كثيفًا، وأرعدت رعدًا مزعجًا عنيفًا، وأمطرت مطرًا غزيرًا، وسيلت سيلًا كثيرًا، فسالت المياه في الجهات، وتوحلت جميع السكك والطرقات، فاشتغل الناس بتجفيف المياه والأوحال، ولطخت الأمرا والعساكر بسراويلهم ومراكيبهم بالطين.

والفرنساوية هجموا على مصر وبولاق من كل ناحية، ولم يبالوا بالأمطار؛ لأنهم في خارج الأفنية، وهي لا تتأثر بالمياه كداخل الأبنية، وعندهم الاستعداد والتحفظ والخفة في ملابسهم وما على روسهم، وكذلك أسلحتهم وعددهم وصنايعهم بخلاف المسلمين، فلما حصل ذلك اغتنموا الفرصة وهجموا على البلدين من كل ناحية، وعملوا فتايل مغمسة بالزيت والقطران وكعكات غليظة ملوية على أعناقهم معمولة بالنفط والأرواح المصنوعة المقطرة التي تشتعل ويقوى لهبها بالماء، وكان معظم كبستهم من ناحية باب الحديد وكوم أبي الريش وجهة بركة الرطل، وقنطرة الحاجب وجهة الحسينية والرميلة، فكانوا

يرمون المدافع والبنبات من قلعة جامع الظاهر وقلعة قنطرة الليمون، ويهجمون أيضًا وأمامهم المدافع وطايفة خلفهم بواردية يقال لهم السلطات، يرمون بالبندق المتتابع وطايفة بأيديهم الفتايل والكعكات المشتعلة بالنيران يلهبون بها السقايف وضرف الحوانيت وشبابيك الدور، ويزحفون على هذه الصورة شيًّا فشيًّا.

والمسلمون أيضًا بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة همتهم وعزمهم، وتحول الأغا وأكثر الناس إلى تلك الجهة وزلزلوا في ذلك اليوم والليلة زلزالًا شديدًا، وهاجت العامة وصرخت النسا والصبيان ونطوا من الحيطان، والنيران تأخذ المتوسطين بين الفيتين من كل جهة، هذا والأمطار تسح حصة من النهار، وكذلك بالليل من ليلة الجمعة، كذلك الرعد والبرق، وعثمان بك الأشقر الإبراهيمي وعثمان بك البرديسي المرادي ومصطفى كاشف رستم يذهبون ويجيون من الفرنسيس إلى المسلمين ومن الفرنسيس إليهم، ويسعون في الصلح بين الفريقين، ثم إنهم هجموا على بولاق من ناحية البحر ومن ناحية بوابة أبي العلا بالطريقة المذكور بعضها، وقاتل أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم في النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم، وحصروهم من كل جهة وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب، وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما يشيب من هوله النواصي، وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة، واحترقت الأبنية والدور والقصور، وخصوصًا البيوت والرباع المطلة على البحر، وكذلك الأطارف وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالغلبة، فنجوا بأنفسهم إلى الجهة القبلية، ثم أحاطوا بالبلد ومنعوا من يخرج منها، واستولوا على الخانات والوكايل والحواصل والودايع والبضايع، وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنسا والخوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال والسكر والكتان والقطن والأبازير والأرز والأدهان والأصناف العطرية، وما لا تسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور، والذي وجدوه منعكفًا في داره أو طبقته ولم يقاتل، ولم يجدوا عنده سلاحًا نهبوا متاعه وعروه من ثيابه ومضوا وتركوه حيًّا، وأصبح من بقي من ضُعفا أهل بولاق، وأهلها وأعيانها الذين لم يقاتلوا فُقرا لا يملكون ما يستر عوراتهم، وذلك يوم الجمعة ثالث عشرينه، وكان محمد الطويل كاتب الفرنساوية أخذ منهم أمانًا لنفسه، وأوهم أصحابه أنه يحارب معهم، وفي وقت هجوم العساكر انفصل إليهم واختفى البشتيلي فدلوا عليه وقبضوا على وكيله وعلى الرويسا، فحبسوا البشتيلي بالتكية والباقي ببيت ساري عسكر، وضيقوا عليهم حتى منعوهم البول.

وفي اليوم الثالث أطلقوهم وجمعوا عصبة البشتيلي من العامة وسلموهم البشتيلي وأمروهم بتجريسه وشهرته في البلدة وأن يقتلوه بأيديهم لدعواهم أنه هو الذي كان

يحرك الفتنة ويمنعهم الصلح، وأنه كاتب عثمان كتخدا بمكتوب قال فيه: إن الكلب دعانا للصلح فأبينا منه، وأرسله مع رجل ليوصله إلى الكتخدا فوقع في يد ساري عسكر كليبر، فحركه ذلك على أخذ بولاق وفِعْله فيها الذي فعله، وقوبل على ذلك بأن أسلم إلى عصبته، وأمروا أن يطوفوا به البلد ثم يقتلوه ففعلوا ذلك وقتلوه بالنبابيت.

وألزم أهل بولاق بأن يرتبوا ديوانًا لفصل الأحكام، وقيدوا فيه تسعة من رويساهم، ثم بعد مضي يومين ألزموا بغرامة مايتي ألف ريال.

وأما المدينة فلم يزل الحال بها على النسق المتقدم من الحرب والكرب والنهب والسلب إلى سادس عشرينه حتى ضاق خناق الناس من استمرار الانزعاج والحريق والسهر وعدم الراحة لحظة من الليل والنهار، مع ما هم فيه من عدم القوت، حتى هلكت الناس وخصوصًا الفقرا والدواب وإيذاء عسكر العثمانلي للرعية، وخطفهم ما يجدونه معهم حتى تمنوا زوالهم ورجوع الفرنسيس على حالتهم التي كانوا عليها.

والحال كل وقت في الزيادة، وأمر المسلمين في ضعف لعدم الميرة والمدد والفرنساوية بالعكس، وفي كل يوم يزحفون إلى قدام والمسلمون إلى ورا، فدخلوا من ناحية باب الحديد وناحية كوم أبي الريش وقنطرة الحاجب وتلك النواحي، وهم يحرقون بالفتايل والنيران الموقدة، ويملكون المتاريس إلى أن وصلوا من ناحية قنطرة الخروبي وناحية باب الحديد إلى قرب باب الشعرية.

وكان شاهين أغا هناك عند المتاريس، فأصابته جراحة فقام من مكانه ورجع القهقرى، فعند رجوعه وقعت الهزيمة ورجع الناس يدوسون بعضهم البعض.

وملك الفرنساوية كوم أبي الريش وصاروا يحاربون من كوم أبي الريش وهم في العلو والمسلمون أسفل منهم، وكان المحروقي زور كتابًا على لسان الوزير، وجا به رجل يقول إنه رسول الوزير، وإنه اختفى في طريق خفية ونط من السور، وإن الوزير يقدم بعد يومين أو ثلاثة، وإنه تركه بالصالحية، وإن ذلك كذب لا أصل له وأن يكتب جوابًا عن فرمان كتبوه على لسان المشايخ والتجار، وأرسلوه إلى الوزير في أثنا الواقعة.

هذا والبرديسي ومصطفى كاشف والأشقر يسعون في أمر الصلح إلى أن تمَّمُوه على كف الحرب، وأن الفرنساوية يمهلون العثمانية والأمرا ثلاثة أيام حتى يقضوا أشغالهم ويذهبوا حيث أتوا، وجعلوا الخليج حدًّا بين الفريقين لا يتعدى أحد من الفريقين بر الخليج الآخر، وأبطلوا الحرب وأخمدوا النيران وتركوا القتال، وأخذ العثمانية والأمرا والعسكر في أهبة الرحيل وقضا أشغالهم، وزودهم الفرنساوية وأعطوهم دراهم وجمالًا وغير ذلك، وكتبوا بعقد الصلح فرمانًا مضمونه:

أنهم يعوقون عندهم عثمان بك البرديسي وعثمان بك الأشقر، ويرسلون ثلاثة أنفار من أعيانهم يكونون بصحبة عثمان كتخدا حتى يصل إلى الصالحية، وأن يوصلهم ساري عسكر داماس بثلثماية من العسكر خوفًا عليهم من العرب، وأن من جاء منهم من جهة يرجع إليها، ومن أراد الخروج من أهل مصر معكم فليخرج ما عدا عثمان بك الأشقر، فإنه إذا رجع الثلاثة مع الفرنساوية يذهب مع البرديسي إلى مراد بك بالصعيد، وأرسلوا الثلاثة المذكورين إلى وكالة ذي الفقار بالجمالية، وأجلسوهم بمسجد الجمالي صحبة نصوح باشا فهاجت العامة وراموا قتلهم، وهموا بقتل عثمان كتخدا فأغلق دونهم باب الخان، ومنع نصوح باشا العامة من الهجوم على المسجد، وركب المغربي فتوجه إلى الحسينية وطلب محاربة الفرنسيس فحضر أهل الحسينية إلى عثمان كتخدا يستأذنونه في موافقة ذلك المغربي أو منعه، فأمر بمنعه وكفِّهم عن القتال وركب المحروقي عند ذلك، ومر بسوق الخشب وقدامه المناداة بأن لا صلح ولزوم المتاريس، فمنعه (نزله أمين) ثم فتح باب الوكالة، وخرج منها عسكر بالعصي فهاجوا في العامة ففروا وسكن الحال.

وقد كان لما حصل ما تقدم من نقض الصلح، ودخول العثمانية وعساكرهم إلى المدينة ووقع ما تقدم، وكلفوا الناس الأمور الغير اللايقة، حضر السيد أحمد المحروقي إلى الشيخ أبي الأنوار السادات بجواب عن لسان عثمان كتخذا الدولة، فكتب له الشيخ تذكرة وصورتها:

حسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، وما هي من الظالمين ببعيد.

ظننت أنك عُدَّتي أسطو بها — ويدي إذا اشتد الزمان وساعدي
فرُمِيتُ منك بغير ما أمَّلته — والمرء يشرق بالزلال البارد

أما بعد فقد نقضت عهدي، وتركت مودة آل بيت جدي، وأطعت الظلمة السفلة، وامتثلت أمر المارقين الثفلة، فأعنتهم على البغي والجور، وسارعت في تنجيز مرامهم الفاسد على الفور من إلزامكم الكبير والصغير والغني والفقير إطعام عسكركم الذي أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات، وبلغ في النهب والفساد غاية الغايات، فكان جهادهم في أماكن الموبقات والملاهي حتى نزل بالمسلمين أعظم المصايب والدواهي، فاستحكم الدمار والخراب، ومنعت الأقوات وانقطعت الأسباب، فبذلك كان عسكركم مخذولًا وبهم عم الحريق كل بيت

كان بالخير مشمولًا، كيف لا وأكابركم أضمرت السوء للمرتزقة في تضييق معايشهم، وأخذ مرتباتهم، وإتلاف ما بأيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم، وقد أخفتم أهل البلد بعد أمنها، وأشعلتم نار الفتنة بعد طفيها، ثم فررتم فرار الفيران من السنَّور، وتركتم الضعفا متوقعين أشنع الأمور، فواغوثاه واغوثاه أغثنا يا غياث المستغيثين، واحكم بعدلك يا أحكم الحاكمين، وانصرنا وانتصر لنا، فإننا عبيدك الضعفا المظلومون يا أرحم الراحمين.

شهر ذي القعدة استهل بيوم الخميس ٢٧ مارس ١٨٠٠ — واستهل شهر ذي الحجة بيوم الجمعة سنة ١٢١٤

فيه خرج العثمانية وعساكرهم وإبراهيم بك وأمراه ومماليكه والألفي وأجناده، ومعهم السيد عمر مكرم النقيب والسيد أحمد المحروقي الشاه بندر وكثيرون من أهل مصر ركبانًا ومشاة إلى الصالحية، وكذلك حسن بك الجداوي وأجناده، وأما عثمان بك حسن ومن معه فرجعوا صحبة الوزير، فلم يسع إبراهيم بك وحسن بك ترك جماعتهما خلفهما وذهابهم بأنفسهم إلى قبلي، بل رجعا بجماعتهما على أثرهما وذاقوا وبال أمرهم.

وانكشف الغبار عن تعسة المسلمين وخيبة أمل الذاهبين والمتخلفين، وما استفاد الناس من هذه العمارة وما جرى من الغارة إلا الخراب والسخام والهباب، فكانت مدة الحرب والحصر بما فيها من الثلاثة أيام الهدنة سبعة وثلاثين يومًا، وقع بها من الحروب والكروب والانزعاج والشتات والهياج وخراب الدور وعظايم الأمور، وقتل الرجال ونهب الأموال وتسلط الأشرار وهتك الأحرار، وخصوصًا ما أوقع الفرنساوية بالناس بعد ذلك مما سيُتْلى عليك بعضه.

وخرب في هذه الواقعة عدة جهات من أخطاط مصر الجليلة، مثل جهة الأزبكية الشرقية من حد جامع عثمان والفوالة وحارة كتخدا ورصيف الخشاب وخطة الساكت إلى بيت ساري عسكر بالقرب من قنطرة الدكة، وكذلك جهة باب الهوا إلى حارة النصارى من الجهة القبلية، وأما بركة الرطلي وما حولها من الدور والمنتزهات والبساتين، فإنها صارت كلها تلالًا وخرايب وكيمان أتربة، وقد كانت هذه البركة من أجل منتزهات مصر قديمًا وحديثًا، وبالقرب منها المقصف المعروف بدهليز الملك والبربخ والجسر، وكانت تعرف ببركة الطوابين، ثم عرفت ببركة الحاجب منسوبة للأمير بكتمر الحاجب، من

أمرا الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ لأنه هو الذي احتفرها وأجرى إليها الما من الخليج الناصري وبنى القنطرة المنسوبة إليه، وعمر عليها الدور والمناظر، وبنى على الجسر الفاصل بينها وبين الخليج دورًا بهية، وكان هذا الجسر من أجل المنتزهات، وقد خربت منازله في القرن العاشر في واقعة السلطان سليم خان مع الغوري، وصار محله بستانًا عظيمًا، قطع أشجاره وغالب نخيله الفرنساوية، وفيه يقول بعضهم من قصيدة قديمة:

أصابت الجسر عين الدهر فانقصفا   ولاح بدر التصابي فيه منخسفا
وأعين البحر قد فاضت معكرة   تبكي على زمن قد كان فيه صفا

ومنها:

أيا رعى الله وقتًا مرَّ حين حلا   بطيب عيش لنا في الجسر قد سلفا

وكان للقاضي ابن الجيعان عليها دور جليلة، ومسجده المعروف به إلى الآن بشاطئها، ومسجد الحريثي، وعرفت ببركة الرطلي؛ لأنه كان في شرقها زاوية بها نخل كثير، وفيها شخص يصنع الأرطال الحديد التي تزن بها الباعة، يقال له الشيخ علي الرطلي فنسبت إليه، وفيها يقول بعضهم:

في أرض طبالتنا بركة   مدهشة للعين والعقل
ترجح في ميزان عقلي على   كل بحار الأرض بالرطل

وقوله في أرض طبالتنا بركة يعني أن هذه البركة من جملة أرض الطبالة، والطبالة امرأة مغنية مشهورة في آخر دولة الإخشيد، فلما حضر المغربي معد الفاطمي إلى مصر، وكان يدَّعي الإمامة والخلافة دون بني العباس، فخرجت إليه بجوقتها ومشت أمامه تزفه بالدفوف، وتقول:

يا بني العباس ردوا   ملك الأمر معد
ملككم ملك معار   والعواري تسترد

فأعجبه ذلك، وأراد أن ينعم عليها، فتمنَّت عليه أن يقطعها هذه الأرض، فأقطعها إياها فعرفت بها، وبهذه البركة بركة يطلع بها البشنين، وهو اللينوفر يقوم على ساق

ممتد إلى أعلى بمقدار غمر الما، بحيث تكون نوارة كل ساق مساوية لسطح الما، ونواره أصفر، وهو على هيئة الورد المتفتح، ويحيط بذلك الورد الأصفر ورق أخضر، وفي داخل الأصفر عروق بيض، يدور ذلك النوار مع الشمس حيث دارت.

وفيه يقول بعضهم:

وبركة تزهو بلينوفر   شبهته طيبة بشر الحبيب
مفتح الأحداق في نومته   حتى إذا الشمس دنت للمغيب
أطبق جفنيه على خده   وغاص في البركة خوف الرقيب

وليس يطلع هذا البشنين بجميع أرض البركة، بل بقطعة منها مخصوصة تجاه الجسر المذكور.

ومما تخرب أيضًا حارة المقس من قبل سوق الخشب إلى باب الحديد، وجميع ما في ضمن ذلك من الحارات والدور صارت كلها خرايب متهدمة محترقة، تُسْكَبُ عند مشاهدتها العبرات، ويُتَذكَّر بها ما يُتلَى في حق الظالمين من الآيات، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ❁ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

ودخل الفرنساوية إلى المدينة يسعون، وإلى الناس بعين الحقد ينظرون، واستولوا على ما كان اصطنعه وأعده العثمانية من المدافع والقنابر والبارود وآلات الحرب جميعها، وقيل إنهم حاسبوهم على كلفته ومصاريفه، وقبضوا ذلك من الفرنساوية.

وركب المشايخ والأعيان عصر ذلك اليوم، وذهبوا إلى كبير الفرنسيس، فلما وصلوا إلى داره، ودخلوا عليه وجلسوا ساعة أبرز إليهم ورقة مكتوب فيها:

النصرة لله الذي يريد أن المنصور يعمل بالشفقة والرحمة مع الناس، وبناء على ذلك، ساري عسكر العام يريد أن ينعم بالعفو العام والخاص على أهل مصر

وعلى أهل بر مصر، ولو كانوا يخالطون العثملي في الحروب، وأنهم يشتغلون بمعايشهم وصنايعهم، ثم نبه عليهم بحضورهم إلى قبة النصر بكرة تاريخه.

ثم قاموا من عنده وشقوا المدينة وطافوا بالأسواق وبين أيديهم المناداة للرعية بالاطمينان والأمان، فلما أصبح ذلك اليوم ركبت المشايخ والوجاقلية، وذهبوا إلى خارج باب النصر.

وخرج أيضًا القلقات والنصارى القبط والشوام وغيرهم، فلما تكامل حضور الجميع رتَّبوا موكبًا وساروا ودخلوا من باب النصر وقدامهم جماعة من القواسة يأمرون الناس بالقيام، وبعض فرنساوية راكبين خيلًا وبأيديهم سيوف مسلولة ينهرون الناس ويأمرونهم بالوقوف على أقدامهم، ومن تباطأ في القيام أهانوه، فاستمرت الناس وقوفًا من ابتدا سير الموكب إلى انتهاه، ثم تلا الطايفة الآمرة للناس بالوقوف جمعٌ كثير من الخيالة الفرنساوية بأيديهم سيوف مسلولة، وكلهم لابسون جوخًا أحمر وعلى روسهم طراطير من الفراوي على غير هيئة خيَّالتهم ومشاتهم، ثم تتالى بعد هولا طوايف العساكر ببوقاتهم وطبولهم وزمورهم، واختلاف أشكالهم وأجناسهم وملابسهم من خيالة ورجالة، ثم الأعيان والمشايخ والوجاقلية وأتباعهم إلى أن قدم ساري عسكر الفرنساوية، وخلف ظهره عثمان بك البرديسي وعثمان بك الأشقر، وخلفهم طوايف من خيالة الفرنسيس.

ولما انقضى أمر الموكب نادوا بالزينة، فزينت البلد ثلاثة أيام آخرها يوم الثلاثا مع السهر ووقود القناديل ليلًا، ثم دعاهم في يوم الأربعا وعمل لهم سماطًا عظيمًا على طريقة المصرلية، وبعد انقضا الوليمة والطعام خاطبهم على لسان الترجمان يقول لهم: إن ساري عسكر يقول لكم إنكم تأتون إليه بعد غد يوم الجمعة، ويعمل تدبيرًا ويرتب الديوان لأجل تنظيم البلد وصلاح حالكم وحال الرعية، وقلدوا في ذلك اليوم محمد أغا الطناني أغات مستحفظان وركب ونادى بالأمان، وأعطوا البكري بيت عثمان كاشف كتخدا الحج وهو بيت البارودي الثاني فسكن به وشرع في تنظيمه وفرشه، ولبسوه في ذلك اليوم فروة سمور فقاموا من عنده فرحين مطمينين مستبشرين.

فلما كان يوم الخميس سابعه ذهب إلى مراد بك بجزيرة الدهب باستدعا، فمد لهم أسمطة عظيمة، وأعطاه ما كان أرسله درويش باشا معونة للباشا والأمرا من الأغنام وغيرها، وكانت نحو الأربعة آلاف رأس، وولوه إمارة الصعيد من جرجا إلى إسنا، ورجع عايدًا إلى داره بالأزبكية، فلما كان في صبحها يوم الجمعة ثامنه بكَّر المشايخ بالذهاب إلى

بيت ساري عسكر ولبسوا أفخر ثيابهم وأحسن هيئاتهم، وطمع كل واحد منهم، وظن أن ساري عسكر يقلده في هذا اليوم أحلى المناصب، أو ربما حصل التغيير والتبديل في أهل الديوان فيكون في الديوان الخصوصي، فلما استقر بهم الجلوس في الديوان الخارج أهملوا حصة طويلة لم يؤذن لهم ولم يخاطبهم أحد، ثم طلب ساري عسكر الشيخ محمد المهدي فدخل إليه بمفرده، فكلمه كلامًا طويلًا، فمما قال له: إننا لما حضرنا إلى بلدكم هذه نظرنا أن أهل العلم هم أعقل الناس، والناس بهم يقتدون، ولأمرهم يمتثلون، ثم إنكم أظهرتم لنا المحبة والمودة وصدقنا ظاهر حالكم، فاصطفيناكم وميزناكم على غيركم واخترناكم لتدبير الأمور وصلاح الجمهور، فرتبنا لكم الديوان وغمرناكم بالإحسان، وخفضنا لكم جناح الطاعة، وجعلناكم مسموعين القول مقبولين الشفاعة، وأوهمتمونا أن الرعية لكم ينقادون، ولأمركم ونهيكم يرجعون، فلما حضر العثملي فرحتم لقدومهم وقمتم لنصرتهم وثبت عند ذلك نفاقكم لنا، فقال له: نحن ما قمنا مع العثملي إلا عن أمركم؛ لأنكم عرفتمونا أننا صرنا في حكم العثملي من ثاني شهر رمضان، وأن البلاد والأموال صارت له وخصوصًا وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين، وما شعرنا إلا بحديث هذا الحادث بينكم وبينهم على حين غفلة، ووجدنا أنفسنا في وسطهم، فلم يمكننا التخلف عنهم، فردَّ عليهم الترجمان ذلك الجواب، ثم أجابهم بقوله: ولأي شي لم تمنعوا الرعية عما فعلوه من قيامهم ومحاربتهم لنا، فقالوا: لا يمكننا ذلك خصوصًا وقد تقوَّوا علينا بغيرنا، وسمعتم ما فعلوه معنا من ضربنا وبهدلتنا عندما أشرنا عليهم بالصلح وترك القتال، فقال لهم: وإذا كان الأمر كما ذكرتم ولا يخرج من يدكم تسكين الفتنة ولا غير ذلك، فما فايدة رياستكم وإيش يكون نفعكم، وحينئذ لا يأتينا منكم إلا الضرر؛ لأنكم إذا حضر أخصامنا قمتم معهم وكنتم وإياهم علينا، وإذا ذهبوا رجعتم إلينا معتذرين فكان جزاؤكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق من قتلكم عن آخركم وحرق بلدكم وسبي حريمكم وأولادكم، ولكن حيث إننا أعطيناكم الأمان فلا ننقض أماننا، ولا نقتلكم وإنما نأخذ منكم الأموال.

ثم فتح باب المجلس الداخلي وطلبوا إلى المشايخ الدخول فيه، فدخلوا وجلسوا حصة مثل الأولى، ثم خرج إليهم ساري عسكر وصحبته الترجمان وجماعة من أعيانهم، فوضع له كرسي في وسط المجلس وجلس عليه، ووقف الترجمان وأصحابه حواليه، واصطف الوجاقلية والحكام من ناحية، وأعيان النصارى والتجار من ناحية، وعثمان بك الأشقر والبرديسي أيضًا حاضران فأخرج ساري عسكر ورقة من كمه، وتكلم بما فيها وكلم

الترجمان كلامًا طويلًا بلغتهم حتى فرغ، فالتفت الترجمان إلى الجماعة وشرع يفسر لهم مقالة ساري عسكر، ويترجم عنها بالعربي والجماعة يسمعون، فكان مخلص ذلك القول: إن ساري عسكر يقول لكم إنه عفا عنكم مع استحقاقكم للعقوبة وإنما يطلب منكم عشرة آلاف ألف فرنك، وذلك مقداره ألفا ألف فرانسة، منها على الشيخ السادات خاصة ماية ألف، والشيخ محمد بن الجوهري خمسون ألفًا، وأخيه الشيخ فتوح خمسون ألفًا، والشيخ مصطفى الصاوي خمسون ألفًا، والشيخ العنائي خمسة عشر ألفًا، ومايتان وخمسون ألفًا تقتطعها من ذلك نظير نهب دور الفارين مع العثملي مثل المحروقي، والسيد عمر مكرم، وحسين أغا شنن، وما بقي تدبرون رأيكم فيه وتوزعونه على أهل البلد وتتركون عندنا منكم خمسة عشر شخصًا، انظروا من يكون فيكم رهينة عندنا حتى تغلقوا ذلك المبلغ، وقام من فوره ودخل مع أصحابه إلى داخل، وأغلق بينه وبينهم الباب، ووقفت الحرسية على الباب الآخر يمنعون من يخرج من الجالسين، فبهت الجماعة وانتقعت وجوههم ونظروا إلى بعضهم البعض وتحيرت أفكارهم، ولم يخرج عن هذا الأمر إلا البكري والمهدي؛ لكون البكري حصل له ما حصل في صحايفهم والمهدي حرق بيته بمرأى منهم، وكان قبل ذلك نقل جميع ما فيه بداره بالخرنفش ولم يترك به إلا بعض الحصر، ولم يكن به غير بعض الخدم، وكان يستعمل المداهنة وينافق الطرفين بصناعته وعادته.

ولم تزل الجماعة في حيرتهم وسكرتهم، وتمنى كل منهم أنه لم يكن شيًّا مذكورًا، ولم يزالوا على ذلك الحال إلى قريب العصر حتى بال أكثرهم في ثيابه، وبعضهم شرشر ببوله من شباك المكان، وصاروا يدخلون على نصارى القبط، ويقعون في عرضهم، فالذي انحشر فيهم ولم يكن معدودًا في الرويسا أخرجوه بحجة أو سبب، وبعضهم ترك مداسه وخرج حافيًا، وما صدَّق بخلاص نفسه.

هذا والنصارى والمهدي يتشاورون في تقسيم ذلك وتوزيعه وتدبيره وترتيبه في قوايم حتى وزعوها على الملتزمين وأصحاب الحرف حتى على الحواة والقردتية والمحبظين والتجار وأهل الغورية وخان الخليلي والصاغة والنحاسين والدلالين والقبانية وقضاة المحاكم وغيرهم، كل طايفة مبلغ له صورة مثل ثلاثين ألف فرانسة وأربعين ألفًا، وكذلك بياعو التنباك والدخان والصابون والخردجية والعطارون والزياتون والشواءون والجزارون والمزينون وجميع الصنايع والحرف، وعملوا على أجرة الأملاك والعقار والدور أجرة سنة كاملة.

ثم إنهم استأذنوا للمشايخ فأذنوا لهم بالذهاب، الخالص يتوجه حيث أراد، والمشبوك يلزمون به جماعة من العسكر، حتى يغلق المطلوب منه، فأما الصاوي وفتوح بن الجوهري فحبسوهما ببيت قايمقام، والعناني هرب فلم يجدوه وداره احترقت، فأضافوا غرامته على غرامة الشيخ السادات كملت بها ماية وخمسين ألف فرانسة، وانفض المجلس على ذلك.

وركب ساري عسكر من يومه ذلك وذهب إلى الجيزة ووكَّل يعقوب القبطي يفعل في المسلمين ما يشا، وقايمقام والخازندار لرد الجوابات، وقبض ما يتحصل وتدبير الأمور والرهونات.

ونزل الشيخ السادات وركب إلى داره فذهب معه عشرة من العسكر وجلسوا على باب داره، فلما مضت حصة من الليل حضر إليه مقدار عشرة من العسكر أيضًا، فأركبوه وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه في مكان، فأرسل إلى عثمان بك البرديسي، وتداخل عليه فشفع فيه، فقالوا له: أما القتل فلا نقتله لشفاعتك، وأما المال فلا بد من دفعه، ولا بد من حبسه وعقوبته حتى يدفع، وقبضوا على فراشه ومقدمه وحبسوهما، ثم أنزلوه إلى بيت قايمقام فمكث به يومين، ثم أصعدوه إلى القلعة ثانيًا، وحبسوه في حاصل ينام على التراب ويتوسد بحجر، وضربوه تلك الليلة، فأقام كذلك يومين ثم طلب زين الفقار كتخدا فطلع إليه هو وبرطلمان، فقال لهما: أنزلوني إلى داري حتى أسعى وأبيع متاعي وأشهل حالي، فاستأذنوا له وأنزلوه إلى داره، فأحضر ما وجده من الدراهم فكانت تسعة آلاف ريال معاملة عنها ستة آلاف ريال فرانسة، ثم قوموا ما وجدوه من المصاغ والفضيات والفراوي والملابس وغير ذلك بأبخس الثمن، فبلغ ذلك خمسة عشر ألف فرانسة، فبلغ المدفوع بالنقدية والمقومات أحدًا وعشرين ألف فرانسة.

والمحافظون عليه من العسكر ملازمونه لا يتركونه يطلع إلى حريمه ولا إلى غيره، وكان وزع حريمه وابنه إلى مكان آخر.

وبعد أن فرغوا من الموجودات جاسوا خلال الدار يفتشون ويحفرون الأرض على الخبايا حتى فتحوا الكنيفات، ونزلوا فيها فلم يجدوا شيًّا، ثم نقلوه إلى بيت قايمقام ماشيًا وصاروا يضربونه خمس عشرة عصا في الصباح ومثلها في الليل، وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوهما، فأحضروا محمدًا السندوبي تابعه وقرروه حتى عاين الموت حتى عرفهم بمكانهما، فأحضروهما وأودعوا ابنه عند أغات الإنكشارية وحبسوا زوجته معه، فكانوا يضربونه بحضرتها وهي تبكي وتصيح، وذلك زيادة في الإنكا، ثم إن المشايخ

وهم: الشرقاوي والفيومي والمهدي والشيخ محمد الأمير وزين الفقار كتخدا، تشفعوا في نقلها من عنده فنقلوها إلى بيت الفيومي، وبقي الشيخ على حاله وأخذوا مقدمه وفراشه وحبسوهما، وتغيب أكثر أتباعه واختفوا.

ثم وقعت المراجعة والشفاعة في غرامة الشيخ فتوح الجوهري والصاوي فأضعفوها وجعلوها على كل واحد منها خمسة عشر ألف فرانسة، ورُدَّ الباقي على الفردة العامة.

وأما الشيخ محمد بن الجوهري فإنه اختفى فلم يجدوه، فنهبوا داره ودار نسيبه المعروف بالشويخ، ثم إنه توسل بالست نفيسة زوجة مراد بك فأرسلت إلى مراد بك وهو بالقرب من الفشن، فأرسل من عنده كاشفًا وتشفع فيه، فقبلوا شفاعته ورفعوها عنه وردوها أيضًا على الفردة العامة.

ثم إنهم وكلوا بالفردة العامة وجميع المال يعقوب القبطي، وتكفل بذلك وعمل الديوان لذلك ببيت البارودي، وألزموا الأغا بعدة طوايف كتبوها في قايمة بأسما أربابها، وأعطوه عسكرًا وأمروه بتحصيلها من أربابها، وكذلك علي أغا الوالي الشعراوي وحسين أغا المحتسب وعلي كتخدا سليمان بك، فنبهوا على الناس بذلك، وبثوا الأعوان بطلب الناس وحبسهم وضربهم، فدهي الناس بهذه النازلة التي لم يصابوا بمثلها ولا ما يقاربها.

ومضى عيد النحر ولم يلتفت إليه أحد بل ولم يشعروا به، ونزل بهم من البلا والذل ما لا يوصف، فإن أحد الناس غنيًّا كان أو فقيرًا لا بد وأن يكون من ذوي الصنايع أو الحرف، فيلزمه دفع ما وزع عليه في حرفته أو في حرفتيه وأجرة داره أيضًا سنة كاملة، فكان يأتي على الشخص غرامتان أو ثلاث ونحو ذلك.

وفرغت الدراهم من عند الناس واحتاج كل إلى القرض، فلم يجد الداين من يدينه لشغل كل فرد بشأنه ومصيبته، فلزمهم بيع المتاع فلم يوجد من يشتري وإذا أعطوهم ذلك لا يقبلونه، فضاق خناق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه، ثم وقع الترجي في قبول المصاغات والفضيات، فأحضر الناس ما عندهم فيُقوَّم بأبخس الأثمان.

وأما أثاثات البيوت من فرش ونحاس وملبوس، فلا يوجد من يأخذه، وأمروا بجمع البغال ومنعوا المسلمين من ركوبها مطلقًا سوى خمسة أنفار من المسلمين، وهم: الشرقاوي والمهدي والفيومي والأمير وابن محرم، والنصارى المترجمين وخلافهم لا حرج عليهم.

وفي كل وقت وحين يشتد الطلب، وتنبث المعينون والعسكر في طلب الناس، وهجم الدور وجرجرة الناس حتى النسا من أكابر وأصاغر وبهدلتهم وحبسهم وضربهم، والذي

لم يجدوه لكونه فر وهرب يقبضون على قريبه أو حريمه أو ينهبون داره، فإن لم يجدوا شيًّا ردوا غرامته على أبنا جنسه وأهل حرفته، وتطاولت النصارى من القبط والنصارى الشوام على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم ولم يبقوا للصلح مكانًا، وصرحوا بانقضا ملة المسلمين وأيام الموحدين.

هذا والكتبة والمهندسون والبناءون يطوفون ويحررون أجر المكان والعقارات والوكايل والحمامات، ويكتبون أسما أربابها وقيمتها، وخرجت الناس من المدينة وجلوا عنها، وهربوا إلى القرى والأرياف.

وكان ممن خرج من مصر صاحبنا النبيه العلامة الشيخ حسن المشار إليه فيما تقدم، فتوجه لجهة الصعيد وأقام بأسيوط فأقام بها نحو ثمانية عشر شهرًا، وكان كثيرًا ما يراسلني بالمكاتبة ويبالغ في ذلك لتشوقه إلى مصر، ومن جملة رسايله وقد كنت أرسلت له كتابًا فأجاب بقوله:

> قد وصل إليَّ — أعزك الله — كتابك الذي برَّد بوروده لهيب الحشا، وأودع من البلاغة ما نطق بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشا، فهو كالبُرد الموشَّى والروض الذي هو بلآلئ الزهور مغشَّى، جا مفصحًا عن بلاغة وبراعة، منبيًّا عن قريحة لدى تحرير القول، وتحبيره منقادة مطواعة:

ففي كل سطر منه شطر من المنى وفي كل لفظ منه عقد من الدر

فلله هو من كتاب جمع محاسن الخطاب وحرك عندي ما كان كامنًا في الفؤاد، وأضرم في الحشا نار الهوى كورى الزناد، وطال ما كنت متشوقًا لأخبار، ومتشوقًا لاستعلام أحوال وآثار، فجاء كتابك يا سيدي شافيًا عليل التذكر، مبردًا عليل التشوق والتفكر، سرت حميا ألفاظه في فؤاده المشروق، وقعت عنده موقع العاشق من المعشوق، فيا له من كتاب أخبر عن محاسن الأحبه، قال له القلب حين مازجه وحبه، إنه أحاديث نعمان وساكنه، وهات حدِّث عن نجد وقاطنه، تلك شئون طال بها العهد، وانجرَّ عليها ذيل الحوادث وامتد، وما كنت أوثر أن يمتد بي الزمان، حتى أرى الأسفار تتلاعب بي كالكرة في ميدان البلدان، وحصل فيَّ القهر بخروجي من القاهرة، واغبرَّ أخضر أيامي الزاهرة، ولقد ألجأتني خطوب الاغتراب، وأخطرتني شئون السفر الذي هو قطعة من العذاب، إلى التقلب في قوالب الاكتساب، والتلبيس بتلبيس الانتساب، وإخفا معالم المجي والذهاب.

فطورًا شيخ زاوية وكفر وأخرى كاتب في باب والي

أسلك الوفاق مع الرفاق ولا أركب المشاق بجلب الشقاق.

طورًا يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن رأيت معديًّا فعدناني

وبهذا وأشباهه تم الدست وثبت حبل الحبالة آمنًا من السبت، بأخذي بالتخلق بأخلاق من عاصرنا من أبنا الدهر الذي حلبوا أشطره، ومارسوا أخضر العيش وأغبره، حتى انطبعت في مرآة عقولهم حقايق الأشيا، ولاحت لهم أكنتها بغير خفا، وغير خافٍ أن الماء يمازج اللبن والراح، وكما يكون به الخنق يكون به الارتياح.

لئن كنت في بعض المواضع عالمًا فللجهل في بعض المواضع أحوج

وقد كدت من الشوق الذي اجتلبه كتابك أطير إليك بلا جناح، وأركب متن اليم آيبًا بالهلك أو النجاح، وكان من أقوى أسباب القدوم مشاهدة طلعتكم المزينة بأزاهر النجوم، ولُقَى أحباب يتفتح بهم باب المسرة ويفوح عبير الرياض التي بعدنا صارت مغبرة، فحين عزمت على السفر وصممت، وأخذت في الاستعداد وتأهبت، حدثت عوايق في الطريق وموانع، ولا وزر مما قضى الله شافع، بسبب الكرتينات التي هي من البلاء والآفات، أقيمت كالشجا في فم البر والبحر، بداعية أمر الطاعون الذي يتلى علينا من حديث سورة الانشقاق والفجر، وحلوله بالقاهرة وضواحيها، وانتشاره في أرجاها ونواحيها، وكل هذا هين بالنسبة للمتوقع التي كادت الأفئدة من أصغره تنقطع، وبه كان فراقي للوطن ونبوي من الأهل والسكن، فحينئذ تحققت أن لا خلاص من هذه البلاد ولات حين مناص، إذ لا يلدغ المسلم من جحر مرتين، ولا يكر العاقل على نفسه بالندامة كرتين، فراجعت نفسي عما عزمت عليه من السفر، وأشفقت عليها من ورود موارد الخطل والخطر، وخاطبت ما هجس في البال من السفر والارتحال، الذي قواه مطالعة كتابك وأيقظه من رقدته سحر خطابك:

طرقتك صايدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

ثم أطال في أغراض أُخَر وجال في أساليب الكلام وفنونه.

ثم إن أكثر الفارين رجع إلى مصر لضيق القرى، وعدم ما يتعيشون به فيها وانزعاج الريف بقطاع الطريق والعرب والمناسر بالليل والنهار، والقتل فيما بينهم وتعدي القوي على الضعيف.

واستمرت الطرق مجفرة والأسواق معفرة، والحوانيت مقفولة والعقول مخبولة، والخانات والوكايل مغلوقة، والنفوس مطبوقة، والغرامات نازلة والأرزاق عاطلة والمطالب عظيمة والمصايب عميمة، والعكوسات مقصودة والشفاعات مردودة، وإذا أراد الإنسان أن يفر إلى أبعد مكان وينجو بنفسه ويرضى بغير أبناء جنسه، لا يجد طريقًا للذهاب وخصوصًا من الملاعين الأعراب، الذين هم أقبح الأجناس وأعظم بلاء محيط بالناس، وبالجملة فالأمر عظيم والخطب جسيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

وفي عشرينه انتقلوا بديوان الفردة من بيت البارودي إلى بيت القيسرلي بالميدان، ووقع التشديد في الطلب والانتقام بأدنى سبب، وانقضى هذا العام وما جرى فيه من الحوادث العظام بإقليم مصر والشام والروم والبيت الحرام.

موجز لأحداث العام الماضي

فمنها وهو أعظمها تعطيل الثغور ومنع المسافرين برًّا وبحرًا، ووقوف الإنكليز بثغر إسكندرية ودمياط يمنعون الصادر والوارد، وتخطوا أيضًا بمراكبهم إلى بحر القلزم.

ومنها انقطاع الحج المصري في هذا العام أيضًا حتى لم يرجع المحمل بل كان مودوعًا بالقدس، فلما حضر العساكر الإسلامية أحضروه صحبتهم إلى بلبيس، فيقال إن السيد بدر أرجع به إلى جبل الخليل.

ومنها وقوف العرب وقطاع الطريق بجميع الجهات القبلية والبحرية والشرقية والغربية والمنوفية والقليوبية والدقهلية وساير النواحي، فمنعوا السبيل ولو بالخفارة وقطعوا طريق السفار، ونهبوا المارين من أبنا السبيل والتجار، وتسلطوا على القرى والفلاحين وأهالي البلاد والحرف بالعري والخطف للمتاع والمواشي من البقر والغنم والجمال والحمير وإفساد المزارع ورعيها، حتى كان أهل البلاد لا يمكنهم الخروج ببهايمهم إلى خارج القرية للرعي أو للسقي لترصد العرب لذلك.

ووثب أهل القرى على بعضهم بالعرب، فداخلوهم وتطاولوا عليهم وضربوا عليهم الضرايب، وتلبسوا بأنواع الشرور واستعان بعضهم على بعض وقوي القوي على

الضعيف، وطمعت العرب في أهل البلاد، وطالبوهم بالثارات والعوايد القديمة الكاذبة، وآن وقت الحصاد فاضطروا لمسالمتهم لقلة الضم، فلما انقضت حروب الفرنسيس نزلوا إلى البلاد، واحتجوا عليهم بمصادقتهم العرب، فضربوهم وسبوهم وطالبوهم بالمغارم والكلف الشاقة، فإذا انفضوا وانتقلوا عنهم رجعت العرب على أثرهم، وهكذا كان حالهم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

ومنها أن النيل قصر مده في هذه السنة، فشرقت البلاد وارتحل أهل البحيرة إلى المنوفية والغربية، فاستحسن رحيل عربان البحيرة لأنه بقي لهم في الحي نخيل.

ومنها أنه لما حضرت العثمانية وشاع أمر الصلح وخضوع الفرنساوية لهم، نزل طايفة من الفرنسيس إلى المنوفية، وطلبوا من أهلها كلفة لرحيلهم، فلما مروا بالمحلة الكبيرة تعصب أهلها، واجتمعوا إلى قاضيها وخرجوا لحربهم فأكمن الفرنسيس لهم وضربوا عليهم طلقًا بالمدافع والبنادق، فقتلوا منهم نيفًا وستماية إنسان، ومنهم القاضي وغيره ولم ينج منهم إلا من فر وكان طويل العمر.

وكذلك أهل طنتدا عند حضورهم إليهم، وصل إليهم رجل من الجزارين المنتسبين للعثمانية من جهة الشرق لزيارة سيدي أحمد البدوي وهو راكب على فرس وحوله نحو خمسة أنفار، وكان بعض الفرنسيس بداخل البلدة يقضون بعض أشغالهم، فصاحت السوقة والبياعون عند رؤية ذلك الرجل بقولهم: نصر الله دين الإسلام، وهاجوا وماجوا ولقلقت النسا بألسنتهن وصاحت الصبيان وسخروا بالفرنسيس، وتراموا بما على روسهم، وضربوهم وجرحوهم وطردوهم فتسحبوا من عندهم فغابوا ثلاثة أيام، ورجعوا إليهم بجمع من عسكرهم ومعهم الآلات من المدافع فاحتاطوا بالبلدة وضربوا عليهم مدفعًا ارتجُّوا له ثم هجموا عليهم ودخلوا إليهم وبأيديهم السيوف المسلولة ويقدمهم طبلهم، وطلبوا خَدَمة الضريح الذين يقال لهم أولاد الخادم، وهم ملتزمو البلدة وأكابرها ومتهمون بكثرة الأموال من قديم الزمان.

وكانوا قبل ذلك بنحو ثلاثة أشهر قبضوا عليهم بإغرا القبط، وأخذوا منهم خمسة عشر ألف ريال فرانسة بحجة مسالمتهم للعرب، فلما وصلوا إلى دورهم طلبوهم، فلم يمكنهم التغيب خوفًا على نهب الدور وغير ذلك، فظهروا لهم فأخذوهم إلى خارج البلد وقيدوهم، وأقاموا نحو خمسة أيام خارجها يأخذون في كل يوم ستماية ريال سوى الأغنام والكلف، ثم ارتحلوا وأخذوا المذكورين صحبتهم إلى منوف، وحبسوهم أيامًا ثم نقلوهم إلى الجيزة أيام الحرابة بمصر.

فلما انقضت تلك الأيام وسرحوا في البلاد نزلت طايفة في طنتدا وهم بصحبتهم، وقرروا عليهم أحدًا وخمسين ألف ريال فرانسة وعلى أهل البلدة كذلك بل أزيد، وأقاموا حول البلد محافظين عليهم وأطلقوا بعضهم وحجزوا المسمى بمصطفى الخادم؛ لأنه صاحب الأكثر في الوظيفة والالتزام، وطالبوه بالمال وفي كل وقت ينوعون عليه العقاب والعذاب والضرب حتى على كفوف يديه ورجليه، ويربطونه في الشمس في قوة الحر والوقت مصيف وهو رجل جسيم كبير الكرش، فخرجت له نفاخات في جسده ثم أخذوا خليفة المقام أيضًا وذهبوا به إلى منوف، ثم ردوه وولوه رياسة جمع الدراهم المطلوبة من البلد، فوزعت على الدور والحوانيت والمعاصر وغير ذلك، واستمروا على ذلك إلى انقضا العام، حتى أخذوا عساكر المقام وكانت من ذهب خالص زنتها نحو خمسة آلاف مثقال.

وأما المحلة الكبرى فإنهم رجعوا عليها، وقرروا عليها نيفًا وماية ألف فرانسة، وأخذوا في تحصيلها وتوزيعها وهجموا دورها وتتبع المياسير من أهلها.

كل ذلك مع استمرار طلب الكلف الشاقة في كل يوم منها ومن طنتدا، والتعنت عليهم وتسلط طوايف الكشوفية التابعين لهم الذين هم أقبح في الظلم من الفرنسيس، بل ومن العرب فإنهم معظم البلا أيضًا، فإنهم هم الذين يعرفون دسايس أهل البلاد ويشيعون أحوالهم ويتجسسون على عوراتهم ويغرون بهم، واستمروا على ذلك أيضًا، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ومنها أنه لما وقع الصلح بين العثمانية والفرنساوية أرسل الوزير فرمانات للثغور بإطلاق الأساطيل وحضور المراكب والتجار بالبضايع وغيرها إلى ثغر إسكندرية، وصحبتها ثلاثة غلايين سلطانية وسفن مشحونة بالذخيرة لحضرة الوزير ولوازم العسكر العثماني، فلما قربوا من الثغر أقاموا البنديرات وضربوا مدافع للشنك، فطمعهم الفرنساوية وأظهروا لهم المسالمة، وأظهروا لهم بنديرة العثماني فدخلوا إلى المينا ورموا مراسيهم ووقعوا في فخ الفرنسيس فاستولوا على الجميع، وأخذوا مدافعهم وسلاحهم وحبسوا القباطين وأعيان التجار، وأخذوا الملاحين والمتسببين من البحرية والنصارى الأروام وهم عدة وافرة أعطوهم سلاحًا وزيوهم بزيهم، وأضافوهم إلى عسكرهم وأرسلوهم إلى مصر فكانوا أقبح مذكور في تسلطهم على إيذاء المسلمين، ثم أخرجوا شحنة المراكب من بضايع ويميش وحازوه بأجمعه لأنفسهم، وبقي الأمر على ذلك وكان ذلك في أواسط شهر القعدة.

ومنها أنه بعد نقض الصلح أرسل الفرنسيس عسكرًا إلى متسلم السويس الذي كان تولاها من طرف العثمانية، فتعصب معه أهل البندر فحاربوهم، فغلبهم الفرنسيس وقتلوهم عن آخرهم، ونهبوا البندر وما فيه من البن والبهار بحواصل التجار وغير ذلك.

ومنها أن مراد بك عند توجهه للصعيد بعد انقضا الصلح أخذ ما جمعه درويش باشا من الصعيد من أغنام وخيول وميرة وكان شيًّا كثيرًا، فتسلم الجميع منه وعدَّى درويش باشا إلى الجهة الشرقية متوجهًا إلى الشام، وأرسل مراد بك جميع ذلك للفرنساوية بمصر.

ومنها أيضًا أنه بعد انقضا المحاربة واستيلا الفرنسيس على المخازن والغلال التي كان جمعها العثمانية من البلاد الشرقية وبعض البلاد الغربية والقليوبية وكذلك الشعير والأتبان، طلب الفرنساوية مثل ذلك من البلاد وقرروا على النواحي غلالًا وشعيرًا وفولًا وتبنًا وزادوا خيلًا وجمالًا، فوقع على كل إقليم زيادة عن ألف فرس وألف جمل سوى ما يدفع مصالحة على قولها للوسايط وهو نحو ثمنها أو أزيد، وكذلك التعنت في نقض الغلال وغربلتها وغير ذلك، وكل ذلك بإرشاد القبطة وطوايف البلاد؛ لأنهم هم الذين تقلدوا المناصب الجليلة وتقاسموا الأقاليم والتزموا لهم بجمع الأموال، ونزل كل كبير منهم إلى إقليم وأقام بسرة الإقليم مثل الأمير الكبير ومعه عدة من العساكر الفرنساوية، وهو في أبهة عظيمة وصحبته الكتبة والصيارف والأتباع والأجناد من الغز البطالة وغيرهم، والخيام والخدم والفراشون والطباخون والحجاب، وتقاد بين يديه الجنايب والبغال والرهوانات والخيول المسومة والقواسة والمقدمون وبأيديهم الحراب المفضضة والمذهبة والأسلحة الكاملة والجمال الحاملة، ويرسل إلى ولايات الإقليم من جهته المستوفين من القبط أيضًا بمنزلة الكشاف، ومعهم العسكر من الفرنساوية والطوايف والجاويشية والصرافين والمقدمين على الشرح المذكور، فينزلون على البلاد والقرى ويطلبون المال والكلف الشاقة بالعسف ويؤجلونهم بالساعات، فإذا مضت ولم يوفوهم المطلوب حل بهم ما حل من الحرق والنهب والسلب والسبي، وخصوصًا إذا فر مشايخ البلدة من خوفهم وعدم قدرتهم وإلا قبضوا عليهم وضربوهم بالمقارع والكسارات على مفاصلهم وركبهم، وسحبوهم معهم في الحبال وأذاقوهم أنواع النكال، وخاف من بقي فصانعوهم وأتباعهم بالبراطيل والرشوات، وانضم إليهم الأسافل من القبط والأراذل من المنافقين وتقربوا إليهم بما يستميلون قلوبهم به وما يستجلبونه لهم من المنافع والمظالم وأجهدوا أنفسهم في التشفي من بعضهم وما يوجبه الحقد والتحاسد الكامن في قلوبهم إلى غير ذلك مما يتعذر ضبطه ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

وأما من مات في هذه السنة ممن له ذكر

مات الإمام الفاضل الصالح العلامة الشيخ عبد العليم بن محمد بن محمد بن عثمان المالكي الأزهري الضرير، حضر دروس الشيخ علي الصعيدي رواية ودراية، فسمع عليه جملة من الصحيح والموطأ والشمايل والجامع الصغير ومسلسلات ابن عقيلة، وروى عن كل من الملوي والجوهري والبليدي والسقاط والمنير والدردير والتاودي بن سودة حين حج، ودرس وأفاد وكان من البكايين عند ذكر الله، سريع الدمعة كثير الخشية، وكان يعرف أشيا في الرقي والخواص وفوايد القرينة وأم الصبيان، ثم ترك ذلك لرؤيا منامية رآها وأخبرني بها، توفي في هذه السنة ودفن ببستان المجاورين.

ومات العمدة الفاضل والنبيه الكامل صاحبنا العلامة الوجيه الشيخ شامل أحمد بن رمضان بن سعود الطرابلسي المقري الأزهري، حضر من بلده طرابلس الغرب إلى مصر في سنة إحدى وتسعين، وجاور بالأزهر وكان فيه استعداد، وحضر دروس الشيخ أحمد الدردير والبيلي والشيخ أبي الحسن الغلقي، وسمع على شيخنا السيد مرتضى المسلسل بالأولية وغير المسلسل أيضًا، وأخذ منه الإجازة في سنة اثنتين وتسعين.

ولما مات الخواجا حسن البناني من تجار المغاربة فتوصل إلى أن تزوج بزوجته بنت الغرياني وسكن بدارها الواسعة بالكعكيين، وتجمل بالملابس وتودد للناس بحس المعاشرة ومكارم الأخلاق، وكان سموح النفس جدًّا، دمث الطباع والأخلاق جميل العشرة.

ولما عزل السيد عبد الرحمن السفاقسي الضرير من مشيخة رواقهم، كان المترجم هو المتعين لذلك دون غيره، فتولى مشيخة الرواق بشهامة وكرم ونوه بذكره وزادت شهرته، وكان وجيهًا طويل القامة بهي الطلعة بشوشًا.

ولما تولى مشيخة الرواق امتدحه صاحبنا الشيخ حسن العطار بقصيدة أشار في مطلعها إشارة خفية لحالته مع المترجم المتولي، والسيد عبد الرحمن المعزول لصداقة بينه وبين المتولي بخلاف المعزول وأول القصيدة:

انهض فقد ولت جيوش الظلام ... وأقبل الصبح سفير اللثام
وغنت الوُرْق على أيكها ... تنبه الشرب لشرب المدام
والزهر أضحى في الربا باسمًا ... لما بكت بالطل عين الغمام
والغصن قد ماس بأزهاره ... لما غدت كالدر في الانتظام

وعطر الروض مرور الصبا   على الرياحين فأبرى السقام
كأنما الورد على غصنه   تيجان إبريز على حسن هام
كأنما الغدران خلجان أغصـ   ـان النقا والنهر مثل الحسام
كأن منظوم الزراجين يا   قوت غدا من نظمه في انسجام
كأنما الآس عذار على   وجنته وقد علاها ضِرام
كأنما الورقاء لما شدت   تتلو علينا فضل هذا الإمام

ثم استمر في مدحه وهي طويلة مسطرة بديوان المذكور يقول في آخرها:

بشراك مولانا على منصب   كان له فيك مزيد الهيام
وافاك إقبال به دايمًا   وعشت مسعودًا بطول الدوام
فقد رأينا فيك ما نرتجي   لا زلت فينا سالمًا والسلام

ولما حصلت واقعة الفرنسيس خرج تلك الليلة مع الفارين وذهب إلى بيت المقدس، وتوفي هناك في هذه السنة.

ومات السيد الأفضل والسند الأكمل المقري ابن المقري والفهامة الذي بكل فن على التحقيق يدري، بدر أضا في سما العرفان، وعارف وضح دقايق المشكلات بإتقان، فلله دره من فاضل أبرز درر اللطايف من كنوزها، وكشف عن مخدرات الفهوم لثامها فأظهر الأَنْفَس من نفيسها والأعز من عزيزها، فلا غرو فإنه بذلك حقيق، كيف لا وما ذكر من بعض صفاته التي به تليق، العلامة الشريف الحسن بن علي البدري العوضي، ربي في حجر أبيه وحفظ القرآن والمتون، وأخذ عن أبيه علم القراءات، وأتقن القراءات الأربعة عشر بعد أن أتقن العربية والفقه وباقي العلوم، وحضر أشياخ الوقت وتمهر وأنجب، وقرا الدروس ونظم الشعر الجيد وشهد له الفضلا، وله ديوان مشهور بأيدي الناس، وامتدح الأعيان، وبينه وبين الصلاحي وقاسم بن عطا الله مطارحات ذكرنا منها طرفًا في ترجمتهما، ومن مطارحات العالم العلامة شيخ الوقت الشيخ محمد الأمير — حفظه الله — للمذكور قوله:

حيِّ الفقيه الشافعي وقل له   ما ذلك الحكم الذي يستغرب؟

نجس عفوًا عنه ولو خالطه   نجس فإن العفو باقٍ يصحب
وإذا طرا بدل النجاسة طاهر   لا عفو يا أهل الذكاء تعجبوا

فأجاب المترجم بقوله:

حييت إذ حييتنا وسألتنا   مستغربًا من حيث لا يستغرب
العفو عن نجس عراه مثله   من جنسه لا مطلقًا فاستوعبوا
والشي ليس يصان عن أمثاله   لكنه للأجنبي يجنب
وأراك قد أطلقت ما قد قيدوا   وهو العجيب وفهم ذلك أعجب

ومن نظمه مورخًا لمولد السادات بني الوفا قوله:

قصدناكم فأثنينا عليكم   بأجمل مدحة وأجل صيغه
وشاهدنا الذي جددتموه   فأرَّخنا موالدكم بليغه

وله مدايح في الأستاذ أبي الأنوار بن وفا قصايد طنانة وغير ذلك وهو كثير مذكور بديوانه، وله أيضًا تآليف وتقييدات وتحقيقات ورسايل في فنون شتى، ورسالة بليغة في قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾، وكان الباعث له على تأليفها مناقشة حصلت بينه وبين الشيخ أحمد يونس الخليفي في تفسير الآية بمجلس علي بك الدفتردار، فظهر بها على الشيخ المذكور، وأجازه الأمير المذكور بأن رتب له تدريسًا بالمشهد الحسيني ورتب له معلومًا بوقته، وقدره كل يوم عشرة أنصاف فضة يستغلها من جانب الوقف في كل شهر، واستمر يقبضها حتى مات في شعبان من هذه السنة رحمه الله، ولم يخلف بعده مثله في الفضايل والمعارف.

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومايتين وألف ١٨٠٠م

كان ابتدا المحرم يوم الأحد وفي خامسه أصعدوا الشيخ السادات إلى القلعة، وكان أرسل إلى كبار القبط بأن يسعوا في قضيته ورهن حصصه، ويغلق الذي عليه، فردوا عليه بأنه لا بد من تشهيل قدر نصف الباقي أولًا، ولا يمكن غير ذلك، وأما الحصص فليست في تصرفه، ولما تكرر إرساله للنصارى وغيرهم نقلوه إلى القلعة، ومنعوه الاجتماع بالناس وهي المرة الثالثة.

وفيه أشيع حضور مراكب وغلايين من ناحية الروم إلى ثغر الإسكندرية، وسافر ساري عسكر كليبر وصحبته العساكر الفرنساوية، فغاب أيامًا ثم عاد إلى مصر، ولم يظهر لهذا أثر.

وفيه طلبوا عسكرًا من القبط فجمعوا منهم طايفة وزيوهم بزيهم، وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك، وأرسلوا إلى الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو الألفين وأحضروهم إلى مصر، وأضافوهم إلى العسكر.

وفي حادي عشرينه أعادوا الشيخ أحمد العريشي إلى القضا كما كان، وعملوا له موكبًا وركب معه أعيان الفرنسيس وسواري عساكرهم بطبولهم وزمورهم والمشايخ والتجار والأعيان، وبجانبه قايمقام عبد الله منو الذي كان ساري عسكر برشيد، فلم يزالوا معه حتى أوصلوه إلى المحكمة الكبرى بعد أن شقوا به المدينة.

ذكر قتل ساري عسكر كليبر وتحقيق قضيته

وفي ذلك اليوم أعني يوم السبت وقعت نادرة عجيبة، وهو أن ساري عسكر كليبر كان مع كبير المهندسين يسيران بداخل البستان الذي بداره بالأزبكية، فدخل عليه شخص حلبي وقصده فأشار إليه بالرجوع، وقال له: مافيش، وكررها فلم يرجع، وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر في قضايها، فلما دنا منه مدَّ إليه يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده، فمد إليه الآخر يده، فقبض عليه وضربه بخنجر كان أعده في يده اليمنى أربع ضربات متوالية، فشق بطنه وسقط إلى الأرض صارخًا، فصاح رفيقه المهندس فذهب إليه وضربه أيضًا ضربات وهرب، فسمع العسكر الذين خارج الباب صرخة المهندس، فدخلوا مسرعين فوجدوا كليبر مطروحًا وبه بعض الرمق ولم يجدوا القاتل، فانزعجوا وضربوا طبلهم وخرجوا مسرعين، وجروا من كل ناحية يفتشون على القاتل، واجتمع رويساهم وأرسلوا العساكر إلى الحصون والقلاع، وظنوا أنها من فعل أهل مصر فاحتاطوا بالبلد، وعمروا المدافع وحرروا القنابر، وقالوا: لا بد من قتل أهل مصر عن آخرهم.

ووقعت هوجة عظيمة في الناس وكرشة وشدة انزعاج، وأكثرهم لا يدري حقيقة الحال، ولم يزالوا يفتشون عن ذلك القاتل حتى وجدوه منزويًا في البستان المجاور لبيت ساري عسكر المعروف بغيط مصباح بجانب حايط منهدم، فقبضوا عليه فوجدوه شاميًّا، فأحضروه وسألوه عن اسمه وعمره وبلده فوجدوه حلبيًّا، واسمه سليمان، فسألوه عن محل مأواه فأخبرهم أنه يأوي ويبيت بالجامع الأزهر، فسألوه عن معارفه ورفقايه، وهل أخبر أحدًا بفعله وهل شاركه أحد في رأيه وأقره على فعله أو نهاه عن ذلك، وكم له بمصر من الأيام أو الشهور، وعن صنعته وملته، وعاقبوه حتى أخبرهم بحقيقة الحال، فعند ذلك علموا ببراءة أهل مصر من ذلك، وتركوا ما كانوا عزموا عليه من محاربة أهل البلد، وقد كانوا أرسلوا أشخاصًا من ثقاتهم تفرقوا في الجهات والنواحي يتفرسون في الناس فلم يجدوا فيهم قراين دالة على علمهم بذلك، ورأوهم يسألون من الفرنسيس عن الخبر، فتحققوا من ذلك براءتهم من ذلك.

ثم إنهم أمروا بإحضار الشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ أحمد العريشي القاضي، وأعلموهم بذلك وعوقوهم إلى نصف الليل، وألزموهم بإحضار الجماعة الذين ذكرهم القاتل، وأنه أخبرهم بفعله فركبوا وصحبتهم الأغا وحضروا إلى الجامع الأزهر، وطلبوا الجماعة فوجدوا ثلاثة منهم ولم يجدوا الرابع، فأخذهم الأغا وحبسهم ببيت قايمقام بالأزبكية.

ثم إنهم رتبوا صورة محاكمة على طريقتهم في دعاوى القصاص، وحكموا بقتل الثلاثة أنفار المذكورين مع القاتل، وأطلقوا مصطفى أفندي البرصلي لكونه لم يخبره بعزمه وقصده، فقتلوا الثلاثة المذكورين لكونه أخبرهم بأنه عازم على قصده صبح تاريخه، ولم يخبروا عنه الفرنسيس، فكأنهم شاركوه في الفعل وانقضت الحكومة على ذلك، وألفوا في شأن ذلك أوراقًا ذكروا فيها صورة الواقعة وكيفيتها، وطبعوا منها نسخًا كثيرة باللغات الثلاث الفرنساوية والتركية والعربية.

وقد كنت أعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تركيبها لقصورهم في اللغة، ثم رأيت كثيرًا من الناس تتشوق نفسه إلى الإطلاع عليها لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة، ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هولا الطايفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين، وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم رجل آفاقي أهوج وغدره وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار بعد أن عثروا عليه، ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم ساري عسكرهم وأميرهم، بل رتبوا حكومة ومحاكمة، وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة، ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين، ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم، وأطلقوا مصطفى أفندي البرصلي الخطاط، حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدَّعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية، مما سيُتلَى عليك بعضه بعد، وصورة ترجمة الأوراق المذكورة:

بيان شرح الاطلاع على جسم ساري عسكر العام كليبر يوم الخامس والعشرين من شهر (برريال) مايو السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوي

نحن الواضعون أسمانا وخطنا فيه باش حكيم والجرايحي من أول مرتبة الذي صار مرتبة باش جرايحي في غيبته، انتهينا حصة ساعتين بعد الظهر إلى بيت ساري عسكر العام في الأزبكية بمدينة مصر، وكان سبب روحتنا هو أننا سمعنا دقة الطبل وغاغة الناس التي كانت تخبر أن ساري عسكر العام كليبر انغدر وقتل، وصلنا له فرأيناه في آخر نفس، فحصنا عن جروحاته فتحقق لنا أنه قد انضرب بسلاح مدبب وله حد، وجروحاته كانت أربعة: الأول منها

تحت البز في الشقة اليمنى، الثاني أوطى من الأول جنب السوَّة، الثالث في الذراع الشمال نافذ من شقه لشقه، والرابع في الخد اليمين، فهذا حررنا البيان بالشرح في حضور الدفتردار «سارتلون» الذي وضع اسمه فيه كمثلنا لأجل أن يسلم البيان المذكور إلى ساري عسكر مدبر الجيوش.

تحريرًا في سراية ساري عسكر العام في النهار، والسنة المذكورة في الساعة الثالثة بعد الظهر، بإمضا باش حكيم وخط الجرايحي من أول مرتبة «كازبيانكا» والدفتردار سارتلون.

شرح جروحات الستوين بروتاين المهندس نهار تاريخه خمسة وعشرين من شهر برريال، السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوي في الساعة الثالثة بعد الظهر، نحن الواضعون أسمانا وخطنا فيه باش حكيم وجرايحي من أول مرتبة الذي صار مرتبة باش جرايحي في غيبته، انطلبنا من الدفتردار سارتلون أننا نعمل بيان شرح جروحات الستوين بروتاين المهندس وعضو من أعضا مدرسة العلما في بر مصر، الذي انغدر هو أيضًا في جنب ساري عسكر العام كليبر مدبر الجيوش، ومضروب ستة أمرار بسلاح مدبب وله حد، وهذا بيان الجروحات: الأول في جنب الصدغ، الثاني في الكف في عظمة الإصبع الخنصر، الثالث بين الضلوع الشمالية، والرابع تحت البز في الشقة اليمنى، الخامس في الشدق الشمالي، والسادس في الصدر من الشقة الشمالية وشق نحو العرق.

ثم إلى تأييد ذلك وضعنا أسمانا وخطنا فيه برفقة الدفتردار سارتلون، تحريرًا في سراية ساري عسكر مدبر الجيوش في اليوم والشهر والسنة والساعة المرموقة أعلاه بإمضا باش حكيم، وخط الجرايحي من أول مرتبة كازابيانكا والدفتردار سارتلون.

عن أول فحص سليمان الحلبي نهار تاريخه خمسة وعشرين، في شهر برريال من السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوي في بيت ساري عسكر داماس مدبر الجيوش.

واحد فسيال من ملازمين بيت ساري عسكر العام، حضر وبيده ماسك راجل من أهل البلد مدعيًا أن هذا هو الذي قتل ساري عسكر العام كليبر المتهوم المذكور، انعرف من الستوين بروتاين المهندس الذي كان مع ساري عسكر حين انغدر؛ لأنه أيضًا انضرب برفقته بالخنجر ذاته وانجرح بعض جروحات، ثانيًا: المتهوم المذكور كان انشاف بين جماعة ساري عسكر من حد الجيزة، وانوجد مخبي في الجنينة التي حصل فيها القتل،

وفي الجنينة نفسها انوجد الخنجر الذي به انجرح ساري عسكر، وبعض حوايج أيضًا بتوع المتهوم فحالًا بدى الفحص بحضور ساري عسكر منو الذي هو أقدم أقرانه في العسكر، وتسلم في مدينة مصر، والفحص المذكور صار بواسطة الخواجا براشويش كاتم سر وترجمان ساري عسكر العام ومحرر من يد الدفتردار سارتلون الذي أحضره ساري عسكر منو لأجل ذلك المتهوم المذكور.

انسال عن اسمه وعمره ومسكنه وصنعته؟

فجاوب: أنه يسمى سليمان ولادة بر الشام، وعمره أربعة وعشرون سنة، ثم صنعته كاتب عربي، وكانت سكنته في حلب.

انسال كم زمان له في مصر؟

فجاوب: أنه بقي له خمسة أشهر وأنه حضر في قافلة وشيخها يسمى سليمان جوربجي.

انسال عن ملته؟

فجاوب: أنه من ملة محمد وأنه كان سابقًا سكن ثلاث سنين في مصر وثلاث سنين في مكة والمدينة.

انسال هل يعرف الوزير الأعظم وهل له مدة ما شافه؟

فجاوب: أنه ابن عرب ومثله ليس يعرف الوزير الأعظم.

انسال عن معارفه في مدينة مصر؟

فجاوب: أنه لم يعرف أحدًا وأكثر قعاده في الجامع الأزهر، وجملة ناس تعرفه وأكثرهم يشهدون في مشيه الطيب.

انسال هل راح صباح تاريخه الجيزة؟

فجاوب: نعم، وأنه كان قاصد ينشبك كاتب عند أحد، ولكن ما قسم له نصيب.

انسال عن الناس الذين كتب لهم أمس.

فجاوب: أن كلهم سافروا.

انسال كيف يمكن أنه لم يعرف أحدًا من الذين كتب لهم في الأيام الماضية، وكيف يكونون كلهم سافروا؟

فجاوب: أنه ليس يعرف الذين كان يكتب لهم، وأنه غير ممكن أن يفتكر أسماهم.

انسال من هو الأخراني الذين كتب لهم؟

فجاوب: أنه يسمى محمد مغربي السويسي بياع عرقسوس، وأنه ما كتب لأحد في الجيزة.

انسال ثانيًا عن سبب روحته الجيزة.

فجاوب: دايمًا أنه كان قاصد أن ينشبك كاتبًا.

انسال كيف مسكوه في جنينة ساري عسكر؟

فجاوب: أنه ما انمسك في الجنينة بل في عارض الطريق.

فذاك الوقت انقال له إنه ما ينجيك إلا الصحيح؛ لأن عسكر الملازمين مسكوه في الجنينة وفي المحل ذاته انوجدت السكينة، وفي الوقت انعرضت عليه.

فجاوب: صحيح أنه كان في الجنينة، ولكن ما كان مستخبي بل قاعد؛ لأن الخيالة كانت ماسكة الطرق وما كان يقدر أن يروح للمدينة، وأن ما كان عنده سكينة ولم يعرف أن كان هذا موجود في الجنينة.

سُيل لأي سبب كان تابع ساري عسكر من الصبح؟

فجاوب: أنه كان مراده فقط يشوفه.

انسال هل يعرف حتة قماش خضرة التي باينة مقطوعة من لبسه، وكانت انوجدت في المحل الذي انغدر فيه ساري عسكر؟

فجاوب: بأن هذه ما هي تعلقه.

انسال إن كان تحدث مع أحد في الجيزة، وفي أي محل نام؟

فجاوب: أنه ما تكلم مع ناس إلا لأجل مشترى بعض مصالح وأنه نام في الجيزة في جامع.

فأشاروا على جروحاته التي ظاهرة في دماغه، وقيل له إن هذه الجروحات بينت أنه هو الذي غدر ساري عسكر؛ لأن أيضًا الستوين بروتاين الذي كان معه عرفه وضربه كم عصاية الذين جرحوه؟

فجاوب: أنه ما انجرح إلا ساعة ما مسكوه.

انسال هل كان تحدث نهار تاريخه مع حسين كاشف أو مع مماليكه؟

فجاوب: أنه ما شافهم ولا كلمهم.

فلما أن كان المتهوم لم يصدق في جواباته أمر ساري عسكر أنهم يضربونه حكم عوايد البلاد، فحالًا انضرب لحد أنه طلب العفو ووعد أنه يقر بالصحيح، فارتفع عنه الضرب وانفكت له سواعده، وصار يحكي من أول وجديد كما هو مشروح.

انسال كم يوم له في مدينة مصر؟

فجاوب: أنه له واحد وثلاثين يومًا، وأنه حضر من غزة في ستة أيام على هجين.

انسال لأي سبب حضر من غزة؟

فجاوب: لأجل أن يقتل ساري عسكر العام.

انسال من الذي أرسله لأجل أن يفعل هذا الأمر؟

فجاوب: أنه أرسل من طرف أغات الينكجرية، وأنه حين رجع عساكر العثملي من مصر إلى بر الشام أرسلوا إلى حلب بطلب شخص يكون قادرًا على قتل ساري عسكر العام الفرنساوي، ووعدوا لكل من يقدر على هذه المادة أن يقدموه في الوجاقات ويعطوه دراهم، ولأجل ذلك هو تقدم وعرض روحه لهذا.

انسال من هم الناس الذين تصدروا له في هذه المدة في بر مصر، وهل صارح أحد على نيته؟

فجاوب: أن ما أحد تصدر له وأنه راح سكن في الجامع الأزهر، وهناك شاف السيد محمد الغزي والسيد أحمد الوالي والشيخ عبد الله الغزي والسيد عبد القادر الغزي الذين ساكنون في الجامع المذكور فبلغهم على مراده، فهم أشاروا عليه أنه يرجع عن ذلك؛ لأن غير ممكن أن يطلع من يده ويموت فرط، وإن كان لازم يشخصوا واحدًا غيره في قضا هذه المادة، ثم إنه كل يوم كان يتكلم معه في الشغل المذكور، وأن أمس تاريخه قال لهم إنه رايح يقضي مقصوده ويقتل ساري عسكر وأنه توجه إلى الجيزة حتى ينظر إن كان يطلع من يده، وأن هناك قابل نواتية قنجة ساري عسكر فاستخبر عليه منهم إن كان يخرج برًّا، فسألوه إيش طالب منه؟ فقال لهم إن مقصوده يتحدث معه، فقالوا له إنه كل ليلة ينزل في جنينته، ثم صباح تاريخه شاف ساري عسكر معديًا للمقياس، وبعده ماشي إلى المدينة فتبعه لحين ما غدره.

هذا الفحص صار من حضرة ساري عسكر منو بحضور باقي سواري العساكر الكبار وملازمين بيت ساري عسكر العام، ثم انختم بإمضا ساري منو والدفتردار سارتلون في اليوم والشهر والسنة المحررة أعلاه.

ثم انقرا على المتهوم، وهو أيضًا خط يده واسمه بالعربي سليمان إمضا ساري عسكر عبد الله منو إمضا الجنرال «مارتينه» إمضا دفتردار البحر «لروا» إمضا الدفتردار «سارتلون» إمضا الترجمان «لوماكا» إمضا الترجمان «مناروكه» إمضا «داميانوس براشويش» كاتم السر وترجمان ساري عسكر العام.

وفحص الثلاثة مشايخ المتهمين نهار تاريخه خمسة وعشرين في شهر برريال السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوي في الساعة الثامنة بعد الظهر، حضروا في منزل

ساري عسكر العام منو أمير الجيوش الفرنساوية السيد عبد الله الغزي ومحمد الغزي والسيد أحمد الوالي، وهم الثلاثة متهومين في قتل ساري عسكر العام كليبر، فساري عسكر منو أمر بفحصهم فبدى ذلك حالًا في حضور بعض سواري العساكر المجتمعين لذلك، وبواسطة الستوين لوماكا الترجمان كما يذكر أدناه السيد عبد الله الغزي هو الذي سيل أولًا لوحده.

انسال عن اسمه وعن مسكنه وصنعته؟

فجاوب: أنه يسمى السيد عبد الله الغزي، ولادة غزة ومسكنه في مصر في الجامع الأزهر، وهناك كان كارُه مقري القرآن، وأنه لم يعرف كم عمره ولكن تخمينه يجي ثلاثين سنة.

انسال إن كانت سكنته في الجامع الأزهر هل يعرف جميع الغربا الذين يدخلونه؟

فجاوب: أنه ساكن ليل ونهار ويعرف الغربا الذين فيه.

انسال هل يعرف رجلًا حضر من بر الشام من مدة شهر؟

فجاوب: أن من مدة خمسين يومًا ما شاف أحدًا حضر من بر الشام.

فقيل له: إن رجلًا من طرف عرضي الوزير حضر من مدة ثلاثين يومًا قال إنه يعرفك والظاهر أنك لم تتكلم الصدق.

فجاوب: أنه ملهي دايمًا في وظيفته، وأنه ما شاف أحدًا من بر الشام، بل سمع أن قافلة كانت وصلت من ناحية الشرق.

فقيل له أيضًا: إن ناسًا حضروا من بر الشام يقولون إنهم تكلموا معه ويعرفونه.

فجاوب: أن هذا غير ممكن وأنهم يقابلوه مع الذي فتن عليه.

انسال هل يعرف واحدًا اسمه سليمان كاتب عربي حضر من حلب من مدة ثلاثين يومًا؟

فجاوب: لا.

فقيل له إن هذا الرجل يحقق أنه شافه، وأنه أخبره ببعض أشيا لازمة.

فجاوب: أنه ما شافه، وأن هذا الرجل كذاب وأنه يريد أن يموت إن كان ما يحكي الصحيح.

فحالًا ساري عسكر نده إلى محمد الغزي الذي هو أيضًا متهوم في قتل ساري عسكر وبدى الفحص كما يذكر.

انسال عن اسمه وعمره ومسكنه وصنعته؟

فجاوب: أنه يسمى الشيخ محمد الغزي، وعمره نحو خمسة وعشرين سنة، وولادته غزة وسكن بمصر في الجامع الأزهر، ثم صنعته مقري القرآن من مدة خمس سنين، وما يخرج من الجامع إلا لكي يشتري ما يأكل.

انسال هل يعرف الغربا الذين يجون يسكنون في الجامع؟

فجاوب: أن في بعض الأوقات يحضر ناس غربا وأما البواب فهو الذي يقارشهم، ومن قبله ينام بعض ليالي في الجامع والبعض في بيت الشيخ الشرقاوي.

انسال هل يعرف رجلًا يسمى سليمان حضر من بر الشام من مدة ثلاثين يومًا؟

فجاوب: أنه لم يعرفه وأنه غير ممكن أن يشوف كل الناس؛ لأن الجامع كبير قوي.

انسال أنه يحكي على الذي تكلم به معه سليمان، فإن المذكور يحقق أنه تكلم معه في الجامع.

فجاوب: أنه يعرفه من مدة ثلاث سنين، وأنه كان عنده خبر أنه راح مكة، وأما من بعده ما شافه ولم يعرف إن كان رجع أم لا.

انسال هل السيد عبد الله الغزي يعرفه أيضًا؟

فجاوب: نعم.

فقيل له: محقق إن أمس تاريخه سليمان المذكور تحدث معه حصة طيبة وأن الشواهد موجودة.

فجاوب: أن هذا صحيح.

انسال لأي سبب كان بدأ يقول إنه ما شافه؟

فجاوب: أن تخمينه ما قال هذا وأن المترجمين غلطوا.

انسال هل سليمان المذكور ما بلغه عن شي مذنب قوي، وتحقيقًا لذلك معلوم عندنا أنه كان قصده يحوشه؟

فجاوب: أنه لم يعرف هذا الأمر، وأن سليمان المذكور راح وجا كام مرة إلى مصر وبقي له هنا مقدار شهر.

فقيل له: إنه موجود شواهد أن سليمان المذكور كان أخبره أن مراده أن يغدر ساري عسكر العام وأنه أراد أن يمنعه.

فجاوب: أنه ما بلغه عن هذا الأمر بل أمس تاريخه قال له أنه رايح ويمكن أن ما بقى يرجع.

فبعده أحضرنا عبد الله الغزي لأجل يتفحص ثانيًا كما ذكر أدناه.

انسال لأي سبب قال إنه لم يعرف سليمان الحلبي حين سألوه عنه بحيث أن موجودة شواهد أن هذا له في مصر واحد وثلاثون يومًا، وأنه تقابل وإياه جملة مرار وتحدث معه أكثر الأيام؟

فجاوب: حقًّا أنه لم يعرفه.

انسال هل يعرف واحدًا يسمى محمد الغزي الذي هو مثله مقري القرآن في جامع الأزهر؟

فجاوب: نعم.

انسال السيد عبد الله المذكور لأي سبب أنكر ذلك؟

فجاوب: أنهم لخبطوا عليه السؤال، وأن هذا الوقت بحيث إنهم سألوه عن سليمان الذي من حلب فيقر أنه يعرفه.

فقيل له: معلوم عندنا أنه شافه مرارًا كثيرة وتحدث معه.

فجاوب: أنه بقى له ثلاثة أيام ما شافه.

انسال هل إنه ما قصد يمنعه عن قتل ساري عسكر العام؟

فجاوب: أنه ما قال له أبدًا على هذا الأمر، وأنه لو كان بلغه منه ذلك كان منعه بكل قدرته.

انسال لأي سبب ما يحكي الصحيح بحيث إنه موجودة عليه شواهد؟

فجاوب: أنه غير ممكن يوجد عليه شواهد، وأنه ما شاف سليمان المذكور إلا لأجل أن يسلموا على بعض حين تقابلوا.

انسال هل سليمان ما أخبره أبدًا عن سبب مجيه إلى مصر؟

فجاوب: حاشا.

فبعد ذلك أخروا الاثنين المذكورين، وأحضروا السيد أحمد الوالي الذي هو متهوم وسيل كما يذكر:

انسال عن اسمه وعمره ومسكنه وصنعته.

فجاوب: أنه يسمى السيد أحمد الوالى، ولادة غزة، وصنعته مقري القرآن في الجامع الأزهر من مدة عشر سنين، ولم يعرف كم عمره.

انسال هل يعرف الغربا الذين يدخلون في الجامع؟

فجاوب: أن وظيفته يقرا ولا يتنبه إلى الغربا.

فقيل له: إن بعض الغربا الذين حضروا هناك عن قريب يقولون إنهم شافوه في الجامع.

فجاوب: أنه ما شاف أحدًا.

انسال هل شاف رجلًا حضر من بر الشام من طرف الوزير وهذا الرجل قال إنه يعرفه؟

فجاوب: لا وإن كانوا يقدروا يحضروا هذا الرجل حتى يقابله.

انسال هل يعرف سليمان الحلبي؟

فجاوب: أنه يعرف واحدًا يسمى سليمان الذي كان يروح يقرا عند واحد أفندي، وكان طالب أنه يستقيم في الجامع، وأن هذا الرجل قال إنه من حلب ومن مدة عشرين يومًا كان شافه وبعدها ما قابله، ثم كان قال له إن الوزير في يافا وإن عساكره ما كان عندهم دراهم وكانوا يفوتوه.

انسال هل هذا الرجل المذكور ما هو تحت حمايته؟

فجاوب: أنه لم يعرفه طيبًا حتى يضمنه.

انسال هل الاثنان الآخران المتهومان معارفه، وهل أن الثلاثة تحدثوا سوا عن قريب أم أمس تاريخه مع سليمان المذكور؟

فجاوب: لا بل إنه يعرف أن سليمان المذكور كان حضر لزيارة الجامع، وأنه وضع في الجامع جملة أوراق مضمونها أنه كان قوي متعبدًا لخالقه.

انسال هل المذكور أمس أيضًا ما وضع أوراقًا في الجامع؟

فجاوب: أن ما عنده خبر بذلك.

انسال هل ما منع سليمان عن فعل ذنب بليغ؟

فجاوب: أنه أبدًا ما حدثه بهذا الشي ولكن قال له إن مراده يفعل شي جنون، وأنه عمل كل جهده حتى يرجعه.

انسال إيش هو الجنان الذي قاصد يعمله وحدثه عليه؟

فجاوب: أنه قال له إنه كان مراده يغازي في سبيل الله وأن هذه المغازة هي قتل واحد نصراني، ولكن ما أخبره باسمه وأنه قصد يمنعه بقوله إن ربنا أعطى القوة للفرنساوية وإن لم أحد يقدر يمنعهم حكم البلاد.

فبعد هذا المتهوم المذكور انشال لمحله، وهذا الفحص تحتم بحضور سواري العساكر المجموعين بإمضا ساري عسكر منو والدفتردار سارتلون الذي هو ذاته حرر هذا الفحص بأمر ساري عسكر منو، ثم بعد قراءته على المتهومين وضعوا أسماهم وخطهم بالعربي.

تحريرًا في اليوم والشهر والسنة المحررة أعلاه.

ثلاثة إمضاءات بالعربي: إمضا ساري عسكر منو، إمضا الدفتردار سارتلون، إمضا الترجمان لوماكا.

ساري عسكر العام منو أمير الجيوش الفرنساوية في مصر يأمر بتأسيس:

المادة الأولى: أن ينتشى ديوان قضاة لأجل أن يشرعوا على الذين غدروا ساري عسكر العام كليبر في اليوم الخامس والعشرين من شهر برريال.

المادة الثانية: القضاة المذكورون يكونوا تسعة وهم: ساري عسكر رينيه، ساري عسكر فرياند، ساري عسكر روبين، الجنرال موراند، رئيس المعمار براند الوكيل، رجنيه دفتردار البحر، لروو الدفتردار، سارتلون في وظيفة مبلغ، والوكيل لبهر في وظيفة وكيل الجمهور.

المادة الثالثة: القضاة المذكورون ينظر لهم كاتم سر.

المادة الرابعة: القضاة المذكورين مفوضون الأمر في الكشف والتفتيش وحوش كل من يريدوا، حتى إنهم يطلعوا على الذين لهم حصة في الذنب المذكور أو يكون عندهم خبره.

المادة الخامسة: القضاة المذكورون يتفقون على العذاب اللايق إلى موت القاتل ورفقاه.

المادة السادسة: القضاة المذكورون يجتمعون من نهار تاريخه الذي هو السادس والعشرون من شهر برريال لحد خلاص الشريعة المذكورة.

إمضا ساري عسكر منو، وهذه نسخة من الأصل إمضا الجنرال رينيه كتخدا مدبر الجيوش.

شرع اجتماع القضاة في السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوي في اليوم السادس والعشرين من شهر برريال، حكم أمر ساري عسكر العام منو أمير الجيوش الفرنساوي المحرر في نهار تاريخه، اجتمعوا في بيت ساري عسكر رينيه المذكور وساري عسكر روبين ودفتردار البحر لرو والجنرال مارتينه عوضًا عن ساري عسكر فرياند حكم أمر ساري عسكر منو، ثم الجنرال موراند وريس العسكر جوجه وريس العمارة برتراند وريس المدافع فاور والوكيل رجنيه والدفتردار سارتلون في رتبة مبلغ والوكيل لبهر في وظيفة وكيل الجمهور لأجل قضا شريعة قتل ساري عسكر العام كليبر الذي انغدر أمس تاريخه.

القضاة المذكورون اجتمعوا مع شيخهم ساري عسكر رينيه، وقروا أمر ساري عسكر منو المشروح أعلاه وحكم المادة الثالثة المحرر فيه استخصوا كاتم السر لهم الوكيل «بينه» الذي حلف كما هي العوايد ولزم وظيفته، ثم القضاة المذكورون وكلوا ساري عسكر رينيه والمبلغ الدفتردار سارتلون في التفتيش والحبس لكل من اكتشفوا عليه حكم ما هو محرر في المادة الرابعة المحررة أعلاه، وهذا لكي يظهروا رفقا القاتل، ثم إن السكينة التي وجدت مع القاتل حين انمسك تبقى عند كاتم السر، لأجل يظهرها في الوقت الذي يلزم.

ثم وعدوا المجلس لصباح تاريخه في الساعة الرابعة قبل الظهر ثم حرروا خط يدهم مع كاتم السر إمضا الوكيل رجنيه، إمضا ريس المعمار برتراند، إمضا رئيس المدافع فاور، إمضا ريس العسكر جوجه، إمضا الجنرال موراند، إمضا الجنرال مارتينه، إمضا دفتردار البحر، وإمضا ساري عسكر روبين، إمضا ساري عسكر رينيه، إمضا كاتم السر «بينه».

إقرار الشهود نهار تاريخه في ستة وعشرين شهر برريال السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوي:

> نحن الواضعون أسمانا فيه الدفتردار سارتلون المسمى من حضرة ساري عسكر العام منو أمير الجيوش في وظيفة مبلغ حكم الأمر الذي خرج من طرفه.

أشار القضاة في شرع القاتلين ساري عسكر العام كليبر والسيتوين «بينه» المسمى من القضاة المذكورين في مرتبة كاتم السر إنه حضر بين يدنا «يوسف برين» عسكري خيال من الطبجية الملازمين بيت ساري عسكر العام، وقال لنا هو ورفيقه خيال أيضًا يسمى «روبرت» مسكوا المسلم سليمان المتهوم في غدر ساري عسكر العام، وأنهم وجدوه في الجنينة التي معمول فيها الحمامان الفرنساويان الملتزقان بجنينة ساري عسكر، وأنهم رأوه مخبأً بين حيطان الجنينة المهدودة، وأن الحيطان المذكورة كانت ملغمطة بدم في بعض نواحي، وأن سليمان المذكور كان أيضًا ملغمطًا بدم، وأنهم مسكوه في هذه الحالة وأن بعده التزموا يضربوه بالسيف لأجل يمشوه.

ثم «برين» المذكور قال إن بعد حوشة سليمان بساعة في الموضع ذاته الذي كان مخبأً فيه شاف سكينة بدمها، وأنه سلم السكينة في بيت ساري عسكر العام، فقرينا إليه إقراره هذا، وسألناه هل فيه شي زايد أم ناقص؟ فجاوب أن هذا كل الذي فعله وعاينه.

ثم حرر خط يده معنا، إمضا برين الخيال، إمضا سارتلون، إمضا كاتم السر بينه.

ثم حضر أيضًا بين أيدينا الشاهد الثاني وهو السيتوين روبرت الخيال أحد الطبجية الملازمين، وقال إنه حين كان يفتش على الذي قتل ساري عسكر دخل في الجنينة التي فيها الحمامين الفرنساوية لزق جنينة ساري عسكر العام، وهناك شاف برفقة «برين» المذكور سليمان الحلبي مستخبي في ركن حيطان مهدودة، وكان ملغمط دم، وأن حين مسكوه بان منه وهم، وأن بعد حوشته بساعة شاف برفقة السيتوين برين في الموضع ذاته سكينة بدمها، وأنهم سلموها في بيت ساري عسكر العام، والسكينة المذكورة كانت مخبية تحت الأرض.

فقرانا عليه إقراره هذا، ثم سألناه إن كان ما فيه زايد أم ناقص؟

فجاوب: أن هذا هو الذي فعله وشافه.

ثم حرر خط يده معنا، حرر بمدينة مصر في النهار والشهر والساعة المحررة أعلاه.

إمضا روبرت الخيال، إمضا سارتلون، إمضا كاتم السر «بينه».

أنا الدفتردار سارتلون المبلغ رحت إلى بيت السيتوين بروتاين؛ لأنه كان راقدًا بسبب جروحاته ثم استلمت منه التبليغ الآتي أدناه.

أنا حنا قسطنطين بروتاين المهندس وعضو من أعضاء مدرسة العلم في بر مصر، أنني كنت أتمشور تحت التكعيبة الكبيرة التي في جنينة ساري عسكر وتطل على بركة الأزبكية، وكنت برفقة ساري عسكر العام فنظرت رجلًا لابسًا عثملي خارج من مبتدا التكعيبة من جنب الساقية، فأنا كنت بعيدًا كام خطوة عن ساري عسكر، والتفت لورا فحالًا سمعت صاري عسكر ينده على الغفرا، فانتبهت لأجل أشوف السيرة رأيت أن الرجل المذكور بيضرب ساري عسكر بالسكينة فرحت لأجل أخلصه منه، فالراجل ضربني بالسكينة ذاتها كام مرة، فارتميت على الأرض، وفي الوقت سمعت ساري عسكر يصرخ ثانيًا، فهميت ورحت قريبًا من ساري عسكر فرأيت الرجل يضربه فهو ضربني ثانيًا كام سكينة، التي رمتني وغيبت صوابي، وما عدت نظرت شيًّا، غير أنني أعرف طيب أننا قعدنا مقدار ستة دقايق قبل ما أحد يسعفنا.

فبعده قريت هذا الإقرار على السيتوين بروتاين.

وسألته هل فيه زايد أم ناقص؟

فجاوب: أن هذا الذي فعله وعاينه، ثم حرر خط يده معنا إمضا بروتاين، إمضا سارتلون، إمضا كاتم السر «بينه» والسيتوين بروتاين.

بعد ما ختم الورقة أعلاه قال إن مقصوده يضيف عليها أن بعد غدر ساري عسكر بزمان قليل، حين شاف سليمان الحلبي الذي هو متهوم في غدره وغدر ساري عسكر العام عرفه أنه هو ذاته الذي كان ضرب ساري عسكر، وبعده ضربه سليمان المذكور كام سكينة غيبت صوابه، فقرينا عليه أيضًا هذه الإضافة.

فجاوب: أنها حاوية الحق وما فيها زايد ولا ناقص، ثم ختمها معنا.

إمضا بروتاين، إمضا سارتلون، إمضا كاتم السر «بينه» نهار تاريخه ستة وعشرين في شهر برريال — مايو — السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوي.

أنا الواضع اسمي فيه مبلغ القضاة المأمور في شرع قتلة ساري عسكر العام كليبر، ذهبت إلى مساعدي ساري عسكر المذكور لأجل أن أسمع إقرارهم ثم كان معي كاتم السر «بينه» وهم قالوا لنا كما يذكر أدناه.

السيتوين فورتونه دهوج ابن أربعة وعشرين سنة فسيال في طابور الخيالة ومساعد عند ساري عسكر كليبر، قال: إنه في اليوم الخامس والعشرين من شهر برريال كان مع ساري عسكر العام حين حضر إلى الأزبكية يشوف بيته الذي كان داير فيه العمارة، وأنه شاف رجلًا بعمة خضرا ودلق وحش وكان دايمًا تابع ساري عسكر حين كان داير يتفرج على المحلات.

وأنه هو وخلافه حسبوا هذا الرجل من جملة الفعلة فما أحد سأله، ولكن حين نزل ساري عسكر من بيته إلى الجنينة لأجل ينفذ إلى جنينة ساري عسكر «داماس السيتوين دهوج» شاف الرجل المذكور مدحوش بين جماعة ساري عسكر، فنهره وطرده برًّا فبعد ساعتين حين انغدر ساري عسكر «السيتوين دهوج» المذكور عرف دلق الخاين؛ لأنه كان رماه جنب ساري عسكر، وبعده حين انمسك الرجل فعرفه أنه هو الذي قبل بشوية طرده من الجنينة.

ثم قُرِي هذا المضمون على «السيتوين دهوج» المذكور لأجل بيان هل يوجد شي خلافه يزيد أم ينقص؟

فجاوب: أن هذا الحق حكم ما عاين وفعل، ثم حرر خط يده مع كاتم السر.

تحريرًا في اليوم والشهر والسنة المحررة أعلاه.

إمضا السيتوين دهوج، إمضا سارتلون، إمضا «بينه» كاتم السر.

ثاني فحص سليمان الحلبي.

نهار تاريخه ستة وعشرين من شهر برريال السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوي.

نحن الواضعون أسمانا فيه الدفتردار سارتلون برتيه مبلغ والوكيل «بينه» في رتبة كاتم سر القضاة المنقامين إلى شرع كل من هو متهوم في غدر ساري عسكر العام كليبر، أحضرنا سليمان الحلبي لأجل نسأله من أوله وجديد عن صورة غدر وقتل ساري عسكر، وهذا صار بواسطة «السيتوين براشيوش» كاتم سر وترجمان ساري عسكر العام كما يذكر أدناه.

انسال المذكور عن قصة ساري عسكر؟

فجاوب: أنه حضر من غزة مع قافلة حاملة صابون ودخان، وأنه كان راكب هجين وبحيث إن القافلة كانت خايفة أن تنزل بمصر توجهت إلى ريف يسمى الغيطة في ناحية الألفية، وهناك استكرى حمارًا من واحد فلاح، وحضر لمصر ولكن لم يعرف الفلاح صاحب الحمار.

ثم إن أحمد أغا وياسين أغا من أغوات الينكجرية بحلب وكَّلوه في قتل ساري عسكر العام بسبب أنه يعرف مصر طيب، بحيث إنه سكن فيها سابق ثلاث سنوات، وأنهم كانوا وصوه أنه يروح ويسكن في الجامع الأزهر وأن لا يعطي سره لأحد كليًّا؛ بل يوعى لروحه ويكسب الفرصة في قضا شغله؛ لأنها دعوة تحب السر والنباهة، ثم يعمل كل جهده حتى يقتل ساري عسكر.

لكن حين وصل إلى مصر التزم يسارر الأربعة مشايخ الذين أخبر عنهم؛ لأنه لو كان ما قال لهم فما كانوا يسكنوه في الجامع، أنه كان كل يوم يتحدث معهم في هذا الأمر، وأن المشايخ المذكورين قصدوا يغيروا عقله عن هذا الفعل بقولهم إنه ما يقدر عليه، وهو ما دعاهم لمساعدته لأنه كان يعرفهم بلديين.

وأن اليوم الذي قصد التوجه فيه ليقتل ساري عسكر قابل أحدهم الذي هو محمد الغزي، فعرفه أن مقصوده أن يتوجه إلى الجيزة ليفعل مراده، ثم إنه مضى وحده ليفعل هذا الغدر.

وأن تخمينه أنه مثل المجنون من حين أراد أن يقضي هذا الأمر؛ لأنه لو كان له عقل ما حضر من غزة لهذا الأمر.

وأن الأوراق الذين وضعهم في الجامع هم بعض آيات من القرآن؛ لأنه عوايد الكتبة أولاد العرب يوضعوا ذلك في الجامع.

وأنه ما أخذ دراهم من أحد في مصر؛ لأن الأغوات كانوا أعطوا له كفايته.

وأن الأفندي الذي كان يروح يقرا عنده يسمى مصطفى أفندي، وكان يقرا عليه نهار الاثنين والخميس تبع العادة، ولكن ما أخبره بسر خوفًا أن ينشهر.

وأما من قبل الأربعة مشايخ المذكورين صحيح أنه كان قال لهم كل شي؛ لأنهم من أولاد بلاده ثم حقق لهم أنه ناوي أن يغازي في سبيل الله.

انسال أين كان هو حين رجع الوزير من بر مصر في ابتدا شهر جرمنيال (مارس) الموافق لشهر الإسلام ذي القعدة؟

فجاوب: أنه كان في القدس حاجج من حين كان الوزير أخذ العريش.

انسال أين شاف أحمد أغا الذي يقول إنه عرض عليه مادة قتل ساري عسكر، وفي أي يوم قال له ذلك؟

فجاوب: أنه حين انكسر الوزير رجع إلى العريش وغزة في أواخر شهر شوال أو في أوايل شهر ذي القعدة الموافق لشهر جرمنيال الفرنساوي، وأن أحمد أغا المذكور هو من جملة أغوات الوزير، ولكن كان رسم عليه في غزة من حين أخذ العريش، وحين رجع أرسله إلى القدس في بيت المتسلم، ثم إنه يوم وصوله توجه سلم عليه في بيت المتسلم وشكا له من إبراهيم باشا متسلم حلب الذي كان يظلم أباه الذي يسمى الحاج محمد أمين بياع سمن وحططوه غرامات زايدة، ومن الجملة واحدة قبل سفر الوزير من الشام، ثم وقع في عرضه بشأن ذلك.

ثم إنه رجع عند أحمد أغا ثاني يوم وأن الأغا وقتها قال له إنه محب إبراهيم باشا، وأنه ما يقصر ويوصيه في راحة أبيه، ولكن بشرط أنه يروح يقتل أمير الجيوش الفرنساوية.

ثم في ثالث ورابع يوم كرر عليه أيضًا هذا السؤال، وحالًا أرسله إلى ياسين أغا في غزة لأجل أن يعطي له مصروفه.

وأنه من بعد هذا الكلام بأربعة أيام سافر من القدس إلى الخليل، وهناك قعد كام يوم وما وصله ولا مكتوب من أحمد أغا، وأما أحمد أغا المذكور كان أرسل خدامًا إلى غزة لأجل يخبر ياسين أغا بالذي اتفقوا عليه.

انسال كام يوم قعد في الخليل؟

فجاوب: عشرين يومًا.

انسال لأي سبب قعد عشرين يومًا في الخليل، وهل في هذه المدة ما وصله مكاتيب من الاثنين الأغوات؟

فجاوب: أن السكة كانت ملآنة عرب وأنه خايف منهم، فالتزم يستنظر سفر القافلة التي سافر برفقتها، وأنه كان في غزة في أواخر شهر ذي القعدة الموافق لغرة شهر فلوريال الفرنساوي.

انسال إيش عمل في غزة وإيش قال له ياسين أغا؟

فجاوب: أن ثاني يوم وصوله راح شاف الأغا، والمذكور قال له إنه يعرف الشغل الذي هو سبب مشواره، هذا وأنه أسكنه في الجامع الكبير، وهناك أمرار عديدة كان يروح يشوفه ليلًا ونهارًا، ويتحدث معه في هذا الأمر ووعده أنه يرفع الغرايم عن أبيه، وأنه دايمًا يجعل نظره عليه في كل ما يلزمه، ثم بلغه عن كل الذي كان لازم يفعله كما شرح أعلاه، وهذا صار سرًّا بينهم، ثم أعطى له أربعين قرشًا لمصروف السفر، وبعد عشرة أيام سافر من غزة راكبًا هجينًا ووصل هنا بعد ستة أيام كما عرف سابقًا، وأن سفره من غزة كان في أوايل شهر ذي الحجة الموافق لنصف شهر فلوريال الفرنساوي، فبقى باين أنه حين غدر ساري عسكر كان له واحد وثلاثون يومًا في مدينة مصر.

انسال هل يعرف الخنجر الملغمط دم الذي قتل به ساري عسكر؟

فجاوب: نعم يعرفه، وأن هذا هو بداية الذي قتل به ساري عسكر.

انسال من أين أحضر هذا الخنجر؟ وهل أحد من الأغوات أعطاه له أم أحد خلافهم؟

فجاوب: أنه ما أحد أعطاه له، وإنما بحيث إنه كان قاصد قتل ساري عسكر توجه إلى سوق غزة واشترى أول سلاح شافه.

انسال هل أن أحمد أغا أو ياسين أغا ما حدثاه أصلاه عن الوزير، وعشموه بشي من طرفه إن كان يقدر يقتل ساري عسكر؟

فجاوب: لا بل أنهم ذاتهم وعدوه أنهم يساعدوه في كل ما يلزمه إن كان يخرج هذا الشي من يده.

انسال هل إن الوزير نادى في تلك النواحي بقتل الفرنساوية؟

فجاوب: أنه لا يعلم بل يعرف أن الوزير كان أرسل طاهر باشا لأجل يعين الذين كانوا بمصر وأنه رجع حين شاف العثملي مقبلين لبر الشام من مصر.

انسال هل هو فقط الذي توكل في هذه الإرسالية؟

فجاوب: أن تخمينه هكذا؛ لأن هذا الكلام قد حصل سرًّا ما بينه وبين الأغوات.

انسال كيف كان يعمل حتى إنه كان يعرف الأغوات بالذي فعله؟

فجاوب: أنه كان قصده يروح هو بنفسه يخبرهم أو يرسل لهم حالًا ساعي.

فبعد خلاص الفحص المذكور انقرا على المتهوم، وهو حرر خط يده مع المبلغ وكاتم السر والترجمان.

حرر بمصر في اليوم والشهر والسنة المحررة أعلاه.

إمضا سليمان الحلبي بالعربي، إمضا كاتم السر «بينه».

مقابلة المتهمين مع بعضهم.

نهار تاريخه ستة وعشرين من شهر برريال السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوي.

أنا الواضع اسمي فيه مبلغ القضاة المنقامين لشرع كل من هو متهوم في قتل ساري عسكر العام كليبر، أحضرنا الشيخ محمد الغزي لأجل نجدد فحصه ونقابله مع سليمان الحلبي قاتل ساري عسكر؛ ولهذا كان موجود معنا السيتوين بينه كاتم سر القضاة المذكورين، وصار كما يذكر أدناه.

انسال الشيخ محمد الغزي هل يعرف سليمان الحلبي الموجود ههنا؟

فجاوب: نعم.

انسال سليمان الحلبي هل يعرف الشيخ محمد الغزي الموجود هنا؟

فجاوب: نعم.

انسال محمد الغزي هل أن سليمان الحلبي ما قال له من قيمة واحد وثلاثين يومًا أنه حضر من بر الشام من طرف أحمد أغا وياسين أغا لأجل يقتل ساري عسكر العام، وهو كل يوم ما حدثه في هذا الشغل حتى إنه في آخر يوم قال له إنه رايح إلى الجيزة حتى يغدر ساري عسكر؟

فجاوب: أن هذا ما له أصل، لكن حين شافوا بعضًا وقع بينهم سلام فقط، ومن قبل آخر يوم الذي فيه سليمان نوى على الرواح إلى الجيزة جاب له ورق وحبر، وقال له إنه ما يرجع إلا غدًا.

فقيل له: إنه ما يخبر بالصحيح؛ لأن سليمان يحقق أنه أخبره بهذه السيرة كل يوم، وأن عشية قبل غدر ساري عسكر كان قال له أنه رايح لقضا هذا الأمر؟

فجاوب: أن هذا الرجل يكذب.

انسال هل كان يروح مرارًا عديدة يبات عند الشيخ الشرقاوي، وهل له في الأيام الأخيرة ما راح بات عنده؟

فجاوب: أن من حين دخول الفرنساوية ما راح أبدًا بات عنده، وأما قبل دخول الفرنساوية كان يبيت عنده بعض مرار.

فقيل له: إنه ما يحكي الصحيح؛ لأن في فحص أمس قال إنه كان يروح مرارًا عديدة يبيت عند الشيخ الشرقاوي.

فجاوب: أنه ما قال ذلك.

انسال سليمان الحلبي هل يقدر يثبت على الشيخ محمد الحاضر بأنه كل يوم كان يخبره على نيته في قتل ساري عسكر، وخصوصًا عشية النهار الذي صباحه صار القتل؟

فجاوب: نعم وأنه ما قال إلا الصحيح.

وأن الشيخ محمد الغزي ما كان يقر بالحق، أمرنا بضربه كعادة البلد، فحالًا انضرب لحد أنه طلب العفو، ووعد أنه يحكي على كل شي فارتفع عنه الضرب.

انسال هل سليمان أخبره على ضميره في قتل ساري عسكر؟

فجاوب: أن سليمان كان قال له إنه حضر من غزة لأجل أنه يغازي في سبيل الله بقتل الكفرة الفرنساوية، وأنه منعه عن ذلك بقوله إنه يحصل له من ذلك ضرر وما عرفه أن مراده يغدر ساري عسكر إلا الليلة التي راح فيها إلى الجيزة وصباحها قتله.

انسال لأي سبب ما حضر أخبرنا على سليمان المذكور؟

فجاوب: أنه أبدًا ما كان يصدق أن واحدًا مثل هذا يقدر على قتل ساري عسكر الذي الوزير بذاته ما قدر عليه.

انسال هل أخبر بالذي قال له عليه سليمان لأحد من المدينة وخصوصًا إلى الشيخ الشرقاوي؟

فجاوب: أنه ما أخبر أحدًا بذلك، وحتى إذا وضعوه تحت القتل ما يقول بذلك.

انسال هل يعرف أحدًا خلاف سليمان حضر لأجل غدر الفرنساوية وأين هم قاعدين؟

فجاوب: أنه ما يعرف وأن سليمان ما قال له على أحد.

انسال سليمان المذكور أنه يشهر رفقاه أي يذكر رفقاه في الجريمة.

فجاوب: أنه لم يعرف أحدًا في مصر، وأن تخمينه ما فيه غيره الذي قاصد قتله الفرنساوية.

فبعد هذا صرفنا محمد الغزي المذكور لحبسه، وأبقينا سليمان لأجل نقابله مع السيد أحمد الوالي الذي حالًا أحضرناه لأجل ذلك.

انسال هل يعرف سليمان الحلبي الموجود ههنا؟

فجاوب: نعم.

انسال أيضًا سليمان هل يعرف السيد أحمد الوالي الموجود ههنا؟

فجاوب هو أيضًا: نعم.

انسال السيد أحمد الوالي هل أن سليمان ما أخبره على نيته في قتل ساري عسكر، وخصوصًا في العشية التي قصد بها التوجه لذلك؟

فجاوب: أن سليمان حين وصل من مدة ثلاثين يومًا كان قال له إنه حضر حتى يغازي في الكفرة، وأنه نصحه عن ذلك بقوله: إن هذا شي غير مناسب، وما أخبره على سيرة ساري عسكر.

انسال سليمان المذكور أنه يبين هل حدثه أحمد الوالي في قتل ساري عسكر وكم يوم له ما حدثه؟

فجاوب: أن في أوايل وصوله قال له: إنه حضر بقصد الغزو في الكفار، وأن السيد أحمد ما رضي له بذلك، ثم بعد ستة أيام أخبره على نيته في قتل ساري عسكر، ومن بعد ما عاد حدثه بذلك، وقبل الغدر بأربعة أيام ما كان قابله.

فقيل للسيد أحمد الوالي: إنه لم يصدق في قوله؛ لأنه ينكر أن سليمان ما أخبره بأنه كان ناوي يقتل ساري عسكر.

فجاوب: الآن لما فكره سليمان افتكر أنه أخبره.

انسال لأي سبب ما أشهر سليمان المذكور؟

فجاوب: أنه ما أشهره لسببين: الأول: أنه كان يخمن أنه يكذب.

والثاني: ما كان مستعنيه في فعل مادة مثل هذه.

انسال هل سليمان ما عرفه برفقاه، وهل هو ما تحدث مع أحد بذلك وخصوصًا مع شيخ الجامع الذي هو ملزوم يخبره بكل ما يجري؟

فجاوب: أن سليمان ما قال له على رفقاه، وهو ما أخبر بذلك أحدًا ولا أيضًا شيخ الجامع.

انسال هل يعرف الأمر الذي خرج من ساري عسكر العام بأن كل من شاف عثملي في البلد يخبر عنه؟

فجاوب: أنه ما درى بذلك.

انسال هل سكن سليمان بالجامع لسبب أنه قال له على مراده في قتل ساري عسكر؟

فجاوب: لا؛ لأن كل أهل الإسلام تقدر تسكن في الجامع.

انسال سليمان هل إنه ما قال بأنهم ما كانوا يريدوا يسكنوه لولا أنه قال لهم على سبب مجيه لمصر؟

فجاوب: أن كامل الغربا لازم يخبروا عن سبب حضورهم، وأما هو يقول الحق إن ما أحد من المشايخ ارتضى على مقصوده.

فبعد هذا أرسلنا السيد أحمد الوالي إلى حبسه، وبقي سليمان الحلبي لأجل مقابلة السيد عبد الله الغزي الذي أحضرناه في الحال.

انسال سليمان هل يعرف السيد عبد الله الغزي الموجود ههنا؟

فجاوب: نعم.

انسال السيد عبد الله الغزي هل يعرف سليمان الموجود ههنا؟

فجاوب: نعم.

انسال السيد عبد الله الغزي هل ما بلغه نية سليمان في قتل ساري عسكر؟

فجاوب وأقر أن يوم حضور سليمان عرفه أنه حضر يغازي في الكفرة، وأنه مراده يقتل ساري عسكر وأنه قصد يمنعه عن ذلك.

انسال لأي سبب ما شكاه؟

فجاوب: أنه كان يظن أن سليمان المذكور يتوجه عند المشايخ الكبار، وأن المذكورين يمنعوه، ولكن من الآن صار يخبر بالذين يحضرون بهذه النية.

انسال هل يعرف أن سليمان أخبر أحدًا خلافه في مصر؟

فجاوب: أن ما عنده علم بذلك.

انسال هل يعرف أنه موجود بمصر ناس خلاف سليمان متوكلين في قتل الفرنساوية؟

فجاوب: أن ما عنده خبر وأن تخمينه لم يوجد أحد.

فبعد ذلك انقرا هذا الفحص على الأربعة المتهومين وهم: سليمان الحلبي، ومحمد الغزي، والسيد أحمد الوالي، والسيد عبد الله الغزي.

وسألوهم هل جواباتهم هذه صحيحة ولا فيها زايد ولا ناقص؟

فأربعتهم جاوبوا: لا.

ثم حرروا خط يدهم معنا بالعربي برفقة الاثنين المترجمين وكاتم السر.

حرر بمدينة مصر في اليوم والشهر والسنة المحررة أعلاه، إمضا المتهومين بالعربي، إمضا الترجمان لوماكا، إمضا دميان سومر براشويش كاتم السر وترجمان ساري عسكر العام، إمضا المبلغ سارتلون، إمضا كاتم السر «بينه».

بعد خلاص الفحص المشروح أعلاه أنا المبلغ سارتلون، سألت الأربعة المتهومين المذكورين أنهم يختاروا لهم واحد ليتكلم عنهم قدام القضاة ويحامي عنهم، والمذكورون

قالوا: إن ما هم عارفون من يختاروا فأورينا لهم الترجمان لوماكا لأجل يمشي لهم في ذلك.

حرر بمصر في اليوم والشهر والسنة المحررة أعلاه.

إمضة سارتلون، إمضة كاتم السر بينه.

بيان فحص مصطفى أفندي

نهار تاريخه ستة وعشرين شهر برريال السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوي.

أنا المبلغ سارتلون وبينه كاتم سر القضاة المنتشرين لشرع كل من كان له جرة في قتل ساري عسكر العام كليبر أحضرنا مصطفى أفندي لكي نفحص منه على الذي قد حصل.

انسال عن اسمه وعمره ومسكنه وصنعته؟

فجاوب: بأنه يسمى مصطفى أفندي، ولادة برصة في بر أناضول، وعمره واحد وثمانون سنة، وساكن في مصر، ثم صنعته معلم كتاب.

انسال هل من مدة شهر شاف سليمان الحلبي؟

فجاوب: أن هذا الرجل مشدوده من مدة ثلاث سنين، وأنه من مدة عشرة أو عشرين يومًا حضر عنده وبات ليلة، ومن حيث إنه رجل فقير قال له يروح يفتش له على محل غيره.

انسال هل سليمان المذكور ما أخبره أنه حضر من بر الشام حتى يقتل ساري عسكر العام؟

فجاوب: لا بل حضر عنده ليسلم عليه فقط؛ لكونه معلمه من قديم.

انسال هل سليمان ما عرفه عن سبب حضوره لهذا الطرف، وهل هو نفسه ما استخبر عن ذلك؟

فجاوب: أن كل اجتهاده كان في أنه يصرفه من عنده بحيث إنه رجل فقير بل سأله عن سبب حضوره، فأخبره لأجل يتقن القراة.

انسال هل يعرف بأن سليمان راح عند ناس من البلد، وخصوصًا عند أحد من المشايخ الكبار؟

فجاوب: أنه لا يعرف شيًّا؛ لأنه ما شافه إلا قليلًا وأنه لم يقدر يخرج كثيرًا من بيته بسبب ضعفه وكبره.

انسال هل أنه ما يعلم القرآن إلا لمشاديده؟

فجاوب: نعم.

انسال هل أن القرآن يرضى بالمغازاة ويأمر بقتل الكفرة؟

فجاوب: أنه ما يعرف إيش هي المغازاة التي القرآن ينبي عنها.

انسال هل يعلم مشاديده هذه الأشيا؟

فجاوب: واحد اختيار مثله ما له دعوة في هذه الأشيا، بل إنه يعرف أن القرآن ينبي عن المغازة وأن كل من قتل كافرًا يكسب أجرًا.

انسال هل علَّم هذا الغرض لسليمان؟

فجاوب: أنه ما علَّمه إلا الكتابة فقط.

انسال هل عنده خبر أن أمس تاريخه رجل مسلم قتل ساري عسكر الفرنساوية الذي ما هو من ملته، وهل بموجب تعليم القرآن هذا الرجل فعل طيب ومقبول عند النبي محمد؟

فجاوب: أن القاتل يقتل، وأما هو يظن أن شرف الفرنساوية هو من شرف الإسلام، وإذا كان القرآن يقول غيره شيًّا هو ما له علاقة.

فحالًا قدمنا سليمان المذكور وقابلناه بمصطفى أفندي.

ثم سألناه هل شاف مصطفى أفندي مرارًا كثيرة، وهل بلغه عن نيته؟

فجاوب: أنه ما شافه سوى مرة واحدة لأجل أنه يسلم عليه بحيث أنه معلمه القديم، وبما أنه رجل اختيار وضعيف قوي ما رأى مناسب يخبره عن ضميره.

انسال هل هو من ملة المغازين، وهل أن المشايخ سمحوا له في قتل الكفار في مصر ليكتب له أجر ويقبل عند النبي محمد؟

فجاوب: أنه ما فتح سيرة المغازاة إلا إلى الأربعة مشايخ فقط الذين سماهم.

انسال هل أنه ما تحدث مع الشيخ الشرقاوي؟

فجاوب: أنه ما شاف هذا الشيخ؛ لأنه ما هو من ملته بسبب أن الشيخ الشرقاوي شافعي وهو حنفي.

فبعد هذا قرينا على سليمان ومصطفى أفندي إقرارهم هذا، فجاوبوا أن هذا هو الحق وما عندهم ما يزيدوا ولا ينقصوا، ثم حرروا خط يدهم برفقة الترجمان ونحن.

حرر بمصر في اليوم والشهر والسنة المحررة أعلاه، إمضا لوماكا الترجمان، إمضا سارتلون إمضا كاتم السر بينه.

هذه الرواية المنقولة في اليوم السابع والعشرين من شهر برريال السنة الثامنة من إقامة الجمهور الفرنساوي عن الوكيل سارتلون بحضور مجمع القضاة المفوضين لمحاكمة قاتل ساري عسكر العام كليبر، وأيضًا لمحاكمة شركا القاتل المذكور.

يا أيها القضاة إن المناحة العامة والحزن العظيم الذي نحن مشتملون بهما الآن يخبران بعظم الخسران الذي حصل الآن بعسكرنا؛ لأن ساري عسكرنا في وسط نصراته ومماجده ارتفع بغتة من بيننا بحديد قاتل رذيل، ومن يد مستأجره من كبرا ذوي الخيانة والغيرة الخبيثة، والآن أنا معين ومأمور لاستدعا الانتقام للمقتول، وذلك بموجب الشريعة، من القاتل المسفور وشركاه كمثل أشنع المخلوقات، لكن دعوني ولو لحظة خالطًا فيض دموع عيني وحسراتي بدموعكم ولوعاتكم التي سببها هذا المفدَّى الأسيف والمكرم المنيف، فقلبي احتسب جدًّا اهتياجه لتأدية تلك الجزية لمستحقها، فوظيفتي كأنها ليست في الرؤية إلا ألمًا بتغريق المهيب بماء هذه المصنوعة الشنيعة التي بوقوعها ارتبكت، سمعتم الآن قراءة إعلام وفحص المتهمين وباقي المكتوبات عما جرى منهم، وقط ما ظهر سيئة أظهر من هذه السيئة التي أنتم محاكمون فيها من صفة الغدارين ببيان الشهود وإقرار القاتل وشركاه، والحاصل كل شي متحد ورامي الضيا المهيب لمناورة ذا القتل الكريه، إني أنا راوي لكم سرعة الأعمال جاهد نفسي إن ظفرت لمنع غضبي منهم منها، فلتعلم بلاد الروم والدنيا بكمالها أن الوزير الأعظم سلطنة العثمانية وروسا جنود عسكرها رذلوا أنفسهم حتى أرسلوا قاتل معدوم العرض إلى الجريء والأنجب كليبر الذي لا استطاعوا بتقهيره، وكذلك ضموا إلى عيوب مغلوبيتهم المجرم الظالم بالذي ترأسوا قبل السما والأرض، تذكروا جملتكم تلك الثول العثمانية المحاربين من إسلامبول ومن أقاصي أرض الروم وأناضول واصلين منذ ثلاثة شهور بواسطة الوزير لتسخير وضبط بر مصر وطالبين تخليتها بموجب الشروط الذي بمتفقهم بذاتهم مانعوا إجراهم، والوزير أغرق بر مصر وبر الشام بمناداته مستدعي بها قتل عام الفرنساوية، وعلى الخصوص هو عطشان لانتقامه لقتل سر عسكرهم.

وفي لحظة الذين هم أهالي مصر محتفين بأغويات الوزير كانوا محرومين شفقات ومكارم نصيرهم، وفي دقيقة الذين هم أسارى ومجروحين العثملية هم مقبولون ومرعيين في دور ضيوفنا وضعفانا، تقيد الوزير بكل وجوه بتكميل سو غفارته تلوه منذ زمان طويل.

واستخدم لذلك أغا مغضوبًا منه ووعد له إعادة لطفه، وحفظ رأسه الذي كان بالخطر إن كان يرتضي بذات الصنع الشنيع.

وهذا المغوي هو أحمد المحبوس بغزة منذ ما ضبط العريش، وذهب للقدس بعد انهزام الوزير في أوايل شهر جرمينال الماضي والأغا المرقوم محبوس هناك بدار متسلم البلد وفي ذلك الملجأ، فهو مفتكر بإجرا السو الخبيث الذي يستثقل التقدير لا فهيم ولا معه تدبير سيما هو عامل شي لإجرا انتقام الوزير.

وسليمان الحلبي شب مجنون وعمره أربعة وعشرون سنة، وقد كان بلا ريب متدنس بالخطايا، ظهر عند ذا الأغا يوم وصوله القدس، ويترجى صيانته لحراسة أبيه تاجر بحلب من أذيَّات إبراهيم باشا والي حلب، يرجع له سليمان يوم غدره، فقد كان استفتش الأغا عن احتيال أصل وفصل ذا الشب المجنون، وعلم أنه مشتغل بجامع بين قراء القرآن وأنه هو الآن بالقدس للزيارة وأنه حج سابقًا بالحرمين، وأن العَتَة النسكي هو منصوب في أعلى رأسه المضطرب من زيغاته وجهالاته بكمالة إسلامه وباعتماده أن المسمى منه جهاد هو تهليك غير المؤمنين، فمما أنهى وأيقن أن هذا هو الإيمان.

ومن ذلك الآن ما بقي تردد أحمد أغا في بيان ما نوى منه فوعد له حمايته وإنعامه، وفي الحال أرسله إلى ياسين أغا ضابط مقدار من جيوش الوزير بغزة، وبعثه بعد أيام لمعاملته وأقبضه الدراهم اللازمة له.

وسليمان قد امتلا من خباثته وسلك بالطرق، فمكث واحدًا وعشرين يومًا في بلد الخليل بحبرون منتظرًا فيه قافلة لذهاب البادية وكل مستعجل.

ووصل غزة في أوايل شهر فلوريال الماضي وياسين أغا سكنه بالجامع لاستخدام غيرته والمجنون وتواجهه مرارًا وتكرارًا بالنهار والليل مدة عشرة أيام مكثه بغزة يعلمه، وبعدما أعطاه أربعين قرشًا أسديًّا ركبه بعقيبة الهجين الذي وصل مصر بعد ستة أيام، وممتن بخنجر دخل بأواسط شهرنا فلوريال إلى مصر التي قد سكنها سابقًا ثلاث سنين، وسكن بموجب تربياته بالجامع الكبير، ويتحضر فيه للسيئة التي هو مبعوث لها.

ويستدعي الرب تعالى بالمناداة وكتب المناجاة وتعليقها بالسور مكانه بالجامع المذكور أعلاه، وتأنس مع الأربعة مشايخ الذين قروا القرآن مثله وهم مثله مولودين ببر الشام وسليمان أخبرهم بسبب مراسلته، وكان كل ساعة معهم متامرين به لكن ممنوعين بصعبة ومخطرات المواجدة الواحدة، وهم: محمد الغزي والسيد أحمد الوالي وعبد الله الغزي وعبد القادر الغزي هم معتمدين سليمان بارتهان ما نواه ولا عاملوا شي لمانعته أو لبيانه، وعن مداومة سكوتهم به صاروا مسامحين ومشتركين في قبحه.

القاتل هو منتظر واحد وثلاثين يوم معدودة بمصر فعقبه جَزَم توجهه إلى الجيزة، وبذاك اليوم اعتمد سره إلى الشركا المذكورين أعلاه، وكان كل شي صار مسهل جرم القاتل بمصنوعته الشنيعة.

وبيوم الغدرة طلع السر عسكر من الجيزة متوجهًا مصر، وسليمان طوى الطرق ولحقه هلقدر حتى لزم أن يطردوه مرارًا مختلفة لكن هو المكار عقيب غدار تعداه.

وفي يوم الخامس والعشرين من شهرنا الجاري، وصل واختفى في جنينة السر عسكر لتقبيل يده، فالسر عسكر لا أبى عن قيافة فقره، وفي حال ما السر عسكر ترك له يده ضربه سليمان بخنجره ثلاثة جروح، وقصد الستوين بروتاين الذي هو ريس المعمار ومصاحب العرفا وجاهد لحماية السر عسكر لكن ما نفع جسارته، فهو بذاته وقع أيضًا مجروحًا عن يد القاتل المسفور بستة جروحات، وبقى لا مستطيع شي وهكذا وقع بلا صيانة، وهو الذي كان من الأماجد في الحرب ومخاطرات الغزا، وهو أول الذين مضوا برياسة عسكر دولة الجمهور الفرنساوي المنصور الرهن الرهين، وهو فتح ثانيًا بر مصر حينئذ بهجوم سحايب من العثمانية، فكيف اقتدر واضم الوجع العميق الجملة إلى دموع الأجناد إلى لوعات الرويسا وجميع الجنرالية أصحابه بالمجاهدة والماجدة بالمناحة وموالهة العسكر، أنتم جميعًا تنعوه والمحاسنات تستاهله وتنبغي له، والقاتل سليمان ما قدر يهرب من مغاشاة الجيوش غَضُوبين له، والدم ظاهر في ثيابه وخنجره واضطرابه ووحشة وجهه وحاله كشفوا جرمه، وهو بالذات مقر بذنبه بلسانه ومسمي شركاه، وهو كمادح نفسه للقتل الكريه صنع يديه وهو مستريح بجواباته للمسايل، وينظر محاضر سياسات عذابه بعين رفيعة، والرفاهية هي الثمر المحصول من العصمة والتفاوه، فكيف تظهر بوجوه الآثمين ومسامحينهم، وشركا سليمان الأثيم كانوا مرتهنين سره للقتل الذي حصل من غفلتهم وسكوتهم قالوا باطلًا إنهم ما صدقوا سليمان هو مستعد بذا الإثم، وقالوا باطلًا أيضًا أن لو كانوا صدقوا ذا المجنون كانوا في الحال شايعين خيانته، لكن الأعمال شهود تزور وتنبي أنهم قابلوا القاتل، وما غيروا له نية إلا خوف مهلكتهم ومصممين تهلكة غيرهم ولا هم مستعذرين وجهًا من الوجوه.

لا أحكي لكم شيًّا عن مصطفى أفندي بما أن لا ظهر شي عند ذاك الشيب يثبت معاقرته بشكل العذاب اللايق للمذنبين هو تحت اصطفاكم بموجب الأمر من الذي أنتم مأمورون بعقيبه لمحاكمة السيئين، وأظن أن يليق أن تصنعوا لهم من العذابات العادية ببلاد مصر، ولكن عظمة الإثم تستدعي أن يصير عذابه مهيبًا، فإن سألتموني أجبت أنه

يستحق الخوزقة، وإن قبل كل شي تحرق يد ذا الرجل الأثيم وأنه هو يموت بإعذابه، ويبقى جسده لمأكول الطيور.

وبجهة المسامحين له يستحقون الموت لكن بغير عقوبة كما قلت لكم، ونبهت فليعلم الوزير والعثملية الظالمين تحت أمره حد جزا الآثمين الذين ارتكبوا بقصد انتقامهم لعدم المروة أنهم عدموا من عسكرنا واحد مقدام سبب دايم دموعنا ولوعتنا الأبدية، فلا يحسبوا ولا يأملوا بإقلال جزانا إنما خليفة السر عسكر المرحوم هو رجل قد شهر شجاعة ومضى قدمًا بصفا ضمير منير، وهو مشار إليه بالبنان لمعرفته بتدبير الجنود والجمهور المنصور وهو يهدينا بالنصرة، وأما أوليك المعدومين القلب والعرض فلا احمرت وجوههم بانتقامهم وانهزامهم باقٍ ثم عدم اعتبارهم بالتواريخ لأبدانهم باقين بالرذالة لا نفع لهم قدام العالم إلا اكتساب خجالتهم.

وعلى المبالاة حالًا كشفتها لكم أثبت محاكمات كما يأتي بيانها:

أولًا: أن سليمان الحلبي مثبت اسمه الكريه بقتل السر عسكر كليبر؛ فلهذا هو يكون مدحوض بتحريق يده اليمنى، وبتخزيقه حتى يموت فوق خازوقه وجيفته باقية فيه لمأكولات الطيور.

ثانيًا: أن الثلاثة مشايخ المسمين محمد الغزي وعبد الله الغزي وأحمد الغزي يكونون متبينين منكم أنهم شركا لهذا القاتل؛ فلذلك يكونون مدحوضين بقطع روسهم.

ثالثًا: أن الشيخ عبد القادر الغزي يكون مدحوضًا بذلك العذاب.

رابعًا: أن إجرا عذابهم يصير بعودة المجتمعين لتدفين السر عسكر وأمام العسكر، وناس البلد لذاك الفعل موجودون فيه.

خامسًا: أن مصطفى أفندي تبين غير مثبوت مسامحته وهو مطلوق إلى ما نوى.

سادسًا: أن ذا الإعلام وبيناته وما جرى يطبع في خمس نسخ ويُؤوَّل من لسان الفرنساوي بالعربي والتركي لتلزيقها بمحلات بلاد بر مصر بكمالها بموجب المأمور.

حرر بمصر القاهرة في اليوم السابع وعشرين من شهرنا برريال سنة ثمانية من إقامة الجمهور المنصور.

ممضي سارتلون

الفتوى الخارجة من طرف ديوان القضاة المنتشرين بأمر ساري عسكر العام منو أمير الجيوش الفرنساوية في مصر لأجل شرعية كل من له جرة في غدر وقتل ساري عسكر العام كليبر.

في السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوي، وفي اليوم السابع والعشرين من شهر برريال اجتمعوا في بيت ساري عسكر رينيه المذكور وساري عسكر روبين ودفتردار البحر لرو، والجنرال مارتينه والجنرال مورانه وريس العسكر جوجة وريس المدافع فاور وريس المعمار برترنه، والوكيل رجينه، والدفتردار سارتلون في رتبة مبلغ، والوكيل لبهر في رتبة وكيل الجمهور، والوكيل بينه في رتبة كاتم السر، وهذا ما صار حكم أمر ساري عسكر العام منو أمير الجيوش الفرنساوية الذي صدر أمس وأقام القضاة المذكورين لكي يشرعوا على الذي قتل ساري عسكر العام كليبر في اليوم الخامس والعشرين من الشهر ولكي يحكموا عليه بمعرفتهم.

فحين اجتمعوا القضاة المذكورون وساري عسكر رينيه الذي هو شيخهم أمر بقراءة الأمر المذكور أعلاه الخارج من يد ساري عسكر منو، ثم بعده المبلغ قرا كامل الفحص والتفتيش الذي صدر منه في حق المتهومين وهم: سليمان الحلبي والسيد عبد القادر الغزي ومحمد الغزي وعبد الله الغزي وأحمد الوالي ومصطفى أفندي.

فبعد قراءة ذلك أمر ساري عسكر رينيه بحضور المتهومين المذكورين قدام القضاة وهم من غير قيد ولا رباط بحضور وكيلهم والأبواب مفتحة قدام كامل الموجودين فحين حضروا ساري عسكر رينيه وكامل القضاة سألوهم جملة سؤالات وهذا بواسطة الخواجا براشويش الترجمان، فهم ما جاوبوا إلا بالذي كانوا قالوه حين انفحصوا، فساري عسكر رينيه سألهم أيضًا إن كان مرادهم يقولوا شي مناسب لتبريتهم، فما جاوبوه بشي، فحالًا ساري عسكر المذكور أمر بردهم إلى الحبس مع الغفرا عليهم.

ثم إن ساري عسكر رينيه التفت إلى القضاة، وسألهم إيش رأيهم في عدم حديث المتهومين، وأمر بخروج كامل الناس من الديوان وقفل المحل عليهم لأجل يستشاروا بعضهم من غير أن أحدًا يسمعهم.

ثم انوضع أول سؤال، وقال: سليمان الحلبي ابن أربع وعشرين سنة وساكن بحلب، متهوم بقتل ساري عسكر العام وجرح السيتوين بروتاين المهندس، وهذا صار في جنينة ساري عسكر العام في خمسة وعشرين من الشهر الجاري، فهل هو مذنب؟

فالقضاة المذكورون ردوا كل واحد منهم لوحده، والجميع بقول واحد: إن سليمان الحلبي مذنب.

السؤال الثاني: السيد عبد القادر الغزي مقري قرآن في الجامع الأزهر، ولادة غزة وساكن في مصر، متهوم أنه بلغه بالسر في غدر ساري عسكر العام وما بلغ ذلك وقصد الهروب، فهل هو مذنب؟

فالقضاة جاوبوا تمامًا: إنه مذنب.

ثم وضع السؤال الثالث، وقال: محمد الغزي ابن خمس وعشرين سنة، ولادة غزة وساكن في مصر، مقري قرآن في الجامع الأزهر، متهوم أنه بلغه بالسر في غدر ساري عسكر، وأنه حين ذلك الغادر كان نوى الرواح لقضا فعله بلغه أيضًا، وهو ما عرف أحدًا بذلك، فهل هو مذنب؟

فالقضاة جاوبوا تمامًا: إنه مذنب.

السؤال الرابع: عبد الله الغزي ابن ثلاثين سنة، ولادة غزة، ومقري قرآن في الجامع الأزهر، متهوم أنه كان يعرف في غدر ساري عسكر، وأنه ما بلغ أحدًا بذلك، فهل هو مذنب؟

فالقضاة جاوبوا تمامًا: إنه مذنب.

السؤال الخامس: أحمد الوالي ولادة غزة، مقري قرآن في جامع الأزهر، متهوم أن عنده خبر في غدر ساري عسكر، وأنه ما بلغ أحدًا بذلك، فهل هو مذنب؟

فالقضاة جاوبوا تمامًا: إنه مذنب.

السؤال السادس: مصطفى أفندي ولادة برصة في بر أناضول، عمره واحد وثمانون سنة، ساكن في مصر، معلم كتاب، ما عنده خبر بغدر ساري عسكر، فهل هو مذنب؟

فالقضاة تمامًا جاوبوا بأنه غير مذنب، وأمروا بإطلاقه.

فبعد ذلك القاضي وكيل الجمهور طلب أنهم يفتوا بالموت على المذنبين أعلاه، فالقضاة تشاوروا مع بعضهم ليعتمدوا على جنس عذاب لايق لموت المذنبين أعلاه.

ثم بدوا بقراة خامس مادة من الأمر الذي أخرجه أمس ساري عسكر منو بسبب ذلك والذي بموجبه أقامهم قضاة في فحص وموت كل من كان له جرة في غدر وقتل

ساري عسكر العام كليبر، ثم اتفقوا جميعهم أن يعذبوا المذنبين بعذاب من العذابات المعتادة بالبلد الأعظم، ويكون لايق للذنب الذي صدر وأفتوا أن سليمان الحلبي تحرق يده اليمين، وبعده يتخوزق ويبقى على الخازوق لحين تاكل رمته الطيور، وهذا يكون فوق التل الذي برا قاسم بك، ويسمى تل العقارب بعد دفن ساري عسكر العام كليبر، وقدام كامل العسكر وأهل البلد الموجودين في المشهد.

ثم أفتوا بموت السيد عبد القادر الغزي مذنب أيضًا كما ذكر أعلاه، وكل ما تحكم يده عليه يكون حلالًا للجمهور الفرنساوي، ثم هذه الفتوى الشرعية تكتب، وتوضع فوق النبوت الذي مختص بوضع رأسه.

وأيضًا أفتوا على محمد الغزي وعبد الله الغزي وأحمد الوالي أن تقطع روسهم، وتوضع على نبابيت وجسمهم يحرق بالنار وهذا يصير في المحل المعين أعلاه، ويكون ذلك قدام سليمان الحلبي قبل أن يجري فيه شي.

هذه الشريعة والفتوى لازم ينطبعوا باللغة التركية والعربية والفرنساوية من كل لغة قدر خمسماية نسخة لكي يرسلوا ويتعلقوا في المحلات اللازمة، والمبلغ يكون مشهل في هذه الفتوى.

تحريرًا في مدينة مصر في اليوم والشهر والسنة المحررين أعلاه.

ثم إن القضاة حطوا خط يدهم بأسمايهم برفقة كاتم السر.

ممضي في أصله إمضة الوكيل رجليه، إمضة ريس المدافع فاور، إمضة ريس المعمار برتراند، إمضة ريس العسكر جوجه، إمضة الجنرال موراند، إمضة الجنرل مارتينه، إمضة دفتردار البحر لرو، إمضة صاري عسكر روبين، إمضة صاري عسكر رينيه، إمضة كاتم السر بينه.

ثم هذه الشريعة والفتوى انقرت، وتفسرت على المذنبين بواسطة السيتوين لوماكا الترجمان قبل قصاصهم، فهم جاوبوا أن ما عندهم شي يزيدوا ولا ينقصوا على الذي أقروا به في الأول.

فحالًا قضوا أمرهم في ثمانية وعشرين من شهر برريال حكم الاتفاق، وقبل نصف النهار بساعة واحدة.

حرر بمصر في ثمانية وعشرين برريال السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوي.

ثم ختموا بأصله الدفتردار سارتلون وكاتم السر بينه، وهذه نسخة من الأصل إمضا بينه كاتم السر. ا.هـ.

وهذا آخر ما كتبوه في خصوص هذه القضية ورسموه وطبعوه بالحرف الواحد ولم أغير شيًّا مما رقم، إذ لست ممن يحرف الكلم وما فيه من تحريف فهو كما في الأصل، والله أعلم وأحكم.

ولما فرغوا من ذلك اشتغلوا بأمر ساري عسكرهم المقتول، وذلك بعد موته بثلاثة أيام كما ذكر ونصبوا مكانه عبد الله جاك منو، ونادوا ليلة الرابع من قتله وهي ليلة الثلاثا خامس عشرين المحرم في المدينة بالكنس والرش في جهات حكام الشرطة.

فلما أصبحوا اجتمع عساكرهم وأكابرهم وطايفة عينها القبط والشوام، وخرجوا بموكب مشهدِه ركبانًا ومشاةً، وقد وضعوه في صندوق من رصاص مسنم الغطا، ووضعوا ذلك الصندوق على عربة وعليه برنيطته وسيفه والخنجر الذي قتل به، وهو مغموس بدمه وعملوا على العربة أربعة بيارق صغار في أركانها معمولة بشعر أسود، ويضربون بطبولهم بغير الطريقة المعتادة وعلى الطبول خرق سود، والعسكر بأيديهم البنادق وهي منكسة إلى أسفل وكل شخص منهم معصب ذراعه بخرقة حرير سودا، ولبسوا ذلك الصندوق بالقطيفة السودا وعليها قصب مخيش، وضربوا عند خروج الجنازة مدافع وبنادق كثيرة وخرجوا من بيت الأزبكية على باب الخرق إلى درب الجماميز إلى جهة الناصرية، فلما وصلوا إلى تل العقارب حيث القلعة التي بنوها هناك ضربوا عدة مدافع، وكانوا أحضروا سليمان الحلبي والثلاثة المذكورين فأمضوا فيهم ما قدر عليهم، ثم ساروا بالجنازة إلى أن وصلوا باب قصر العيني، فرفعوا ذلك الصندوق ووضعوه على علوة من التراب بوسط تخشيبة صنعوها وأعدوها لذلك، وعملوا حولها درابزين وفوقه كسا أبيض، وزرعوا حوله أعواد سرو ووقف عند بابها شخصان من العسكر ببنادقهما ملازمان ليلًا ونهارًا، يتناوبان الملازمة على الدوام وانقضى أمره، واستقر عوضه في السر عسكرية قايمقام عبد الله جاك منو، وهو الذي كان متولي على رشيد من قدومهم، وقد كان ظهر أنه أسلم وتسمى بعبد الله وتزوج بامرأة مسلمة، وقلدوا عوضه في قايمقامية بليار.

فلما أصبح ثاني يوم حضر قايمقام والأغا إلى الأزهر، ودخلا إليه وشقا في جهاته وأروقته وزواياه بحضرة المشايخ.

وفي يوم الخميس حضر ساري عسكر عبد الله جاك منو وقايمقام والأغا، وطافوا به أيضًا وأرادوا حفر أماكن للتفتيش على السلاح ونحو ذلك، ثم ذهبوا فشرعت المجاورون به في نقل أمتعتهم منه ونقل كتبهم وإخلا الأروقة، ونقلوا الكتب الموقوفة بها إلى أماكن

خارجة عن الجامع، وكتبوا أسما المجاورين في ورقة وأمروهم أن لا يبيت عندهم غريب ولا يؤووا إليهم آفاقيًا مطلقًا، وأخرجوا منه المجاورين من طايفة الترك، ثم إن الشيخ الشرقاوي والمهدي والصاوي توجهوا في عصريتها عند كبير الفرنسيس منو، واستأذنوه في قفل الجامع وتسميره، فقال بعض القبطة الحاضرين للأشياخ: هذا لا يصح ولا يتفق، فحنق عليه الشيخ الشرقاوي وقال: اكفونا شر دسايسكم يا قبطة، وقصد المشايخ من ذلك منع الريبة بالكلية، فإن للأزهر سعة لا يمكن الإحاطة بمن يدخله فربما دس العدو من يبيت به، واحتج بذلك على إنجاز غرضه ونيل مراده من المسلمين والفقها، ولا يمكن الاحتراس من ذلك، فأذن كبير الفرنسيس بذلك لما فيه من موافقة غرضه باطنًا، فلما أصبحوا أقفلوه وسمروا أبوابه من ساير الجهات.

وفي غايته جمعوا الوجاقلية، وأمروهم بإحضار ما عندهم من الأسلحة فأحضروا ما أحضروه فشددوا عليهم في ذلك.

فقالوا: لم يكن عندنا غير الذي أحضرناه.

فقالوا: وأين الذي كنا نرى لمعانه عند متاريسكم؟

فقالوا: تلك أسلحة العساكر العثمانية والأجناد المصرية وقد سافروا بها.

واستهل صفر بيوم الثلاثاء سنة ١٢١٥

في أوايله سافر بعض الأعيان من المشايخ وغيرهم إلى بلاد الأرياف بعيالهم وحريمهم، وبعضهم بعث حريمه وأقام هو فسافر الشيخ محمد الحريري، وصحب معه حريم الشيخ السحيمي وصهره الشيخ المهدي، فلما رآهم الناس عزم الكثير منهم على الرحلة، وأكثروا المراكب والجمال وغير ذلك، فلما أشيع ذلك كتب الفرنسيس أوراقًا ونادوا في الأسواق بعدم انتقال الناس ورجوع المسافرين، ومن لم يرجع بعد خمسة عشر يومًا نهبت داره، فرجع أكثر الناس ممن سافر أو عزم على السفر إلا من أخذ له ورقة بالإذن من مشاهير الناس، أو احتج بعذر كأن يكون في خدمة لهم أو قبض خراج أو مال أو غلال من التزامه.

وفيه قرروا فردة أخرى وقدرها أربعة ملايين، وقدرُ المليون ماية وستة وثمانون ألف فرانسة، وكان الناس ما صدقوا قرب تمام الفردة الأولى، بعدما قاسوا من الشدايد ما لا يوصف، ومات أكثرهم في الحبوس وتحت العقوبة، وهرب الكثير منهم وخرجوا على وجوههم إلى البلاد، ثم دُهُوا بهذه الداهية أيضًا فقرروا على العقار والدور مايتي

ألف فرانسة، وعلى الملتزمين ماية وستين ألفًا، وعلى التجار مايتي ألف، وعلى أرباب الحرف المستورين ستين ألفًا، وأسقطوا في نظير المنهوبات ماية ألف، وقسموا البلدة ثمانية أخطاط، وجعلوا على كل خطة منها خمسة وعشرين ألف ريال، ووكلوا بقبض ذلك مشايخ الحارات والأمير الساكن بتلك الخطة، مثل المحتسب بجهة الحنفي وعمر شاه وسويقة السباعين ودرب الحجر، ومثل ذي الفقار كتخدا جهة المشهد الحسيني وخان الخليلي والغورية والصنادقية والأشرفية، وحسن كاشف جهة الصليبة والخليفة وما في ضمن كل من الجهات والعطف والبيوت، فشرعوا في توزيع ذلك على الدور الساكنة وغير الساكنة، وقسموها عال وأوسط ودون، وجعلوا العال ستين ريالًا، والوسط أربعين، والدون عشرين، ويدفع المستأجر قدر ما يدفع المالك، والدار التي يجدونها مغلقة وصاحبها غايب عنها يأخذون ما عليها من جيرانها.

وفي سادس عشرينه أفرجوا عن الشيخ السادات، ونزل إلى بيته بعد أن غَلَّق الذي تقرر عليه، واستولوا على حصصه وأقطاعه وقطعوا مرتباته، وكذلك جهات حريمه والحصص الموقوفة على زاوية أسلافه، وشرطوا عليه عدم الاجتماع بالناس، وأن لا يركب بدون إذن منهم، ويقتصد في أموره ومعاشه ويقلل أتباعه.

شهر ربيع الأول سنة ١٢١٥

فيه نادوا على الناس الخارجين من مصر من خوف الفردة وغيرها بأن من لم يحضر من بعد اثنين وثلاثين يومًا من وقت المناداة، نهبت داره وأحيط بموجوده، وكان من المذنبين، واشتد الأمر بالناس وضاقت منافسهم، وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة ولا شفيع تقبل شفاعته أو متكلم تسمع كلمته، واحتجب ساري عسكر عن الناس، وامتنع من مقابلة المسلمين وكذلك عظما الجنرالات، وانحرفت طباعهم عن المسلمين زيادة عن أول، واستوحشوا منهم ونزل بالرعية الذل والهوان، وتطاولت عليهم الفرنساوية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى البلد الأقباط والشوام والأروام بالإهانة حتى صاروا يأمرونهم بالقيام إليهم عند مرورهم، ثم شددوا في ذلك حتى كان إذا مر بعض عظمايهم بالشارع ولم يقم إليه بعض الناس على أقدامه رجعت إليه الأعوان وقبضوا عليه، وأصعدوه إلى الحبس بالقلعة، واستمر عدة أيام في الاعتقال ثم يطلق بشفاعة بعض الأعيان.

وفيه أنزلوا مصطفى باشا من الحبس، وأهدوا إليه هدايا وأمتعة وأرسلوه إلى دمياط فأقام بها أيامًا، وتوفي إلى رحمة الله تعالى.

شهر ربيع الثاني سنة ١٢١٥

فيه اشتد أمر المطالبة بالمال وعُيِّنَ لذلك رجل نصراني قبطي يسمى شكر الله، فنزل بالناس منه ما لا يوصف، فكان يدخل إلى دار أي شخص كان لطلب المال وصحبته العسكر من الفرنساوية والفعلة، وبأيديهم القزم فيأمرهم بهدم الدار إن لم يدفعوا له المقرر وقت تاريخه من غير تأخير إلى غير ذلك، وخصوصًا ما فعله ببولاق، فإنه كان يحبس الرجال مع النسا ويدخن عليهم بالقطن والمشاق وينوع عليهم العذاب، ثم رجع إلى مصر يفعل كذلك.

وفيه أغلقوا جميع الوكايل والخانات على حين غفلة في يوم واحد وختموا على جميعها، ثم كانوا يفتحونها وينهبون ما فيها من جميع البضايع والأقمشة والعطر والدخان خانًا بعد خان، فإذا فتحوا حاصلًا من الحواصل قوَّموا ما فيه بما أحبوا بأبخس الأثمان وحسبوا غرامته، فإن بقي لهم شي أخذوه من حاصل جاره، وإن زاد له شي أحالوه على جاره الآخر كذلك وهكذا، ونقلوا البضايع على الجمال والحمير والبغال وأصحابها تنظر وقلوبهم تتقطع حسرة على مالهم، وإذا فتحوا مخزنًا دخله أمناهم ووكلاهم فيأخذون ما يجدونه من الودايع الخفيفة أو الدراهم، وصاحب المحل لا يقدر على التكلم، بل ربما هرب أو كان غايبًا.

وفيه حرَّروا دفاتر العشور وأحصوا جميع الأشيا الجليلة والحقيرة، ورتبوها بدفاتر وجعلوها أقلامًا يتقلدها من يقوم بدفع مالها المحرر، وجعلوا جامع أزبك الذي بالأزبكية سوقًا لمزاد ذلك بكيفية يطول شرحها، وأقاموا على ذلك أيامًا كثيرة يجتمعون لذلك في كل يوم، ويشترك الاثنان فأكثر في القلم الواحد وفي الأقلام المتعددة.

وفيه كثر هدم الدور وخصوصًا في دور الأمرا ومن فر من الناس، وكذلك كثر الاهتمام بتعمير القلاع وتحصينها وإنشا قلاع في عدة جهات، وبنوا بها المخازن والمساكن وصهاريج الما وحواصل الجبخانات حتى ببلاد الصعيد القبلية.

(جماد الأول سنة ١٢١٥)

واستهل شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٥ والأمور من أنواع ذلك تتضاعف والظلومات تتكاثف، وشرعوا في هدم أخطاط الحسينية وخارج باب الفتوح وباب النصر من الحارات والدور والبيوت والمساكن والمساجد والحمامات والحوانيت والأضرحة، فكانوا إذا دهموا

دارًا وركبوها للهدم لا يمكنون أهلها من نقل متاعهم، ولا أخذ شي من أنقاض دارهم فينهبونها ويهدمونها وينقلون الأنقاض النافعة من الأخشاب والبلاط إلى حيث عمارتهم وأبنيتهم، وما بقي يبيعون منه ما أحبوا بأبخس الأثمان ولوقود النيران، وما بقي من كسارات الخشب يحزمه الفعلة حزمًا، ويبيعونه على الناس بأغلى الأثمان لعدم حطب الوقود، ويباشر غالب هذه الأفاعيل النصارى البلدية، فهدم للناس من الأملاك والعقار ما لا يقدر قدره وذلك مع مطالبتهم بما قرر على أملاكهم، ودورهم من الفردة فيجتمع على الشخص الواحد النهب والهدم والمطالبة في آن واحد، وبعد أن يدفع ما على داره أو عقاره، وما صدق أنه غلق ما عليه إلا وقد دهموه بالهدم فيستغيث فلا يغاث، فترى الناس سكارى حيارى ثم بعد ذلك كله يطالب بالمنكسر من الفردة.

وذلك أنهم لما قسموا الأخطاط كما تقدم وتولى ذلك أمير الخطة وشيخ الحارة والكتبة والأعوان، ووزعوا ذلك برأيهم ومقتضى أغراضهم، فأول ما يجتمعون بديوانهم يشرع الكتبة في كتابة التنابيه، وهي أوراق صغار باسم الشخص والقدر المقرر عليه وعلى عقاره بحسب اجتهادهم ورأيهم وعلى هامشها كراء طريق المعينين، ويعطون لكل واحد من أولئك القواسة عدة من تلك الأوراق، فقبل أن يفتح الإنسان عينيه ما يشعر إلا والمعين واقف على بابه، وبيده ذلك التنبيه فيوعدونه حتى ينظر في حاله فلا يجد بدًّا من دفع حق الطريق، فما هو إلا أن يفارقه حتى يأتيه المعين الثاني بتنبيه آخر فيفعل معه كالأول وهكذا على عدد الساعات، فإن لم يوجد المطلوب وقف ذلك القواس على داره ورفع صوته وشتم حريمه أو خادمه، فيسعى الشخص جهده حتى يغلق ما تقرر عليه بشفاعة ذي وجاهة أو نصراني، وما يظن أنه خلص إلا والطلب لاحقه أيضًا بمعين وتنبيه، فيقول: ما هذا؟ فيقال له: إن الفردة لم تكمل وبقي منها كذا وكذا، وجعلنا على العشرة خمسة أو ثلاثة أو ما سولت لهم أنفسهم، فيرى الشخص أن لا بد من ذلك، فما هو إلا أن خلص أيضًا إلا وكرة أخرى وهكذا أمرًا مستمرًّا، ومثل ذلك ما قرر على الملتزمين، فكانت هذه الكسورات من أعظم الدواهي المغلقة ونكسات الحمى المطبقة.

وفي خامسه كان عيد الصليب وهو انتقال الشمس لبرج الميزان والاعتدال الخريفي، وهو أول سنة الفرنسيس وهي السنة التاسعة من تاريخ قيامهم، ويسمى عندهم هذا الشهر ڤندمير وذلك يوم عيدهم السنوي، فنادوا بالزينة بالنهار والوقدة بالليل، وعملوا شنكات ومدافع وحراقات ووقدات بالأزبكية والقلاع، وخرجوا صبح ذلك اليوم بمواكبهم وعساكرهم وطبولهم وزمورهم إلى خارج باب النصر، وعملوا مصافهم فقُري عليهم كلام بلغتهم على عادتهم وكأنه مواعظ حربية، ثم رجعوا بعد الظهر.

وفي هذه السنة زاد النيل زيادة مفرطة لم يعهد مثلها فيما رأينا، حتى انقطعت الطرقات وغرقت البلدان وطف الماء من بركة الفيل، وسال إلى درب الشمسي وكذلك حارة الناصرية وسقطت عدة دور من المطلة على الخليج، ومكث زايدًا إلى آخر توت.

واستهل شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٥

فيه قرروا على مشايخ البلدان مقررات يقومون بدفعها في كل سنة أعلى وأوسط وأدنى، فالأعلى وهو ما كانت بلده ألف فدان فأكثر خمسماية ريال، والأوسط وهي ما كانت خمسماية فأزيد ثلثماية ريال، والأدنى ماية وخمسون ريالًا، وجعلوا الشيخ سليمان الفيومي وكيلًا في ذلك، فيكون عبارة عن شيخ المشايخ، وعليه حساب ذلك وهو من تحت يد الوكيل الفرنساوي الذي يقال له بريزون، فلما شاع ذلك ضجت مشايخ البلاد؛ لأن منهم من لا يملك عشاه فاتفقوا على أن وزعوا ذلك على الأطيان، وزادت في الخراج واستملوا البلاد والكفور من القبطة، فأملوها عليهم حتى الكفور التي خربت من مدة سنين، بل سموا أسما من غير مسميات.

وفيه شرعوا في ترتيب الديوان على نسق غير الأول من تسعة أنفار متعممين لا غير، وليس فيهم قبطي ولا وجاقلي ولا شامي ولا غير ذلك، وليس فيه خصوصي وعمومي على ما سبق شرحه، بل هو ديوان واحد مركب من تسعة رؤسا هم: الشيخ الشرقاوي ريس الديوان، والمهدي كاتب السر، والشيخ الأمير والشيخ الصاوي وكاتبه، والشيخ موسى السرسي، والشيخ خليل البكري، والسيد علي الرشيدي نسيب ساري عسكر، والشيخ الفيومي، والقاضي الشيخ إسماعيل الزرقاني، وكاتب سلسلة التاريخ السيد إسماعيل الخشاب، والشيخ علي كاتب عربي، وقاسم أفندي كاتب رومي، وترجمان كبير القس رفاييل، وترجمان صغير إلياس فخر الشامي، والوكيل الكمثاري فوريه، ويقال له مدبر سياسة الأحكام الشرعية ومقدم وخمسة قواسة، واختاروا لذلك بيت رشوان بك الذي بحارة عابدين، وكان يسكنه برطلمان فانتقل منه إلى بيت الجلفي بالخرنفش وعمر وبيض، وفرشت قاعة الحريم بمجلس الديوان فرشًا فاخرًا، وعينوا عشرة جلسات في كل شهر، وانتقل إليها فوريه وسكنها بأتباعه وأعدوا للمترجمين والكتبة من الفرنساوية مكانًا خاصًّا يجلسون به في غير وقت الديوان على الدوام لترجمة أوراق الوقايع وغيرها، وجعلوا لها خزاين للسجلات وفتحوا أيضًا بجانبها دارًا نفذوها إليها، وشرعوا في تعميرها وتأنيقها وسموها بمحكمة المتجر، وأخذوا يرتبون أنفارًا من تجار المسلمين والنصارى

يجلسون بها للنظر في القضايا المتعلقة بقوانين التجار، والكبير على ذلك كله فوريه، ولم يتم ذلك المكان الثاني.

وفي خامس عشره شرعوا في جلسة الديوان وصورته أنه إذا تكامل حضور المشايخ يخرج إليهم الوكيل فوريه وصحبته المترجمون، فيقومون له فيجلس معهم، ويقف الترجمان الكبير رفاييل ويجتمع أرباب الدعاوى، فيقفون خلف الحاجز عند آخر الديوان، وهو من خشب مقفص وله باب كذلك، وعنده الجاويش يمنع الداخلين خلاف أرباب الحوايج، ويدخلهم بالترتيب الأسبق فالأسبق، فيحكي صاحب الدعوى قضيته فيترجمها له الترجمان، فإن كانت من القضايا الشرعية، فإما أن يتمها قاضي الديوان بما يراه العلما أو يرسلوها إلى القاضي الكبير بالمحكمة إن احتاج الحال فيها إلى كتابة حجج أو كشف من السجل، وإن كانت من غير جنس القضايا الشرعية كأمور الالتزام أو نحو ذلك يقول الوكيل: ليس هذا من شغل الديوان، فإن ألح على أرباب الديوان في ذلك يقول: اكتبوا عرضًا لساري عسكر، فيكتب الكاتب العربي والسيد إسماعيل يكتب عنده في سجله كل ما قال المدعي، والمدعى عليه وما وقع في ذلك من المناقشة، وربما تكلم قاضي الديوان في بعض ما يتعلق بالأمور الشرعية، ومدة الجلسة من قبيل الظهر بنحو ثلاث ساعات إلى الأذان أو بعده بقليل بحسب الاقتضا، ورتبوا لكل شخص من مشايخ الديوان التسعة أربعة عشر ألف فضة في كل شهر عن كل يوم أربعماية نصف فضة، وللقاضي والمقيد والكاتب العربي والمترجمين وباقي الخدم مقادير متفاوتة تكفيهم وتغنيهم عن الارتشا، وفي أول جلسة من ذلك اليوم عملت المقارعة لريس الديوان وكاتب السر فطلعت للشرقاوي والمهدي على عادتهما، وكذلك الجاويشية والترجمان، وكتبت تذكرة من أهل الديوان خطابًا لساري عسكر يخبرونه فيها بما حصل من تنظيم الديوان وترتيبه، وسُرَّ الناس بذلك لظنهم أنه انفتح لهم باب الفرج بهذا الديوان، ولما كانت الجلسة الثانية ازدحم الديوان بكثرة الناس، وأتوا إليه من كل فج يشكون.

وفي ثالث عشرينه أمروا بجمع الشحاذين — أي السؤَّال — بمكان وينفق عليهم نُظَّار الأوقاف.

وفيه أيضًا أمروا بضبط إيراد الأوقاف، وجمعوا المباشرين لذلك وكذلك الرزق الأحباسية والأطيان المرصدة على مصالح المساجد والزوايا، وأرسلوا بذلك إلى حكام البلاد والأقاليم.

وفي غايته حضر رجل إلى الديوان مستغيث بأهله، وإن قلق الفرنسيس قبض على ولده وحبسه عند قايمقام وهو رجل زيات، وسبب ذلك أن امرأة جات إليه لتشتري

سمنًا، فقال لها: لم يكن عندي سمن، فكررت عليه حتى حنق منها، فقالت له: كأنك تدخره حتى تبيعه على العثملي تريد بذلك السخرية، فقال لها: نعم رغمًا عن أنفك وأنف الفرنسيس، فنقل عنه مقالته غلام كان معها حتى أنهوه إلى قايمقام فأحضره وحبسه، ويقول أبوه: أخاف أن يقتلوه، فقال الوكيل: لا لا يقتل بمجرد هذا القول وكن مطمينًّا، فإن الفرنساوية لا يظلمون كل هذا الظلم، فلما كان في اليوم الثاني قتل ذلك الرجل ومعه أربعة لا يُدرَى ذنبهم وذهبوا كيوم مضى.

واستهل شهر رجب الفرد سنة ١٢١٥

والطلب والنهب والهدم مستمر ومتزايد، وأبرزوا أوامر أيضًا بتقرير مليون على الصنايع والحرف يقومون بدفعه في كل سنة قدره ماية ألف وستة وثمانون ألف ريال فرانسة، ويكون الدفع على ثلاث مرات كل أربعة أشهر يدفع من المقرر الثلث وهو اثنان وستون ألف فرانسة، فدُهِي الناس وتحيرت أفكارهم واختلطت أذهانهم وزادت وساوسهم، وأشيع أن يعقوب القبطي تكفل بقبض ذلك من المسلمين، ويقلد في ذلك شكر الله وأضرابه من شياطين أقباط النصارى، واختلفت الروايات فقيل: إن قصده أن يجعلها على العقار والدور، وقيل: بل قصده توزيعها بحسب الفردة، وذلك عشرها لأن الفردة كانت عشرة ملايين، فالذي دفع عشرة يقوم بدفع واحد على الدوام والاستمرار، ثم قيدوا لذلك رجلًا فرنساويًّا يقال له دناويل وسموه مدبر الحرف، فجمع الحرف وفرض عليهم كل عشرة أربعة، فمن دفع عشرة في الفردة يدفع أربعة الآن، فعورض في ذلك بأن هذا غير المعقول، فقال هذا باعتبار من خرج من البلد ومن لم يدخل في هذه الفردة كالمشايخ والفارين، فإن الذي جعل عليهم أضيف على من بقي، فاجتمع التجار وتشاوروا فيما بينهم في شأن ذلك، فرأوا أن هذا شي لا طاقة للناس به من وجوه:

الأول: وقف الحال وكساد البضايع وانقطاع الأسفار وقلة ذات اليد، وذهاب البقية التي كانت في أيدي الناس في الفرد والدواهي المتتابعة.

الثاني: أن الموكلين بالفردة السابقة وزعوا على التجار والمتسببين وكل من كان له اسم في الدفتر من مدة سنين، ثم ذهب ما في يده وافتقر حاله وخلا حانوته وكيسه، فألزموه بشقص من ذلك وكلفوه به وكتب اسمه في دفتر الدافعين، ويلزمه ما يلزمهم وليس ذلك في الإمكان.

الثالث: أن الحرفة التي دفعت مثلًا ثلاثين ألفًا يلزمها ثلاثة آلاف في السنة على الرأي الأول، وعلى الثاني اثنا عشر ألفًا، وقد قل عددهم وغلقت أكثر حوانيتهم لفقرهم وهَجاجِهم، وخصوصًا إذا لزموا بذلك المليون فيفر الباقي ويبقى من لا يمكنه الفرار ولا قدرة للبعض بما يلزم الكل.

وفيه أمر الوكيل بتحرير قايمة تتضمن أسما الذين تقلدوا قضا البلاد من طرف القاضي والذين لم يتقلدوا، وأخبر أن السر في ذلك أن مناصب الأحكام الشرعية استقر النظر فيها له، وأنه لا بد من استيناف ولايات القضاة حتى قاضي مصر بالقرعة من ابتدا سنة الفرنساوية، ويكتب لمن تطلع له القرعة تقليد من ساري عسكر الكبير، فكتبت له القايمة كما أشار.

وفي رابعه قتل جماعة بالرميلة وغيرها ونودي عليهم هذا جزا من يتداخل في الفرنسيس والعثملي.

وفي سادسه عملت القرعة على شرطها، بل زاد تكرارها ثلاث مرات لقاضي مصر واستقرت للعريشي على ما هو عليه وخرج له التقليد بعد مدة طويلة.

وفي ثامنه قتل غلام وجارية بباب الشعرية، ونودي عليهما هذا جزا من خان وغش وسعى بالفساد، فيقال إنهما كانا يخدمان فرنساويًّا فدسا له سمًّا وقتلاه.

وفي تاسعه حضر جماعة من الوجاقلية إلى الديوان وهم: يوسف باشا جاويش، ومحمد أغا سليم كاتب الجاويشية، وعلي أغا يحيى باشجاويش الجراكسة، ومصطفى أغا أبطال، ومصطفى كتخدا الرزاز، وذكروا أنهم كانوا تعهدوا بباقي الفردة المطلوبة من الملتزمين وقدرها خمسة وعشرون ألف ريال، وقد استدانوا لذلك قدرًا من البن بخمسة وثلاثين ألف ريال فرانسة؛ ليوفوا ما عليهم من الديون، وأنهم أرسلوا إلى حصصهم يطالبون الفلاحين بما عليهم من الخراج، فامتنع الفلاحون عن الدفع وأخبروا أن الفرنساوية خرجوا عليهم، ومنعوهم من دفع المال للملتزمين، فكتب لهم عرض حال في شأن ذلك، وأرسل إلى ساري عسكر ولم يرجع جوابه.

وفي رابع عشره صنع الجنرال بليار المعروف بقايمقام عزومة لمشايخ الديوان والوجاقلية وأعيان التجار وأكابر نصارى القبط والشوام، ومد لهم أسمطة حافلة وتعشوا عنده ثم ذهبوا إلى بيوتهم.

وفي ثاني عشرينه طيف بامرأتين في شوارع مصر بين يدي الحاكم ينادي عليهما هذا جزا من يبيع الأحرار، وذلك أنهما باعتا امرأة لبعض نصارى الأروام بتسعة ريالات.

وفيه طلب الخواجة الفرنسيسي المعروف بموسى كافو من الوجاقلية بقية الفردة المتقدم ذكرها، فأجابوا بأن سبب عجزهم عن غلاقها توقُّفُ الفلاحين عن دفع المال بأمر الفرنساوية، وعدم تحصيلهم المال من بلادهم، ثم أحيلوا بعد كلام طويل على استيف الخازندار؛ لأن ذلك من وظايفه لا من وظايف الديوان.

وفي سابع عشرينه حضر الوجاقلية، ومعهم بعض الأعيان وحريمات ملتزمات يستغيثون بأرباب الديوان، ويقولون إنه بلغنا أن جمهور الفرنساوية يريدون وضع أيديهم على جميع الالتزام المفروج عنه الذي دفعوا حلوانه ومغارمه، ولا يرفع أيدي الملتزمين عن التصرف في الالتزام جملة كافية، وقد كان قبل ذلك أنهى الملتزمون الذين لم يفرجوا لهم عن حصصهم، إما لفرارهم وعودهم بالأمان، وإما لقصر أيديهم عن الحلوان، وإما لشراقي بلادهم، وإما لانتظارهم الفرج وعودة العثمانيين فيتكرر عليهم الحلوان والمغارم، فلما طال المطال وضاق حال الناس، أعرضوا أمرهم وطلبوا من مراحم الفرنساوية الإفراج عن بعض ما كان بأيديهم ليتعيشوا به، ووقع في ذلك بحث طويل ومناقشات يطول شرحها، ثم ما كفى حتى بلغهم أن القصد نزع المفروج عنه أيضًا ونزع أيدي المسلمين بالكلية، وأنهم يستشفعون بأهل الديوان عند ساري عسكر بأن يبقي عليهم التزامهم يتعيشون به، ويقضون ديونهم التي استدانوها في الحلوان ومغارم الفردة، فقال فوريه الوكيل: هل بلغكم ذلك من طريق صحيح؟ فقالوا: نعم، بلغنا من بعض الفرنساوية، وقال الشيخ خليل البكري: وأنا سمعته من الخازندار، وقال الشيخ المهدي مثل ذلك، وإنهم يريدون تعويضهم من أطيان الجمهور، فقال الملتزمون: إن بيدنا الفرمانات والتمسكات من سلفكم بونابارته ومن السلاطين السابقين ونوابهم وقايمون بدفع الخراج، وإنهم ورثوا ذلك عن آباهم وأسلافهم وأسيادهم، وإذا أخذ منهم الالتزام اضطروا إلى الخروج من البلد والهجاج وخراب دورهم، ويصبحون صعاليك ولا يأتمنهم الناس، وطال البحث في ذلك والوكيل مع هذا كله ينكر وقوع ذلك مرة، ويناقش أخرى إلى أن انتهى الكلام بقوله: إن الكلام في هذا وأمثاله ليس من وظيفتي، فإني حاكم سياسة الشريعة لا مدبر أمر البلاد، نعم من وظيفتي المعاونة والنصح فقط.

وفي خامس عشرينه اتفق أن جماعة من أولاد البلد خرجوا إلى النزهة جهة الشيخ قمر، ومعهم جماعة آلاتية ويغنون ويضحكون، فنزل إليهم جماعة من العسكر الفرنساوية المقيمين بالقلعة الظاهرية خارج الحسينية، وقبضوا عليهم وحبسوهم، وأرسلوا شخصًا منهم إلى شيخ البلد بليار وأخبروه بمكانهم ليستفسر عن شأنهم فلقيه،

ثم رده إلى القلعة الظاهرية ثانيًا فبات عند أصحابه، ثم طلبهم في ثاني يوم فذهبوا وصحبتهم جماعة من العسكر بالبندق تحرسهم، فقابلوه ومَنَّ عليهم بالإطلاق وذهبوا إلى منازلهم.

وفيه منعوا الأغا والوالي والمحتسب من عوايدهم على الحرف والمتسببين، فإنها اندرجت في أقلام العشور ورتبوا لهم جامكية من صندوق الجمهور يقبضونها في كل شهر.

واستهل شهر شعبان سنة ١٢١٥

فيه أجيب الملتزمون بإبقا التزامهم عليهم، وأنكروا ما قيل في رفع أيديهم، وعوتب مَن صدَّق هذه الأكذوبة، وإن كانت صدرت من الخازندار، فإنما كانت على سبيل الهزل، أو يكون التحريف من الترجمان أو الناقل.

وفيه حضر التجار إلى الديوان وذكروا أمر المليون، وأن قصدهم أن يجعلوه موزعًا على الروس ولا يمكن غير ذلك، وطال الكلام والبحث في شأن ذلك ثم انحط الأمر على تفويض ذلك لرأي عقلا المسلمين، وأنهم يجتمعون ويدبرون ويعملون رأيهم في ذلك بشرط أن لا يتداخل معهم في هذا الأمر نصراني أو قبطي، وهم الضامنون لتحصيلهم بشرط عدم الظلم، وأن لا يجعلوا على النسا ولا الصبيان ولا الفقها ولا الخدامين شيًّا وكذلك الفقرا، ويراعى في ذلك حال الناس وقدرتهم وصناعتهم ومكاسبهم، ثم قالوا: نرجو أن تضيفوا إلينا بولاق ومصر القديمة، فلم يجابوا إلى ذلك لكونهم جعلوهما مستقلَّيْنِ، وقرروا عليهما قدرًا آخر خلاف الذي قرروه على مصر.

وفيه لخَّصوا عرضًا ولطفوا فيه العبارة لساري عسكر، فأجيبوا إلى طلبهم ما عدا بولاق ومصر القديمة، وأخرجوا من أرباب الحرف الصيارفة والكيَّالين والقبَّانية، وجعلوا عليهم بمفردهم ستين ألف ريال خلاف ما يأتي عليهم من المليون أيضًا، يقومون بدفعها في كل سنة، والسر في تخصيص الثلاث حرف المذكورة دون غيرها أن صناعتهم من غير رأس مال.

وفيه أفردوا ديوانًا لذلك ببيت داود كاشف خلف جامع الغورية، وتقيد لذلك السيد أحمد الزرو وأحمد بن محمود محرم وإبراهيم أفندي كاتب البهار وطايفة من الكتبة، وشرعوا في تحرير دفاتر بأسما الناس وصناعاتهم، وجعلوها طبقات فيقولون: فلان من نمرة عشرة أو خمسة أو ثلاثة أو اثنين أو واحد ومشوا على هذا الاصطلاح.

وفيه أبطلوا عشور الحرير الذي يتوجه من دمياط إلى المحلة الكبرى.

وفيه أرسل ساري عسكر يسأل المشايخ عن الذين يدورون في الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصيحون ويصرخون ويدَّعون الولاية وتعتقدهم العامة ولا يصلون صلاة المسلمين ولا يصومون هذا جايز عندكم في دينكم أو هو محرم؟ فأجابوه بأن ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعنا وسنتنا، فشكرهم على ذلك وأمر الحكام بمنعهم والقبض على من يرونه كذلك، فإن كان مجنونًا ربط بالمارستان، أو غير مجنون فإما أن يرجع عن حالته أو يخرج من البلد.

وفيه أرسل ريس الأطبا الفرنساوي نسخًا من رسالة ألفها في علاج الجدري لأرباب الديوان، لكل واحد نسخة على سبيل المحبة والهدية ليتناقلها الناس ويستعملوا ما أشار إليه فيها من العلاجات لهذا الدا العضال فقبلوا منه ذلك، وأرسلوا له جوابًا شكرًا له على ذلك، وهي رسالة لا بأس بها في بابها.

وفي حادي عشره وجدت امرأة مقتولة بغيط عمر كاشف بالقرب من قناطر السباع، فتوجه بسبب الكشف عليها رسول القاضي والأغا وأخذوا الغيطانية وحبسوهم، وكان بصحبتهم أيضًا القبطان الحاكم بالخط ولم يظهر القاتل، ثم أطلقوا الغيطانية بعد أيام.

وفيه كمل المكان الذي أنشاه بالأزبكية عند المكان المعروف بباب الهوا وهو المسمى في لغتهم بالكُمدي وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشرة ليالٍ ليلة واحدة يتفرجون به على ملاعيب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلي والملاهي مقدار أربع ساعات من الليل وذلك بلغتهم، ولا يدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة.

وفي سادس عشره ذكروا في الديوان أن ساري عسكر أمر وكيل الديوان أنه ذكر لمشايخ الديوان أن قصده ضبط وإحصا من يموت ومن يولد من المسلمين، وأخبرهم أن ساري عسكر بونابارته كان في عزمه ذلك، وأن يقيد له من يتصدى لذلك ويرتبه ويدبره ويعمل له جامكية وافرة فلم يُتِمَّ مراميه، والآن يريد تتميم ذلك ويطلب منهم التدبير في ذلك وكيف يكون، وذكر لهم أن في ذلك حِكمًا وفوايد منها ضبط الأنساب ومعرفة الأعمار، فقال بعض الحاضرين: وفيه معرفة انقضا عدة الأزواج أيضًا، ثم اتفق الرأي على أن يُعلِموا بذلك قلقات الحارات والأخطاط، وهم يقيدون على مشايخ الحارات والأخطاط بالتفحص عن ذلك من خَدَمة الموتى والمغسلين والنسا القوابل وما في معنى ذلك، ثم ذكر الوكيل أن ساري عسكر ولد له مولود، فينبغي أن تكتبوا له تهنية بذلك

المولود، ولد له من المرأة المسلمة الرشيدية، وجوابًا عن هذا الرأي فكتبوا ذلك في ورقة كبيرة وأوصلها إليه الوكيل فوريه.

وفي خامس عشرينه، أرسل ساري عسكر إلى مشايخ الديوان كتابًا، وقراه الترجمان الكبير رفائيل وصورته ونصه بالحرف الواحد.

بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله محمد رسول الله، من عبد الله جاك منو ساري عسكر أمير عام جيوش دولة جمهور الفرنساوية بالشرق ومظاهر حكومتها ببر مصر حالًا إلى حضرة المشايخ والعلما أهالي الديوان المنيف بمصر القاهرة حالًا، أدام الله تعالى فضايلهم، وزيَّنهم بليمع النور لإكمال وظايفهم وإنجاز فرايضهم، آمين يا معين.

والآن نخبركم أن الذي حررتموه لنا ملأ أنفسنا سرورًا، وقلبنا حبورًا، فثبت عندنا وتحقق وفور ما عندكم من المحبة التي شهدتم بها وما فيكم من النعمة والنظام والعدل، فحقًّا إنكم لمستحقون لأن تكونوا في مثل هذا المحل الذي اخترتم عليه، فنحن نعلم أن القرآن العظيم الشأن ذلك المصحف الأكمل والكتاب المفضل، يشتمل على مبادي الحكمة السنية والحقوق اليقينة، وهذه المبادي المذكورة لا يصح بناها المتين على الحكم والحق اليقين إلا إذا عرضت على أحسن الآداب وتعليم العلوم بغير ارتياب، وبهذين تنتج أعظم الفوايد، وذلك بمساعي أناس متحدين معًا برياضيات الحظ والسعد، وبمثل ذلك عرفت أنه لمن المستحيل أن القرآن الشريف يفصح إلا على ما هو من باب النظام؛ لأنه من دون ذلك، فكل ما هو في هذا العالم الفاني ليس إلا معابر وخراب، ولا يُسهَى عنا أن كل ما هو من الموجودات الكاينات كقولك تلك المتحركة بطريقة ونظام من قبل من جعلها للمسير سبحانه مبدع الأنام كالنجوم السايرة في الأعالي، وبها يهتدي للسير الحالي، ثم على الخصوص تلك الفصول الأربع المتوالي انتقالها باستمرار جولانها، ثم اتصال الليل بالنهار والنهار بالليل على حد واحد من المقدار، ثم وجود المتباينات وتمييز النور من الظلمات، وأن ذاك وما أدراك فماذا عسى كان يحل بنا وبحال العالم بأسره أيضًا لو عدم هذا النظام ولو برهة، فالآن نرجو جناب حضرة المشايخ والعلما يفيدون كيف ترى كان يصير حال القطر المصري لو يمتنع عن جريانه كعادته نهره هذا المبارك المشتهر لا يسمح الله سبحانه بذلك، فبلا شك أن البلاد قاطبة لا يمكن

أن تسكن حين ذاك إلا ببحر سنة واحدة فقط، وذلك من عدم الما وريِّ الأرض، أراضي هذه المملكة التي أنتم قاطنون بها، وفي ذلك الحين كانت تصعد الرمال على الأطيان والمزارع والحيضان، والناس تهلك جوعًا وتعدم السكان فتنشحن الأرض من الأموات، فنعوذ بالله الحفيظ لساير المخلوقات.

وإذا كان الله — سبحانه وتعالى — قد أبدع كل الأشيا بمعرفته القادرة وحكمته الباهرة، وجعل هذا النظام العجيب ورتب هذه الدنيا وما فيها ترتيب معجز غريب فقد عرف أنها بدون ذلك تعدم سريعًا، وحالها يغدو مريعًا الآن إنما نكون من أشهر المذنبين إذا سرنا سيرة كالضالين، وعلى أوامره عصاة غير منخضعين، ومع ذلك فنسأله — جل شأنه — أن يقوينا على السلوك في ديننا ودنيانا وهذا القدر كفانا.

فيا أيها المشايخ المكرمون والعلما المحققون ومن هم بالعلم موصوفون، لا يخافكم أن أجمل ما في النظام في تدبير هذه الدنيا بأسرها حسن تام هو الاحتفال والميل إلى النظام الذي هو صادر ترتيبه عن حكمة الله — تعالى — بوجه تام، ثم إن البلاد وتلك النواحي التي يطلق عليها كونها في حال النجاح والحظ والفلاح لا تعتد هكذا إلا إذا كان سكانها يهتدون إلى قواعد الشريعة والفرايض الصادرة عن أصحاب الفطنة والإدراك، ويستعدون للسلوك بالعدل والإنصاف خلافًا لغيرها من البلاد التعسة الحال، تلك التي سكانها خاضعون على الدوام لما فيهم من العجرفة والاعتدا، ولا ينعطفون إلا إلى أهوا أنفسهم المنحرفة.

فجناب حضرة بونابارته الشهير النبيل الصنديد الشجاع الجليل، قد تقدم فأمر بأن يُحرَّر دفتر يكتب فيه أسما كامل الميتين، والآن حضرتكم قد طلبتم مني دفترًا آخر خلافه يتحرر فيه أسما المولودين أيضًا، ومن حيث ذلك فلا بد أن أعتني منذ الآن مع جزيل الاهتمام بهذين الأمرين، وهكذا أيضًا بتحرير دفتر الزواج إذ كان ذلك أشد المهمات والحوادث الواجبات، ثم يتبع ذلك بتحديد نظام غير قابل التغيير في ضبط الأملاك والتمييز الكامل عمن ولد ومات من السكان، وهذا يعرف من أهل كل بيت، فعلى هذا الحال يتيسر للحاكم الشرعي الحكم بالعدل والإنصاف، وينقطع الخلف والخصام بين الورثة، وتقرر الولادة ومعرفة السلالة التي هي الشي الأجل والأوفر استحقاقًا في الإرث، وهكذا —

إن شاء الله — لا بد من الفحص والتفتيش بالحرص والتدقيق وبذل المهمة للحصول لأقرب نوال إلى ما يلزم لإكمال ما قصدناه، ثم إن أراد الله لا بد أن أعتني بالمطالبة على وجه تام كل وقت يُقتضَى لنا أن ندبر أشيا تستفيد بها هذه المملكة التي قد تسلمنا سياستها، وبهذا نوقن ونتحقق كوننا امتثلنا لأوامر دولة جمهور الفرنساوية وحضرة قنصلها الأول بونابرته، فيا حضرة المشايخ الكرام إننا نشكر فضلكم على ما أظهرتم لنا تهنية بولادة ولدي السيد سليمان مراد جاك منو، فنطلب من الله — سبحانه وتعالى — واسألوه كذلك بجاه رسوله سيد المرسلين أن يجود به عليَّ زمانا مديدًا، وأن يكون للعدل محبًّا وللاستقامة والحق مكرمًا وموِّفي وعده صادقًا، وألا يكون من أهل الطمع فهذا هو أوفر الغنى الذي أرغبه لولدي؛ لأن الرجل الذي لا يهتدي إلا بالخير فلا يصرف اعتناه إلا في خير الأدب لا في قنية الفضة والذهب، فنسأله — تعالى — أن يطيل بقاكم، والسلام.

وفي غايته سقطت منارة جامع قوصون، سقط نصفها الأعلى فهدم جانبًا من بوايك الجامع ونصفها الأسفل مال على الأماكن المقابلة له بعطفة الدرب النافذ لدرب الأغوات، وبقي مسندًا كذلك قطعة واحدة إلى يومنا هذا، وأظن أن سقوطها من قبل الفرنسيس بالبارود.

واستهل شهر رمضان سنة ١٢١٥

ثبت هلاله ليلة الجمعة، وعملت الرؤية وركب المحتسب ومشايخ الحرف بالطبول والزمور على العادة، وأطلقوا له خمسين ألف درهم لذلك نظير عوايده التي كان يصرفها في لوازم الركبة.

وفي خامسه وقع السوال والفحص عن كسوة الكعبة التي كانت صنعت على يد مصطفى أغا كتخدا الباشا، وكملت بمباشرة حضرة صاحبنا العمدة الفاضل الأديب الأريب الناظم الناثر السيد إسماعيل الشهير بالخشاب، ووضعت في مكانها المعتاد بالمسجد الحسيني، وأهمل أمرها إلى حد تاريخه، وربما تلف بعضها من رطوبة المكان وخرير السقف من المطر، فقال الوكيل: إن ساري عسكر قصده التوجه بصحبتكم يوم الخميس قبل الظهر بنصف ساعة إلى المسجد الحسيني، ويكشف عنها فإن وجد بها

خللًا أصلحه ثم يعيدها كما كانت، وبعد ذلك يشرع في إرسالها إلى مكانها بمكة، وتُكسى بها الكعبة على اسم المشيخة الفرنساوية، فقالوا له: شأنكم وما تريدون، وقُري بالمجلس فرمان بمضمون ذلك.

وفي ذلك اليوم قري فرمان مضمونه أنه وردت مكاتبات من فرنسا بوقوع الصلح بينهم وبين أهل الجزاير وتونس بشروط ممضاة مرضية، وقد أطلقوا الإذن للتجار من أهل الجهتين بالسفر للتجارة، فمن سافر له الحماية والصيانة في ذهابه وإيابه وإقامته باسم دولة الجمهور الفرنساوية إلى آخره ولم يظهر لذلك أثر.

وفيه قري تقليد الشيخ أحمد العريشي بقضا مصر، ووصل أيضًا تقليد القضا بدمياط لأحمد أفندي عبد القادر وإيبار للعلامة الشيخ رضوان نجا، ومحلة مرحوم للشيخ عبد الرحمن طاهر الرشيدي، وذلك على موجب القرعة السابقة من مدة شهرين أو أكثر، وقري ذلك بالديوان ولم يحصل بعد ذلك غيرهم، فلما كان صبح ذلك اليوم أرسل شيخ البلد «بليار» إلى العريشي ومشايخ الديوان والوجاقلية، فلما تكاملوا خلع على القاضي العريشي فروة سمور بولايته القضا، وركب بصحبته الجميع وجملة من العساكر الفرنساوية وشيخ البلد بجانبه، ومشوا من وسط المدينة إلى أن وصلوا المحكمة بين القصرين، فجلسوا ساعة من النهار وقري تقليده بحضرة الجميع ووكيل الديوان «فوريه» ثم رجعوا إلى منازلهم.

وفي يوم الخميس الموعود بذكره توجه الوكيل ومشايخ الديوان إلى المشهد الحسيني لانتظار حضور ساري عسكر الفرنسيس بسبب الكشف على الكسوة، وازدحم الناس زيادة على عادتهم في الازدحام في رمضان، فلما حضر ونزل عن فرسه عند الباب، وأراد العبور للمسجد رأى ذلك الازدحام فهاب الدخول وخاف من العبور، وسأل ممن معه عن سبب هذا الازدحام، فقالوا له: هذه عادة الناس في نهار رمضان يزدحمون دايمًا على هذه الصورة في المسجد، ولو حصل منكم تنبيه كنا أخرجناهم قبل حضوركم، فركب فرسه ثانيًا وكر راجعًا، وقال: نأتي في يوم آخر وانصرف حيث جا وانصرفوا.

وفي ليلة السبت تاسعه حصلت كاينة سيدي محمود وأخيه سيدي محمد المعروف بأبي دفية، وذلك أن سيدي محمود المذكور كان بينه وبين علي باشا الطرابلسي صداقة ومحبة أيام إقامته بالجيزة، وحج صحبته في سنة تسع ومايتين وألف، فلما وقعت حادثة الفرنساوية وخرج علي باشا المذكور مع من خرج إلى الشام، ووردت العساكر العثمانية صحبة يوسف باشا الوزير في العام الماضي، وصحبته علي باشا المذكور، وله به مزيد

الوصلة والعناية والمرجع في المشورة لخبرته بالأقطار المصرية، ومعرفته أهالي البلاد، استشاره في شخص يعرفه يكون عينًا بمصر ليراسله ويطالعه بالأخبار، فأشار عليه بمحمود أفندي المذكور، فكانوا يراسلونه ويطالعهم بالأخبار سرًّا فلما قدموا إلى مصر في السنة الماضية وجرى ما جرى من نقض الصلح ورجوع الوزير، ولم يزل سيدي محمود تأتيه المراسلات بواسطة السيد أحمد المحروقي أيضًا؛ ولأن علي باشا ارتحل إلى الديار الرومية، فيطالعهم كذلك بالأخبار مع شدة الحذر خوفًا من سطوة الفرنساوية، وتجسس عيونهم المقيدة لذلك، فكان يذهب إلى قليوب ويتلقى ورود القاصد ويرد له الجواب، فلما كان في التاريخ ورد عليه رسول ومعه جواب وأربعة أوراق مكتوبة باللغة الفرنساوية، وفيها الأمر بتوزيعها ووضعها في أماكن معينة حيث يسكن الفرنساوية، فوزع اثنتين وقصد وضع الثالثة في موضع جمعيتهم فلم يمكنه ذلك إلا ليلًا، فأعطاها خادمه وأمره أن يشكها بمسمار في حايط ذلك المكان، وهو بالقرب من الحمام المعروف بحمام الكلاب ففعل، وتلكَّأ في الذهاب فاطلع عليه بعض الفرنسيس من أعلى الدار، فنزل إليه وأخذ الورقة وقبضوا على ذلك الخادم وصادف ذلك مرور حسن القلق وهو يتوقع نكتة تكون له بها الوجاهة عند الفرنساوية، فاغتنم هذه الفرصة وقبض على الخادم مع الفرنساوية، وسيده ينظر إليه من بعيد، وعلم أنه وقع في خطب لا ينجيه منه إلا الفرار، فرجع إلى داره وتناجى مع أخيه واستشاره فيما وقع فيه، وكيف يكون العمل، فأشار عليه بالاختفا، ويستمر أخوه بالمنزل مستهدفًا للقضا، وليكون وقاية على منزله وعرضه وليس هو مقصودًا بالذات فكان كذلك، وتغيب سيدي محمود وأصبح الطلب قاصده، فلما لم يجدوه قبضوا على أخيه سيدي محمد أفندي ومن كان معه بالبيت، وهو الشيخ خليل المنير وقرابته إسماعيل حلبي ونسيبه البرتوسي والسقا وشيخ حارتهم وحبسوهم ببيت قايمقام، وهم سبعة أنفار بالخادم المقبوض عليه أولًا، وأوقفوا حرسًا بدارهم واجتهدوا في الفحص عن سيدي محمود، وتكرار السؤال عليه من أخيه ورفقايه أيامًا، فلما لم يقفوا له على خبر أحاطوا بالدار، ونهبوا ما فيها وصحبتهم الخادم يدلهم على المتاع والمخبآت.

ثم أصعدوهم إلى القلعة وضيقوا عليهم وأرسلوا خلف الشواربي شيخ قليوب ومن كان ينتقل عندهم، وألزموهم بإحضاره فأنكروه وجحدوه، ثم أطلقوا خادمه بعد أن أعطوه خمسين ريالًا فرانسة، وجعلوا له ألفًا إن دلهم عليه، وقيدوا به عينًا يتبعه أينما توجه، فاستمر أيامًا يغدو ويروح في مظناته فلم يقع له على خبر، فردوه إلى السجن

ثانيًا عند أصحابه، ولم يزالوا حتى فرج الله عنهم، وأما المطلوب فوقع له مزيد المشقة في مدة اختفاه وتبرا منه غالب أصحابه ومعارفه من العربان وغيرهم وتنكروا منه، ولم يزل حتى استقر عند شيخ العرب موسى أبي حلاوة وأولاده بناحية أميية بالقليوبية باطلاع الشواربي، فأكرموه وواسوه وأخفوا أمره ولم يزل مقيمًا عندهم في غاية الإكرام حتى فرَّج الله عنه.

ولما كان يوم الخميس رابع عشره تقيد للحضور بسبب الكشف على الكسوة «استوفو» خازندار الجمهور «وفوريه» وكيل الديوان، فحضرا صحبتهما المشايخ والقاضي والأغا والوالي والمحتسب بعدما أُخلِيَ المسجد من الناس، وأحضروا خدامين الكسوة الأقدمين، وحلوا رباطاتها وكشفوا عليها فوجدوا بها بعض خلل، فأمروا بإصلاحه ورسموا لذلك ثلاثة آلاف فضة، وكذلك رسموا للخدمة الذين يخدمونها ألف نصف فضة، ولخدمة الضريح ألف نصف، ثم ركبوا إلى منازلهم ثم طويت ووضعت في مكانها بعد إصلاحها.

وفي رابع عشرينه ضربت مدافع كثيرة بسبب ورود مركبين عظيمين من فرنسا فيهما عساكر وآلات حرب، وأخبار بأن بونابارته أغار على بلاد النمسة وحاربهم وحاصرهم وضايقهم، وأنهم نزلوا على حكمه وبقي الأمر بينهم وبينه على شروط الصلح، وأنه استغنى عن هذه الأشيا المرسلة، وسيأتي في إثرهم مركبان آخران فيهما أخبار تمام الصلح، ويستدل بذلك على أن مملكة مصر صارت في حكم الفرنسيس لا يشركهم غيرهم فيها، هكذا قالوا وقرأوه في ورقة بالديوان.

واستهل شهر شوال سنة ١٢١٥

وفيه بدا أمر الطاعون فانزعج الفرنساوية من ذلك، وجردوا مجالسهم من الفرش وكنسوها وغسلوها، وشرعوا في عمل كرنتيلات ومحافظات.

وفي ثامنه، قال وكيل الديوان للمشايخ: إن حضرة ساري عسكر بعث إليَّ كتابًا معناه إيضاح ما يتعلق بأمر الكرنتيلة، ويرى رأيكم في ذلك، وهل توافقون على رأي الفرنساوية أم تخالفون؟

فقالوا: حتى ننظر ما هو المقصود.

فقال: حضرة أرباب الديون يجب عليهم أن يعملوا الطريق الذي يكون سببًا لانقطاع هذه العلة، فإننا نبغي لهم ولغيرهم الخير، فإن أجابوا فذاك وإلا فليلزموا ولو

قهرًا، وربما استعملنا القصاص ولو بالموت عند المخالفة، ومن الذي يتغافل عما يكون سببًا لقطع هذا الدا، فإنَّ رأينا قد انعقد على ذلك ويجب أن يتفق معنا أرباب الديوان لأن حفظ الصحة واجب؛ ولذا نرى كثيرًا من الناس — ولا سيما المتشرعون — يستعمل الطبيب عند المرض وغايته حفظ الصحة وما نحن فيه من ذلك، ونذكر لكم أن بلاد المغرب قد اعتمدوا فعل الكرنتيلة الآن، فعُلِمَا القاهرة أولى بأن لا يتأخروا عن استعمال الوسايط إذ قد ربطت الأسباب بالمسببات.

فقيل له: وما الذي تأمرون به أن يُفعَل؟

فقال: هو الحذر لا غير وهو الغاية والنتيجة، وهو أنه إذا دخل الطاعون بيتًا لا يدخل فيه أحد، ولا يخرج منه أحد مع ما يترتب على ذلك من القوانين المختصة به وخدمة المريض وعلاجه، وسيوضح لكم ذلك فيما بعد يعني أن تذعنوا للطاعة وعدم المخالفة.

وطال البحث والمناقشة في ذلك بين أرباب الديوان والوكيل، وأنفض المجلس على أن الوكيل سيفاوض ساري عسكر في ذلك، ثم يدبرون أمرًا وطريقة يكون فيها الراحة للناس البلدية والفرنساوية، فإن ذلك فيه مشقة على أهل البلد لعدم ألفتهم لهذه الأمور.

وفي ثالث عشره ضربت عدة مدافع من القلاع لا يُدرَى سببها.

وفي رابع عشره قُرِيَ فرمان من ساري عسكر بالديوان، وألصقت منه نسخ في مفارق الطرق والأسواق، ونصه:

> بعد البسملة والجلالة من عبد الله جاك منو سر عسكر أمير عام جيوش دولة جمهور الفرنساوية بالشرق ومظاهر حكومتها ببر مصر حالًا إلى كامل الأهالي كبير وصغير غني وفقير المقيمين حالًا بمحروسة مصر وبمملكة مصر، الناس الذين هم من الأشقيا والمفسدين ولا يفتشون إلا على الإضرار بالناس وإضراركم يظهرون في وسط المدينة بينكم أخبارًا ردية تزويرًا لتخويفكم وتخويف المملكة، وكل ذلك كذب وافترا، فإنما نحن نخبركم جميعًا أن كلًّا من الأهالي المذكورة من أي طايفة وملة كان الذي يثبت عليه بالإشهاد أو النشر من نفسه بينكم تلك الأخبار الردية المكذوبة تخويفًا لكم وإضلالًا بالناس، ففي الحال ذلك الرجل يمسك وترمى رقبته بوسط واحدة طرق مصر، ويا أهالي مصر انتبهوا وتذكروا هذه الكلمات، وكونوا مستريحين البال ومترهفين الحال، إنما دولة الجمهور الفرنساوي حاضرة لحمايتكم وصيانتكم، ولكن ناظر

كذلك إلى تعذيب العصاة، والسلام على من اتبع الهدى والصدق والاستقامة، تحريرًا في شهر فانتور سنة تسع الموافق لحادي عشر شهر شوال. انتهى.

فعلم الناس من ذلك الفرمان ورود شي وحصول شي على حد كاد المرتاب أن يقول: خذني.

وليس للناس ذكر ولا فكر إلا في بواقي الفردة وما لزمهم في المليون، ولا شغل لكل فرد إلا بتحصيل ما فرض عليه، ولعل ذلك بسبب الأوراق الواصلة على يد سيدي محمود أبي دفية باللغة الفرنساوية التي تقدم ذكرها، واشتهر أيضًا أنه وردت عليهم أخبار بوصول مراكب إنكليز جهة أبي قير، وفي ذلك المجلس سُيِلَ الوكيل عن ضرب المدافع لأي شي، فقال: لا بد وأن أحيط علمكم ببعض ذلك في هذا المجلس، وهو أن الفرنساوية كانت تحارب القرانات، والآن وقع صلح بينهم وبين القرانات ما عدا الإنكليز فإنه الآن مضيق عليه، وربما كان ذلك سببًا لرضاه بالدخول في الصلح، وقد خرج من فرنسا عمارة ربما توجهت إلى الهند، وربما أنهم يقدمون إلى مصر، وقد وصل لساري عسكر أمر من المشيخة بوصول مراكب الموسقو التي تحمل الذخاير إلى الفرنساوية، وأن يمكِّنهم من دخول إسكندرية، وقد خرج ستة غلايين من فرنسا إلى بحر الهند فربما قدموا بعد ذلك إلى جهة السويس، وبورود هذه الأخبار تعين خلوص مصر إلى جمهور الفرنساوية، وفي سالف الزمان كانت جميع القرانات التي بالجهة الشمالية ضدًّا للفرنساوية، وقد زالت الآن هذه الضدية ومتى انقضى أمر الحرب عمت الرحمة والرأفة والنظر بالملاطفة للرعية، والذي أوجب الاغتصاب والعسف إنما هو الحرب، ولو دامت المسألة لما وقع شي من هذا، فقال بعض أهل الديوان: سُنَّة الملوك العفو والصفح وما مضى لا يعاد، فارحموا واعفوا عما سلف، فقال الوكيل: قد وقع الامتحان ولم يبقَ إلا السلم والمسامحة.

وفيه قبضوا على القلق المعروف بعمر أغا وهو أغات المغاربة المرتبة عندهم عسكرًا وعلى شخصين آخرين، يدعى أحدهما علي جلبي والآخر مصطفى جلبي وسجنا بالقلعة، وسبب ذلك أنه حضر إلى مصطفى جلبي مكتوب من نسيبه بجهة الشام يطلب منه بعض حوايج فقُرِيَ ذلك المكتوب بحضرة عمر القلق ورفيقه الآخر، فوشَى بهم رجل قواس فقبضوا على الجميع، وكان مصطفى جلبي المذكور سكن ببيته محمد أفندي ثاني قلفة، فدخلوا يفتشون عليه في الدار فلم يجدوه، فألزموا به محمد أفندي المذكور وأزعجوه وأحاط به عدة من العسكر، ولم يمكنوه من القيام من مجلسه ولا من اجتماعه بأحد، وبعد أن وجدوا ذلك الإنسان لم يفرجوا عن محمد أفندي بل استمر معهم في

الترسيم، ووجدوا مكانًا بالدار به أسلحة وأمتعة فنهبوه وانتهبت الدار والحارة، وحصل عندهم غاية الكرب والمشقة حتى إن بعض جيران ذلك المحل كبر عنده الخوف، وغلب عليه الوهم فمات فجأة رحمه الله، ثم فرَّج الله عن محمد أفندي بعد ثلاثة أيام، وأطلق عمر القلق لظهور براته ولم يكن له جرم غير العلم والسكوت، وانتقل محمد أفندي من تلك الدار وما صدق بخلاصه منها، وبقي علي جلبي ومصطفى جلبي في الحبس.

وفي سابع عشره استُفيضت الأخبار بوصول مراكب إلى أبي قير كما تقدم.

وفي ثامن عشره خرج جملة من العسكر الفرنساوية، وسافروا إلى الجهة البحرية برًّا وبحرًا.

وفي عشرينه اجتمع أهل الديوان فيه على العادة فبدأ الوكيل يقول إنه كان يظن أن يكون حرب، ولكن وردت أخبار أن المراكب التي حضرت إلى إسكندرية وهي نحوماية وعشرين مركبًا قد رجعت، فقيل له: وما هذه المراكب؟ فقال: مراكب فيها طايفة من الإنكليز وصحبتهم جماعة من الأروام ليس فيها مراكب كبار إلا قليل جدًّا وباقيها صغار تحمل الذخيرة، ثم قال: إن حضرة ساري عسكر قد كان وجه إليكم فرمانًا في شأن ذلك قبل أن يتبين الأمر، وهو وإن كان قد فات موضعه من حيث إنه كان يظن أن هناك حربًا، ولكن من حيث كونه قد برز إلى الوجود فينبغي أن يُتلَى على مسامعكم، ثم أمر رفاييل الترجمان بقرايته ونصه:

> من عبد الله جاك منو سر عسكر أمير عام جيوش دولة جمهور الفرنساوية بالشرق، ومظاهر حكومتها ببر مصر حالًا.
>
> إلى جميع سكان مصر، الكبير والصغير، الأغنيا والفقرا، المشايخ والعلما، وجميعهم الذين يتبعون الدين الحق والحاصل لجميع أهالي بر مصر سلمهم الله بمقام السر عسكر الكبير بمصر في أربعة عشر شهر «فانتوز» سنة تسع من قيام الجمهور الفرنساوية واحد ولا ينقسم، ثم كتب تحت ذلك البسملة ولفظ الجلالة، وتحته إن الله هو هادي الجنود، ويعطي النصرة لمن يشا، والسيف الصقيل في يد ملاكه يسابق دايمًا الفرنساوية ويضمحل أعداهم، إن الإنكليزية الذين يظلمون كل جنس للشر في كل المواضع فهم ظهروا في السواحل، وإن كان يتجرءوا يضعوا أرجلهم في البر فيرتدوا في الحال على أعقابهم في البحر والعثمانيين متحركين كَهَوُلا الإنكليزية يعملون أيضًا بعض حركات، فإن كان يقدموا ففي الحال يرتدوا وينقلعوا في غبار وعفار البادية،

فأنتم يا أهالي مملكة ومحروسة مصر إني أنا أخبركم إن كان تسلكوا في طريق الخاضعين لله، وتبقوا مستريحين في بيوتكم ومقيمين كما كنتم في أشغالكم وأغراضكم فحينئذ لا خوف عليكم، ولكن إن كان واحد منكم يسلك للفساد وإضلالًا لكم بالعداوة ضد دولة الجمهور الفرنساوي، فأقسمت بالله العظيم وبرسوله الكريم أن رأس ذلك المفسد ترمى في تلك الساعة فتذكروا في كل المواقع حين محاصرة مصر الأخيرة، وجرى دما آبايكم ونسايكم وأولادكم في كل مملكة مصر وخصوصًا محروسة مصر وخواصكم، انتهبوا تحت الغارات وطرحوا عليكم فردة قوية غير المعتاد، فأدخلوا في عقولكم وأذهانكم كل ما قلت لكم الآن، والسلام على كل من هو في طريق الخير، فالويل ثم الويل على كل من يبعد من طريق الخير، ممضي خالص الفؤاد عبد الله جاك منو.

وفي ذلك اليوم عملوا شنكًا وضربوا عدة مدافع من القلاع، فارتاع الناس لذلك واضطربوا اضطرابًا شديدًا، فسيل من الفرنسيس فأخبروا أن ذلك سرور بقدوم مركبين من فرنسا إلى إسكندرية.

وفي ذلك اليوم أيضًا وقع بمجلس الديوان بين الوكيل والمشايخ مفاوضة ومناقشة، وذلك أنه لما أشيع خبر ورود المراكب إلى أبي قير شحت الغلال وارتفعت من الرقع على العادة وزادت أثمانها، فتفاوضوا في شأن ذلك وأنه لا بد من الاعتنا من الحكام وزجر الباعة وطواف المحتسب وشيخ البلد على الرقع والسواحل، ولما قُري الفرمان المذكور قال بعض الحاضرين: العقلا لا يسعون في الفساد وإذا تحركت فتنة لزموا بيوتهم، فقال الوكيل: ينبغي للعقلا ولأمثالكم نصيحة المفسدين فإن البلا يعم المفسد وغيره، فقال بعضهم: هذا ليس بجيد، بل العقاب لا يكون إلا على المذنب، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، وقال آخر من أهل المجلس: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فقال الوكيل: المفسدون فيما تقدم أهاجوا الفتنة فعمَّت العقوبة، والمدافع والبنبات لا عقل لها حتى تميز بين المفسد والمصلح فإنها لا تقرأ القرآن، وقال آخر: المخلص نيته تخلصه، فقال الوكيل: إن المصلح من يشمل صلاحه الرعية، فإن صلاحه في حد ذاته يخصه فقط، والثاني أكثر نفعًا، وطال البحث والمناقشة المذكورة، وصورته:

بعد البسملة والجلالة من عبد الله جاك منو سر عسكر أمير عام جيوش دولة جمهور الفرنساوية بالشرق ومظاهر حكومتها ببر مصر حالًا إلى كافة

المشايخ والعلما الكرام المقيمين بمحفل الديوان المنيف بمحروسة مصر أدام الله تعالى فضايلهم وألهمهم الحكمة الواجبة لإجرا فرايضهم، نرسل لحضراتكم يا مشايخ ويا علما الكرام نداءً جديدًا خطابًا إلى جميع أهالي مملكة مصر وخصوصًا أهل محروسة مصر ولا شبهة لي في تقييدكم لتنبيههم لكل ما هو محرر فيها، وغير ذلك تذكروا أن هذا التنبيه هو غرضكم إنما حضراتكم ههنا رجال دولة الجمهور الفرنساوي، فيبقى في عقولكم وأذهانكم كل ما وقع حين قصاص مصر الأخيرة، تفهموا بنا على ذلك كيف هو واجب إلى أمنيتكم وراحتكم ضبط الخلايق؛ لأنه إن كان يصير أصغر الحركات فلا بد أثقالها يقع على روسكم وغير ذلك ورد لنا في الحال من فرنسا أنه كملت المصالحة مع إمبراطورية النيمسة، وأن قيصر الروسيين أقام المحاربة ضد دولة العثمانية، والسلام.

وفيه أصبح ثاني يوم اجتمع المشايخ ببيت الشيخ عبد الله الشرقاوي، وحضر الأغا والوالي والمحتسب، وأحضروا مشايخ الحارات وكبرا الأخطاط ونصحوهم وأنذروهم وأمروهم بضبط من هو دونهم، وأن لا يغفلوا أمر عامتهم وحذروهم وخوَّفوهم العاقبة، وما يترتب على قيام المفسدين وجهل الجاهلين، وأنهم هم المأخوذون بذلك كما أن من فوقهم مأخوذ عنهم، فالعاقل يشتغل بما يعنيه على أنه لم يبقَ في الناس إلا رسوم هافتة.

وانفصلوا على ذلك، هذا وديوان المليون يعملون فيه بالجد والاجتهاد وبث المعينين من القواسة والفرنساوية في المطالبة بالثلث والكسرة الباقية من الفردة والتشديد في أمر الكرنتيلة، وإزعاج الناس من ذلك وخوفهم من حصول الطاعون، وأشاعوا فيما بينهم أن من أصابه هذا الدَّا في مكان كشفوا عليه، فإن كان مريضًا بذلك الدا أخذوا ذلك المصاب إلى الكرنتيلة عندهم وانقطع خبره عن أهله إلا إن كان له أجل باقٍ وشُفِيَ من ذلك ويعود إليهم صحيحًا، وإلا فلا يراه أهله بعد ذلك أصلًا ولا يُدرَى خبره؛ لأنه إذا مات أخذه الموكلون بالكرنتيلة ودفنوه بثيابه في حفرة وردموا عليه التراب، وأما داره فلا يدخلها أحد ولا يخرج منها مدة أربعة أيام ويحرقون ثيابه التي تختص به، ويقف على بابه حرس فإن مر أحد ولمس الباب أو الحد المحدود قبضوا عليه وأدخلوه الدار وكرتنوه.

وإن مات الشخص في بيته وظهر أنه مطعون جمعوا ثيابه وفرشه وأحرقوها وغسله الغاسل وحمله الحمالون لا غير وأخرجوه من غير مشهد، وأمامه ناس تمنع المارين من التقرب منه، فإن قرب منه أحد كرتنوه في الحال، وبعد دفنه يكرتنون على كل من باشره

بغسل أو حمل أو دفن فلا يخرجون إلا لخدمة أخرى مثلها بشرط لا مساس، فهال الناس هذا الفعل واستبشعوه وأخذوا في الهرب والخروج من مصر إلى الأرياف لذلك ولتوهم وقوع الفتنة بورود أخبار المراكب إلى أبي قير وتحذر الفرنساوية واستعدادهم وتأهبهم ونقل أمتعتهم إلى القلعة.

وفي تاسع عشره خرجت عساكر كثيرة بحمولهم وفرشهم، وذهبوا إلى جهة الشرق وأشيع حضور عرضي العثمانية، ووصولهم إلى العريش صحبة يوسف باشا الوزير.

وفيه أصعدوا الشيخ السادات إلى القلعة من غير إهانة.

وفي يوم الثلاثا رابع عشرينه قبضوا أيضًا على حسن أغا المحتسب، وأصعدوه إلى القلعة أيضًا بشخص يخدمه، فحبسوه بالبرج الكبير، فأما الشيخ السادات فسأل الموكل به عن ذنبه وجرمه الموجب لحبسه، فقال له: لم يكن إلا الحذر من إثارة تلك الفتن في البلد وإهاجة العامة لبغضك الفرنسيس لما سبق لك منهم من الإيذا، وأما المحتسب فإن الشيخ البكري والسيد أحمد الزرو ذهبا إلى قايمقام وإلى ساري عسكر، وتكلما في شأنه فأجابهما بأن هذا لم يكن من شغلكما وقيل للسيد أحمد: إنك رجل تاجر وذاك أمير وليس من جنسك حتى تشفع فيه، فقال: إننا محتاجون إليه لأجل مساعدته معنا في قبض المليون، ولا نعرف له ذنبًا يوجب حبسه؛ لأنه ناصح في خدمة الفرنسيس، فقالا على لسان الترجمان: الله يعلم ذنبه وساري عسكر وهو أيضًا يعلم ذلك من نفسه، ولما سجنوه لم يقلدوا مكانه غيره، فكان كتخداه يركب مع الأغا وأمامهم الميزان ونوبة الحسبة.

وفيه نادوا في الأسواق بالأمان وعدم الانزعاج من أمر الكرنتيلة، وأن من مات لا تحرق إلا ثيابه التي على بدنه لا غير، وكان أشيع في الناس ما تقدم وزادوا على ذلك حرق الدار التي يموت فيها أيضًا، وأن قصدهم أيضًا عمل كرنتيلة على البلد بتمامها، فحصل من هذا المشاع في الناس كرب عظيم ووهم جسيم، فنودي بذلك ليسكن روع الناس.

وفي يوم الخميس سادس عشرينه أرسل كبير الفرنسيس، وطلب رويسا الديوان والتجار فحضروا إلى منزله، فأعلمهم أنه مسافر إلى بحري وتارك بمصر قايمقام بليار وجملة من العسكر والكتبة والمهندسين، وأوصاهم بأن يكون نظرهم على البلد، وكان في العزم حبسهم رهينة، فاستشار في ذلك فاقتضى رأيهم تأخير ذلك، وركب من فوره مسافرًا ولم يرجع من هذه السفرة إلى مصر، وحضر الجماعة إلى الديوان واجتمعوا بالوكيل فوريه فأخبرهم أنه حضر إلى ناحية أبي قير طايفة من الإنكليز وصحبتهم

طايفة من المالطية وأخرى نابطلية، وطلعوا إلى قطعة أرض رخوة بين سلسولين من الما، وأن الفرنساوية محيطون بهم من كل جهة.

وفي سابع عشرينه رجعت العساكر التي كانت توجهت إلى جهة الشرق بحمولهم وأثقالهم وصحبتهم ساري عسكر الشرقية «رينه»، فسافروا من يومهم ولحقوا بكبيرهم برًّا وبحرًا، وأخبروا عنهم أنهم لم يزالوا سايرين حتى وصلوا إلى الصالحية، وأرسلوا هجانة إلى العريش، فلم يجدوا أحدًا فكروا راجعين وأشاعوا أن الجهة الشرقية لم يأتِ إليها أحد مطلقًا، وأصل الخبر أن ساري عسكر رينه كاشف القليوبية والشرقية أخبره بعض عربان المويلح بأنهم شاهدوا مراكب إنكليزية ترددت بالقلزم، فأرسل بخبر ذلك إلى ساري عسكر منو ويقول له في ضمن ذلك ويشير عليه بأن يتوجه صحبة جانب من العسكر، ويحصن نواحي الإسكندرية خوفًا من ورود الإنكليز تلك الناحية، وأن رينه يتكفل له بمن يرد إلى ناحية الشرق وأكد عليه في ذلك، فأجابه ساري عسكر بقوله: إن الإنكليز لا يأتون من هذه الناحية وإنهم يأتون من ساحل الشام، ويأمره بالارتحال والذهاب إلى الصالحية يرابط فيها، فتوانى في الحركة وأرسل إليه ثانيًا بمعنى الجواب الأول، ويحثه على تحصين ثغور الإسكندرية، وترددت بينهما المراسلات في ذلك ومضت أيام فيما بين ذلك، فورد الخبر للفرنساوية بورود مراكب الإنكليز وترددها تجاه الإسكندرية ثم رجوعها، فكتب ساري عسكر منو يقول لرينه: إنهم تَراءَوْا ليوهموا بأن قصدهم ورود الإسكندرية ثم غابوا، وإنهم رجعوا ليطلعوا بناحية الطينة، ويستحثه على الرحلة والذهاب إلى الصالحية فلم يسعه إلا الامتثال والارتحال.

وكتب إليه كتابًا يقول فيه إنهم لا يريدون إلا ثغر الإسكندرية وإنما لم يسعفهم الريح، فلا تغتر برجوعهم وإنه رحل امتثالًا للأمر ويشير عليه هو أيضًا بعدم تأخره عن الذهاب إلى الإسكندرية ويقبل إشارته، فلم يسمع وتأخر عن ذلك، ورحل رينه إلى جهة البركة ولم يستعجل الذهاب، ثم انتقل إلى الزوامل ثم إلى بلبيس، وفي كل يوم ووقت يرسل إليه ساري عسكر منو ويأمره بالذهاب إلى الصالحية، وهو يتلكأ في الرحيل، ثم أرسل له آخرًا يقول له: إنه وردت علينا أخبار بأن يوسف باشا الوزير متحرك إلى القدوم، ويحتم عليه في الرحيل إلى الصالحية، فعند ذلك جمع رينه سواري عسكره وعرض عليهم ذلك وسفَّه رأيه وأن هذا الخبر لا أصل له، وأنا أعلم أننا لا نصل إلى الصالحية حتى يأتي الخبر بخلاف ذلك، ويأتينا الأمر بالرجوع والذهاب إلى الإسكندرية فلا نستفيد إلا التعب والمشقة، وارتحل بمن معه من غير استعجال فوصلوا إلى القرين في

ثلاثة أيام، وإذا بمراسلة ساري عسكر منو إلى رينه يخبره بأن الإنكليز وصلوا إلى أبي قير، وطلعوا إلى البر وتحاربوا مع أمير الإسكندرية ومن معه من الفرنساوية وظهروا عليهم، ويستعجله في الرجوع والذهاب إلى الإسكندرية، فقال رينه: هذا ما كنت أخمنه وأظنه، وارتحل راجعًا وعدى على بر إنبابة بعساكره، وتقدم ساري عسكر منو وسبقه إلى الإسكندرية.

شهر القعدة سنة ١٢١٥

في ثالثه أمر وكيل الديوان أرباب الديوان بأن يكتبوا لساري عسكر مكتوبًا بالسلام ففعلوا ما أمروا به.

وفي سادسه توفي محمد أغا مستحفظان مطعونًا، مرض يوم السبت وتوفي ليلة الأحد فوضعوه في نعش وخرج به الحمالون لا غير، وأمامه الطرادون ولم يعملوا له مشهدًا ولا جماعة وكرتنوا داره وأغلقوها على من فيها ولم يقلدوا عوضه أحدًا، بل أذنوا لعبد العال أن يركب عوضًا عنه، وذلك بمعونة نصر الله النصراني ترجمان قايمقام، فاستقر عبد العال المذكور أغات مستحفظان ومحتسبًا، فكان ذلك من جملة النوادر والعبر، فإن عبد العال هذا كان من أسافل العامة، وكان أجيرًا لبعض نصارى الشوام بخان الحمزاوي يخدمه، ثم توسط بمصطفى أغا السابق بسبب معرفته للنصارى المترجمين، حتى تقدم بوساطته وقلدوه الأغاوية فجعله كتخداه ومشيره، فلما تولى محمد أغا تقيد معه كما كان مع مصطفى أغا، ولكن دون الحالة التي كان عليها مع ذلك لصلاحية محمد أغا عن ذلك المقتول، فلما توفي في هذا الوقت ترك لعبد العال أمر المنصب لاشتغال الفرنساوية بما هو الأهم من انفتاح الحروب والطاعون وغير ذلك.

وفي يوم الثلاثا تاسعه أشيع في الناس وصول العثمانيين إلى ناحية غزة، وأن جواليشهم وصلوا إلى العريش وقدمت الهجانة إلى الفرنساوية بالخبر، فلما كان عشا تلك الليلة طلبوا المشايخ إلى الديوان، فلما تكامل حضورهم حضر فوريه الوكيل وصحبته آخر من الفرنسيس من طرف قايمقام، فتكلم فوريه كلامًا كثيرًا ليزيل عنهم الوهم ويوانسهم بزخرف القول كقوله إنه يحب المسلمين ويميل بطبعه إليهم وخصوصًا العلما وأهل الفضايل ويفرح لفرحهم ويغتم لغمهم ولا يحب لهم إلا الخير، وسياسة الأحكام تقتضي بعض الأمور المخالفة للمزاج، وإن ساري عسكر قبل ذهابه رسم لهم رسومًا وأمرهم بإجرائها والمشي عليها في أوقاتها، وإنه عند سفره قصد أن يعوق المشايخ

وأعيان الناس ويتركهم في الترسيم رهينة عن المسلمين، فلما ظهر له وتحقق أن الذين وردوا إلى أبي قير ليسوا من المسلمين، وإنما هم إنكليزية ونابلطية، وأعدا للفرنساوية وللمسلمين أيضًا وليسوا من ملتهم حتى يخشى من ميلهم إليهم أو يتعصبوا من أجلهم، والآن بلغنا أن يوسف باشا الوزير وعساكر العثمانية تحركوا إلى هذا الطرف، فلزم الأمر لتعويق بعض الأعيان وذلك من قوانين الحروب عندنا بل وعندكم، ولا يكون عندكم تكدر ولا وهم بسبب ذلك، فليس إلا الإعزاز والإكرام أينما كنتم، والوكيل دايمًا نظره معهم ولا يغفل عن تعليل مزاجهم في كل وقت ويوم، ثم انتهى الكلام وانقضى المجلس على تعويق أربعة أشخاص من المشايخ، وهم: الشيخ الشرقاوي والشيخ المهدي والشيخ الصاوي والشيخ الفيومي، فأصعدوهم إلى القلعة في الساعة الرابعة من الليل مكرمين وأجلسوهم بجامع سارية، ونقلوا إلى مكانهم الشيخ السادات، فاستمر معهم بالمسجد وأمروا الأربعة الباقية من أعضاء الديوان، وهم: البكري والأمير السرسي وكاتبه أن يكون نظرهم على البلد، ويجتمعوا بشيوخ البلد ولا ينقطعوا عنه، وأن المشايخ المحجوزين لا خوف عليهم ولا ضرر، وهم معززون مكرمون، وأطلقوا لكل شيخ منهم خادمًا يطلع إليه وينزل ليقضي له أشغاله وما يحتاج إليه من منزله، والذي يريد من أحبابهم وأصحابهم زيارتهم يأخذ له ورقة بالإذن من قايمقام ويطلع بها فلا يمنع، وكذلك أصعدوا إبراهيم أفندي كاتب البهار وأحمد بن محمود محرم وحسين قرا إبراهيم ويوسف باشجاويش تفكجيان وعلي كتخدا يحيى أغات الجراكسة ومصطفى أغا أبطال وعلي كتخدا النجدلي ومحمد أفندي سليم ومصطفى أفندي جمليان ورضوان كاشف الشعراوي وغيرهم، وأمروا المشايخ الباقية والذين لم يحبسوا بتقييدهم ونظرهم إلى البلد والعامة، وأنهم يترددون على بليار قايمقام ويعلمونه بالأمور التي ينشا عنها الشرور والفتن، وأهمل الديوان المليون والمطالبة بثلثه وكذلك كسرة الفردة ونفَّس الله عن الناس، وكذلك تُسُوهِلَ في أمر الكرنتيلة وإجازة الأموات وعدم الكشف عليهم وتصديق الناس بما يخبرون به في مرض من يموت، وذلك لكثرة أشغالهم وحركاتهم وتحصنهم، ونقل متاعهم وصناديقهم وفرشهم وذخايرهم إلى القلعة الكبيرة على الجمال والحمير ليلًا ونهارًا والطاعون متعلق فيهم، ويموت منهم العدة الكثيرة في كل يوم.

وفي حادي عشره أفرجوا عن الشيخ سليمان الفيومي، وأنزلوه من القلعة ليكون مع من لم يحبس، وأمرهم الوكيل بالتقيد والحضور إلى الديوان على عادتهم ولا يهملونه، فكانوا يحضرون ويجلسون حصة يتحدثون مع بعضهم، ولا يرد عليهم إلا القليل من

الدعاوى، ثم ينصرفون إلى منازلهم، وكذلك أمروا الشيخ أحمد العريشي القاضي بأن يحضر ويجلس من غير سابقة له بذلك، وذلك حفظًا للناموس لا غير.

وفي ثالث عشره نقل الكمساري فوريه الوكيل متاعه إلى القلعة وصعد إليها فلم ينزل، وأرسل إلى الشيخ سليمان الفيومي تذكرة يأمره فيها بأن ينقل فراش المجلس ويودعه في مكان بداره ففعل ما أمره به ولم يتركوا به إلا الحصر، وأمر بحضور أرباب الديوان على عادتهم، فكانوا يفرشون سجاجيدهم ويجلسون عليها حصة الجلوس ثم ينصرفون.

وفي رابع عشره نقلوا حسن أغا المحتسب من البرج إلى جامع سارية صحبة المشايخ، وكذلك فوريه الوكيل جعل سكنه الجامع المذكور وأظهر أن قصده موانستهم وليس إلا لضيق مساكن القلعة وازدحام الفرنسيس، وكثرة ما نقلوه إليها من الأمتعة والذخاير والغلال والأحطاب مع ما هدموه من أماكنها حتى إنهم سدوا أبواب الميدان وجعلوه من جملة حقوقها، فكانوا ينزلون إليه ويصعدون منه من باب السبع حدرات.

وفي تاسع عشره ورد مكتوب من كبير الفرنسيس من ناحية إسكندرية مؤرَّخ بثالث عشر القعدة، وهو جواب عن المكتوب المرسل إليه السابق ذكره وصورته بعد الصدر المعتاد:

> من عبد الله جاك منو سر عسكر أمير عام جيوش الفرنساوية بالشرق والمظهر حكومتها ببر مصر حالًا إلى كامل المشايخ والعلما الكرام المقيمين بالديوان المنيف بمحروسة مصر أدام الله فضايلهم، ورد لنا مكتوبكم العزيز ورأينا بكامل السرور كل ما فصلتم لنا به، وثبت من مفهومنا صدق ودادكم لنا ولعساكر دولة جمهور الفرنساوية ودمتم حضراتكم وكافة أهالي مصر بالحمية والاستقامة الموعودة، ومعلوم على فضايلكم أن الله يهدي كل من يشاء وما النصر إلا منه، ووضعت عليه اعتمادي وما توفيقي إلا به وبرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام الدايم، وإن ابتغيت النصرة فما هو إلا لسهولة خيراتي إلى بر مصر وسكان ولايتها وخير أمور أهلها، والله تعالى يكون دايمًا معكم ويكرم وجوهكم بالسلامة.

وفيه سمع ونقل عن بعض الفرنسيس أنه وقع الحرب بين الفرنساوية والإنكليزية، وكانت الهزيمة على الفرنساوية، وقتل بينهم مقتلة كبيرة وانحازوا إلى داخل الإسكندرية،

ووقع بينهم الاختلاف واتهم منو ساري عسكر رينه وداماص، ورَابَهُ منهما ما رَابَه، وكانا سببًا لهزيمته فيما يظن ويعتقد، فقبض عليهما وعزلهما من إمارتهما، وذلك أن رينه وداماص لَمَّا ذهبا على الصورة المتقدمة، ونظر رينه وأرسل من كشف على متاريس الإنكليز فوجدها في غاية الوضع والإتقان، فاجتمعوا للمشورة على عادتهم، ودبروا بينهم أمر المحاربة، فرأى ساري عسكر منو رأيه فلم يعجب رينه ذلك الرأي، وقال: إن فعلنا ذلك وقعت الغلبة علينا وإنما الرأي عندي كذا وكذا، ووافقه على ذلك داماص وكثير من عقلاهم، فلم يرضَ بذلك منو، وقال: أنا ساري عسكر وقد رأيت رأيي، فلم يسعهم مخالفته، وفعلوا ما أمر به فوقعت عليهم الهزيمة، وقتل منهم في تلك الليلة خمسة عشر ألفًا وتنحى رينه وداماص ناحية ولم يدخلا في الحرب بعسكرهما، فاغتاظ منو ونسبهما للخيانة والمخامرة عليه وتسفيههم لرأيه، وأكد ذلك عنده أنهما لما حضرا إلى الإسكندرية أخذا معهما أثقالهما، وما كان لهما بمصر لعلمهما عاقبة الأمر وسوء رأي كبيرهما، فاشتد إنكاره عليهما وعزل عنهما العسكر، وحبسهما ثم أطلقهما ونزلا إلى المراكب مع عدة من أكابرهم وسافرا إلى بلادهما، وكان منو أرسل إلى بونابرته يخبر عن ورود الإنكليز ويستنجده، فأرسل إليه عسكرًا فصادفوا الجماعة المذكورين في الطريق فأخبروهم عن الواقع وردوهم من أثناء الطريق، وقد أشاروا لذلك في بعض مكاتباتهم، وأخبر أيضًا المخبرون أن الإنكليز أطلقوا حبوس المياه الملحة حتى أغرقت طرق الإسكندرية، وصار جميعها لجة ماء ولم يبقَ لها طريق مسلوك إلا من جهة العجمي إلى البرية وأن الإنكليز تترسوا قبالهم من جهة الباب الغربي.

وفيه ورد الخبر بأن حسين باشا القبطان ورد بعساكره جهة أبي قير، وطلع عسكره من المركب إلى البر وقويت القراين الدالة على صحة هذه الأخبار، وظهرت لوايح ذلك من الفرنسيس مع شدة تجلدهم وكتمان أمرهم وتنميق كلامهم.

وفيه سدوا باب البرقية المعروف بباب الغريب وبنوه، فضاق خناق الناس بسبب الخروج إلى القرافة بالأموات، فكان الذي مدفنه ببستان المجاورين يخرج بجنازته من باب النصر، ويمرون بها من خلف السور المسافة الطويلة حتى ينتهوا إلى مدفنهم، فحصل للناس مشقة شديدة وخصوصًا مع كثرة الأموات، فكلَّم يوم الأحد حادي عشرينه بعض المشايخ قايمقام في شأن ذلك، فأرسل إلى قبطان الخطة ففتح بابًا صغيرًا من حايط السور جهة كفر الطماعين على قدر النعش والحمالين والمشاة.

وفي ثاني عشرينه سافر جماعة من أعيان الفرنساوية إلى جهة بحري، وهم: استوف الخازندار العام ومدبر الحدود وفوريه وكيل الديوان وشنانيلو مدبر أملاك الجمهور

وبرنار وكيل دار الضرب وريج خازندار دار الضرب ولابرت ريس مدرسة المكتب وحافظ سجلاتهم وكتبهم، وأخذوا معهم طايفة من رويسا القبط وفيهم جرجس الجوهري، وأشيع في الناس بأن سفرهم لتقرير الصلح وليس كذلك.

وفي ثالث عشرينه توكل بحضور الديوان كمساري يقال له جيرار.

وحضر يوم الجمعة سادس عشرينه بصحبة كاتب سلسلة التاريخ محبنا الفاضل العمدة السيد إسماعيل المعروف بالخشاب، وحضرة قاسم أفندي أمين الديوان وكاتب الديوان، فلما استقر به الجلوس أخبر أنه ورد كتاب من كبيرهم جاك منو باللغة الفرنساوية مضمونه أنه مقيم بإسكندرية، وهو مورَّخ بعشرين القعدة، ومثل ذلك من الكلام الفارغ.

وفيه قدم ثلاثة أنفار من العرب صحبة جماعة من الفرنسيس، وذهبوا بهم إلى بيت قايمقام فاستفسر منهم فاختل كلامهم وتبين كذبهم، فأمر بحبسهم.

وفيه حضر جماعة من الفرنسيس من جهة الشرق، ومعهم دواب كثيرة وآلات حرب ومروا في شارع المدينة، ومنعوا الناس من شرب الدخان خوفًا على البارود من النار ولم يعلم سبب قدومهم، ثم تبين أنهم هم الذين كانوا محافظين بالصالحية، وبعد أيام حضر أيضًا الذين كانوا بالقرين، وكذلك الذين كانوا ببلبيس وناحية الشرق شيًّا بعد شي.

شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢١٥

فيه حصل الاجتماع بالديوان وأخبر الوكيل أن كبيرهم قد بعث أخبارًا بالأمس، منها أنه قد مات جماعة من كبرا الإنكليز وأن أكثر عساكرهم مريضون بمرض الزحير والرمد، وربما يحصل الصلح عن قريب ويرجعون إلى بلادهم، وأن العطش مضاررهم، وبعثوا عدة مراكب لتأتيهم بالماء فتعذر عليهم ذلك، ثم سأل عن أحوال البلد وسكون الرعية والغلال والأقوات، فأجيب بأن البلد مطمينة والرعية ساكنة والغلال موجودة، فقال: لا بد من اعتناكم بجميع هذه الأمور الموجبة للراحة.

وفيه أشيع أن الإنكليز ومن معهم من العثمانية ملكوا ثغر رشيد وأبراجها، وحاربوا من كان بها من الفرنسيس حتى أجلوهم عنها ودخلوها.

وفي ذلك اليوم قبضوا على نيف وستين من مغاربة الفحامين وطولون والغورية ونفوهم، وذلك من فعل عبد العال الأغا.

وفيه أمر بليار قايمقام بركوب أحد المشايخ صحبة عبد العال ويمرون بشوارع المدينة، فكان يركب معه مرة الشيخ محمد الأمير ومرة الشيخ سليمان الفيومي وذلك لتطمين الرعية.

وفي سادسه قُرِيَ مكتوب زعموا أنه حضر من ساري عسكر منو من جهة الإسكندرية، وصورته بعد البسملة والجلالة والصدر المعتاد.

إلى حضرات كافة المشايخ والعلما الكرام المستشيرين بمحفل الديوان المنيف بمحروسة مصر أدام الله تعالى فضايلهم، وما النصرة إلا من الله وبشفاعة رسوله الكريم عليه السلام الدايم، العساكر الفرنساوية والإنكليزية هما إلى هذا الآن حصيران قبلهما، فحصنا أطرافنا بمتاريس وخنادق لا تغلب ولا تهجن، وغير ذلك يلزم نخبر حضراتكم لتهدية تمشياتكم ولأجل انتظامها أن سلطان الروسية المحمية أعلن بواسطة مراسله إلى حضرة السلطان سليم أذعن الأمر إلى عسكره لأجل ما يتجانبوا ويتراووا ويخلوا من بر مصر جميعًا وإلا لا بد من السلطان الروسيا الجمعية الإقامة بالمحاربة بمعية ماية ألف عسكرية ضد العثمانية وضد قسطنطينية فبناءً على ذلك أرسل السلطان سليم أوامره بفرمانه خطابه إلى عساكره لتخلية بر مصر بالكامل من بالبر المذكور.

ولكن ذهب الإنكليزية كفًّا للارتشا بعض من مقدار العسكر العثمانية وبتقديم امتثالهم إلى أوامر سلطانهم فأعلنوا وأخبروا كل ذلك إلى أهالي مصر، فانتظموا كما كنتم دايمًا بالخير، واعتمدوا واعتنوا بحماية وصيانة دولة الجمهور الفرنساوية، والله تعالى يديم فضايلكم عن الإلهام بالخير والسلامات، حرر في الخامس والعشرين من شهر جرمينيال سنة تسعة الموافق لثلاثة ذي الحجة سنة ألف ومايتين وخمسة عشر، كتب بألفاظه وحروفه من خط مُنشِيه لوماكا الترجمان.

ثم قال الترجمان: إن الفرنساوي الذي حمل هذا الكتاب نقل لي عن سر عسكر أنه ناشر لكم ألوية الشكر على قيامكم بوظايفكم، فدوموا على ذلك فأجيب بالسمع والطاعة، ثم إن بعض الحاضرين من المشايخ أخبر بأن رجلًا من المنوفية يقال له موسى خالد كان الفرنساوية أحسنوا إليه وقدموه على أقرانه، فلما خرجوا من المنوفية أفسد في البلاد وقطع الطريق ولا يتمكن أحد من أهل هذه الجهة أن يخرج من بلده لتحصيل معاشه، وأنه قبض على الشيخ عابدين القاضي وصادره في نحو ثلاثة آلاف ريال، وكذلك صادر كثيرًا من أغنيا منوف وغيرها وأخذ أموالهم، فقال الوكيل: ستسكن الفتنة ويعاقب المفسدون، ثم أمر بكتابة مكاتيب ممضاة من مشايخ الديوان خطابًا

للتجار والمتسببين ولمشايخ البلاد يأمرونهم بإرسال الغلال والأقوات إلى مصر، فكتبوا للمحلة الكبرى ومنوف والمنصورة والفشن وبني سويف.

وفيه كتبوا جوابًا من مشايخ الديوان لكبير الفرنسيس جوابًا عن المكتوب المذكور آنفًا.

وفيه ذكر قايمقام بليار لبعض الرؤسا أنه إذا رجع ساري عسكر منصورًا، ودامت أهل البلد على طاعتهم وسكونهم رفع عنهم نصف المليون والظلم، ويمكنكم أن تكتبوا إلى البلاد بدفع الميري ورفعنا الطلب عن الناس، فقالوا: هذا غير ممكن لحصول البلاد في حيازة القادمين وقطع الطريق من وقوف العرب بها وعدم الانتظام، وإنما القصد الملاطفة والرفق، فإن وظيفتنا النصح والوساطة في الخير.

وفي يوم الخميس سادس الحجة حضر استوف الخازندار وجرجس الجوهري ومن معهما من القبطة وغيرهم ما عدا الفرنسيس الذين ذهبوا معه، فأرسلت أوراق بحضور مشايخ الديوان والتجار والأعيان من الغد، فلما كان في صبحها حصلت الجمعية، وحضر الخازندار والوكيل وعبد العال وعلي أغا الوالي وبعض التجار كالسيد أحمد الزرو والحاج عبد الله التاودي شيخ الغورية والحاج عمر المطيلي التاجر بخان الخليلي ومحمود حسن وكليمان الترجمان، فتكلم استوف وترجم عنه الترجمان بما يلي:

> إن ساري عسكر الكبير منو يقريكم السلام ويثني عليكم كثيرًا، وسينجلي هذا الحادث — إن شا الله تعالى — ويقدم فيه خير، ويرى أهل مصر ما يسرهم، وقد هلك من الإنكليز خلق كثير وباقيهم أكثرهم مرمودون الأعين وبمرض الزحير، وجات طايفة منهم إلى الفرنساوية وانضموا إليهم من جوعهم وعطشهم، ولتعلموا أن الفرنساوية لم يسلموا في رشيد قهرًا عنهم بل تركوها قصدًا، وكذلك أخلينا دمياط لأجل أن يطمعوا ويدخلوا إلى البلاد وتتفرق عساكرهم فنتمكن عند ذلك من استيصالهم، ونخبركم أنه قد وردت إلى إسكندرية مركب من فرنسا، وأخبرت أن الصلح قد تم مع كامل القرانات ما عدا الإنكليز فإنهم لم يدخلوا في الصلح وقصدهم عدم سكون الحرب والفتن ليستولوا على أموال الناس، واعلموا أن المشايخ المحبوسين بالقلعة وغيرهم لا بأس عليهم، وإنما القصد من تعويقهم وحبسهم رفعُ الفتن والخوف عليهم، وشريعة الفرنساوي اقتضت ذلك ولا يمكن مخالفتها كمخالفة القرآن العظيم عندكم، وقد بلغنا أن السلطان العثملي أرسل إلى عسكره بالكف عن الفرنساوية، والرجوع عن

قتالهم فخاف عليه بعض السفها منهم، وخرجوا عن طاعته وأقاموا الحرب بدون إذنه، فأجابه بعض الحاضرين بقوله: إن القصد حصول الراحة والصلح والفرنساوية عندنا أحسن حالًا من الإنكليز؛ لأننا قد عرفنا أخلاقهم ونعلم أن الإنكليز إنما يريدون بانضمامهم إلى العثملية تنفيذ أغراضهم فقط، فإنهم يولون العثملي ويغرونه حتى يوقعوه في المهالك ثم يتركونه كما فعلوا سابقًا، ثم قال الخازندار: إن الفرنساوية لا يحبون الكذب ولم يعهد عليهم، فلازم أن تصدقوا كل ما أخبركم به، فقال بعض الحاضرين: إنما يكذب الحشاشون، والفرنساوية لا يأكلون الحشيش، ثم قال الخازندار: إن وقع من أهل مصر فشل أو فساد عوقبوا أكثر من عام أول، واعلموا أن الفرنساوية لا يتركون الديار المصرية ولا يخرجون منها أبدًا؛ لأنها صارت بلادهم وداخلة في حكمهم، وعلى الفرض والتقدير إذا غلبوا على مصر فإنهم يخرجون منها إلى الصعيد ثم يرجعون إليها ثانيًا، ولا يخطر في بالكم قلة عساكرهم فإنهم على قلب رجل واحد، وإذا اجتمعوا كانوا كثيرًا، وطال الكلام في مثل هذه التمويهات والخرافات وأجوبة الحاضرين بحسب المقتضيات، ثم قال الخازندار: القصد منكم معاونة الفرنساوية ومساعدتهم وغلاق نصف المليون ونشفع بعد ذلك عند ساري عسكر في فوات النصف الثاني حكم ما عرفكم قايمقام بليار، فاجتهدوا في غلاقه من الأغنياء واتركوا الفقرا، فأجابوا في آخر الكلام بالسمع والطاعة، فقال: لكن ينبغي التعجيل فإن الأمر لازم لأجل نفقة العسكر، ثم قال لهم: ينبغي أن تكتبوا جوابًا لساري عسكر تعرفونه فيه عن راحة أهل البلد وسكون الحال وقيامكم بوظايفكم، وهو إن شا الله يحضر إليكم عن قريب، وانفض المجلس، وكتب الجواب المأمور به وأرسل.

وفيه ورد الخبر بوصول طاهر باشا الأرنؤدي بجملة من العساكر الأرنؤدية إلى أبي زعبل.

وفيه خرج عدة من عساكر الفرنساوية، وضربوا أربع قرى من الريف بعلة موالاة العرب وقطاع الطريق، فنهبوهم وحضروا إلى مصر بمتاعهم ومواشيهم.

وفيه أرسل بليار قايمقام يطلب من الوجاقلية بقية ما عليهم من المال المتأخر من فردة الملتزمين، وقدره اثنا عشر ألف ريال، وإن تأخروا عن الدفع أحاط العسكر ببيوتهم، ونقلهم إلى أضيق الحبوس بل واستعمالهم في شيل الأحجار، فاعتذروا بضيق

ذات يدهم وحبسهم، فتصدر إليهم السيد أحمد الزرو وتشفع عند قايمقام بأن يقوموا بدفع أربعة آلاف ريال ويؤجلوا بالباقي وينزلوا من القلعة لتحصيل ذلك، فأجابه وأنزل علي أغا يحيى أغات الجراكسة ويوسف باشجاويش إلى بيت عبد العال، وحبسهم بمكان بداره وحبس معهم مصطفى كتخدا الرزاز، فكان يتهددهم ويرسل إليهم أعوانه يقولون لهم: شهلوا ما عليكم وإلا ضربكم الأغا بالكرابيج، فسبحان الفعال لما يريد، فإن عبد العال هذا الذي يتهددهم ربما كان لا يقدر على الوصول إلى الوقوف بين يدي بعض أتباعهم فضلًا عنهم.

وفيه أحاط الفرنسيس بمنزل حسن أغا الوكيل المتوفَّى قبل تاريخه، وذلك بسبب أنه وُجِدَ ببيته غلام فرنساوي مختفٍ أسلم وحلق رأسه، وقبضوا على أحد خشداشينه وحبسوه لكونه علم ذلك ولم يخبر به.

وفيه حضرت رسل من طرف عرضي الوزير لقايمقام بليار، فاجتمعوا به وخلا بهم ووجههم من ليلتهم، فلما حصلت الجمعية بالديوان سيل الوكيل عن ذلك فقال: نعم، إنهم أرسلوا يطلبون الصلح.

وفي ثامن عشره أفرجوا عن إبراهيم أفندي كاتب البهار ليساعد في قبض نصف المليون.

وفي رابع عشرينه قبضوا على أبي القاسم المغربي شيخ رواق المغاربة، وحبسوه بالقلعة بسبب أنه كان يتكلم في بعض المجالس، ويقول: أنا شيخ المغاربة وأحكم عليهم ويتباهى بمثل هذا القول، فنقل عنه ذلك إلى عبد العال والفرنسيس وظنوا صحة قوله وأنه ربما أثار فتنة فقبضوا عليه وحبسوه، وكذلك حبسوا محمد أفندي يوسف ثاني قلفة وآخر يقال له عبيد السكري.

وفي خامس عشرينه أبرزوا مكتوبًا، وزعموا أنه حضر من ساري عسكرهم وقري بالديوان وصورته بعد الصدر خطابًا.

إلى كافة العلما والمشايخ الكرام بمحفل الديوان المنيف بمحروسة مصر حالًا أدام الله تعالى فضايلهم، ورد لنا مكتوبكم وانشرح قلبي من كل ما شهدتم لنا فيه بأنه يثبت عقلكم السليم وصدقكم وتقييد قلوبكم في طارق الدستور، فدوموا مهتدين بهذه المملكة، ولا بد لفضايلكم من دولة جمهورنا كامل الوفا من حسن رضا واطمينان عليكم منها ومن طرف عمدة أصحاب الجراءة والشجاعة حضرة القونصل أولها بونابارته وعلى الخصوص من طرفنا، وكان ضد أوامري أن الستويان رينيه الذي كنت وصفته قرب

فضايلكم ترك ذلك الموضع توجهًا إلى إسكندرية، وما تلك الفعلة إلا من نقص جسارته في ذي الوقعة، فبدلناه جنب فضايلكم بالستويان جيرار جُلَّ واجب الاستوصا لأجل عرضه وفضله، وخصوصًا لأجل غيرته وجسارته؛ فلذلك هو كسب اعتمادي فاعتمدوا إلى كل ما هو قايل بفضايلكم من جانبنا، وبمنِّه وعونه تعالى عن قريب نواجهكم بمصر بخير وسلامة، ودوموا حسب تدبيراتكم لتنظيم البلد ومماسكة الطاعة بين الأمة الحامدة والسياسة بين غيرهم، وكذلك نرجو من رب الأجناد بحرمة سيد العباد أن تشدوا قلوبكم توكلًا له؛ لأن عوننا اسمه العظيم.

حرر في ثلاثة عشر فلوريال سنة تسعة موافقًا لثمانية عشر ذي الحجة سنة ألف ومايتين وخمسة عشر، ممضي عبد الله جاك منو، انتهى بألفاظه وحروفه.

وفي سادس عشرينه أعادوا فرش الديوان بأمر الوكيل جيرار، وذلك على حد قول القايل:

وتجلُّدِي للشامتين أريهمُ   أني لريب الدهر لا أتضعضع

وفيه أفرجوا عن محمد كاشف سليم الشعراوي بشفاعة حسين كاشف وسافر إلى جهة الصعيد.

وفي ثامن عشرينه وردت الأخبار بوصول ركاب الوزير يوسف باشا إلى مدينة بلبيس، وذلك يوم الجمعة رابع عشرينه.

وفيه أخبر وكيل الديوان أن ساري عسكر أرسل كتابًا إلى الست نفيسة بالتعزية، ورتب لها في كل شهرماية ألف نصف وأربعين، وانقضت هذه السنة بحوادثها وما حصل فيها.

موجز لأحداث العام الماضي

فمنها توالى الهدم والخراب وتغيير المعالم وتنويع المظالم، وعم الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح والخروبي فهدموا تلك الأخطاط والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا وبركة جناق وما بها من الدور والقصور المزخرفة وجامع الجنبلاطية العظيم بباب النصر، وما كان به من القباب العظام المعقودة من الحجر المنحوت المربعة الأركان الشبيهة بالأهرام والمنارة العظيمة ذات الهلالين،

واتصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح وباب القوس إلى باب الحديد حتى بقي ذلك كله خرابًا متصلًا واحدًا، وبقي سور المدينة الأصلي ظاهرًا مكشوفًا فعمروه ورموا ما تشعث منه، وأوصلوا بعضه ببعض بالبنا ورفعوا بنيانه في العلو، وعملوا عند كل باب كرانك وبدنات عظامًا وأبوابًا داخلة وخارجة وأخشابًا مغروسة بالأرض مشبكة بكيفية مخصوصة، وركزوا عند كل باب عدة من العسكر مقيمين وملازمين ليلًا ونهارًا.

ثم سدوا باب الفتوح بالبنا وكذلك باب البرقية وباب المحروق، وأنشاوا عدة قلاع فوق تلال البرقية ورتبوا فيها العساكر وآلات الحرب والذخيرة وصهاريج الما، وذلك من حد باب النصر إلى باب الوزير وناحية الصوة طولًا، فمهدوا أعالي التلال وأصلحوا طرقها وجعلوا لها مزالق وانحدارات لسهولة الصعود والهبوط بقياسات وتحريرات هندسية على زوايا قايمة ومنفرجة، وبنوا تلك القلاع بمقادير بين أبعادها، وهدموا أبنية راس الصوة حيث الحطابة وباب الوزير تحت القلعة الكبيرة، وما بذلك من المدارس القديمة المشيدة والقباب المرتفعة.

وهدموا أعالي المدرسة النظامية ومنارتها، وكانت في غاية من الحسن وجعلوها قلعة، ونبشوا ما بها من القبور فوجدوا الموتى في توابيت من خشب، فظنوا داخلها دراهم فكسروا بعضها فوجدوا بها عظام الموتى فأنزلوا تلك التوابيت وألقوها إلى خارج، فاجتمع أهل تلك الجهة وحملوها وعملوا لها مشهدًا بجمع من الناس ودفنوها داخل التكية المجاورة لباب المدرج، وجعلوا تلك المدرسة قلعة أيضًا بعد أن هدموا منارتها أيضًا.

وكذلك هدموا مدرسة القانبية والجامع المعروف بالسبع سلاطين، وجامع الجركسي وجامع خوند ببركة الناصرية خارج باب البرقية، وكذلك أبنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها، وسدوا الباب وعملوا الجامع الناصري الملاصق له قلعة بعد أن هدموا منارته وقبابه.

وسدوا أبواب الميدان من ناحية الرميلة وناحية عرب اليسار، وأوصلوا سور باب القرافة بجامع الزمرد، وجعلوا ذلك الجامع قلعة، وكذلك عدة قلاع متصلة بالمجراة التي كانت تنقل الماء إلى القلعة الكبيرة وسدوا عيونها وبواكيها وجعلوها سورًا بذاتها، ولم يُبقُوا منها إلا قوصرة واحدة من ناحية الطيبي جهة مصر القديمة جعلوها بابًا ومسلكًا، وعليها الكرنك والغفر والعسكر الملازمين الإقامة بها، ولقبض المكس من الخارج والداخل، وسدوا الجهة المسلوكة من ناحية قنطرة السد بحاجز خشب مقفص وعليه باب

بقفل مقفص أيضًا وعليه حرسجية ملازمون القيام عليه، وذلك حيث سواقي المجراة التي كانت تنقل الما إلى القلعة، وحفروا خلف ذلك خندقًا.

وأما ما أنشاوه وعمروه من الأبراج والقلاع والحصون بناحية ثغر الإسكندرية ورشيد ودمياط وبلاد الصعيد فشيٌّ كثير جدًّا وذلك كله في زمن قليل.

ومنها تخريب دور الأزبكية وردم رصيفاتها بالأتربة، وتبديل أوضاعها وهدم خطة قنطرة الموسكي، وما جاورها من أول القنطرة المقابلة للحمام إلى البوابة المعروفة بالعتبة الزرقا، حيث جامع أزبك وما كان في ضمن ذلك من الدور والحوانيت والوكايل وكوم الشيخ سلامة، فيسلك المار من على القنطرة في رحبة متسعة تنتهي إلى رحبة الجامع الأزبكي، وهدموا بيت الصابونجي ووصلوه بجسر عريض ممتد ممهد حتى ينتهي إلى قنطرة الدكة، وفي متوسط ذلك الجسر ينعطف جسر آخر إلى جهة اليسار عند بيت الطويل المهدوم وبيت الألفي حيث سكن ساري عسكر، ممتد ذلك الجسر إلى قنطرة المغربي، ومنها يمتد إلى بولاق على خط مستقيم إلى ساحل البحر حيث موردة التبن والشون، وزرعوا بحافتيه السيسبان والأشجار وكذلك برصيفات الأزبكية.

وهدموا المسجد المجاور لقنطرة الدكة مع ما جاوره من الأبنية والغيطان، وعملوا هناك بوابة وكرنكًا وعسكرًا ملازمين الإقامة والوقوف ليلًا ونهارًا، وذلك عند مسكن بليار قايمقام وهي دار جرجس الجوهري وما جاوره، وكان في عزمهم إيصال ما انتهوا إلى هدمه بقنطرة الموسكي إلى سور باب البرقية، ويهدمون من حد حمام الموسكي حتى يتصل المهدوم بناحية الأشرفية، ثم إلى خان الخليلي إلى إسطبل الطارمة المعروف الآن بالشنواني إلى ناحية كفر الطماعين إلى البرقية، ويجعلون ذلك طريقًا واحدًا متسعًا وبحافتيه الحوانيت والخانات، وبها أعمدة وأشجار وتكاعيب وتعاريش وبساتين من أولها إلى آخرها من حد باب البرقية إلى بولاق، فلما انتهوا في الهدم إلى قنطرة الموسكي تركوا الهدم ونادوا بالمهلة ثلاثة أشهر، وشرعوا في أبنية حوايط بحافتي القنطرة ومعاطف ومزالق إلى حارة الإفرنج وحارة النباقة، وذلك بالحجر النحت المتقن الوضع، وكذلك عمروا قناطر الخليج المتهدمة داخل مصر وخارجها على ذلك الشكل مثل قنطرة السد والقنطرة التي بين أراضي الناصرية، وطريق مصر القديمة وقنطرة الليمون، وقنطرة قديدار وقنطرة الإوز وغير ذلك، ثم فاجأهم حادث الطاعون، ووصول القادمين فتركوا ذلك واشتغلوا بأمور التحصين وسيأتي تتمة ذلك.

ومنها توالي خراب بركة الفيل وخصوصًا بيوت الأمرا التي كانت بها، وأخذوا أخشابها لعمارة القلاع ووقود النيران والبيع، وكذلك ما كان بها من الرصاص والحديد

والرخام، وكانت هذه البركة من جملة محاسن مصر، وفيها يقول أبو سعيد الأندلسي وقد ذكر القاهرة:

وأعجبني في ظاهرها بركة الفيل؛ لأنها دايرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل، ويسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب، وفيها أقول:

انظر إلى بركة الفيل التي اكتنفت   بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هي والأبصار ترمقها   كواكب قد أداروها على القمر

ونظرت إليها، وقد قابلتها الشمس بالغدو فقلت:

انظر إلى بركة الفيل التي نحرت   لها الغزالة نحرًا من مطالعها
وخل طرفك محفوفًا ببهجتها   تهيم وجدًا وحبًّا في بدايعها

وتخرب أيضًا جامع الرويعي وجعلوه خمارة، وبعض جامع عثمان كتخدا القزدغلي الذي بالقرب من رصيف الخشاب، وجامع خير بك حديد الذي بدرب الحمام بقرب بركة الفيل، وجامع البنهاوي والطرطوشي والعدوي، وهدموا جامع عبد الرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح حتى لم يبقَ به إلا بعض الجدران، وجعلوا جامع أزبك سوقًا لبيع أقلام المكوس.

ومنها أنهم غيَّروا معالم المقياس وبدلوا أوضاعه، وهدموا قبته العالية والقصر البديع الشاهق والقاعة التي بها عمود المقياس، وبنوها على شكل آخر لا بأس به لكنه لم يتم، وهي على ذلك باقية إلى الآن ورفعوا قاعدة العامود العليا ذراعًا، وجعلوا تلك الزيادة من قطعة رخام مربعة، ورسموا عليها من جهاتها الأربع قراريط الذراع.

ومنها أنهم هدموا مساطب الحوانيت التي بالشارع، ورفعوا أحجارها مظهرين أن القصد بذلك توسيع الأزقة لمرور العربات الكبيرة التي ينقلون عليها المتاع واحتياجات البنا من الأحجار والجبس والجير وغيره، والمعنى الخفي الشافي خوفًا من المتاريس بها عند حدوث الفتن كما تقدم، وكانوا وصلوا في هدم المساطب إلى باب زويلة ومن الجهة الأخرى إلى عطفة مرجوش، فهدموا مساطب خط قناطر السباع والصليبة ودرب الجماميز وباب سعادة وباب الخرق إلى آخر باب الشعرية، ولو طال الحال لهدموا

مساطب العقادين والغورية والصاغة والنحاسين إلى آخر باب النصر وباب الفتوح، فحصل لأرباب الحوانيت غاية الضيق لذلك، وصاروا يجلسون في داخل فجوات الحوانيت مثل الفيران في الشقوق.

وبعض الزوايا والجوامع والرباع التي درجُها خارج عن سمت حايط البنا لما هدموا درجَه وبسطته بقي باب مدخله معلقًا، فكانوا يتوصلون إليه بدرج من الخشب مصنوع، يضعونه وقت الحاجة ويرفعونه بعدها وذلك عمل كثير.

ومنها تبرج النسا وخروج غالبهن عن الحشمة والحيا، وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساهم كانوا يمشون في الشوارع مع نساهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقًا عنيفًا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة.

فمالت إليهم نفوس أهل الأهوا من النسا الأسافل والفواحش، فتداخلن معهم لخضوعهم للنسا وبذل الأموال لهن، وكان ذلك التداخل أولًا مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في إخفايه، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر، وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النسا والبنات صرن مأسورات عندهم، فزيوهن بزي نساهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحيا بالكلية، وتداخل مع أوليك المأسورات غيرهن من النسا الفواجر.

ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات في حوز الفرنسيس ومن والاهم وشدة رغبتهم في النسا وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها الحذاء، فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار، واستملن نظراهن واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات وخصوصًا عقول القاصرات، وخطب الكثير منهم بنات الأعيان وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم، فيُظهِر حالة العقد الإسلام وينطق بالشهادتين؛ لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها، وصار مع حكام الأخطاط منهم النسا المسلمات متزييات بزيهم ومشوا معهم في الأخطاط للنظر في أمور الرعية والأحكام العادية والأمر والنهي والمناداة، وتمشي المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها، وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصيُّ يفرجون لهن الناس مثل ما يمر الحاكم، ويأمرن وينهين في الأحكام.

ومنها أنه لما أوفى النيل أذرعه ودخل الما إلى الخليج وجرت فيه السفن، وقع عند ذلك من تبرج النسا واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن في المراكب والرقص والغنا

والشرب في النهار والليل في ضو الفوانيس والشموع الموقدة، وعليهن الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة، وصحبتهم آلات الطرب، وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون، ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المقاديف بسخيف موضوعاتهم وكثايف مطبوعاتهم، وخصوصًا إذا دبت الحشيشة في روسهم وتحكمت في عقولهم، فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غناهم وتقليد كلامهم شي كثير.

وأما الجواري السود فإنهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفجواجًا فرادى وأزواجًا، فنططن الحيطان وتسلقن إليهم من الطبقات، ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك.

ومنها أن يعقوب القبطي لما تظاهر مع الفرنساوية وجعلوه ساري عسكر القبطة، جمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزي مشابه لعسكر الفرنساوية مميزين عنهم بقبع يلبسونها على روسهم مشابهة لشكل البرنيطة، وعليها قطعة فروة سودا من جلد الغنم في غاية البشاعة مع ما يضاف إليها من قبح صورهم وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم، وصيَّرهم عسكره وعزوته، وجمعهم من أقصى الصعيد، وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التي هو ساكن بها خلف الجامع الأحمر، وبنى له قلعة وسوَّرها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام، وكذلك بنى أبراجًا في ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية، وفي جميع السور المحيط والأبراج طيقانًا للمدافع، وبنادق الرصاص على هية سور مصر الذي رمَّه الفرنساوية، ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلًا ونهارًا، وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية.

ومنها قطعهم الأشجار والنخيل من جميع البساتين والجناين الكاينة بمصر وبولاق ومصر القديمة والروضة وجهة قصر العيني وخارج الحسينية وبساتين بركة الرطلي وأرض الطبالة وبساتين الخليج، بل وجميع القطر المصري كالشرقية والغربية والمنوفية ورشيد ودمياط، كل ذلك لاحتياجات عمل القلاع وتحصين الأسوار في جميع الجهات، وعمل العجل والعربات والمتاريس ووقود النار، وكذلك المراكب والسفن أخذوا أخشابها أيضًا مع شدة الاحتياج إليها، وعدم إنشا الناس سفنًا جديدة لفقرهم وعدم الخشب والزفت والقار والحديد وباقي اللوازم، حتى إنهم حال حلولهم الديار المصرية وسكنهم بالأزبكية كسروا جميع القنج والأغربة التي كانت موجودة تحت بيوت الأعيان بقصد التنزه، وكذلك ما كان ببركة الفيل، وبسبب ذلك شحت البضايع وغلت الأسعار وتعطلت الأسباب وضاقت المعايش، وتضاعفت أُجَر حمل التجارات في السفن لقلتها.

ومنها هدم القباب والمدافن الكاينة بالقرافة تحت القلعة خوفًا من تترس المحاربين بها، فكانوا يهدمون ذلك بالبارود على طريقة اللغم، فيسقط المكان بجميع أجزايه من قوة البارود وانحباسه في الأرض، فيسمع له صوت عظيم ودوي، فهدموا شيًّا كثيرًا على هذه الصورة، وكذلك أزالوا جانبًا كبيرًا من الجبل المقطم بالبارود من الجهة المحاذية للقلعة خوفًا من تمكن الخصم منها والرمي على القلعة.

ومنها زيادة النيل الزيادة المفرطة التي لم يُعهَد مثلها في هذه السنين حتى غرقت الأراضي وحوصرت البلاد، وتعطلت الطرق فصارت الأرض كلها لجة ماء، وغرق غالب البلاد التي على السواحل فتهدم من دورها شي كثير، وأما المدينة فإن الماء جرى من جهة الناصرية إلى الطريق المسلوكة وطفح من بركة الفيل إلى درب الشمسي وطريق قنطرة عمر شاه.

ومنها استمرار انقطاع الطرق وأسباب المتاجر وغلو البضايع المجلوبة من البلاد الرومية والشامية والهندية والحجازية والمغرب حتى غلت أسعار جميع الأصناف، وانتهى سعر كل شي إلى عشرة أمثاله وزيادة على ذلك، فبلغ الرطل الصابون إلى ثمانين نصفًا، واللوزة الواحدة بنصفين، وقس على ذلك، وأما الأشيا البلدية فإنها كثيرة موجودة وغالبها يباع رخيصًا مثل السمن والعسل النحل والأرز والغلال، وخصوصًا الأرز فإنه بيع في أيامهم بخمسماية نصف فضة الأردب، وكانت النصارى باعة العسل النحل يطوفون به في بلاليص محملة على الحمير ينادون عليه في الأزقة بأرخص الأثمان.

ومنها وقوع الطاعون بمصر والشام، وكان معظم عمله ببلاد الصعيد، أخبرني صاحبنا العلامة الشيخ حسن المعروف بالعطار المصري نزيل أسيوط مكاتبة، ونصها: ونعرفكم يا سيدي أنه قد وقع في قطر الصعيد طاعون لم يعهد ولم نسمع بمثله، وخصوصًا ما وقع منه بأسيوط، وقد انتشر هذا البلا في جميع البلاد شرقًا وغربًا، وشاهدنا منه العجايب في أطواره وأحواله، وذلك أنه أباد معظم أهل البلاد، وكان أكثره في الرجال سيما الشبان والعظما وكل ذي منقبة وفضيلة، وأغلقت الأسواق وعزت الأكفان، وصار المعظم من الناس بين ميت ومشيع ومريض وعايد، حتى إن الإنسان لا يدري بموت صاحبه أو قريبه إلا بعد أيام، ويتعطل الميت في بيته من أجل تجهيزه فلا يوجد النعش ولا المغسل ولا من يحمل الميت إلا بعد المشقة الشديدة، وأن أكبر كبير إذا مات لا يكاد يمشي معه ما زاد على عشرة أنفار تكترى، وماتت العلما والقراء والملتزمون والرويسا وأرباب الحرف، ولقد مكثت شهرًا بدون حلق رأسي لعدم الحلاق.

وكان مبدأ هذا الأمر من شعبان، وأخذ في الزيادة في شهري ذي القعدة والحجة حتى بلغ النهاية القصوى، فكان يموت كل يوم من أسيوط خاصة زيادة على الستماية، وصار الإنسان إذا خرج من بيته لا يرى إلا جنازة أو مريضًا أو مشتغلًا بتجهيز ميت، ولا يسمع إلا نايحة أو باكية، وتعطلت المساجد من الأذان والإمامة لموت أرباب الوظايف واشتغال من بقي منهم بالمشي أمام الجنايز والسبح والسهر، وتعطل الزرع من الحصاد ونشف على وجه الأرض وأبادته الرياح لعدم وجدان من يحصده، وعلى التخمين أنه مات الثلثان من الناس، هذا مع سعي العرب في البلاد بالفساد والتخويف بسبب خلو البلاد من الناس والحكام، إلى أن قال: ولو شيت أن أشرح لك يا سيدي ما حصل من أمر الطاعون لملأت الصحف مع عدم الإبقا، وتاريخه ثامن عشرين الحجة سنة تاريخه.

وأما من مات في هذه السنة من الأعيان

مات الإمام الألمعي والذكي اللوذعي، مَن عُجِنت طينته بماء المعارف، وتآخت طبيعته مع العوارف، العمدة العلامة والنحرير الفهامة فريد عصره ووحيد دهره الشيخ محمد بن أحمد بن حسن بن عبد الكريم الخالدي الشافعي الشهير بابن الجوهري، وهو أحد الإخوة الثلاثة وأصغرهم، ويعرف هو بالصغير، ولد سنة إحدى وخمسين وماية وألف، ونشأ في حجر والده في عفة وصون وعفاف، وقرا عليه وعلى أخيه الأكبر الشيخ أحمد بن أحمد، وعلى الشيخ خليل المغربي والشيخ محمد الفرماوي وغيرهم من فضلا الوقت، وأجازه الشيخ محمد الملوي بما في فهرسته، وحضر دروس الشيخ عطية الأجهوري في الأصول والفقه وغير ذلك، فلازمه وبه تخرج في الإلقا، وحضر الشيخ علي الصعيدي والبراوي، وتلقى عن الشيخ الوالد حسن الجبرتي كثيرًا من العلوم، ولازم التردد عليه والأخذ منه مع الجماعة ومنفردًا، وكان يحبه ويميل إليه ويقبل بكليته عليه، وحج مع والده في سنة ثمانٍ وستين، وجاور معه فاجتمع بالشيخ السيد عبد الله المرغني صاحب الطايف، واقتبس من أنواره واجتنى من ثماره، وكان آية في الفهم والذكا والغوص والاقتدار على حل المشكلات، وأقرا الكتب وألقى الدروس بالأشرفية، وأظهر التعفف والانجماع عن خلطة الناس والذهاب والترداد إلى بيوت الأعيان والتزهد عما بأيديهم، فأحبه الناس وصار له أتباع ومحبون، وساعده على ذلك الغنى والثروة وشهرة والده وإقبال الناس عليه ومدحتهم له وترغيبهم في زيارته، وتزوج ببنت الخواجا الكريمي وسكن بدارها المجاورة لبيت والده بالأزبكية، واتخذ له مكانًا خاصًّا بمنزل والده يجلس

فيه في أوقات، وكل من حضر عند أبيه في حال انقطاعه من الأكابر أو من غيرهم للزيارة، أو للتلقي يأمره بزيارة ابنه المترجم، والتلقي عنه وطلبهم الدعا منه، ويحكي لهم عنه مزايا وكرامات ومكاشفات ومجاهدات وزهديات فازداد اعتقاد الناس فيه، وعاشر العلما والفضلا من أهل عصره ومشايخه وقرناه، وتردد عليهم وترددوا عليه، ويبيتون عنده ويطعمهم ويكرمهم ويتنزه معهم في أيام النيل مع الحشمة والكمال ومجانبة الأمور المخلة بالمروة.

ولما مات أخوه الكبير الشيخ أحمد، وقد كان تصدر بعد والده في إقرا الدروس، أجمع الخاص والعام على تقدم المترجم في إقرا الدروس في الأزهر والمشهد الحسيني في رمضان، فامتنع من ذلك وواظب على حالة انجماعه وطريقته وإملايه الدروس بالأشرفية، وحج في سنة سبع وثمانين وماية وألف، وجاور سنة وعقد دروسًا بالحرم، وانتفع به الطلبة ثم عاد إلى وطنه وزاد في الانجماع والتحجب عن الناس في أكثر الأوقات، فعظمت رغبة الناس فيه ورد هداياهم مرة بعد أخرى، وأظهر الغنى عنهم فازداد ميل الناس إليه وجبلت قلوبهم على حبه واعتقاده، وتردد الأمرا وسعوا لزيارته أفواجًا وربما احتجب عن ملاقاتهم، وقلد بعضهم بعضًا في السعي، ولم يعهد عليه أنه دخل بيت أمير قط، أو أكل من طعام أحد قط إلا بعض أشياخه المتقدمين، وكانت شفاعته لا ترد عند الأمرا والأعيان، وكان من الشكيمة والصدع بالأمر والناصحة في وجوههم إذا أتوا إليه، وازدادت شهرته وطار صيته، ووفدت عليه الوفود من الحجاز والمغرب والهند والشام والروم وقصدوا زيارته والتبرك به.

وحج أيضًا في سنة تسع وتسعين لما حصلت الفتنة بين أمرا مصر، فسافر بأهله وعياله وقصد المجاورة فجاور سنة وأقرا هناك دروسًا واشترى كتبًا نفيسة ثم عاد إلى مصر، واستمر على حالته في انجماعه وتحجبه عن الناس بل بالغ في ذلك، ويقري ويملي الدروس بالأشرفية وأحيانًا بزاويتهم بدرب شمس الدولة وأحيانًا بمنزله بالأزبكية.

ولما توفي الشيخ أحمد الدمنهوري وتولى مشيخة الأزهر الشيخ عبد الرحمن العريشي الحنفي باتفاق الأمرا والمتصدرين من الفقها، وهاجت حفايظ الشافعية وذهبوا إليه وطلبوه للمشيخة، فأبى ذلك ووعدهم بالقيام لنصرتهم وتولية من يريدونه، فاجتمعوا ببيت الشيخ البكري واختاروا الشيخ أحمد العروسي لذلك وأرسلوا إلى الأمرا فلم يوافقوا على ذلك، فركب المترجم بصحبة الجمع إلى ضريح الإمام الشافعي، ولم يزل حتى نقض ما أبرمه العلما والأمرا ورد المشيخة إلى الشافعية، وتولى الشيخ أحمد العروسي وتم له الأمر كما تقدم ذلك في ترجمة العريشي.

ولما توفي الشيخ أحمد العروسي كان المترجم غايبًا عن مصر في زيارة سيدي أحمد البدوي، فأهمل الأمر حتى حضر وتولى الشيخ عبد الله الشرقاوي بإشارته، ولم يزل وافر الحرمة معتقدًا عند الخاص والعام حتى حضر الفرنساوية واختلفت الأمور وشارك الناس في تلقي البلا، وذهب ما كان له بأيدي التجار ونُهِب بيته وكتبه التي جمعها، وتراكمت عليه الهموم والأمراض وحصل له اختلاط.

ولم يزل حتى توفي يوم الأحد حادي عشرين شهر القعدة سنة تاريخه بحارة برجوان، وصُلِّيَ عليه بالأزهر في مشهد حافل، ودفن عند والده وأخيه بزاوية القادرية بدرب شمس الدولة، وبالجملة فكان من محاسن مصر الفريد في العصر، ذهنه وقَّاد ونظمه مستجاد، وكان رقيق الطبع لطيف الذات مترفهًا في مأكله وملبسه.

ومن مؤلفاته مختصر المنهج في الفقه، وزاد عليه فوايد واختصر الاسم وسماه المنهج ثم شرحه وهو بليغ في بابه.

ومنها شرح المعجم الوجيز لشيخه السيد عبد الله المرغني، وقد اعتنى به وقراه درسًا، ومنها شرح عقيدة والده المسماة «منقذة العبيد» في كراريس أجاد فيه جدًّا، ورسالة في تعريف شكر المنعم، وشرح الجزرية والدر النظيم في تحقيق الكلام القديم، ونظم عقايد النسفي وعقيدة في التوحيد وشرحها بشرحين، و«اللمعة الألمعية في قول الشافعي بإسلام القدرية»، و«تحقيق الفرق بين علم الجنس وبين اسمه»، و«إتحاف الكامل ببيان تعريف العامل»، و«زهر الأفهام في تحقيق الوضع وما له من الأقسام»، و«حلية ذوي الأفهام بتحقيق دلالة العام»، و«إتحاف الطرف في بيان متعلق الظرف»، و«الروض الأزهر في حديث من رأى منكم منكرًا»، و«رسالة في تعريف الشكر العرفي»، و«ثمرة غرس الاعتنا بتحقيق أسباب البنا»، و«الدر المنثور في الساجور»، و«إتحاف الآمال بجواب السؤال في الحمل والوضع لبعض الرجال»، و«إتحاف الأحبة في الضبة أي المفضضة»، و«رسالة في التوجه وإتمام الأركان»، و«رسالة في زكاة النابت»، و«رسالة في ثبوت رمضان»، و«رسالة في أركان الحج»، و«رسالة في مُدِّ عَجْوَةٍ ودرهم»، و«رسالة في مسألة الغصب»، و«حاشية على شرح ابن قاسم العبادي إلى البيوع»، و«الروض الوسيم في المُفتَى به من المذهب القديم»، و«رسالة في النذر للشريف»، و«رسالة في إهدا القُرَبِ للنبي عليه السلام»، و«رسالة في الأصولي والأصول»، و«رسالة في مسألة ذوي الأرحام»، و«إتحاف اللطيف بصحة النذر للموسر والشريف»، وله غير ذلك منظومات، وضوابط وتحقيقات، رحمه الله تعالى.

ومات الأجل الأمثل العمدة الوجيه السيد عبد الفتاح بن أحمد بن الحسن الجوهري أخو المترجم المذكور، وهو أسن منه وأصغر من أخيه الشيخ أحمد، ولد سنة إحدى وأربعين وماية وألف، ونشأ في حجر أبيه، وحضر الشيخ الملوي وبعض دروس أبيه وغيره، ولم يكن معتنيًا بالعلم ولم يلبس زي الفقها، وكان يعاني التجارة ويشارك ويضارب ويحاسب ويكاتب، فلما توفي أخوه الأكبر الشيخ أحمد وامتنع أخوه الأصغر الشيخ محمد من التصدر للإقرا في محله اتفق الحال على تقدم المترجم حفظًا للناموس وبقاءً لصورة العلم الموروث، فعند ذلك تزيا بزي الفقها ولبس التاج والفراجة الواسعة، وأقبل على مطالعة العلم وخالط أهله، وصار يطالع ويذاكر، وأقرا دروس الحديث بالمشهد الحسيني في رمضان مع قلة بضاعته، وذلك بمعونة الشيخ مصطفى ابن الشيخ محمد الفرماوي، فكان يطالع الدرس الذي عليه من الغد ويتلقى عنه مناقشات الطلبة، وثبت على ذلك حتى ثبتت المشيخة وتقررت العالمية، كل ذلك مع معاناته التجارة، وتردد إلى الحرمين وأثرى واقتنى كتبًا نفيسة وعروضًا وحشمًا، واشترى المماليك والعبيد والجواري والأملاك والالتزام، ولم يزل حتى حصلت حوادث الفرنساوية، وصادروه وأخذوا منه خمسة عشر ألف فرانسة، وداخله من ذلك كرب وانفعال زايد، فسافر إلى بلدة جارية في التزامه يقال لها كوم النجار، فأقام بها أشهرًا ثم ذهب إلى شيبين الكوم بلدة أقاربه وأقام بها إلى أن مات في هذه السنة، وذلك بعد وفاة أخيه الشيخ محمد بنحو خمسة أيام، ودفن هناك رحمه الله تعالى.

ومات الإمام العلامة الثقة الهمام النحرير الذي ليس له في فضله نظير، أبو محمد أحمد بن سلامة الشافعي المعروف بأبي سلامة، اشتغل بالعلم وحضر العلوم النقلية والنحوية والمنطقية، وتفقَّه على كثير من علما الطبقة الأولى كالشيخ علي قايتباي والحفني والبراوي والملوي وغيرهم، وتبحر في الأصول والفروع، وكان مستحضرًا للفروع الفقهية والمسايل الغامضة في المذاهب الأربع، ويغوص بذهنه وقياسه في الأصول الغريبة ومطالعة كتب الأصول القديمة التي أهملها المتأخرون، وكان الفضلا يرجعون في ذلك إليه ويعتمدون قوله ويعولون في الدقايق عليه إلا أن الدهر لم يصافِهِ على عادته، وعاش في خمول وضيق عيش وخشونة ملبس وفَقْد رفاهية بحيث إن من يراه لا يعرفه لرثاثة ثيابه، وكان مهذبًا حسن المعاشرة جميل الخلق والنادرة، مطبوعًا فيه صلاح وتواضع، ونزل مؤقتًا في مسجد عبد الرحمن كتخدا الذي أنشاه تجاه باب الفتوح بمعلوم قدره ثمانية أنصاف يتعيش بها مع ما يرد عليه من بعض الفقها والعامة الذين يحتاجون إليه

في مراجعة المسايل والفتاوى، فلما خرب المسجد المذكور في حادثة الفرنسيس وجهات أوقافه انقطع عنه ذلك المعلوم، وكان ذا عائلة ومع ذلك لا يسال شيًّا ولا يظهر فاقة، توفي يوم الأحد حادي عشرين جمادى الآخرة من السنة عن خمس وسبعين سنة تقريبًا، رحمه الله.

ومات الأمير مراد بك محمد، مات بسهاج قادمًا إلى مصر باستدعا الفرنسيس، ودفن بها عند الشيخ العارف، وكان موته رابع شهر الحجة كما تقدم، وهو من مماليك محمد بك أبي الدهب، ومحمد بك مملوك علي بك، وعلي بك مملوك إبراهيم كتخدا القازدغلي، اشترى محمد بك مراد بك المذكور في سنة اثنتين وثمانين وماية وألف، وذلك في اليوم الذي قتل فيه صالح بك الكبير، فأقام في الرق أيامًا قليلة ثم أعتقه وأمَّره وأنعم عليه بالإقطاعات الجليلة وقدمه على أقرانه، وتزوج بالست فاطمة زوجة الأمير صالح بك وسكن داره العظيمة بخط الكبش، ولما مات علي بك تزوج بسريته أيضًا، وهي الست نفيسة الشهيرة الذكر بالخير، ولما انفرد محمد بك بإمارة مصر كان هو وإبراهيم بك أكبر أمراه المشار إليهما دون غيرهما، فلما سافر محمد بك إلى الديار الشامية محاربًا للظاهر عمر أقام عوضه في إمارة مصر إبراهيم بك، وأخذ صحبته مراد بك وباقي أمراه، فلما مات محمد بك بعكًّا اجتمع أمراه على رأي مماليكه في رياسة مراد بك، فتقدم وقدمه عليهم وحملوا جثة سيدهم وحضروا بأجمعهم إلى مصر، فاتفق رأي الجميع على إمارة من استخلفه سيدهم وقدمه دون غيره وهو إبراهيم بك، ورضي الجميع بتقدمه ورياسته لوفور عقله وسكون جاشه، فاستقر بمشيخة مصر ورياستها ونايب نوابها ووزراها، وعكف مراد بك على لذَّاته وشهواته، وقضى أكثر زمانه خارج المدينة، مرة بقصره الذي أنشاه بالروضة، وأخرى بجزيرة الدهب، وأخرى بقصر قايماز جهة العادلية، كل ذلك مع مشاركته لإبراهيم بك في الأحكام والنقض والإبرام والإيراد والإصدار ومقاسمة الأموال والدواوين وتقليد مماليكه وأتباعه الولايات والمناصب، وأخذ في بذل الأموال وإنفاقها على أمراه وأتباعه، فانضم إليه بعض أمرا علي بك وغيرهم ممن مات أسيادهم كعلي بك المعروف بالملط، وسليمان بك الشابوري، وعبد الرحمن بك عثمان، فأكرمهم وواساهم ورخص لمماليكه في هفواتهم، وسامحهم في زلاتهم، وحظي عنده كل جري غشوم عسوف ذميم ظلوم، فانقلبت أوضاعهم وتبدلت طباعهم وشرهت نفوسهم وعلت روسهم، فتناظروا وتفاخروا وطمعوا في أستاذهم، وشمخت آنافهم عليه وأغاروا حتى على ما في يده، واشتهر بالكرم والعطا فقصده الراغبون، وامتدحه الشعرا والغاوون، وأخذ الشي من غير حقه وأعطاه لغير مستحقه، كما قال القايل:

وإنها خطرات من وساوسه   يعطي ويمنع لا بخلًا ولا كرمًا

ثم لما ضاق عليه المسلك ورأى أن رضا العالم غاية لا تدرك، أخذ يتحجب عن الناس فعظم فيه الهاجس والوسواس، وكان يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة، ولم يُعهَد عليه أنه انتصر في حرب باشره أبدًا على ما فيه من الادعا والغرور والكبر والخيلا والصلف والظلم والجور كما قال القايل:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة   فَتْخاء تنفر من صفير الصافر

ولما قدم حسن باشا إلى مصر وخرج المترجم مع خشداشينه وعشيرته هاربين إلى الصعيد حتى انقضت أيام حسن باشا وإسماعيل بك ومن كان معه ورجعوا ثانيًا بعد أربع سنين وشي من الشهور من غير عقد ولا عهد ولا حرب، وتعاظم في نفسه جدًّا، واختص بمساكن إسماعيل بك وجعل إقامته بقصر الجيزة وزاد في بناه وتنميقه، وبنى تحته رصيفًا محكمًا وأنشا بداخله بستانًا عظيمًا نقل إليه أصناف النخيل والأشجار والكروم، واستخلص غالب بلاد إقليم الجيزة لنفسه شرا ومعاوضة وغصبًا، وعمر أيضًا قصر جزيرة الذهب وجعل بها بستانًا عظيمًا، وكذلك قصر ترسا وبستان المجنون، وصار ينتقل في تلك القصور والبساتين ويركب للصيد في غالب أوقاته، واقتنى المواشي من الأبقار والجواميس الحلابة والأغنام المختلفة الأجناس، فكان عنده بالجيزة من ذلك شي كثير جدًّا، وعمل له ترسخانة عظيمة وطلب صناع آلات الحرب من المدافع والقنابر والبنب والجلل والمكاحل، واتخذ بها أيضًا معامل البارود خلاف المعامل التي في البلد، وأخذ جميع الحدادين والسباكين والنجارين، فجمع الحديد المجلوب والرصاص والفحم والحطب حتى شحت جميع هذه الأدوات لكونه كان يأخذ كل ما وجده منها، وكذلك حطب القرطم والترمس والذرة لحرق قمام الجير والجبس للعمارة، وأوقف الأغوات في كل جهة يحجزون المراكب التي تأتي من البلاد بالأحطاب يأخذونها ويجمعونها للطلب ويبيعون لأنفسهم ما أحبوا، ويأخذون الجعالات على ما يسمحون به أو يطلقونه لأربابه بالوسايط والشفاعات، وأحضر أناسًا من القليونجية ونصارى الأروام وصناع المراكب، فأنشاوا له عدة مراكب حربية وغلايين، وجعلوا بها مدافع وآلات حرب على هية مراكب الروم صرف عليها أموالًا عظيمة ورتب بها عساكر وبحرية، وأدار عليهم الجماكي

والأرزاق الكثيرة، وجعل عليهم ريسًا كبيرًا رجلًا نصرانيًّا وهو الذي يقال له نقولا، بنى له دارًا عظيمة بالجيزة وأخرى بمصر، وله عزوة وأتباع من نصارى الأروام المرتبين عسكرًا، وكان نقولا المذكور يركب الخيل ويلبس الملابس الفاخرة، ويمشي في شوارع مصر راكبًا وأمامه وخلفه قواسة يوسعون له الطريق في مروره على هيئة ركوب الأمرا، كل ذلك خطرات من وساوسه لا يدري أحد لأي شي هذا الاهتمام، ولأي حاجة إنفاق هذا المال في الخشب والحديد وإعطاه لنصارى الأروام، واختلفت آراء الناس في ذلك فمن قايل إن ذلك خوفًا من خشداشينه، وقايل من مخافة العثمانية كما تقدم في قضية حسن باشا، والبعض يظن خلاف ذلك وليس غير الوهم والتخيل الفاسد والخوف شي، وبقيت آلات الحرب جميعها والبارود بحواصله والجلل والبنبات حتى أخذ جميعه الفرنسيس، فيقال إنه كان بحواصل الترسخانة من جنس الجلل أحد عشر ألف جلة، كذا نقل عن معلم الترسخانة أخذ جميع ذلك الفرنسيس يوم استيلاهم على الجيزة والقصر.

ومما اتفق أنه وقعت مشاجرة في بعض الأيام بين بعض نصارى الأروام القليونجية، وبعض السوقة بمصر القديمة فتعصب النصارى على أهل البلد وحاربوهم وقتلوا منهم نيفًا وعشرين رجلًا، وانتهت الشكوى إلى الأمير فطلب كبيرَهم فعصى عليه وامتنع من مقابلته، وعمَّر مدافع المراكب ووجهها جهة قصره، فلم يسعه إلا التغافل وراحت على من راح.

واستوزر رجلًا بربريًّا وهو المسمى بإبراهيم كتخدا السناري، وجعله كتخداه ومشيره وبلغ من العظمة ونفوذ الكلمة بإقليم مصر ما لم يبلغه أعظم أمير بها، وبنى له دارًا بالناصرية، واقتنى المماليك الحسان والسراري البيض والحبوش والخدم، وتعلم اللغة التركية والأوضاع الشيطانية، واختص ذلك السناري أيضًا ببعض رعاع الناس وجعله كتخداه يأتمر بأمره، ويتوسل به أعاظم الناس في قضا أشغالهم، ولما حسن لمراد بك الإقامة بالجيزة واختار السكن بها وزين له شيطانه العزلة عن خشداشينه وأقرانه وترك لإبراهيم بك أمر الأحكام والدواوين ومقتضيات نواب السلطنة العثمانية مع كونه لا ينفذ أمرًا دون رأيه ومشورته، واحتجب هو عن الاجتماع بالناس بالكلية حتى عن الأمرا الكبار من أقرانه، كان السفير بينه وبينهم إبراهيم كتخدا المذكور، فكان هو عبارة عنه وربما نقض القضايا التي انبرم أمرها عند إبراهيم بك أو غيره بنفسه أو عن لسان مخدومه، وأقام المترجم على عزلته بالبر الغربي نحو الست سنوات متوالية لا يعدي إلى البر الشرقي أبدًا، ولا يحضر الديوان ولا يتردد إلى الأقران.

وإذا حضر الباشا المولى على مصر ووصل إلى بر إنبابة ركب وسلم عليه مع الأمرا، ورجع إلى قصره فلا يراه بعد ذلك أبدًا، وتعاظم في نفسه وتكبر على أقرانه وأبنا جنسه، فتزاحمت على سدته الطلاب وتكالبت على جيفته الكلاب، فانزوى من نبشهم وتوارى من نهشهم، فإذا بلغه قدوم من يختشيه أو وصول من يرتجيه، وكان يستحيي من رده أو يخشى عاقبة صده ركب في الحال وصعد إلى الجبال، وربما وصله الغريم على غفلة فيجده قد شمع الفتلة، فإن صادفه واجتمع عليه أعطاه ما في يديه أو وعده بالخير، أو وهبه ملك الغير، فما يشعر الميسور إلا ولقمته قد اختطفتها النسور.

ثم أخذ يعبث بدواوين الأعشار والمكوسات والبهار، فيحول عليهم الحوالات ويتابع لماليكه ختم الوصولات، فتجاذب هو وإبراهيم بك ذلك الإيراد، وتعارضت أوراقهما وخافا في المعتاد، ثم اصطلحا على أن تكون له الدواوين البحرية، ولقسيمه ما يرد من الأصناف الحجازية، وما انضاف إلى قلم البهار وحسب في دفاتر التجار، فانفرد كل منهما بوظيفته، وفعل بها من الإجحاف ما سطر في صحيفته، فأحدث المترجم ديوانًا خاصًّا بثغر رشيد على الغلال التي تحمل إلى بلاد الإفرنج وسموه ديوان البدعة، وأذن ببيع الغلال لمن يحملها إلى بلاد الإفرنج أو غيرها، وجعل على كل أردب دينارًا خلاف البراني، والتزم بذلك رجل سراج من أعوانه الموصوفين بالجور، وسكن برشيد وبقيت له بها وجاهة وكلمة نافذة، فجمع من ذلك أموالًا وإيرادًا عظيمًا.

وكانت هذه البدعة السيئة من أعظم أسباب قوة الفرنسيس، وطمعهم في الإقليم المصري مع ما أضيف إلى ذلك من أخذ أموالهم، ونهب تجاراتهم وبضاعاتهم من غير ثمن.

واقتدى به أمراه وتناظروا في ذلك، وفعل كل منهم ما وصلت إليه همته، واستخرجته فطنته، واختص بالسيد محمد كريم السكندري ورفع شأنه بين أقرانه، فمهد له الأمور بالثغر وأجرى أحكامه وفتح له باب المصادرات والغرامات، ودله على مخبآت الأمور وأخذ أموال التجار من المسلمين وأجناس الإفرنج حتى تجسمت العداوة بين المصريين والفرنسيس، وكان هو من أعظم الأسباب في تملك الفرنسيس للثغر كما ذكر ذلك في قتله، وذلك أنه لما خرجت مراكب الفرنساوية وعمارتهم لا يدري أحد لأي جهة يقصدون تبعهم طايفة الإنكليز إلى الإسكندرية فلم يجدوهم، وكانوا ذهبوا أولًا إلى جهة مالطة فوقف الإنكليزية قبالة الإسكندرية، وأرسلوا قاصدهم إلى الثغر يسألون عن خبر الفرنساوية فردهم المذكور ردًّا عنيفًا، فأخبروه الخبر على جليته، وأن أخصامهم علموا بخروجهم

فاقتفوا أثرهم، ونريد منكم أن تعطونا الما والزاد بثمنه ونقف لهم على ظهر البحر، فلا نمكنهم من العبور إلى ثغركم، فلم يقبل منهم، ولم يأذن في تزويدهم، فذهبوا ليتزودوا من بعض الثغور فما هو إلا أن غابوا في البحر نحو الأربعة أيام إلا والفرنسيس قد حضروا وكان ما كان.

ومما سولت به نفس المترجم بإرشاد بعض الفقها عمارة جامع عمرو بن العاص وهو الجامع العتيق، وذلك أنه لما خرب هذا الجامع بخراب مدينة الفسطاط، وبقيت تلالًا وكيمانًا وخصوصًا ما قرب من ذلك الجامع، ولم يبقَ بها بعض العمار إلا ما كان من الأماكن التي على ساحل النيل، وخربت في دولة القزدغلية وأيام حسن باشا لما سكنتها عساكره، ولم يبقَ بساحل النيل إلا بعض أماكن جهة دار النحاس وفم الخليج يسكنها أتباع الأمرا ونصارى المكوس، وبها بعض مساجد صغار يصلي بها السواحلية والنواتية وسكان تلك الخطة من القهوجية والباعة، والجامع العتيق لا يصل إليه أحد لبعده وحصوله بين الأتربة والكيمان، وكان فيما أدركنا الناس يصلون به آخر جمعة في رمضان، فتجتمع به الناس على سبيل التسلي من القاهرة ومصر وبولاق، وبعض الأمرا أيضًا والأعيان، ويجتمع بصحنه أرباب الملاهي من الحواة والقرداتية وأهل الملاعيب والنسا الراقصات المعروفات بالغوازي، فبطل ذلك أيضًا من نحو ثلاثين سنة لهدمه وخراب ما حوله وسقوط سقفه وأعمدته وميل شقته اليمنى بل وسقوطها بعد ذلك، فحسن ببال المترجم هدُّه وتجديده بإرشاد بعض الفقها ليرقع به دينه الخلق كما قال شاعرهم:

ومسجد في فضاء ما عمارته | فوق الصيانة إلا لهو مختلق
كأن عمرًا دعا يا عاص هُمَّ به | ورمَّه رقعة في دينك الخلق

فاهتم لذلك وقيد به نديمه الحاج قاسم المعروف بالمصلي، فجعله مباشرًا على عمارته وصرف عليه أموالًا عظيمة أخذها من غير حلها ووضعها في غير حلها، وأقام أركانه وشيد بنيانه ونصب أعمدته وكمل زخرفته وبنى به منارتين وجدد جميع سقفه بالخشب النقي، وبيضه جميعه فتم على أحسن ما يكون، وفرشه بالحصر الفيومي وعلق به القناديل، وحصلت به الجمعية آخر جمعة برمضان سنة اثنتي عشرة ومايتين وألف فحضر الأمرا والأعيان والمشايخ وأكابر الناس وعامتهم، وبعد انقضا الصلاة عقد له الشيخ عبد الله الشرقاوي مجلسًا، وأملى حديث «من بنى لله مسجدًا» وآية ﴿إِنَّمَا

يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ﴾، وعند فراغه ألبس فروة من السمور وكذلك الخطيب، فلما حضرت الفرنساوية في العام القابل جرى عليه ما جرى على غيره من الهدم والتخريب، وأخذ أخشابه حتى أصبح بلقعًا أشوه مما كان، «فيا ليتها لم تزنِ ولم تتصدق»، وبالجملة فمناقب المترجم لا تحصى وأوصافه لا تستقصى، وهو كان من أعظم الأسباب في خراب الإقليم المصري بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور ومسامحته لهم، فلعل الهم يزول بزواله.

وكان صفته أشقر مربوع القامة كث اللحية غليظ الجسم والصوت بوجهه أثر ضربة سيف، ظالمًا غشومًا متهورًا مختالًا معجبًا متكبرًا، إلا أنه كان يحب العلما ويتأدب معهم وينصت لكلامهم ويقبل شفاعتهم، ويميل طبعه إلى الإسلام والمسلمين، ويحب معاشرة الندما والفحصا وأهل الذوق والمتكلمين، ويشاركهم ويباسطهم ولا يمل من مجالستهم ومنادمتهم، ويناهل في الشطرنج ويطلب أهل المعرفة فيه، ويحب سماع الآلات والأغاني، وكانت عطاياه جمة ومواهبه وهمته فوق كل همة، ولم يخلف ولدًا ولا بنتًا، وصناجقه الذين مات عنهم الأمير محمد بك المعروف بالألفي، وعثمان بك الجوخدار المعروف بالطنبرجي، وعثمان بك المعروف بالبرديسي ومحمد بك المنفوخ، وسليم بك أبو دياب وأصله مملوك مصطفى بك الإسكندراني، ولما مات دفن بسوهاج — كما تقدم — عند الشيخ العارف غفر الله له.

ومات الأمير حسن بك الجداوي مملوك علي بك، وهو من خشداشين محمد بك أبي الدهب، مات بغزة بالطاعون وكان من الشجعان الموصوفين والأبطال المعروفين، ولما انفرد علي بك بمملكة مصر ولَّاه إمارة جدة؛ فلذلك لقب بالجداوي، وذلك سنة أربع وثمانين ومایة وألف، وابتلي فيها بأمور ظهرت بها شجاعته وعرفت فروسيته، ولذلك خبر يطول شرحه، ولما حصلت الوحشة بين إسماعيل بك والمحمديين كان المترجم ممن نافق معه وعضده هو وخشداشينه رضوان بك وعبد الرحمن بك، وكانت لهم الغلبة، ونما أمره عند ذلك وظهر شانه بعد أن كان خمل ذكره، وهو الذي تجاسر على قتل يوسف بك في بيته بين مماليكه وعزوته، ثم خامر على إسماعيل بك، وانقلب مع المحمديين عندما خرج لمحاربتهم بالصعيد فخدعوه وراسلوه، وانضم إليهم بمن معه، ورجعوا إلى مصر وفر إسماعيل بك بمن معه إلى الشام واستقر هو وخداشينه في مملكة مصر مشاركين لهم مظهرين عليهم الشمم طامعين في خلوص الأمر لهم متوقعين بهم الفرصة مع التهور الموجب لتحذر الآخرين منهم إلى أن استعجلوا إشعال نار الحرب فجرى ما

جرى بينهم من الحروب والمحاصرة بالمدينة، وانجلت عن خذلانهم وهزيمتهم وظهور المحمديين عليهم، وقتل بها عدة من أعيانهم ومواليهم ومن انضم إليهم وربما عوقب من لا جناية له كما سطر ذلك في محله.

وفر المترجم مع بعض من بقي من عشيرته إلى القليونجية، فقُبض عليه وأُتِيَ به إلى مصر ففر إلى بولاق بمفرده، والتجا إلى بيت الشيخ الدمنهوري، فأحاط به العسكر فنط من سطح الدار وخلص إلى الزقاق وسيفه مشهور في يده، فصادف جنديًّا فقتله وأخذ فرسه فركبه وفر والعساكر خلفه تريد أخذه وتتلاحق به من كل جهة وهو يراوغهم ويقاتلهم، حتى خلص إلى بيت إبراهيم بك فأمنه واتفقوا على إرساله إلى جدة، فلما أقلع به في القلزم أمر ريس المركب أن يذهب به إلى القصير وخوَّفه القتل إن لم يفعل، فذهب به إلى القصير فتوجه منها إلى إسنا، وعلمت به عشيرته وخشداشينه ومماليكه فتلاقوا به واستقر أمرهم بها بعد وقايع يطول شرحها، فأقام نيفًا وعشر سنين حتى رجع إليهم إسماعيل بك بعد غيبته الطويلة، وانضم إليهم واصطلح معهم إلى أن كان ما كان من وصول حسن باشا إلى الديار المصرية، وإخراج المحمديين وإدخاله للمذكور مع إسماعيل بك ورضوان بك وأتباعهم، وتأميرهم بمصر واستقرارهم بها بعد رجوع حسن باشا إلى بلاده ووقوع الطاعون الذي مات به إسماعيل بك ورضوان بك وغيرهم من الأمرا، فاستقل بمن بقي من الأمرا وفعل معهم من التهور والحمق والشر ما أوجب لهم بغض النعيم والحياة معه.

وخامر عليه من كان يأمن إليه فلم يسعه ومن معه إلا الفرار، ورضي ذاك لنفسه بالذل والعار.

ودخلت المحمديون إلى مصر المحمية، واستقر هو كما كان بالجهة القبلية، فأقام على ذلك سبع سنين وبعض أشهر إلى أن وقعت حادثة الفرنسيس واستولوا على الإقليم المصري، وحضرت العساكر بصحبة الوزير يوسف باشا، ووقع ما وقع من الصلح ونقضه وانحصر المترجم مع من انحصر بالمدينة من المصرلية والعثمانية، فقاتل وجاهد وأبلى بلا حسنًا شهد له بالشجاعة والإقدام كل من العثمانية والفرنساوية والمصرلية، فلما انفصل الأمر وخرجوا إلى الجهة الشامية، لم يزل محرصًا ومرابطًا ومجتهدًا، حتى مات بالطاعون في هذه السنة، وفاز بالشهادتين، وقدم على كريم يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم، وأمراه الموجودون الآن عثمان بك المعروف بالحسيني وأحمد بك أمَّره الوزير عوضًا عن أستاذه.

ومات الأمير عثمان بك المعروف بطبل، وهو من مماليك إسماعيل بك أمَّره في سنة اثنتين وتسعين، ثم خرج مع سيده وتغرب معه في غيبته الطويلة، فلما رجع إلى مصر في أيام حسن باشا تولى إمارة الحج في سنة خمسة ومايتين وألف، وكان سيده يقدمه على أقرانه ويظن به النجاح، ولما طعن وعلم أنه مفارق الدنيا أحضره وأوصاه وحذره من أعداه، وقال له: إني حصنت لك مصر وسورتها وصيرتها بحيث تملكها بنت عميا، فلما مات سيده تشوق للإمارة حسن بك الجداوي وعلي بك الدفتردار، فلم يرضَ كل منهما بالآخر وتخوفا من بعضهما، فاتفق رأيهما على تأمير عثمان بك المذكور كبيرًا عوضًا عن سيده، وسكن داره وعقدوا الدواوين عنده، فنزل عن إمارة الحج لحسن بك تابع حسن بك قصبة رضوان، واشتغل هو بأمور الدولة ومشيخة مصر فلم يفلح، وخامر مع أخصامه وأخصام سيده، والتف عليهم سرًّا وصدق تمويهاتهم وخذل نفسه ودولته، وذلك غيظًا من حسن بك كما سبقت إليه الإشارة، وكل من حسن بك وعثمان بك الجداوي وعلي بك الدفتردار يتخوف نفاق صاحبه لتكرر ذلك منهما في الوقايع السابقة، وانحراف طبع كل عن صداقة الآخر الباطنية ولم يخطر ببالهما، بل ولا ببال أحد من المجانين فضلًا عن العقلا ركون المشار إليه إلى أعداه وأعدا سيده العداوة الموروثة، فكانا كلما شرعا في تدبير أو شي من مكايد الحرب ثبطهما وأقعدهما، وهما يظنان نصحه ويعتقدان خلوصه ومعرفته، ولكونه تعلم سياسة الحروب من سيده لكثرة تجاربه وسياحته، ولم يعلما أنه يمهد لنفسه طريقًا مع الأعدا إلى أن كان ما كان من مساعدته لهم بالتغافل والتقاعد، حتى تحولوا إلى الجهة الشرقية، وخلص إليهم بمن انضم إليه من عشيرته، فلم يسع الباقين إلا الهرب وأسلم هو نفسه لأعداه، فأظهروا له المحبة وولوه إمارة الحج حكم عهدهم بذلك، وأن تكون له إمارة الحج ما دام حيًّا، فخرج في تلك السنة أميرًا على الحج أعني سنة ست ومايتين وألف، وكذلك سنة سبع، ونهب الحج في تلك السنة، وفر المترجم إلى غزة فصودرت زوجاته، واقتسمت أقطاعه ورجع بعد حين إلى مصر، وأهمل أمره وأقام بطالًا واستمر كآحاد الطايفة من الأجناد، ويغدو ويروح إليهم ويرجو رفدهم إلى أن حدثت حادثة الفرنسيس، فخرج مع من خرج إلى الشام، ولم يزل هناك حتى مات بالطاعون في السنة المذكورة، وكان دايمًا يقول عند تذكره الدولة والنعيم: ذلك تقدير العزيز العليم.

ومات الأمير عثمان بك المعروف بالشرقاوي، وهو من مماليك محمد بك أبي الدهب أيضًا الكبار، وتأمر في أيامه وعرف بالشرقاوي لكونه تولى الشرقية، ووقع منه ظلم

وجبروت بعد موت أستاذه، وصادر كثيرًا من الناس في أموالهم، ثم انكف عن ذلك، وزعم أن ذلك كان بإغرا مقدمه فشهره وقتله، ولم يزل في إمارته حتى مات في الشام بالطاعون.

ومات أيوب بك الكبير وهو أيضًا من مماليك محمد بك، وكان من خيارهم يغلب عليه حب الخير والسكون، ويدفع الحق لأربابه، وتأمر على الحج، وشكرت سيرته، واقتنى كتبًا نفيسة واستكتب الكثير من المصاحف والكتب بالخطوط المنسوبة، وكان لين الجانب مهذب النفس يحب أهل الفضايل ذا ثروة وعزوة وعفة، لا يعرف إلا الجد ويجتنب الهزل، ويلوم ويعترض على خشداشينه في أفعالهم، ولا يعجبه سلوكهم ولا يهمل حقًّا توجَّهَ عليه، وإذا ساوم شيًّا وقال له البايع: هذا بعشرة، يقول له: بل هو بخمسة مثلًا وهذا ثمنها حالًا، وقد يكون ذلك رأس مالها أو بزيادة قليلة ويرضى البايع بذلك، ويقبض الثمن في المجلس، وهكذا كان شانه وطريقته.

ومات الأمير مصطفى بك الكبير، وهو أيضًا من مماليك محمد بك، تولى الصعيد وإمارة الحج عدة مرار، وكان فظًّا غليظًا متمولًا بخيلًا شحيحًا، وفي إمارته على الحج ترك زيارة المدينة لخوفه من العرب وشحه بعوايدهم وقلة اعتناه بشعاير الدين، وانتقد ذلك على المصريين من الدولة وغيرها، وكان ذلك من أعظم ما اجترمه من القبايح.

ومات الأمير سليمان بك المعروف بالأغا، توفي بأسيوط بالطاعون، وهو أيضًا من مماليك محمد بك الكبير، وهو أخو إبراهيم بك المعروف بالوالي، صهر إبراهيم بك الكبير، وهو الذي مات غريقًا في وقعة الفرنسيس الأولى بإنبابة مدبرًا فارًّا فسقط في البحر وغرق، وكان هو وأخوه المترجم قبل تقلدهما الصنجقية أحدهما والي الشرطة والآخر أغات مستحفظان، فلم يزالا يلقبان بذلك حتى ماتا، وكان المترجم محبًّا لجمع المال وله أقطاع واسعة خصوصًا بجهة قبلي، وفي آخر أمره استوطن أسيوط؛ لأنها كانت في أقطاعه وبنى بها قصرًا عظيمًا وأنشا بعض البساتين وسواقي، واقتنى أبقارًا وأغنامًا كثيرة، ومما اتفق له أنه جز صوف الأغنام وكانت أكثر من عشرة آلاف، ثم وزعه على الفلاحين وسخرهم في غزله بعد أن وزنه عليهم، ثم وزعه على القزازين فنسجوه أكسية، ثم جمع التجار وباعه عليهم بزيادة عن السعر الحاضر فبلغ ذلك مبلغًا عظيمًا.

ومات الأمير قايد أغا وهو من مماليك محمد بك أيضًا، وكان يلقب أيام كشوفيته بقايد نار لظلمه وتجبره، وولي أغات مستحفظان في سنة ثمانٍ وتسعين ومائة وألف، فأخاف العامة وكان يتنكر ويتزيا بأشكال مختلفة ويتجسس على الناس، وذلك أيام

خروج إبراهيم بك إلى قبلي ووحشته من مراد بك وانفراد مراد بك بإمارة مصر، فلما تصالحا ورجع إبراهيم بك رد الأغاوية لعلي أغا، فحنق المترجم لذلك وقلق قلقًا عظيمًا وترامى على الأمرا، وصار يقول: إن لم يردوا إليَّ منصبي قتلت علي أغا أو قتلت نفسي، فلما حصل منه ذلك عزلوا علي أغا وقلدوا سليم أغا أمين البحرين أغاوية مستحفظان، ولم يبلغ غرضه ولم ترضَ نفسه بالخمول.

وأكثر عنده من الأعوان والأتباع فيحضرون بين يديه الشكاوى والدعاوى، ويضرب الناس ويحبسهم ويصادرهم في أموالهم، ويركب وبين يديه العدة الوافرة من القواسة والخدم يحملون بين يديه الحراب والقرابين والبنادق وخلفه الكثير من الأجناد والمماليك، واتخذ له جُلسَا وندما يباسطونه ويضاحكونه، ولم يزل كذلك حتى خرج مع عشيرته إلى الصعيد عند حضور حسن باشا، فاستولى على كثير من حصص الإقطاع، فلما رجعوا في أواخر سنة خمس بعد المايتين سكن دار جوهر أغا دار السعادة سابقًا بالخرنفش، وقد كان مات في الطاعون وتزوج سريته قهرًا، واستكثر من المماليك والجند وتاقت نفسه للإمارة وتشوف إلى الصنجقية، وسخط على زمانه والأمرا الذين لم يلبوا دعوته ولم يبلغوه أمنيته، وصارت جلساه وندماه لا يخاطبونه إلا بالإمارة ويقولون له: يا بك، ويكره من يخاطبه بدون ذلك.

وكان له من الأولاد الذكور اثنا عشر ولدًا لصلبه يركبون الخيول، ماتوا في حياته، وكان له أخ من أقبح خلق الله في الظلم اتخذ له أعوانًا وأتباعًا وليس عنده ما يكفيهم، فكان يخطف كل ما مر بخطته بباب الشعرية من قمح وتبن وشعير وغير ذلك، ولا يدفع له ثمنًا، هلك قبله بنحو ست سنوات بناحية قبلي، وأتوا بجيفته إلى مصر مقرفصًا، ودفن بمدفن أخيه بتربة المجاورين.

ومن جملة أفاعيله القبيحة أنه كان يجرد سيفه ويضرب رقاب الحمير، ويزعم أنه يقطعها في ضربة واحدة، ولم يزل المترجم وأخوه على حالته حتى خرج من مصر عند مجي الفرنسيس، وعاد بصحبة عرضي العثملي، ومات قاسم بك مع من مات من الأمرا والصناجق بالشام، فقلده الوزير الصنجقية فيمن تقلد وأدرك أمنيته فأقام قليلًا وهلك فيمن هلك بالطاعون، فكان كما قال القايل:

فكان كالمتمني أن يرى فلقًا   من الصباح فلما أن رآه عمي

ومات أيضًا حسن كاشف المعروف بجركس، وهو أيضًا من مماليك محمد بك وإشراق عثمان بك الشرقاوي، وكان من الفراعنة وهو الذي عمر الدار العظيمة بالناصرية وصرف عليها أموالًا عظيمة، فما هو إلا أن تمم بناها ولم يكمل بياضها حتى وصلت الفرنسيس، فسكنها الفلكيون والمدبرون وأهل الحكمة والمهندسون؛ فلذلك صينت من الخراب كما وقع بغيرها من الدور، لكون عسكرهم لم يسكنوا بها، وتقلد المذكور الصنجقية بالشام أيضًا، ثم هلك بالطاعون.

ومات الأمير حسن كتخدا المعروف بالجربان بالشام أيضًا وأصله من مماليك حسن بك الأزبكاوي، وكان ممتهنًا في المماليك فسموه بالجربان لذلك، فلما قتل أستاذه بقي هو لا يملك شيًّا فجلس بحانوت جهة الأزبكية يبيع فيها تنباكًا وصابونًا، ثم سافر إلى المنصورة فأقام بها مدة تحت قصر محمود جربجي، ثم رجع إلى مصر في أيام دولة علي بك، وتنقلت به الأحوال فأنعم عليه علي بك بأمرية بناحية قبلي.

فلما حصلت الوحشة بين علي بك ومحمد بك وخرج محمد بك من مصر إلى قبلي خرج إليه المترجم ولاقاه وقدم بين يديه ما كان عنده من الخيام والبرق والخيول، وانضم إليه ولم يزل حتى تملك محمد بك واستوزر إسماعيل أغا الجلفي، وكان يبغض المترجم لأمور بينهما، فلم يزل حتى أوغر عليه صدر مخدومه وأدى به الحال إلى الإقصاء والبعد، إلى أن انضم إلي مراد بك وتقرب منه.

وكان مفوهًا لينًا مشاركًا قد حنكته الأيام والتجارب فجعله كتخداه ووزيره، واشتهر ذكره وعمر دارًا بناحية باب اللوق بالقرب من غيط الطواشي، وصار من الأعيان المعدودين وقصدته أرباب الحاجات، واحتجب في غالب الأوقات واتحد به محمد أغا البارودي فقربه من مراد بك وبلغ إلى ما بلغ معه، وكان يعتري المترجم مرض شبيه بالصرع ينقطع به أيامًا عن السعي والركوب، ولم يزل حتى مات مع من مات بالشام.

ومات الأمير قاسم بك المعروف بالموسقو، وكان من مماليك إبراهيم بك وكان لين الجانب قليل الأذى، إلا أنه كان شحيحًا لا يدفع حقًا توجَّهَ عليه، ولما مات خشداشه حسن بك الطحطاوي تزوج بزوجته، وشرع في بنا السبيل المجاور لبيته بحارة قوصون بالقرب من الداودية، فما قرب إتمامه إلا وقد قدمت الفرنسيس لمصر فخربوه وشعثوا بنيانه وخرقوا حيطانه، وأخذوا عواميده وبقي على حالته مثل ما فعلوه بدور تلك الخطة وغيرها، ومات أيضًا المترجم بالشام.

ومات علي أغا كتخدا الجاويشية وهو من مماليك الدمياطي، ونسب إلى محمد بك وأخيه إبراهيم بك ورقاه واختص به وولّاه أغات مستحفظان في سنة اثنتين وتسعين ومماية وألف، فلم يزل إلى سنة ثمانٍ وتسعين، فخرج مع إبراهيم بك إلى المنية عندما تغاضب مع مراد بك، فلما تصالحا قلَّده الأغاوية كما كان، فحنق قايد أغا وكان ما كان من عزله وولاية سليم أغا كما سبق الإلماع بذلك عند ذكر قايد أغا، ثم تقلد كتخدا الجاويشية في سنة ست ومايتين وألف.

ولم يزل متقلدًا ذلك حتى خرج مع من خرج في حادثة الفرنسيس، وكان ذا مال وثروة مع مزيد شح وبخل، واشترى دار عبد الرحمن كتخدا القازدغلي العظيمة التي بحارة عابدين وسكنها، وليس له من المآثر إلا السبيل والكتَّاب الذي أنشأه بجوار داره الأخرى بدرب الحجر وهو من أحسن المباني، وقد حماه الله من تخريب الفرنسي، وهو باقٍ إلى يومنا هذا ببهجته ورونقه.

ومات الأمير يحيى كاشف الكبير وهو من مماليك إبراهيم بك الأقدمين، وكان لطيف الطباع حسن الأوضاع، وعنده ذوق وتودد عطارديًّا يحب الرسومات والنقوش والتصاوير والأشكال ودقايق الصناعات والكتب المشتملة على ذلك، مثل: «كليلة ودمنة» و«النوادر» و«الأمثال».

واهتم في بناء السبيل المجاور لداره بخطة عابدين، فرسم شكله قبل الشروع فيه في قرطاس بمعونة الأسطا حسن الخياط، ثم سافر إلى الإسكندرية وأحضر ما يحتاجه من الرخام والأعمدة المرمر الكبيرة والصغيرة وأنواع الأخشاب، وحفر أساسه وأحكم وضعه واستدعى الصناع والمرخمين، فتأنقوا في صناعته ونقش رخامه على الرسم الذي رسمه لهم، كل ذلك بالحفر بالآلات في الرخام وموهوه بالذهب، فما هو إلا أن ارتفع بنيانه وتشيدت أركانه وظهر للعيان حسن قالبه، وكاد يتم ما قصده من حسن مآربه، حتى وقعت حادثة الفرنسيس، فخرج مع من خرج قبل إتمامه، وبقي على حالته إلى الآن، ولما خرج سكن داره برطلمين واستخرج مخبأة بين داره والسبيل فيها ذخايره ومتاعه فأوصلها للفرنسيس.

ومات الأمير رشوان كاشف وهو من مماليك مراد بك، وكان له أقطاع بالفيوم فكان معظم إقامته بها فاحتكر الورد وما يخرج من مايه والخل المتخذ من العنب، والخيش واتجر في هذه البضايع بمراده واختياره، وتحكم في الإقليم تحكم الملاك في أملاكهم وعبيدهم وذلك قوة واقتدارًا.

ومات الأمير سليم كاشف بأسيوط مطعونًا، وهو من مماليك عثمان بك المعروف بالجرجاوي من البيوت القديمة، وخشداش عبد الرحمن بك عثمان المتوفى في سنة خمس ومايتين وألف بالطاعون الذي مات به إسماعيل بك وخلافه، وتزوج ابنته بعد موته.

وكان ملتزمًا بحصة من أسيوط وشرق الناصري، واستوطن بأسيوط وبنى بها دارًا عظيمة وعدة دور صغار، وأنشا بها عدة بساتين وغرس بها وبشرق الناصري أشجارًا كثيرة، وعمر عدة قناطر وحفر ترعًا وصنع جسورًا وأسبلة في مفاوز الطرق.

وأنشا دارًا بمصر بالمناخلية بسوق الأنماطيين، واشترى دارًا جليلة كانت لسليمان بك المعروف بأبي نبوت بحارة عابدين وعمرها وزخرفها.

وأنشا بأسيوط جامعًا عظيمًا ومكتبًا، فما هو إلا أن أكمل بنيانه حتى قدمت الفرنسيس فاتخذوه سجنًا يسجنون به.

ثم لما قابل المذكور الفرنسيس وأمَّنوه أخذ في إصلاح ما تشعث من البنا وتتميم العمارة، ولم يساعده الوقت إذ ذاك لقلة الأخشاب وآلات البنا فاشتغل بذلك على قدر طاقته، فلما فرغ البنا وقارب التمام ولم يبقَ إلا اليسير وقع الطاعون بأسيوط فمات، والمسجد باقٍ على ما هو عليه الآن، وهو من المباني العظيمة المزخرفة على هيئة مساجد مصر.

وكان المذكور ذا بأس وشدة وإقدام وشجاعة وتهور مشابه لحسن بك الجداوي في هذه الفعال، وموائده مبسوطة وطعامه مبذول وداره بأسيوط مقصد للوارد والقاصد والصادر من الأمرا وغيرهم، وله إغداقات وصدقات وأنواع من البر ومحبة في العمارة وغراس الأشجار واقتنا الأنعام.

وكان متزوجًا بثلاث زوجات إحداهن ابنة سيده عثمان بك توفيت بعصمته، والثانية ابنة خشداشه عبد الرحمن المذكور آنفًا، والثالثة زوجة علي كاشف المعروف بجمال الدين.

وكان ذا بأس، وله صولة وظلم وتجارؤ على سفك الدما، فبذلك خافته عرب الناحية وأهل القرى وقاتل العرب مرارًا وقتل منهم الكثير، وبسكناه بأسيوط كثرت عمارتها وأمنت طرقها برًّا وبحرًا واستوطنها الكثير من الناس لحمايتها وعدم صولة أحد على أهلها، وله مهاداة مع الأمرا المصرية وأرباب الحل والعقد بها والمتكلمين عندهم، فيرسل إليهم الغلال والعبيد والجواري السود والطواشية وغير ذلك.

وله عدة مماليك بيض وسود أعتق كثيرًا منهم، من جملتهم عزيزنا الأمير أحمد كاشف المعروف بالشعراوي، رقيق حواشي الطبع مهذب الأخلاق ذو فروسية في ركوب الخيل ومحبة في العلما واللطفا، وهو من جملة محاسن سيده.

ومات كل من الأمير بكير بك والأمير محمد بك تابع حسين بك كشكش كلاهما بالشام، ومات غير هولا ممن لم يحضرني أسماهم.

واستهلت سنة ست عشرة ومايتين وألف بيوم الخميس

وباستهلالها خفَّ أمر الطاعون.

وفي ليلة الجمعة تلك أرسل عبد العال الأغا وأحضر الشيخ محمد الأمير ليلًا إلى منزله فبيته عنده، ولما أصبح النهار طلع به إلى القلعة وحبسه عند المشايخ بجامع سارية، والسبب في ذلك أن ولد الشيخ المذكور كان من جملة من يستحث الناس على قتال الفرنسيس في الواقعة السابقة في مصر، فلما انقضت هرب إلى جهة بحري ثم حضر بعد مدة إلى مصر، فأقام أيامًا ثم رجع إلى فوة بإذن من الفرنسيس.

فلما حصلت هذه الحركة وتحذروا شدة التحذير، وآخذوا الناس بأدنى شبهة وتقرب إليهم المنافقون بالتجسس والإغرا ذكر بعضهم ذلك لقايمقام وأدخل في مسامعه أن ابن الشيخ المذكور ذهب إلى عرضي الوزير، والتف عليهم فأرسل قايمقام إلى الشيخ قبل تاريخه فلما حضر سأله عن ولده المذكور فأخبره أنه مقيم بفوة، فقال له: لم يكن هناك وإنما هو عند القادمين، قال له: لم يكن ذلك وإن شيتم أرسلت إليه بالحضور، فقال له: أرسل إليه وأحضره، فقام من عنده على ذلك وأمهله ثمانية أيام مدة مسافة الذهاب والمجي، ثم خاطبه على لسان وكيل الديوان أيضًا فوعده بحضوره أو حضور الجواب بعد يومين، واعتذر بعدم أمن الطريق، فلما انقضى اليومان أمروا عبد العال بطلبه وإصعاده إلى القلعة ففعل.

وفيه حضر جملة من عساكر الفرنساوية من جهة بحري، وتواترت الأخبار بوصول القادمين من الإنكليز والعثمانية إلى الرحمانية، وتملكهم القلعة وما بالقرب منها من الحصون الكاينة بالعطف وغيره، وذلك يوم السبت خامس عشرين الحجة.

وفيه حضرت زوجة ساري عسكر كبير الفرنسيس بصحبة أخيها السيد علي الرشيدي أحد أعضا الديوان، وكان خرج بها من رشيد حين ما ملكها القادمون، ونزل بها في مركب وأرسى بها قبالة الرحمانية، فلما حصلت واقعة الرحمانية وأخذت قلعتها حضر بها إلى مصر بعد مشقة وخوف من العربان وقطاع الطريق وغير ذلك، فأقامت هي وأخوها ببيت الألفي بالأزبكية نحو ثلاثة أيام ثم صعد إلى القلعة.

وفيه قربت العساكر القادمة من الجهة الشرقية، وحضرت طوالعهم إلى القليوبية والمنير والخانكة لأخذ الكلف فتأهب قايمقام بليار للقاهم وأمر العساكر بالخروج من أول الليل ثم خرج هو في آخر الليل، فلما كان يوم الأحد رابعه رجع قايمقام ومن معه ووقع بينه وبينهم مناوشة، فلم يثبت الفرنسيس لقلتهم ورجعوا مهزومين، وكتموا أمرهم ولم يذكروا شيًّا.

وفي خامسه رفعوا الطلب عن الناس بباقي نصف المليون، وأظهروا الرفق بالناس والسرور بهم لعدم قيامهم عند خروجهم للحرب، وخلو البلدة منهم وكانوا يظنون منهم غير ذلك.

وفيه أخذت جملة من عدد الطواحين، وأصعدت إلى القلعة وأكثروا من نقل الما والدقيق والأقوات إليها وكذلك البارود والكبريت والجلل والقنابر والبنب، ونقلوا ما في الأسوار والبيوت من الأمتعة والفرش والأَسِرَّة وحملوه إليها، ولم يُبقُوا بالقلاع الصغار إلا مهمات الحرب.

وفيه طلبوا الزيَّاتين وألزموهم بمايتي قنطار زيت سيرج وسمروا جملة من حوانيتهم، وخرج جماعة من الجزارين لشرا الغنم من القرى القريبة، فقبض عليهم عساكر العثمانية القادمة ومنعوهم من العود بالغنم والبقر، وكذلك منعوا الفلاحين الذين يجلبون الميرة والأقوات إلى المدينة، فانقطع الوارد من الجهات البحرية والقليوبية وعزَّت الأقوات وشح اللحم والسمن جدًّا، وأغلقت حوانيت الجزارين، واجتهد الفرنساوية في وضع متاريس خارج البلد من الجهة الشرقية والبحرية وحفروا خنادق وطلبوا الفَعَلة للعمل، فكانوا يقبضون على كل من وجدوه ويسوقونهم للعمل، وكذلك فعلوا بجهة القرافة، وألقوا الأحجار العظيمة والمراكب ببحر إنبابة لتمنع المراكب من العبور، وابتدأوا المتاريس البحرية من باب الحديد ممدودة إلى قنطرة الليمون إلى قصر إفرنج أحمد إلى السبتية إلى مجرى البحر.

وفي ثامنه بعث قايمقام بليار، فأحضر التجار وعظما الناس وسالهم عن سبب غلق الحوانيت، فقالوا له: من وقف الحال والكساد والجلا والموت، فقال لهم: من كان موجودًا

حاضرًا فألزموه بفتح حانوته وإلا فأخبروني عنه، ونزلت الحكام فنادت بفتح الحوانيت والبيع والشرا.

وفي عاشره شرعوا في هدم جانب من الجيزة من الجهة البحرية، وقربت عساكر الإنكليز القادمة من البر الغربي إلى البلد المسماة بنادر عند راس ترعة الفرعونية.

وفيه تواترت الأخبار بأن العساكر الشرقية وصلت أوايلها إلى بنها وطحلا بساحل النيل، وأن طايفة من الإنكليز رجعوا إلى جهة إسكندرية وأن الحرب قايم بها، وأن الفرنساوية محصورون بداخل الإسكندرية والإنكليز ومن معهم من العساكر يحاربون من خارج، وهي في غاية المنعة والتحصين، وأن الإنكليز بعد قدومهم وطلوعهم إلى البر ومحاربتهم المرات السابقة أطلقوا الحبوس عن المياه السايلة من البحر المالح منه إلى الجسر المقطوع حتى سالت المياه وعمت الأراضي المحيطة بالإسكندرية وأغرقت أطيانًا كثيرة وبلادًا ومزارع، وأنهم قعدوا في الأماكن التي يمكن الفرنسيس النفوذ منها بحيث إنهم قطعوا عليهم الطرق من كل ناحية.

وفي ثاني عشره نزلت امرأة من القلعة بمتاعها واختفت بمصر، فأحضر الفرنسيس حكام الشرطة وألزموهم بإحضارها، وهذه المرأة اسمها هوى كانت زوجة لبعض الأمرا الكشاف، ثم إنها خرجت عن طورها وتزوجت نقولا وأقامت معه مدة، فلما حدثت هذه الحوادث جمعت ثيابها، واحتالت حتى نزلت من القلعة وهي على حمار ومتاعها محمول على حمار آخر، فنزلت عند بعض العطف وأعطت المكارية الأجرة وصرفتهم من خارج واختفت، فلما وقع عليها التفتيش وأحضروا المكارية، قالوا: لا نعلم غير المكان الذي أنزلناها به وأعطتنا الأجرة عنده، فشددوا على المكارية ومنعوهم من السروح، وقبضوا على أهل الحارة وحبسوهم، ثم أحضروا مشايخ الحارات وشددوا عليهم وعلى سكان الدور وأعلموهم أنه إن وجدت المرأة في حارة من الحارات ولم يخبروا عنها نهبوا جميع دور الحارة وعاقبوا سكانها، فحصل للناس غاية الضجر والقلق بسبب اختفاها وتفتيش أصحاب الشرطة وخصوصًا عبد العال، فإنه كان يتنكر ويلبس زي النسا ويدخل البيوت بحجة التفتيش عليها، فيزعج أرباب البيوت والنسا، ويأخذ منهن مصالح ومصاغًا ويفعل ما لا خير فيه، ولا يخشى خالقًا ولا مخلوقًا.

وفي خامس عشره قبضوا على ألطون أبي طاقية النصراني القبطي وحبسوه بالقلعة وألزموه بمبلغ دراهم تأخرت عليه من حساب البلاد.

وفي سادس عشره أفرجوا عن محمد أفندي يوسف ونزل إلى بيته، وكذلك الشيخ مصطفى الصاوي لمرضه.

وفيه انقضت دعوة تهمة الشيخ خليل البكري، ومحصلها أن خادم مملوكه ذهب عن لسان المملوك إلى بليار قايمقام وأخبره أنه وصل إلى أستاذه الشيخ خليل البكري المذكور فرمان من عرضي الوزير بالأمان، وكان هذا بإغرا عبد العال ليوقعه في الوبال ويحرك عليه الفرنسيس لحزازة بينه وبينه، فلما حضر الشيخ خليل على عادته عند قايمقام سأله عن ذلك، فجحده فأحضروا الخادم الذي بلَّغ ذلك فصدَّق على ذلك، وأسند إلى المملوك سيده فأحضروا المملوك وسألوه، فقال: نعم، فقالوا له: وأين الفرمان؟ فقال: قراه وقطعه، فقال الفرنساوية: وكيف يقطعه؟ هذا دليل الكذب؛ لأنه لا يصح أن يتلقاه بالقبول ثم يقطعه، فقيل له: ومن أتى به؟ قال: فلان، فألزموا الشيخ بإحضار ذلك الرجل، وحبس المملوك عند عبد العال يومين وحضر الرجل فسألوه فجحد ولم يثبت عليه، وظهر كذب الغلام والخادم، فعند ذلك طلب الشيخ غلامه، فقال قايمقام: إن قصاصه في شريعتنا أن يقطع لسانه، فتشفَّع فيه سيده وأخذه بعد أمور وكلام قبيح قاله الغلام في حق سيده.

وفيه حضر حسين كاشف اليهودي إلى قايمقام وأخبره أن الأمرا الذين بالصعيد خرجوا عن طاعة الفرنساوية وردوا مكاتبتهم التي أرسلوها لهم بعد موت مراد بك، وأنهم مروا وتوجهوا إلى بحري من البر الغربي وعثمان بك الأشقر ذهب من خلف الجبل إلى جهة الشرق، فلما حصل ذلك ركب قايمقام وذهب للست نفيسة وأمَّنها وطيَّب خاطرها وأخبرها أنها في أمان هي وجميع نسا الأمرا والكشاف والأجناد، ولا مواخذة عليهن بما فعله رجالهن.

وفي عشرينه توكل رجل قبطي يقال له عبد الله من طرف المعلم يعقوب بجمع طايفة من الناس لعمل متاريس فتعدى على بعض الأعيان، وأنزلهم من على دوابهم، وعسف وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه، فتشكى الناس من ذلك القبطي وأنهوا شكواهم إلى بليار قايمقام، فأمر بالقبض على ذلك القبطي وحبسه بالقلعة، ثم فردوا على كل حارة رجلين يأتي بهما شيخ الحارة وتدفع لهما أجرة من شيخ الحارة.

وفيه وردت الأخبار بأن الوزير وصل دجوه.

وفي يوم الاثنين سمع عدة مدافع على بعد وقت الضحوة.

وفي ذلك اليوم قبل العصر طلبوا مشايخ الديوان فاجتمعوا بالديوان، وحضر الوكيل والترجمان وطلبهم للحضور إلى قايمقام، فلمَّا حصلوا عنده قال لهم على لسان الترجمان: نخبركم أن الخصم قد قرب منَّا ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنساوية وأن

تنصحوا أهل البلد والرعية بأن يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوهم ولا يتداخلوا في الشر والشغب، فإن الرعية بمنزلة الولد وأنتم بمنزلة الوالد، والواجب على الوالد نصح ولده وتأديبه وتدريبه على الطريق المستقيم التي يكون فيها الخير والصلاح، فإنهم إن داموا على الهدو حصل لهم الخير ونجوا من كل شر، وإن حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار، وأحرقت دورهم ونهبت أموالهم ومتاعهم ويتمت أولادهم وسبيت نساهم وألزموا بالأموال والفِرَد التي لا طاقة لهم بها، فقد رأيتم ما حصل في الوقايع السابقة فاحذروا من ذلك فإنهم لا يدرون العاقبة، ولا نكلفكم المساعدة لنا ولا المعاونة لحرب عدونا، وإنما نطلب منكم السكون والهدو لا غير، فأجابوه بالسمع والطاعة وقولهم كذلك وقري عليهم ورقة بمعنى ذلك، وأمروا الأغا وأصحاب الشرطة بالمناداة على الناس بذلك وأنهم ربما سمعوا ضرب مدافع جهة الجيزة فلا ينزعجوا من ذلك فإنه شنك وعيد لبعض أكابرهم، وأن يجتمع من الغد بالديوان الأعيان والتجار وكبار الأخطاط ومشايخ الحارات ويتلى عليهم ذلك، فلما كان ضحوة يوم الثلاثا اجتمعوا كما ذكر وحصلت الوصية والتحذير، وانتهى المجلس وذهبوا إلى محلاتهم.

وفي ذلك اليوم أشيع حضور الوزير إلى شلقان، وكذلك عساكر الإنكليز بالناحية الغربية وصلوا إلى أول الوراريق.

وفي يوم الجمعة غايته اجتمع المشايخ والوكيل بالديوان على العادة، وحضر أستوف الخازندار وترجم عنه رفاييل بقوله إنه يثني على كل من القاضي والشيخ إسماعيل الزرقاني باعتنائهما فيما يتعلق بأمر المواريث وبيت المال والمصالح على التركات المختومة؛ لأن الفرنساوية لم يبقَ لهم من الإيراد إلا ما يتحصل من ذلك، والقصد الاعتنا أيضًا بأمر البلاد والحصص التي انحلت بموت أربابها، فلازم أيضًا من المصالحة والحلوان والمهلة في ذلك ثمانية أيام، فمن لم يصالح على الالتزام الذي له فيه شبهة في تلك المدة ضبطت حصته ولا يقبل له عذر بعد ذلك، واعلموا أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية فلازم من اعتقادكم ذلك وأركزوه في أذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله تعالى، ولا يغرنكم هولا القادمون وقربهم، فإنه لا يخرج من أيديهم شي أبدًا، وهولا الإنكليز ناس خوارج حرامية وصناعتهم إلقا العداوة والفتن والعثملي مغتر بهم، فإن الفرنساوية كانت من الأحباب الخلص للعثملي فلم يزالوا حتى أوقعوا بينه وبينهم العداوة والشرور، وأن بلادهم ضيقة وجزيرتهم صغيرة ولو كان بينهم وبين الفرنساوية طريق مسلوك من البر لانمحى أثرهم ونُسي ذكرهم من زمان مديد، وتأملوا في شأنهم وأي شي خرج من أيديهم فإن لهم

ثلاثة أشهر من حين طلوعهم إلى البر وإلى الآن لم يصلوا إلينا، والفرنسيس عند قدومهم وصلوا في ثمانية عشر يومًا، فلو كان فيهم همة أو شجاعة لوصلوا مثل وصولنا، وكلام كثير من هذا النمط في معنى ذلك من بحر الغفلة.

ثم ذكر البكري والسيد أحمد الزرو أنه حضر مكتوب من رشيد على يد رجل حناوي لآخر من منية كنانة، يذكر فيه أنه حضر إلى إسكندرية مراكب وعمارة من فرنسا، وأن الإنكليز رجعت إليهم وأن الحرب قايمة بينهم على ظهر البحر، فقال الخازندار: يمكن ذلك وليس ببعيد، ثم نقلوا ذلك إلى بليار قايمقام، فطلب الرجل الراوي لذلك فأحضر الزرو رجلًا شرقاويًّا حلف لهم أنه سمع ذلك بأذنه من الرجل الواصل إلى منية كنانة من رشيد.

شهر صفر الخير سنة ١٢١٦

واستهل بيوم السبت وفي ذلك اليوم قبل المغرب مشى عبد العال الأغا، وشق في شوارع المدينة وبين يديه منادٍ يقول: الأمن والأمان على جميع الرعايا، وفي غد تضرب مدافع وشنك من القلاع في الساعة الرابعة فلا تخافوا ولا تنزعجوا، فإنه حضرت بشارة بوصول بونابارته بعمارة عظيمة إلى الإسكندرية، وإن الإنكليز رجعوا القهقرى، فلما أصبح يوم الأحد في الساعة الرابعة من الشروق ضربت عدة مدافع وتابعوا ضربها من جميع القلاع، وصعد أناس إلى المنارات ونظروا بالنظارات فشاهدوا عساكر الإنكليز بالجهة الغربية وصلوا إلى آخر الوراريق وأول إنبابة ونصبوا خيامهم أسفل إنبابة، وعند وصولهم إلى مضاربهم ضربوا عدة مدافع، فلما سمعها الفرنساوية ضرب الآخرون تلك المدافع التي ذكروا أنها شنك، وأما العساكر الشرقية فوصلت أوايلهم إلى منية الأمرا المعروفة بمنية السيرج والمراكب فيما بينهما من البرين بكثرة.

فعند ذلك عزَّت الأقوات وشحت زيادة على قلتها وخصوصًا السمن والجبن والأشيا المجلوبة من الريف، ولم يبقَ طريق مسلوكة إلى المدينة إلا من جهة باب القرافة، وما يجلب من جهة البساتين من القمح والتبن فيأتي ذلك إلى عرصة الغلة بالرميلة، ويزدحم عليه النسا والرجال بالمقاطف فيسمع لهم ضجة عظيمة، وشح اللحم أيضًا وغلا سعره لقلة المواشي والأغنام، فوصل سعر الرطل تسعة أنصاف، والسمن خمسة وثلاثين نصفًا، والبصل بأربعماية فضة القنطار، والرطل الصابون بثمانين فضة، والشيرج عشرون نصفًا، وأما الزيت فلا يوجد ألبتة، وغلت الأبزار جدًّا، واتفق لي غريبة وهو أني احتجت

إلى بعض أنيسون، فأرسلت خادمي إلى الأبزارية على العادة يشتري منه بدرهم فلم يجده، وقيل له إنه لا يوجد إلا عند فلان هو يبيع الوقية بثلاثة عشر نصفًا، ثم أتاني منه بوقيتين بعد جهد في تحصيله فحسبت على ذلك سعر الإردب فوجدته يبلغ خمسماية ريال أو قريبًا من ذلك، فكان ذلك من النوادر الغريبة.

وفي يوم الاثنين ثالثه حصلت الجمعية بالديوان وحضر التجار ومشايخ الحارات والأغا، وحضر مكتوب من بليار قايمقام خطابًا لأرباب الديوان والحاضرين يذكر فيه أن حضر إليه مكتوب من كبيرهم منو بالإسكندرية صحبة هجانة فرنسيس، وصلوا إليهم من طريق البرية، مضمونه أنه طيب بخير، والأقوات كثيرة عندهم يأتي بها العربان إليهم، وبلغهم خبر وصول عمارة مراكب الفرنساوية إلى بحر الخزر، وأنها عن قريب تصل الإسكندرية، وأن العمارة حاربت بلاد الإنكليز واستولت على شقة كبيرة منها فكونوا مطمينين الخاطر من طرفنا، ودوموا على هدوكم وسكونكم إلى آخر ما فيه من التمويهات، وكل ذلك لسكون الناس وخوفًا من قيامهم في هذه الحالة، وكان وصول هذا المكتوب بعد نيف وأربعين يومًا من انقطاع أخبار مَنْ في إسكندرية ولا أصل لذلك.

وفي ذلك اليوم قتل عبد العال رجلًا ذكروا أنه وُجِدَ معه مكتوب من بعض النسا مرسل إلى بعض أزواجهن بالعرضي، قتل ذلك الرجل بباب زويلة ونودي عليه: هذا جزا من ينقل الأخبار إلى العثملي والإنكليز.

وفيه وصلت العساكر الشرقية إلى العادلية وامتد العرضي منها إلى قبلي منية السيرج، وكذلك الغربية إلى إنبابة ونصبوا خيامهم بالبرين والمراكب بينهم في النيل، وضربوا عدة مدافع وخرج عدة من الفرنساوية خيالة فترامحوا معهم وأطلقوا بنادق، ثم انفصلوا بعد حصة من الليل ورجع كل إلى مأمنه، واستمر هذا الحال على هذا المنوال يقع بينهم في كل يوم.

وفي سادسه زحفت العساكر الشرقية حتى قربوا من قبة النصر، وسكن إبراهيم بك زاوية الشيخ دمرداش، وحضر جماعة من العسكر وأشرفوا على الجزارين من حايط المدبح، وطلبوا شيخ الجزارين ووجدوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس فضربوا عليهم بنادق، فأصيب أحدهم في رجله فأخذوه وهرب الاثنان، وأصيب جزار يهودي ووقع بين الفريقين مضاربة على بعد، وقتل بعض قتلى وأسر بعض أسرى.

ولم يزل الضرب بينهم إلى قريب العصر، والفرنسيس يرمون من القلعة الظاهرية وقلعة نجم الدين والتل، ولا يتباعدون عن حصونهم.

وفي سابعه وقعت مضاربة بين الفريقين ببنادق ومدافع من الصباح إلى العصر أيضًا.

وفيه أشيع موت السيد أحمد المحروقي بدجوة، وكان مريضًا بها وامتنع الوارد من الجهة البحرية بالكلية.

وفيه قبضوا على رجل شبه خدام ظنوه جاسوسًا، فأحضروه عند قايمقام، فسألوه فلم يقر بشي فضربوه عدة مرار حتى ذهل عقله وصار كالمختل، وكرروا عليه الضرب والعقاب وضربوه بالكرابيج على كفوفه ووجهه وراسه حتى قيل إنهم ضربوه نحو ستة آلاف كرباج وهو على حاله، ثم أودعوه الحبس.

وفيه أطلقوا محبوسًا يقال له الشيخ سليمان حمزة الكاتب، وكان محبوسًا بالقلعة من مدة أشهر فأطلق على مصالحة قدرها ألفا ريال.

وفي ثامنه وقعت مضاربة أيضًا بطول النهار ودخل نحو خمسة وعشرين نفرًا من عسكر العثمانية إلى الحسينية، وجلسوا على مساطب القهوة، وأكلوا كعكًا وخبزًا وفولًا مسلوقًا وشربوا قهوة ثم انصرفوا إلى مضربهم.

وأخذ الفرنساوية عسكريًا من أتباع محمد باشا والي غزة والقدس المعروف بأبي مرق، فحبسوه ببيت قايمقام، وأغلقوا في ذلك اليوم باب النصر وباب العدوي.

وفيه زحفت عساكر البر الغربي إلى تحت الجيزة فحضر في صبحها «يني»، وأخبر قايمقام فركب من ساعته وعدى إلى بر الجيزة، فسُمع الضرب أيضًا من ناحية الجيزة وسُمعت طبول الأمرا ونقاقيرهم، واستمر الأمر إلى يوم الثلاثا حادي عشره، فبطل الضرب في وقت الزوال.

ولما حصلوا جهة الجيزة انتشروا إلى قبلي منها، ومنعوا المعادي من تعدية البر الشرقي فانقطع الجالب من الناحية القبلية أيضًا، فامتنع وصول الغلال والأقوات والبطيخ والعجور والخضروات والخيار والسمن والجبن والمواشي، فعزت الأقوات وغلت الأسعار في الأشيا الموجودة منها جدًّا.

واجتمع الناس بعرصة الغلة بالرميلة يريدون شرا الغلة فلم يجدوها، فكثر ضجيجهم وخرج الأكثر منهم بمقاطفهم إلى جهة البساتين ورجع الباقون من غير شي، فأحضر عبد العال القبانية وألزمهم بإحضار السمن، وضرب البعض منهم فأحضروا له في يومين أربعة عشر رطلًا بعد الجهد في تحصيلها وبيعت الدجاجة بأربعين نصفًا، وامتنع وجود اللحم من الأسواق.

واستمر الأمر على ذلك الأربعا والخميس والمضاربة بين الفريقين ساكنة، وأشيع وقوع المسالمة والمراسلة بينهما والمتوسط في ذلك الإنكليز وحسين قبطان باشا، فانسرَّ الناس وسكن جأشهم لسكون الحرب.

وفي ذلك اليوم أغلقوا باب القرافة وباب المجراة، ولم يعلم سبب ذلك ثم فتحوهما عند الصباح من يوم الجمعة ورفعوا عشور الغلة.

وفي يوم الاثنين سابع عشره أطلقوا المحبوسين بالقلعة من أسرى العثمانية، وأعطوا كل شخص مقطع قماش وخمسة عشر قرشًا، وأرسلوهم إلى عرضي الوزير وكان بلغ بهم الجهد من الخدمة والفِعَالة وشيل التراب والأحجار وضيق الحبس والجوع، ومات الكثير منهم، وكذلك أفرجوا عن جملة من العربان والفلاحين.

وفي ليلة الاثنين المذكور سُمع صوت مدفع بعد الغروب عند قلعة جامع الظاهر خارج الحسينية، ثم سمع منها أذان العشا والفجر، فلما أضا النهار نظر الناس فإذا البيرق العثماني بأعلاها والمسلمون على أسوارها فعلموا بتسليمها، وكان ذلك المدفع إشارة إلى ذلك، ففرح الناس وتحققوا أمر المسالمة، وأشيع الإفراج عن الرهاين من المشايخ وغيرهم وباقي المحبوسين في الصباح، وأكثر الفرنساوية من النقل والبيع في أمتعتهم وخيولهم ونحاسهم وجواريهم وعبيدهم وقضا أشغالهم.

وفي ذلك اليوم أنزلوا عدة مدافع من القلعة، وكذلك من قلعة باب البرقية، وأمتعة وفروشًا وبارودًا.

وفي يوم الثلاثا عمل الديوان وحضر الوكيل وأعلن بوقوع الصلح والمسالمة، ووعد أن في الجلسة الآتية يأتي إليهم فرمان الصلح وما اشتمل عليه من الشروط ويسمعونه جهارًا.

وفي ذلك اليوم أكثر اهتمام الفرنساوية بنقل الأمتعة من القلعة الكبيرة وباقي القلاع بقوة السعي.

وفيه أفرجوا عن محمد جلبي أبي دفية، وإسماعيل القلق، ومحمد شيخ الحارة بباب اللوق، والبرنوسي نسيب أبي دفية، والشيخ خليل المنير، وآخرين تكملة ثمانية أنفار ونزلوا إلى بيوتهم.

وفيه سافر عثمان بك البرديسي إلى الصعيد وعلى يده فرمانات للبلاد بالأمن والأمان وسوق المراكب بالغلال والأقوات إلى مصر، ويلاقي ستة آلاف من عسكر الإنكليز حضروا من القلزم إلى القصير.

وفيه شنق الفرنساوية شخصًا منهم على شجرة ببركة الأزبكية قيل إنه سرق.

وفيه أرسل الفرنساوية إلى الوزير، وطلبوا منه جمالًا ينقلون عليها متاعهم فأمر لهم بإرسال مايتي جمل، وقيل أربعماية، مساعدة لهم وفيها من جمال طاهر باشا وإبراهيم بك.

وفي يوم الخميس عشرينه أفرجوا عن بقية المسجونين والمشايخ، وهم: شيخ السادات، والشيخ الشرقاوي، والشيخ الأمير، والشيخ محمد المهدي، وحسن أغا المحتسب، ورضوان كاشف الشعراوي وغيرهم، فنزلوا إلى بيت قايمقام وقابلوه وشكروه، فقال للمشايخ: إن شئتم اذهبوا فسلموا على الوزير، فإني كلمته ووصيته عليكم.

وفيه حضر الوزير ومن معه من العساكر إلى ناحية شبرا، وكذلك الإنكليز وصحبتهم قبطان باشا إلى الجهة الغربية والعساكر تجاههم، ونصبوا الجسر فيما بينهم على البحر وهو من مراكب مرصوصة مثل جسر الجيزة، بل يزيد عنه في الإتقان بكونه من ألواح في غاية الثخن، وله درابزين من الجهتين أيضًا وهو عمل الإنكليز.

وفيه ألصقوا أوراقًا بالطرق مكتوبة بالعربي والفرنساوي، وفيها شرطان من شروط الصلح التي تتعلق بالعامة ونصها:

> ثم إنه أراد الله تعالى بالصلح ما بين عسكر الفرنساوية وعساكر الإنكليز وعساكر العثمانية، ولكن مع هذا الصلح أنفسكم وأديانك ومتاعكم ما أحد يقارشكم وروس عساكر الثلاثة جيوش قد اشترطوا بهذا كما ترونه.
>
> الشرط الثاني عشر: كل واحد من أهالي مصر المحروسة من كل ملة كانت، الذي يريد أن يسافر مع الفرنساوية يكون مطلق الإرادة وبعد سفره كامل ما يبقى عياله ومصالحه ما أحد يعارضهم.
>
> الشرط الثالث عشر: لا أحد من أهالي مصر المحروسة من كل ملة كانت يكون قلقًا من قبل نفسه ولا من قبل متاعه، جميع الذين كانوا بخدمة الجمهور الفرنساوي بمدة إقامة الجمهور بمصر ولكن الواجب أن يطيعوا الشريعة، ثم يا أهالي مصر وأقاليمها جميع الملل أنتم ناظرون لحد آخر درجة الجمهور الفرنساوي ناظرًا لكم ولراحتكم، فيلزم أنتم أيضًا تسلكون في الطريق المستقيمة، وتفتكرون أن الله — جل جلاله — هو الذي يفعل كل شي، وعليه إمضا بليار قايمقام.

وفي يوم الجمعة عملوا الديوان وحضر المشايخ والوكيل، فقال الوكيل: هل بلغكم بقية الشروط الثلاثة عشر، فقالوا: لا، فأبرز ورقة من كمه بالقلم الفرنساوي فشرع يقرؤها والترجمان يفسرها وهي تتضمن الأحد عشر شرطًا الباقية، فقال: إن الجيش الفرنساوي يلزم أن يُخلُوا القلاع ومصر ويتوجهوا على البر بمتاعهم إلى رشيد، وينزلوا في مراكب ويتوجهوا إلى بلادهم، وهذا الرحيل ينبغي أن يسرع به، وأقل ما يكون في خمسين يومًا وأن يساق الجيش من طريق مختص وسر عسكر الإنكليز، والمساعد يلزم أن يقوم لهم بجميع ما يحتاجونه من نفقة ومونة وجمال ومراكب.

والمحل الذي يبدأ منه السعي يكون بالتراضي بين الجمهور والإنكليز والمساعد، وكامل الأمتعة والأثقال تتوجه من البحر ومعهم جيش من الفرنساوي لأجل الحراسة، ولا بد من كون المونة التي تترتب لهم، كالمونة التي كانوا يعطونها هم لجيش الإنجليز وريساهم، وعلى ريسا عساكر الإنكليز وحضرة العثملي القيام بنفقة الجميع، والحكام المتقيدون بذلك يحضرون لهم المراكب ليسفروهم إلى فرنسا من جهة البحر المحيط وأن يقدم كل من حضرة العثملي والإنكليز أربعة مراكب للعليق والعلف للخيل التي يأخذونها في المراكب، وأن يسيروا معهم مراكب للمحافظة عليهم إلى أن يصلوا إلى فرنسا.

وأن الفرنساوية لا يدخلون مينة إلا مينة فرنسا والأمنا والوكلا يقدمون لهم ما يحتاجون إليه نظرًا لكفاية عساكرهم، والمدبرون والأمنا والوكلا والمهندسون الفرنساوية يستصحبون معهم ما يحتاجون من أوراقهم وكتبهم، ولو التي شروها من مصر.

وكل من أهل الإقليم المصري إذا أراد التوجه معهم فهو مطلق السراح مع الأمن على متاعه وعياله، وكذلك من داخل الفرنساوية من أي ملة كانت، فلا معارضة له إلا أن يجري على أحواله السابقة.

وجرحى الفرنساوية يتخلفون بمصر ويعالجهم الحكما وينفق عليهم حضرة العثملي، وإذا عوفوا توجهوا إلى فرنسا بالشروط المتقدم ذكرها، وحكام العثملي يتعهدون مَنْ بمصر منهم.

ولا بد من حاكمَين من طرف الجيشين يتوجهان بمركبين إلى طولون، فيرسلون خبرًا إلى فرنسا ليطلعوا حكامها على الصلح وساير الرسوم، وكل جدال وخصام صدر بين شخصين من الفرنساوية والحلفاء فلا بد أن يقام شخصان حاكمان من الطايفتين ليتكلما في الصلح، ولا يقع في ذلك نقض عهد الصلح.

وعلى كل طايفة معين من العثملي والفرنساوي أن تسلم ما عندها من الأسرى، ولا بد من رهاين من كل طايفة واحد كبير يكون عند الطايفة الأخرى حتى يتوصلوا إلى فرنسا.

ثم قال الوكيل: وقد علمنا الشروط، وما ندري ماذا يكون؟ فقيل له: هذه شروط عليها علامة القبول، وهذا الصلح رحمة للجميع وسيكون الصلح العام، فقال الوكيل: إني أرجو أن يكون هذا الصلح الخصوصي مبدأ للصلح العمومي.

وفيه كثر خروج الناس ودخولهم من الأتباع والباعة والمتنكرين من نقب البرقية المعروف بالغريب، فصار الحرسجية من الفرنساوية يأخذون من الداخل والخارج دراهم ولا يمنعونهم، فلما علم الناس بذلك كثر ازدحامهم، فلما أصبحوا منعوهم فدخلوا وخرجوا من باب القرافة لم يمنعهم الواقفون به من الفرنسيس، بل كانوا يفتشون البعض ويمنعون البعض، وكل ذلك حذرًا من أفعال الطموش وسو أخلاقهم وتولد الشر بسببهم.

وقد دخل بعضهم أكابر الإنكليز وصحبتهم فرنساوية يفرجونهم على البلدة والأسواق، وكذلك دخل بعض أكابر العثمانية فزاروا قبر الإمام الشافعي والمشهد الحسيني والشيخ عبد الوهاب الشعراوي والفرنساوية ينتظرونهم بالباب.

وفي ليلة الاثنين رابع عشرينه نادوا في الأسواق برمي مدافع في صبحه، وذلك لنقل رمة كليبر فلا يرتاع الناس من ذلك، فلما كان في صبح ذلك اليوم أطلقوا مدافع كثيرة ساعة نبش القبر بالقرب من قصر العيني، وأخرجوا الصندوق الرصاص الموضوع فيه رمته ليأخذوه معهم إلى بلادهم.

وفيه أرسلوا أوراقًا ورسلًا للاجتماع بالديوان وهو آخر الدواوين، فاجتمع المشايخ والتجار وبعض الوجاقلية وأستوف الخازندار والوكيل والترجمان، فلما استقر بهم الجلوس أخرج الوكيل كتابًا مختومًا وأخبر أن ذلك الكتاب من ساري عسكر منو بعث به إلى مشايخ الديوان، ثم ناوله لريس الديوان ففضه وناوله للترجمان فقراه والحاضرون يسمعون.

وصورته:

بعد البسملة والجلالة والصدر، نخبركم أنَّا علمنا بكثرة الانبساط أنكم تهتدون بكثرة الحكمة والإنصاف في الموقع الذي أنتم مستمرون فيه، وإن لم تقدروا لتنظيم أهالي البلد بالهدى والطاعة الموجبة منه لحكومة الفرنساوي، فالله

تعالى بسعادة رسوله الكريم — عليه السلام الدايم — ينعم عليكم في الدارين عواض خيراتكم، وأخبرنا المقدام الجسور بونابارته المشهور عن كل ما فعلتم حاكمًا ونافعًا بوصايا لأجلكم سارة، رضي واستراح لتلك الفعال الجيدة، وعرفني أيضًا أنه عن قريب يرسل لكم بذاته جواب جميع مكاتيبكم إليه، فدمتم إلى الآن بخير الهدى، وبقوته تعالى نرى فضايلكم عن قريب، ونواجه سكان محروسة مصر كما هو مأمولنا.

لكن يسركم أن الجمهور المنصور غلب في أقاليم الروم جميع أعداه وبعون الله هادي كل شي سيغلب كذلك العدا في مصر، واعتمدوا بأكثر الاعتماد على الستويان جيرار هذا الذي وضعناه قربكم؛ لأنه هو رجل مشهور بالعدل والاستقامة.

ونوجه إلى هممكم النصيحة إلى زوجتنا الكريمة السيدة زبيدة وولدنا العزيز سليمان مراد أن كليهما حالا كاينان في حصننا في مصر، وتأسفنا جدًّا برحلة المرحوم مراد بك في انتقاله إلى البقاء، ومعلوم فضايلكم أننا أرضينا بإنعام علوفة توجه على عمدة العفايف حضرة الست نفيسة خاتون لما جرت الحكومة الفرنساوية إلى أصدقاها.

وقولوا للقوم إن ما منيتي ومرامي وإبرامي ألا تقيدي بيمنه وخيره، واعتمدوا أيضًا إلى كل ما سيقول لكم الستويان استيو المأمور بتدبير الأمور وكمال العوائد، والله تعالى ينعم عليكم وعلى عيالكم في الأيام بالبشرى والإقبال.

وحرر في أحد عشر مسيدور سنة تسعة من قيام دولة جمهور الفرنساوية الموافق لثامن عشر صفر، وتحته الواحدة غير المنقسمة ممضي عبد الله جاك منو بخطه وختمه.

نُقِل بألفاظه وحروفه وهو من تراكيب لوماكا الترجمان، وكأنه كتب قبل وصول خبر الصلح إلى الإسكندرية.

ثم أخذ الوكيل يقول: إن الجنرال منو انسر بسلوككم حتى الآن وراحة البلد حظ الفقراء، وأن الحكام القادمين لا بد وأن يسلكوا معكم هذا الموضوع، ولا بد من وصول مكاتيب بونابرته بعد أربعة أيام أو خمسة، وأنه لا ينسى أحبابه كما لا ينسى أعداءه، ولو لم يكن له من الحسن إلا جعلكم وسايط لإغاثة الناس لكان كافيًا، وأنكم تعلمون أنه كان نظر إلى أحوال المارستان ومصالح المرضى، وكان قصده أن يبني جامعًا ولكن عاقه توجهه إلى الشام، وذكر كثيرًا من أمثال هذه الخرافات والتمويهات.

ثم أخرج ورقة بالفرنساوي وقراها بنفسه حتى فرغ منها، ثم قرا ترجمتها بالعربي الترجمان رفاييل، ومضمونها حصول الصلح وتمويهات وهلسيات ليس في ذكرها فايدة.

ولما انتهى من قراءتها أبرز أيضًا أستوف الخازندار ورقة وقراها بالفرنساوي، ثم قرا ترجمتها بالعربي الترجمان وهي في معنى الأولى.

وصورتها:

خطاب محبة من حضرة أستوف مدبر الحدود العام في مجلس الديوان العالي في سبعة عشر مسيدور سنة تسع من المشيخة الفرنساوية.

يا مشايخ ويا علما وغيرهم، أعلمكم أنه ما عليَّ أني أكلمكم في أسباب خروجنا من الديار المصرية، بل وظيفتي تدبير أمور السياسة فقط، ومجي عندكم لأجل أن أعرفكم قدر ما هو حاصل من الصعوبة، كل واحد منكم رأى المحبة والأخوة التي كانت موجودة ما بين الفرنساوية وما بين أهل الديار المصرية، قد كان الجيش والأهل المذكورون مثل الرعية الواحدة.

واسم حضرة بونابارته القنصل الأول من جمهور الفرنساوية في عز الكفالة عندكم وعندنا.

كم مرة يا مشايخ ويا علما فقد تمت صحبتنا لأجل سيرة هذا الشجاع الأعظم المعان بقوة الله الذي عقله ما له مثيل، كان يستحق أن يكون حاكمًا عليكم، دايمًا عرفتموني عن المحبة والشفقة الذي مضت منه لكم، ومن وقت ما التزم بسبب التعب الذي حصل له في بلده أن يتوجه إليه ما ضاع منكم العشم أن يترتب في الديار المصرية التدبير العدل، والمنافقة الذي كان وعدكم به وقت ما كان عندكم، وصحيح يا مشايخ وعلما أن حكم الفرنساوي كان يتم ما عاهدكم به الذي هو كبيرهم بونابارته دايمًا رأى لكم في الخير والمحبة إلى رعاية الديار المصرية لما لها نظير.

كم مرة كرر إلى حضرة سر عسكر منو أنه ينظر إليكم في كامل الأمور بالخير، وكام نوبة حضرة منو المذكور أثبت أن الحكام والجيوش لما أمنوه أعطوه الأمان في أحسن محل وفي حكم سر عسكر منو صار أن كثرة الظلم والجور الذي كان مستقلينه الرعية قد أبطله، والعدل الذي كان ممنوعًا عنكم في الأحكام السابقة قد وصل إليكم بواسطته.

وأيضًا في مدة حكمه رأيتم أن نقضي تحصيل الأموال بالشفقة إلى الرعايا، ولما كان التزم بسبب الحرب أنه يرتب تدبيرًا في تحصيل الأموال، وهذا التدبير

يكون في حد العدل والخير لأهل الديار المصرية، ونحن كنا صحبته في تدبير هذا الشغل العمومي، وأنتم تعرفون أن خير أو خراب الرعايا من تدبير مثل هذا.

وكذلك حضرة سر عسكر منو قبل ما يتوجه إلى السفر بمدة كان أمر بمسح الديار المصرية، وكان وكَّل لذلك مدبرين ونحن من جملتهم، والمدبرون المذكورون كانوا بدأوا في إتمام هذا الأمر الذي هو كنز لكامل الناس، لكن كل ذلك ما كان يكفي له وكان صعبان عليه من أمور الفلت الذي يقع من العربان الذين حواليكم، وأيضًا من الخوف الذي عندكم بسببهم، وكان في عقله أن يزيلهم من على وجه الأرض لأجل راحة الفلاحين ولأجل إتمام الخير والصلاح.

وكذلك مراده يا مشايخ ويا علما أن يسفر في هذه السنة الحج الشريف، ويفتح زيارة طنطا لأجل حفظ مقام السيد أحمد البدوي، ويظهر جميع ما تشهرونه وكامل ما تمشون فيه، من اللازم أنكم تعرفون جميع ما صدر لكم من الخيرات بواسطة حكم الفرنساوية، هذا ورعاية الديار المصرية جربه بعض منهم، وفي عشمي أنهم لم ينسوه أبدًا.

صحيح أن حكم الفرنساوي حقق الكل، والذي يعجب الأكثر إلى الرعايا بسبب ذلك ذات الفرنساوية قتلوا فيه لأجل منع الظلم والتعب الذي كانوا فيه والقرانات في بلاد الغرب خافوا أن رعاياهم يقبلون الحكم المذكور، وبسبب ذلك ارتبطوا مع بعضهم لأجل ما يمنعوه منا لكن كل جهاتهم صارت بطالة، وقد حاربونا حربًا شديدًا مدة عشر سنين متوالية، وفي جميع المطارح وقعت لهم الهزيمة، وحكمنا قد بقي محله، وكذلك هو الباقي دايمًا أبدًا فلا يحتاج أننا نعرفكم في الذي تعرفونه، ويكفينا الآن أننا نحقق لكم من عند حضرة القنصل الأول في الجمهور الفرنساوي بونابرته ومن عند حضرة سر عسكر منو المحبة والشفقة الصادقة التي واقعة من الفرنساوية إلى الرعايا المصرية، وهذه المحبة والعشم لم ينقطعا أبدًا بسبب سفر جانب من الجيش.

وهلبت أن يصادف يوم أننا نرجع إلى عندكم لأجل تمام الخير الذي يصدر من حكم الفرنساوي، والذي ما أمكننا تتميمه فلا تتوهموا يا مشايخ ويا علما أن فراقنا لم يقع إلا عن مدة، وذلك محقق عندي ولا بد أن دولتنا يربطون ثانيًا في مدة قريبة المحبة القديمة التي كانت بينهم وبينكم.

وهلبت أن دولة العثمانية لما تسير على الجرف الخالي الذي عمل لهم الإنكليز يرون أن الفرنساوية في طلب الديار المصرية ليس لهم إلا ربط زيادة محبة صحبتهم لأجل كسر نفس وطيش الإنكليز الذين مرادهم نهب جميع البحور ومتاجر الدنيا، انتهى.

وهو من تعريف أبي ديه وإنشا أستوف بالفرنساوي.

ولما فرغوا من قراته قيل له: إن الأمر لله والملك له وهو الذي يمكن منه من شاء.

وانفض الديوان وركب المشايخ وخرجوا للسلام على الوزير يوسف باشا الذي يقال له الصدر الأعظم والسلام على القادمين معه أيضًا من أعيان دولتهم والأمرا المصرية، وكانوا عزموا على الذهاب في الصباح فعوقوا لبعد الديوان.

وأما الشيخ السادات فإنه خرج للسلام من أول النهار، وكتب لهم قايمقام أوراقًا للحرسجية؛ لأنهم مستمرون على منع الناس من الدخول والخروج وأبواب البلد مغلقة، وكان خروجهم من طريق بولاق، فلما وصلوا إلى العرضي سلموا على إبراهيم بك، وتوجه معهم إلى الوزير فلما وصلوا إلى الصيوان أمروهم برفع الطيلسان التي على أكتافهم وتقدموا للسلام عليه، فلم يقم لقدومهم فجلسوا ساعة لطيفة وخرجوا من عنده، وسلموا أيضًا على محمد باشا المعروف بأبي مرق وعلي المحروقي والسيد عمر مكرم وباتوا تلك الليلة بالعرضي، ثم عادوا إلى بيوتهم، وفي ثاني يوم عدوا إلى البر الغربي وسلموا على قبطان باشا ورجعوا إلى منازلهم، وفيه أرسل إبراهيم بك أمانًا لأكابر القبط فخرجوا أيضًا وسلموا ورجعوا إلى دورهم، وأما يعقوب فإنه خرج بمتاعه وعازقه وعدى إلى الروضة، وكذلك جمع إليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى، واجتمعت نساهم وأهلهم وذهبوا إلى قايمقام وبكوا وولولوا، وترجوه في إبقاهم عند عيالهم وأولادهم فإنهم فقرا وأصحاب صنايع ما بين نجار وبنا وصايغ وغير ذلك، فوعدهم أنه يرسل إلى يعقوب أنه لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه.

وفيه ذهب بليار قايمقام وصحبته ثلاثة أنفار من عظما الفرنسيس إلى العرضي، وقابلوا الوزير فخلع عليهم وكساهم فراوي سمور ورجعوا.

وفي يوم الأربعا تاسع عشره خرج المسافرون مع الفرنساوية إلى الروضة والجيزة بمتاعهم وحريمهم، وهم جماعة كثيرة من القبط وتجار الإفرنج والمترجمين وبعض المسلمين ممن تداخل معهم وخاف على نفسه بالتخلف، وكثير من نصارى الشوام والأروام مثل «يني» و«برطلمين» و«يوسف الحموي»، و«عبد العال» الأغا أيضًا طلق

زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه حمله من طقم وسلاح وغيره، فكان إذا باع شيًّا يرسل خلف المشتري ويلزمه بإحضار ثمنه في الحال قهرًا، ولم يصحب معه إلا ما خف حمله وغلا ثمنه.

وفيه حضر وكيل الديوان إلى الديوان، وأحضر جماعة من التجار وباع لهم فراش المجلس بثمن قدره ستة وثلاثون ألف فضة على ذمة السيد أحمد الزرو، وفي ذلك اليوم أيضًا فتحوا باب الجامع الأزهر وشرعوا في كنسه وتنظيفه، وفي ذلك اليوم وما بعده دخل بعض الإنجليز ومروا بأسواق المدينة يتفرجون وصحبتهم اثنان أو واحد من الفرنسيس يعرفونهم الطرق، وأشيع في ذلك اليوم ارتحال الفرنساوية ونزولهم من القلاع وتسليمهم الحصون من الغد وقت الزوال، فلما أصبح يوم الخميس ومضى وقت الزوال لم يحصل ذلك فاختلفت الروايات، فمن الناس من يقول ينزلون يوم الجمعة، ومنهم من يقول إنهم أخذوا مهلة ليوم الاثنين، وبات الناس يسمعون لغط العساكر العثمانية وكلامهم ووطء نعالاتهم، فنظروا فإذا الفرنساوية خرجوا بأجمعهم ليلًا وأخلوا القلعة الكبيرة وباقي القلاع والحصون والمتاريس، وذهبوا إلى الجيزة والروضة وقصر العيني، ولم يبقَ منهم شبح يلوح بالمدينة وبولاق ومصر العتيقة والأزبكية، ففرح الناس كعادتهم بالقادمين، وظنوا فيهم الخير وصاروا يتلقونهم ويسلمون عليهم ويباركون لقدومهم والنسا يلقلقن بألسنتهن من الطيقان وفي الأسواق، وقام للناس جلبة وصياح، وتجمع الصغار والأطفال كعادتهم ورفعوا أصواتهم بقولهم: نصر الله السلطان ونحو ذلك.

وهولا الداخلون دخلوا من نقب الغريب المنقوب في السور، وتسلقوا أيضًا من ناحية العطوف والقرافة، وأما باب النصر والعدوي فهما على حالهما مغلوقان لم يأذنوا بفتحهما خوفًا من تزاحم العسكر ودخولهم المدينة دفعة واحدة، فيقع فيهم الفشل والضرر بالناس، وباب الفتوح مسدود بالبنا.

فلما تضحى النهار حضر قبي قول وفتح باب النصر والعدوي، وأجلس بهما جماعة من الينكجرية، ودخل الكثير من العساكر مشاة وركبانًا أجناسًا مختلفة.

ودخلت بلوكات الينكجرية وطافوا بالأسواق، ووضعوا نشاناتهم ورنكهم على القهاوي والحوانيت والحمامات، فامتعض أهل الأسواق من ذلك.

وكثر الخبز واللحم والسمن والشيرج بالأسواق، وتواجدت البضايع وانحلت الأسعار وكثرت الفاكهة مثل العنب والخوخ والبطيخ، وتعاطى بيع غالبها الأتراك والأرنؤد فكانوا يتلقون من يجلبها من الفلاحين بالبحر والبر، ويشترونها منهم بالأسعار الرخيصة، ويبيعونها على أهل المدينة وبولاق بأغلى الأثمان.

ووصلت مراكب من جهة بحري، وفيها البضايع الرومية واليميش من البندق واللوز والجوز والزبيب والتين والزيتون الرومي.

فلما كان قبل صلاة الجمعة وإذا بجاويشية وعساكر وأغوات وتلا ذلك حضرة يوسف باشا الصدر، فشق من وسط المدينة وتوجه إلى المسجد الحسيني فصلى فيه الجمعة وزار المشهد الحسيني، ودعاه حضرة الشيخ السادات إلى داره المجاورة للمشهد، فأجابه فدخل معه وجلس هنيهة ثم ذهب إلى الجامع الأزهر فتفرج عليه وطاف بمقصورته وأروقته، وجلس ساعة لطيفة وأنعم على الكناسين والخدمة بدراهم، وكذلك خدمة المسجد الحسيني، ثم ركب راجعًا إلى وطاقه بناحية الحلي بشاطئ النيل.

وعملوا في ذلك الوقت شنكًا وضربوا مدافع كثيرة من العرضي والقلعة، ودخل قلقات الينكجرية وجلسوا بروس العُطف والحارات وكل طايفة عندها بيرق، ونادوا بالأمان والبيع والشرا، وطلب أوليك القلقات من أهل الأخطاط المآكل والمشارب والقهوات وألزموهم بذلك.

وانحاز الفرنساوية إلى جهة قصر العيني والروضة والجيزة إلى حد قلعة الناصرية وفم الخليج، وعليها بنديراتهم ووقف حرسهم عند حدهم يمنعون من يأوي إلى جهتهم من العثمانية، فلا يمر العثماني إلا إلى الجهة الموصلة إلى بولاق، وأما إذا كان من أهل البلد فيمر حيث أراد.

وفي مدة إقامة المشار إليه بساحل الحلي ببولاق خرَّب عساكره ما قرب منهم من الأبنية والسواقي والمتريز الذي صنعه الفرنساوية من حد باب الحديد إلى البحر، وأخذوا ما بذلك من الأفلاق الكثيرة المتهدِّمة والأخشاب المنجرة المرصوصة فوق المتريز وتحته وفي الخندق، فخربوا ذلك جميعه في هذه المدة القليلة، وذلك لأجل وجود النار والمطابخ.

وفي يوم السبت دخل قبي قول وهو المسمى عند المصريين كتخدا الينكجرية وشق المدينة، وأمر بمحو نشانات الإنكشارية من الحوانيت ولم يترك إلا القهاوي.

واستهل شهر ربيع الأول بيوم الأحد سنة ١٢١٦

فيه ركب أغات الينكجرية الكبير العثملي وشق المدينة وخلفه سليم أغا المصري، ودخل الكثير من العساكر والأجناد المصرية بمتاعهم وعازقهم وأحمالهم وطلبوا البيوت وسكنوها، ودخل محمد باشا المعروف بأبي مرق الغزي وهو المرشح لولاية مصر، وسكن ببيت الهياتم بالقرب من مشهد الأستاذ الحنفي، وأرسل إلى المشايخ وكبار الحارات وطلب منهم التعريف عن البيوت الخالية بالأخطاط.

وفي يوم الثلاثا ثالثه حضر حسين باشا القبطان من الجيزة، ودخل المدينة وتوجه إلى المشهد الحسيني فزاره وذبح به خمس جواميس وسبعة كباش واقتسمتها خَدَمة الضريح، وحلَّق تاج المقام بأربعة شيلان كشميري، وأخذ قياس المقام ليصنع له سترًا جديدًا، وفرق عليهم وعلى الفقرا نحو ألفي محبوب ذهب إسلامبولي، وامتدحه صاحبنا العلامة أحد أدبا مصر وفضلاها في العلوم الأدبية الشيخ علي الشرنفاشي بقصيدة مطلعها:

بدر المسرة بالمعالي أمنا والوقت من بعد المخاوف أمنا

وهي طويلة يقول في بيت التاريخ منها:

ولمصرنا نادى السرور مورخًا صدر الكمال حسينه شرف الهنا

وقدمها إليه وهو جالس للزيارة فأعطاه جايزة سنية، ثم ركب وعاد إلى مخيمه بالجيزة.

وفي ذلك اليوم وقعت حادثة: وهو أن شخصًا من العسكر بالجمالية شرب من العرقسوسي شربة عرقسوس ولم يدفع له ثمنها، فكلم العرقسوسي القلق الإنكشاري فأحضره وأمره بدفع ثمنها ونهره وأراد ضربه، فاستل ذلك العسكري الطبنجة وضرب ذلك الحاكم فقتله، وهرب إلى حارة الجوانية ودخل إلى داره وامتنع فيها وصار يضرب بالرصاص على كل من قصده فقتل خمسة أنفار، ومر شخصان من الأرنؤد بتلك الخطة فقتلهما الإنكشارية لكون الغريم أرنؤديًّا من جنسهما، فلما أعياهم أمره حرقوا عليه الدار فخرج هاربًا من النار فقبضوا عليه وقتلوه، ومات تسعة أشخاص في شربة عرقسوس.

ووقع في ذلك اليوم أيضًا أن شخصين من القليونجية دخلا إلى دار رجل نصراني، فأخذا من بيته بقجتين من الثياب، وخرجا فوجدا شخصين مارَّين من الفلاحين فسخراهما في حمل البقجتين فخرج النصراني وشكا إلى القلق، فأمر بالقبض على الشخصين العسكريين فتخلصا وهربا بعد أن انجرح أحدهما، وأخذوا الشخصين المسخرين فقطعوا روسهما ظلمًا وعدوانًا وذلك من مبادي قبايحهم.

وفي يوم الأربعا رابعه ارتحل الفرنساوية، وأخلوا قصر العيني والروضة والجيزة وانحدروا إلى بحري الوراريق، وارتحل معهم قبطان باشا ومعظم الإنكليز ونحو الخمسة آلاف من عسكر الأرنؤد، ومن الأمرا المصرية عثمان بك الأشقر ومراد بك الصغير وأحمد

بك الكلارجي وأحمد بك حسن، فكانت مدة الفرنساوية وتحكمهم بالديار المصرية ثلاث سنوات وواحدًا وعشرين يومًا، فإنهم ملكوا بر إنبابة والجيزة وكسروا الأمرا المصرية يوم السبت تاسع عشر صفر سنة ثلاث عشرة ومايتين وألف، وإن انتقالهم ونزولهم من القلاع وخلو المدينة منهم وانخلاعهم عن التصرف والتحكم ليلة الجمعة الحادي والعشرين من شهر صفر سنة ست عشرة ومايتين وألف، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتحول سلطانه.

وفي ذلك اليوم حضر السيد عمر أفندي نقيب الأشراف، وصحبته السيد أحمد المحروقي شاه بندر التجار بمصر، وعليهما خلعتا سمور وتوجها إلى دورهما.

وفيه نبهوا على موكب حضرة الوزير يوسف باشا من الغد، فلما أصبح يوم الخميس خامسه اجتمع الناس من جميع الطوايف وساير الأجناس، وهرع الناس للفرجة وخرجت البنت من خدرها واكتروا الدور المطلة على الشارع بأغلى الأثمان، وجلس الناس على السقايف والحوانيت صفوفًا، وانجر الموكب من أول النهار إلى قريب الظهر ودخل من باب النصر وشق من وسط المدينة، وأمامه العساكر المختلفة من الأرنؤد وأرط الينكجرية والعساكر الشامية والأمرا المصرلية والمغاربة والقليونجية، وطاهر باشا باشة الأرنؤد، وإبراهيم باشا والي حلب، ومحمد باشا والي مصر، والكتبة وريس الكتاب، وكتخدا الدولة والأغوات الكبار بالطبول والنقرزانات وقاضي العسكر ونواب القضا والعلما المصرية ومشايخ التكايا والدراويش.

وأقبل المشار إليه وأمامه الملازمون بالبراقع والجاويشية والسعاة والجوخدارية، وعليه كرك صوف سنجابي مطرز مخيش وعلى رأسه شلنج بفصوص الماس، وخلفه اثنان عن يمينه وشماله ينثرون دراهم الفضة البيضا ضربخانة إسلامبول على المتفرجين من النسا والرجال، وخلفه أيضًا العدة الوافرة من أكابر أتباعه، وبعدهم الكثير من عسكر الأرنؤد وموكب الخازندار، وخلفه النوبة التركية المختصة به، ثم المدافع وعربات الجبخانات.

وعملوا وقت الموكب شنكًا ضربوا فيه مدافع كثيرة، فكان ذلك اليوم يومًا مشهودًا وموسمًا وبهجة وعيدًا عمت المسلمين فيه المسرات، ونزلت في قلوب الكافرين الحسرات، ودقت البشاير وقرت النواظر، وأمروا بوقود المنارات سبع ليالٍ متواليات، فلله الحمد والمنة على هذه النعمة، ونرجو من فضله أن يصلح فساد القلوب ويوفق أولي الأمر للخير والعدل المطلوب، ويلهمهم سلوك سواء السبيل القويم، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين.

وممن قدم بصحبة ركاب المشار إليه من أكابر دولتهم إبراهيم باشا والي حلب، وإبراهيم باشا شيخ أوغلي، ومحمد باشا المعروف بأبي مرق، وخليل أفندي الرجائي الدفتردار، ومحمود أفندي ريس الكتاب، وشريف أغا نزله أمين، ومحمد أغا جبجي باشا الشهير بطوسون، ووقع الاختيار بأن يكون سكن المشار إليه ببيت رشوان بك بحارة عابدين تجاه بيت عبد الرحمن كتخدا القازدغلي.

وفي يوم الجمعة نودي بإبطال كلف القلقات وإبطال شرك العسكر لأرباب الحرف إلا من شارك برضاه وسماحة نفسه، فلم يمتثلوا لذلك واستمر أكثرهم على الطلب من الناس.

وفي يوم الأحد نودي بأن لا أحد يتعرض بالأذية لنصراني ولا يهودي، سوا كان قبطيًّا أو روميًّا أو شاميًّا فإنهم من رعايا السلطان، والماضي لا يعاد.

والعجب أن بعض نصارى الأروام الذين كانوا بعسكر الفرنسيس تزيوا بزي العثمانية، وتسلحوا بالأسلحة واليقطانات، ودخلوا في ضمنهم وشمخوا بآنافهم وتعرضوا بالأذية للمسلمين في الطرقات بالضرب والسب باللغة التركية، ويقولون في ضمن سبهم للمسلم «فرنسيس كافر»، ولا يميزهم إلا النطق الحاذق أو يكون له بهم معرفة سابقة.

وفيه أرسلوا هجانًا إلى الحجاز ومعه فرمان بخبر الفتح والنصر، وارتحال الفرنساوية من أرض مصر، ودخول العثمانية، ومكاتبات من التجار لشركاهم بإرسال المتاجر إلى مصر.

وفيه أرسلوا فرمانات أيضًا إلى الأقاليم المصرية والقرى بعدم دفع المال إلى الملتزمين، ولا يدفعون شيًّا إلا بفرمان من الوزير.

وفي يوم الاثنين قتلوا شخصًا بالرميلة يسمى حجاجًا كان متولي الأحكام ببولاق أيام الفرنسيس وجار وعسف، وقُتِل معه آخر يقال إنه أخوه.

وفيه أيضًا قتلوا أشخاصًا بالأزبكية وجهات مصر.

وفيه ركب الوزير بثياب التخفيف وشق المدينة، وتأمل في الأسواق وأمر بمنع العسكر من الجلوس على حوانيت الباعة وأرباب الصنايع ومشاركتهم في أرزاقهم، ثم توجه إلى المشهد الحسيني فزاره ثم عبر إلى دار السيد المحروقي وشرفه بدخوله إليه فجلس ساعة، ثم ركب وأعطى أتباعه عشرين دينارًا، وذكر له أنه إنما قصد بحضوره إليه تشريفه وتشريف أقرانه، وتكون له منقبة، وذلك على مر الأزمان.

وأما العسكر فلم يمتثلوا ذلك الأمر إلا أيامًا قليلة، ووقع بسبب ذلك شكاوى ومشاكلات ومرافعات عند العظما.

وفي يوم الثلاثا وصل قاصد من دار السلطنة وعلى يده شال (مثال) شريف من حضرة الهنكار السلطان سليم خان خطابًا لحضرة الوزير ومعه خنجر مرصع بفصوص الماس وهو جواب عن رسالته بدخول بلبيس.

وفيه نودي بتزيين الأسواق من الغد تعظيمًا ليوم المولد النبوي الشريف، فلما أصبح يوم الأربعا كررت المناداة الأمر بالكنس والرش، فحصل الاعتنا وبذل الناس جهدهم وزينوا حوانيتهم بالشقق الحرير والزردخان والتفاصيل الهندية مع تخوفهم من العسكر.

وركب المشار إليه عصر ذلك اليوم، وشق المدينة وشاهد الشوارع، وعند المسا أوقدوا المصابيح والشموع ومنارات المساجد، وحصل الجمع بتكية الكلشني على العادة، وتردد الناس ليلًا للفرجة وعملوا مغاني ومزامير في عدة جهات وقراءة قرآن وضجت الصغار في الأسواق، وعم ذلك ساير أخطاط المدينة العامرة ومصر وبولاق، وكان من المعتاد القديم أن لا يُعتنَى بذلك إلا بجهة الأزبكية وبولاق فقط حيث سكن الشيخ البكري؛ لأن عمل المولد من وظايفه.

وفي يوم الخميس ثاني عاشره سافر سليمان أغا وكيل دار السعادة وصحبته عدة هجانة إلى ناحية الشام لإحضار المحمل الشريف وحريمات الأمرا إلى مصر.

وفيه افتتحوا ديوان مزاد الأعشار والمكوس وذلك ببيت الدفتردار، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وفيه حضر اليسرجي الذي جلب مملوك الشيخ البكري الذي تقدم ذكره إلى بيت القاضي، وأحضروا الشيخ خليل البكري وادَّعى عليه أنه قهره في أخذ المملوك بالفرنسيس وأخذه منه بدون القيمة، وأنه كان أحضره على ذمة مراد بك وطال بينهما النزاع وآل الأمر بينهما إلى انتزاع المملوك من المذكور، وقد كان أعتقه وعقد له على ابنته، فأبطلوا العتق وفسخوا النكاح، وأخذ المملوك عثمان بك الطنبرجي المرادي ودفع للشيخ دراهمه ولجلَّابه باقي الثمن وتجرع فراقه.

وفي يوم الجمعة ركب الوزير وحضر إلى الجامع الأزهر، وصلَّى به الجمعة وخلع على الخطيب فرجية صوف.

وفي ذلك اليوم احترق جامع قايتباي الكاين بالروضة المعروف بجامع السيوطي، والسبب في ذلك أن الفرنسيس كانوا يصنعون البارود بالجنينة المجاورة للجامع، فجعلوا ذلك الجامع مخزنًا لما يصنعونه، فبقي ذلك بالمسجد وذهب الفرنسيس وتركوه كما هو

وجانب كبريت في أنخاخ أيضًا، فدخل رجل فلاح ومعه غلام وبيده قصبة يشرب بها الدخان وكأنه فتح ماعونًا من ظروف البارود ليأخذ منه شيًّا، ونسي المسكين القصبة بيده فأصابت البارود فاشتغل جميعه وخرج له صوت هايل ودخان عظيم، واحترق المسجد واستمرت النار في سقفه بطول النهار، واحترق الرجل والغلام.

وفي يوم الأحد خامس عشره أشيع بأنه كتب فرمان على النصارى أنهم لا يلبسون الملونات، ويقتصرون على لبس الأزرق والأسود فقط، فبمجرد الإشاعة وسماع ذلك ترصد جماعة القلقات لمن يمر عليهم من النصارى، ومن لم يجدوه بثياب ملونة يأخذوا طربوشه ومداسه الأحمر، ويتركوا له الطاقية والشد الأزرق، وليس القصد من أوليك القلقات الانتصار للدين، بل استغنام السلب وأخذ الثياب، ثم إن النصارى صرخوا إلى عظماهم فأنهوا شكواهم، فنودي بعدم التعرض لهم وأن كل فريق يمشي على طريقته المعتادة.

وفي يوم الاثنين طلب الوزير من التجار ماية كيس وعشرة أكياس سلفة من عشور البهار، وألزمهم بإحضارها من الغد، فاجتمع المستعدون لجمع الفردة في أيام الفرنساوية كالسيد أحمد الزرو وكاتب البهار، وأرادوا توزيعها على المحترفين كعادتهم، فاجتمع أرباب الحرف الدنية وذهبوا إلى بيت الوزير والدفتردار، واستغاثوا وبكوا فرفعوا عنهم الطلب وألزموا بها المياسير.

وفيه قلدوا محمد أغا تابع قاسم بك موسقو الإبراهيمي، وجعلوه واليًا عوضًا عن علي أغا الشعراوي.

وفي ثامن عشرينه الموافق لثالث مسرى القبطي كان وفا النيل المبارك، وركب محمد باشا المعروف بأبي مرق المرشح لولاية مصر في صبحها إلى قنطرة السد، وكسروا جسر الخليج بحضرته، وفرق العوايد وخلع الخلع ونثر الذهب والفضة.

وفيه عزل الوزير القاضي، وهو قاضي العرضي الذي كان ولاه الوزير قاضي العسكر بمصر نايبًا عمن يؤول إليه القضا بإسلامبول، فلما تولى ذلك حصل منه تعنت في الأحكام وطمع فاحش وضيق على نواب القضا بالمحاكم، ومنعهم من سماع الدعاوى، ولم يجرِهم على عوايدهم وأراد أن يفتح بابًا في الأملاك والعقار ويقول إنها صارت كلها ملكًا للسلطان؛ لأن مصر قد ملكها الحربيون وبفتحها صارت ملكًا للسلطان، فيحتاج أن أربابها يشترونها من الميري ثانيًا، ووقع بينه وبين الفقها المصرية مباحثات ومناقشات وفتاوى وظهروا عليه، ثم تحامل عليه بعض أهل الدولة وشكوه إلى الوزير

فعزله وقلد مكانه قدسي أفندي نقيب الأشراف بحلب سابقًا، ونقل المعزول متاعه من المحكمة، فكانت مدة ولايته خمسة عشر يومًا.

وفي ذلك اليوم أيضًا خلع الوزير على الأمير محمد بك الألفي فروة سمور وقلده إمارة الصعيد ليرسل المال والغلال، ويضبط مواريث من مات بالصعيد بالطاعون، فبرز خيامه من يومه إلى ناحية الآثار وأسكن داره بالأزبكية ريس أفندي.

وفي يوم الجمعة حضر الوزير إلى جامع المؤيد وصلى به الجمعة.

وفيه قبضوا على عرفة بن المسيري وحبس ببيت الوزير بسبب أخيه إبراهيم كان شيخ مرجوش، وتقيد بقبض فردة الفرنسيس ثم ذهب إلى المحلة وتوفي بها، فغمزوا على أخيه عرفة المذكور وقبضوا عليه وحبسوه، وأرسلوا فرمانًا إلى المحلة بضبط ماله، وما يتعلق به وبأخيه عند شركاهما ثم نهبوا بيت المذكور.

وفي يوم الثلاثا رابع عشرينه طلبت ابنة الشيخ البكري، وكانت ممن تبرج مع الفرنسيس بمعينين من طرف الوزير، فحضروا إلى دار أمها بالجودرية بعد المغرب وأحضروها ووالدها، فسألوها عما كانت تفعله؟ فقالت: إني تبت من ذلك، فقالوا لوالدها: ما تقول أنت؟ فقال: أقول إني بري منها، فكسروا رقبتها، وكذلك المرأة التي تسمى هوى التي كانت تزوجت نقولا القبطان، ثم أقامت بالقلعة وهربت بمتاعها وطلبها الفرنساوية وفتش عليها عبد العال وهجم بسببها عدة أماكن كما تقدم ذكر ذلك، فلما دخل المسلمون وحضر زوجها مع من حضر وهو إسماعيل كاشف المعروف بالشامي أمَّنها وطمنها، وأقامت معه أيامًا فاستأذن الوزير في قتلها فأذنه فخنقها في ذلك اليوم أيضًا ومعها جاريتها البيضا أم ولده، وقتلوا أيضًا امرأتين من أشباههن.

وفي يوم الأربعا أرسلوا طايفة معينين من طرف محمد باشا أبي مرق إلى أخي الشواربي شيخ قليوب، فأحضروه على غير صورة ماشيًا مكتوفًا مسحوبًا مضروبًا من قليوب إلى مصر فحبسوه ببيت الوزير، ثم حضر أخوه وصالح عليه بعشرة أكياس قام بدفعها وأطلق، قيل إن السبب في ذلك أن جماعة من أتباع محمد باشا ذهبوا إلى قليوب، وطلبوا تبنًا فطردهم وشتمهم وردهم من غير شي، وقيل إن ذلك بإغرا ابن المحروقي لضغين بينه وبينه قديم.

وفي آخره تحرر ديوان العشور فكان المتحصل ستة عشر ألف كيس.

وفيه تشاجر طايفة من الينكجرية مع طايفة من الإنكليز بالجيزة، وقتل بينهما أشخاص فنودي على الينكجرية، ومنعوا من التعدي إلى بر الجيزة.

وفيه كثر اشتغال طايفة العسكر بالبيع والشرا في أصناف المأكولات، وتسلطوا على الناس بطلب الكلف، ورتبوا على السوقة وأرباب الحوانيت دراهم يأخذونها منهم في كل يوم، ويأخذون من الخابز الخبز من غير ثمن، وكذلك يشربون القهوة من القهاوي ويحتكرون ما يريدون من الأصناف ويبيعونها بأغلى الأثمان، ولا يسري عليهم حكم المحتسب.

وكذلك تسلطوا على الناس بالأذية بأدنى سبب، وتعرضوا للسكان في منازلهم فتأتي منهم الطايفة ويدخلون الدار ويأمرون أهلها بالخروج منها ليسكنوها، فإن لاطفهم الساكن وأعطاهم دراهم ذهبوا عنه وتركوه، وإن عاند سبوه وضربوه ولو عظيمًا، وإن شكا إلى كبيرهم قوبل بالتبكيت، ويقال له: ألا تفسحون لإخوانكم المجاهدين الذين حاربوا عنكم وأنقذوكم من الكفار الذين كانوا يسومونكم سو العذاب، ويأخذون أموالكم ويفجرون بنساكم وينهبون بيوتكم، وهم ضيوفكم أيامًا قليلة، فما يسع المسكين إلا أن يكلفهم بما قدر عليه، وإن أسعفته العناية وانصرفوا عنه بأي وجه فيأتي إليه خلافهم، وإن سكنوا دارًا أخربوها.

وأما القلقات والينكجرية الذين تقيدوا بحارات النصارى، فإنهم كلفوهم أضعاف ما كلفوا به المسلمين، ويطلبون منهم بعد كلف المأكل واللوازم مصروف الجيب وأجرة الحمام وغير ذلك، وتسلطت عليهم المسلمون بالدعاوى والشكاوى على أيدي أوليك القلقات فيخلصون منهم ما لزمهم بأدنى شبهة ولا يعطون المدعي إلا القليل من ذلك، والمدعي يكتفي بما حصل له من التشفي والظفر بعدوه، وإذا تداعى شخص على شخص أو امرأة مع زوجها ذهب معهم أتباع القلق إلى المحكمة إن كانت الدعوى شرعية، فإذا تمت الدعوى أخذ القاضي محصوله، ويأخذ مثله أتباع القلق على قدر تحمل الدعوى.

واستهل شهر ربيع الثاني بيوم الثلاثا سنة ١٢١٦

فيه أُفرِج عن عرفة بن المسيري وصولح عليه بخمسة عشر كيسًا، وكتب له فرمان برد منهوباته وعدم التعرض لتعلقاته بالمحلة.

وفي يوم الأربعا ثانيه أمر الوزير الوجاقلية بلبس القواويق على عادتهم القديمة، فأخبروا إبراهيم بك، فقال: الأمر عام لنا ولكم أو لكم فقط؟ فقالوا: لا ندري، فسأل إبراهيم بك الوزير المشار إليه، فقال له: بل ذلك عام، فلما كان يوم الجمعة حادي عشره لبس الوجاقلية والأمرا المصرية زيهم من القواويق المختلفة الأشكال على عادتهم القديمة

حسب الأمر بذلك، وكذلك الأمرا الصناجق، وحضروا في يوم الجمعة بديوان الوزير، ونظر إليهم وأعجب بهيئاتهم واستحسن زيهم ودعا لهم وأثنى عليهم وأمرهم أن يستمروا على هيئتهم، وذلك على ما هم فيه من التفليس وغالبهم لا يملك عشا ليلته فضلًا عن كونه يقتني حصانًا وشنشارًا وخدمًا ولوازم لا بد منها ولا غنى للمظهر عنها.

وفيه حضر جماعة من عسكر القبط الذين كانوا ذهبوا بصحبة الفرنساوية، فتخلفوا عنهم ورجعوا إلى مصر.

وفيه أرسلوا تنابيه للملتزمين بطلب بواقي مال سنة ثلاث عشرة وأربع عشرة، فاعتذروا بأنهم ممنوعون من التصرف، فمن أين يدفعون البواقي.

وفي يوم الخميس نبهوا على العساكر المتداخلة في الينكجرية وغيرهم بالسفر.

وفيه كتبت فرمانات باللغة العربية بترصيف صاحبنا العلامة السيد إسماعيل الوهبي المعروف بالخشاب، وأرسلت إلى البلاد الشرقية والمنوفية والغربية مضمونها الكف عن أذية النصارى واليهود أهل الذمة، وعدم التعرض لهم وفي ضمنه آيات قرآنية وأحاديث نبوية، والاعتذار عنهم بأن الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية صيانة أعراضهم وأموالهم.

وفي يوم الجمعة أحضروا رمة زوجة إبراهيم بك وعملوا لها قبرًا بجانب أخيها محمد بك أبي الدهب بمدرسته المقابلة للجامع الأزهر ودفنوها به.

وفي يوم السبت خامسه ورد الخبر بوفاة أحمد بك حسن أحد الأمرا الذين توجهوا صحبة حسين باشا القبطان والفرنساوية، وكان القبطان وجَّهه إلى عرب الهنادي الذين يحملون الميرة إلى الفرنسيس المحصورين بإسكندرية وضم إليه عدة من العسكر، فحاربهم وقاتلهم عدة مرار فأصابته رصاصة دخلت في جوفه فرجع إلى مخيمه ومات من ليلته، وكان يضاهي سيده في الشجاعة والفروسية.

وفيه أطلقوا للملتزمين التصرف في سنة خمس عشرة ليقضوا ما لهم وما عليهم من البواقي ومال الميري والمضاف، ويدفعوا جميع ذلك إلى الخزينة بأوراق مختومة من إبراهيم بك وعثمان بك، والقصد من ذلك اطمينانهم بالجبابة والرجا بالتصرف في المستقبل، ووعدهم بذلك سنة تاريخه بعد دفعهم الحلوان، مع أن الفرنساوية لما استقر أمرهم بمصر ونظروا في الأموال الميرية والخراج فوجدوا ولاة الأمور يقبضون سنة معجلة، ونظروا في الدفاتر القديمة واطلعوا على العوايد السالفة ورأوا أن ذلك كان يقبض أثلاثًا مع المراعاة في ري الأراضي وعدمه، فاختاروا الأصلح في أسباب العمار، وقالوا: ليس من

الإنصاف المطالبة بالخراج قبل الزراعة بسنة، وأهملوا وتركوا سنة خمس عشرة فلم يطالبوا الملتزمين بالأموال الميرية ولا الفلاحين بالخراج، فتنفست الفلاحون وراج حالهم، وتراجعت أرواحهم مع عدم تكليفهم كثرة المغارم والكلف وحق طرق المعينين ونحو ذلك.

وفي يوم الثلاثا ثامنه وصلت قافلة شامية وبها بضايع وصابون ودخان، وحضر السيد بدر الدين المقدسي والحاج سعودي الحناوي وآخرون، وتراجع سعر الصابون والقناديل الخليلي والدخان.

وفيه ورد الخبر بسفر الفرنساوية ونزولهم المراكب من ساحل أبي قير.

وفي يوم الأحد حبس حسن أغا محرم المنفصل عن الحسبة وطولب بمايتي كيس، وذلك معتاد الحسبة في الثلاث سنوات التي تولاها أيام الفرنساوية، فإنه لما تقلد أمر الحسبة في أيامهم منعوه من أخذ العوايد والمشاهرات من السوقة، وجعلوا له مرتبًا في كل يوم يأخذه من الأموال الديوانية نظير خدمته، وكذلك أتباعه وطالبوه أيضًا بأربعة آلاف غرش كان أعطاها له نزله أمين عند حضورهم في العام الماضي لمشتروات الذخيرة، ثم نقض الصلح عقيب ذلك وخرجوا من مصر وبقيت بذمته، فأخبر أن الفرنساوية علموا بها وأخذوها منه وأعطوه ورقة بوصول ذلك إليهم، فلم يقبلوا منه ذلك وبقي معتقلًا وادعوا عليه أيضًا بتركة الأغا الذي كان نزيله ومات عنده واحتوى على موجوده، فأخبر أيضًا أن الفرنسيس أخذوا منه ذلك أيضًا وأعطوه سندًا فلم يقبلوا منه ذلك واستمر محبوسًا.

وفي يوم الاثنين رابع عشره نودي على أن أهل البلدة لا يصاهرون العساكر العثمانية ولا يزوجونهم النسا، وكان هذا الأمر كثر بينهم وبين أهل البلد وأكثرهم النسا اللاتي دُرْن مع الفرنساوية، ولما حضر العثمانية تحجبن وتنقبن وتوسط لهن أشباههن من الرجال والنسا، وحسنوهن للطلاب ورغبوا فيهن الخطاب، فأمهروهن المهور الغالية وأنزلوهن المناصب العالية، وفي ذلك اليوم أيضًا نودي على أهل الذمة بالأمن والأمان، وأن المطلوب منهم جزية أربع سنوات.

وفيه قُبِض على جربجي موسى الجيزاوي وعُمِل عليه عشرون كيسًا.

وفيه قبض محمد باشا أبو مرق على مقدمه مصطفى الطاراتي، وضربه علقة وحبسه وألزمه بمبلغ دراهم.

وفيه سافر الإنكليزية الذين بالجيزة والروضة إلى جهة الإسكندرية، وأشيع أن الحرب قايم بين العساكر والفرنسيس الإسكندرانية من يوم الاثنين سابعه، فطلبوا

المراكب حتى شح وجودها وضاق الحال بالمسافرين، واستمر طلبهم ونزولهم عدة أيام وكذلك نبهوا على الكثير من العساكر الإسلامية بالسفر.

وفي يوم الخميس نقضت الأوامر بتصرف الملتزمين في البلاد، وقيدت صيارف من نصارى القبط بالنزول إلى البلاد لقبض الأموال في غير أوانها لطرف الدولة.

وفي يوم الجمعة ثامن عشره لبس الأمرا الكبار القواويق على روسهم.

وفيه قُبِض من مصطفى الطاراتي المعتقل المتقدم ذكره خمسة عشر ألف ريال ولم يزل معتقلًا، وقيل إنه غمز عليه فوُجِد له في مكانٍ صندوقان ضمنهما ذهب نقد عين، ومصطفى هذا كان كلارجيًّا عند قايد أغا حين كان بمصر، فلما خرج الأمرا تقيد مقدمًا عند بونابارته ثم عند كليبر، فلما وقعت الفتنة السابقة وظهر يعقوب القبطي وتولى أمر الفردة وجمع المال تقيد بخدمته وتولى أمر اعتقال المسلمين وحبسهم وعقوبتهم وضربهم، فكان يجلس على الكرسي وقت القايلة ويأمر أعوانه بإحضار أفراد المحبوسين من التجار وأولاد الناس، فيمثل بين يديه ويطالبه بإحضار ما فرض عليه مما لا طاقة له به ولا قدرة له على تحصيله، فيعتذر بخلو يده ويترجى إمهاله، فيزجره ويسبه ويأمر بضربه فيبطحونه، ويضرب بين يديه ويرده إلى السجن بعد أن يأمر أحد أعوانه أن يذهب إلى داره وصحبته الجماعة من عسكر الفرنسيس، ويهجمون على حريمه وأمثال ذلك.

وفي يوم الأحد وردت أخبار من إسكندرية بتملك العساكر الإسلامية والإنجليزية متاريس الفرنساوية، وأخذهم المتاريس التي جهة العجمي وباب رشيد وجانبًا من إسكندرية القديمة، وتخطت المراكب وعبرت إلى المينة، وأن الفرنساوية انحصروا داخل الأبراج وأخذ منهم نحو المابة وسبعين أسيرًا، وقتل منهم عدة وافرة ووقعت بين الفريقين مقتلة عظيمة لم يقع نظيرها، وقتل الكثير من عسكر قبطان باشا، وكذلك من الإنجليز ثم انجلت الحرب عما ذكر، فلما ورد الخبر بذلك ضربوا عدة مدافع وسُرَّ الناس بذلك.

وفيه ورد الخبر بوصول سليمان صالح بك إلى بلبيس وصحبته المحمل والحريمات، وأحضر معه رمة سيده صالح بك ليدفنها بمصر بالقرافة، فخرج أناس لملاقاتهم وأخذوا معهم حمير مكارية لكراوي النسا وهدية.

وفي يوم الاثنين وصل سليمان أغا إلى بركة الحاج وصحبته المحمل ونسا الأمرا القادمين من الشام، ومعه أيضًا رمة صالح بك ليدفنها بقرافة مصر، فخرج الناس لملاقاتهم، وأخذوا معهم حمير مكارية لركوب النسا وهديات ونودي في عصريته بعمل

موكب من الغد، وطاف ألاي جاويش بزيه المعتاد وخلفه القابجية وهم ينادون باللغة التركية بقولهم: «يارن ألاي»، فلما أصبح يوم الثلاثا ثاني عشرينه عمل الموكب، وانجر الألاي ودخل المحمل من باب النصر وشقوا به من الشارع الأعظم.

وصادف ذلك اليوم يوم مولد المشهد الحسيني والأسواق مزينة، وعلى الحوانيت الشقق الحرير والزردخان والتفاصيل وتعاليق القناديل، ومشى في الموكب رسوم الوجاقلية والأوده باشية وأكثر الأمرا والمشايخ والعلما ونقيب الأشراف، ونُبِّه على جميع الأشراف تلك الليلة بالحضور في صبح ذلك اليوم للمشي في ذلك الموكب، فمشى كل من كان له عمامة خضرا يكبرون ويهللون فكانوا عددًا كثيرًا.

وكل من وجدوه بالطريق وعلى رأسه خضار جذبوه وسحبوه قهرًا، وأمروه بالمشي وإن أبى ضربوه وسبُّوه وبكَّتوه بقولهم: ألست من المسلمين؟ وكذلك تجمَّع أرباب الأشاير ومشوا على عادتهم بطبولهم وزمورهم وخباطهم وخرقهم وخورهم وصياحهم.

فلم يزالوا حتى وصلوا إلى قراميدان، وتسلم المحمل محمد باشا أبو مرق من سليمان أغا الذي وصل به، ولكونه عوضًا عن سيده أمير الحاج صالح بك، ثم صعدوا به إلى القلعة وأودعوه هناك وعملت وقدة وشنك تلك الليلة.

وفي ذلك اليوم شرعوا في فتح باب الفتوح، وكان القصد إدخال المحمل منه لضيق باب الاستتنا الثاني الذي جدده الفرنساوية عند باب النصر، فلم يتأتَّ ذلك لمتانة البنا، واستمروا ثلاثة أيام يهدمون في البنا الذي على الباب من داخل فلم يمكن.

ودفنوا صالح بك بتربة أعدت له بقرافة المجاورين، والعجب أن الناس من القديم يتمنون أن يقبروا بالأرض المقدسة لكونها عش الأنبيا والصديقين، وهؤلا الثلاثة بالعكس فما هو إلا لتطهيرها منهم.

وفيه ورد خبر بإسكندرية بانقضا الحرب وطلب الفرنسيس الصلح بعد وقوع الغلبة عليهم وهزيمتهم، وأخذ منهم عدة أسرى وانحصروا في الأبراج، فأمَّنوهم وأجَّلوهم خمسة أيام آخرها يوم الخميس سابع عشرينه.

وفيه ألزموا حسن أغا المحتسب بالنقلة من داره وهو في الحبس فأرسل إلى حريمه وأتباعه فانتقلوا إلى مكان آخر.

وفيه ورد الخبر أيضًا بورود عثمان كتخدا الدولة الذي كان بمصر في العام السابق، وباشر الحروب بمصر وصحبته آخر يقال له شريف أفندي.

وفي سادس عشرينه قدم محمد أفندي المعروف بشريف أفندي الدفتردار، وقدم بصحبته عثمان كتخدا الدولة وسكن شريف أفندي بدرب الجماميز، وسكن الكتخدا بمنزل حسن أغا المحتسب سابقًا بسويقة اللالا.

وفي غايته عُمِل شنك ومدافع كثيرة، وذلك لوصول خبر بتسليم الإسكندرية، وسبب تأخرهم إلى هذه المدة بعد وقوع الصلح انتظار الأمر بالانتقال من بونابارته، وذلك أنه لما وقع الصلح المتقدم أرسل ساري عسكر منو تطريدة إلى فرنسا بالخبر إلى بونابارته، وانتظر الجواب فورد عليه الأمر بالانتقال والحضور، فعند ذلك أنزلوا متاعهم إلى المراكب وسافروا إلى بلادهم.

شهر جمادى الأولى استهل بيوم الخميس سنة ١٢١٦

فيه قريت فرمانات صحبة عثمان كتخدا، وفيها التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم، مثل جرجس الجوهري وواصف وملطي ومقدمهم في تحرير الأموال الميرية.

وفيه انفصل مولانا السيد محمد المعروف بقدسي أفندي عن القضا وسافر ذلك اليوم، وذلك بمراده واستعفايه وطلبه، وتقلد القضا عوضه عبد الله أفندي قاضي الميري وكاتب الجمرك، وحضر في ذلك اليوم إلى المحكمة.

وفي يوم الخميس ثالثه أفرج عن حسن أغا المحتسب بشفاعة عثمان كتخدا وحسن أغا وكيل قبطان باشا من غير شي وتوجه إلى دار بجوار داره.

وفيه تجمع النسا والفلاحون والملتزمون والوجاقلية ببيت الوزير بسبب الالتزام والمنع من التصرف وحضور الفلاحين للضيق عليهم بطلب المال إلى ملتزميهم ومطالبتهم إياهم بما قبضوه منهم، فلما اجتمعوا وصرخوا سأل الوزير عن ذلك، فأخبروه فأمر بكتابة فرمان بالإطلاق والإذن للملتزمين بالتصرف، ووجهوا الأمر إلى الدفتردار فكتب عليه ثم إلى الروزنامجي كذلك، ثم توجهوا به إلى دفتردار الدولة فتوقف، وبقي الأمر رجاجًا أيامًا وذلك أن القوم يريدون أمورًا مبطونة في نفوسهم وأطماعًا مركوزة في طباعهم.

وفي يوم الاثنين نودي بالزينة ثلاثة أيام: أولها الأربعا، وآخرها الجمعة تاسعه سرورًا بتسليم الإسكندرية، فزينت المدينة وعملت الوقدات بالأسواق والمغاني للفرجة ليلًا ونهارًا، وكل ليلة يعمل شنك نفوط وسواريخ وبارود ببركة الغرابين المطل عليها بيت الوزير.

وفيه حضر نحو ستة أنفار من أعيان الإنكليز وصحبتهم جماعة من العثمانية يفرجونهم على مواطن مزارت المسلمين، فدخلوا إلى المشهد الحسيني وغيره بمداساتهم فتفرجوا وخرجوا.

وفيه تحاسب السيد أحمد المحروقي مع السيد أحمد الزرو على شركة بينهما، فتأخر على الزرو أحد وعشرون كيسًا، فألزمه بإحضارها وحبسه بسجن قواس باشا وأمره بالتضييق عليه.

ولما أصبح يوم السبت لغط الناس باستمرار الزينة سبعة أيام، وانتظروا الإذن في رفع التعاليق فلم يؤذن لهم بشي، فاستمروا طول النهار في اختلاف وحل وربط، ثم أذن لهم قبيل الغروب برفعها بعدما عمروا القناديل، وكان النسا يبتن سهارى بالحوانيت والقلقات يطوفون بالأسواق، فمن وجدوه نايمًا نبهوه بإزعاج.

وفي يوم الاثنين ثاني عشره وقع من طوايف العسكر عربدة بالأسواق، وتخطفوا أمتعة الناس ومن باعة المآكل كالشوا والفطير والبطيخ والبلح، فانزعجت الناس ورفعوا متاعهم من الحوانيت وأخلوا منها وأغلقوها، فحضر إليهم بعض أكابرهم وراطنهم فانكفوا، وراق الحال وتبين أن السبب في ذلك تأخير علايفهم، وذلك أن من عادتهم القبيحة أنه إذا تأخرت عنهم علايفهم فعلوا مثل ذلك بالرعية وأثاروا الشرور، فعند ذلك يطيبون خواطرهم ويوعدونهم أو يدفعون لهم.

وفيه ورد الخبر بتولية محمد باشا خسرو على مصر، وهو كتخدا حسين باشا القبودان فألبس الوزير وكيله خلعة عوضًا عنه، وأشيع عزل محمد باشا أبي مرق وسفره إلى بلاده، وحضر السفار أيضًا من جهة رشيد وإسكندرية، وأخبروا بأن الفرنساوية لم يزالوا بإسكندرية وبنديراتهم على الأبراج، وأن القبطان ومن معه لم يدخلوها وإنما يدخلها معهم الإنكليزية وأنهم ينتظرون إلى الآن الجواب والإذن من مشيختهم، وما أشيع قبل ذلك فلا أصل له، وأما الطايفة الأخرى التي سافرت من مصر، فإنهم نزلوا وسافروا على وفق الشرط من أبي قير كما تقدم.

وفي يوم الخميس ثاني عشرينه وردت مكاتبة من قبطان باشا بطلب عثمان بك المرادي وعثمان بك البرديسي وإبراهيم كتخدا السناري والحاج سلامة تابعه وآخرين، فسافروا في يوم السبت رابع عشرينه.

وفي ليلة السبت المذكور قتلوا شخصًا يسمى مصطفى الصيرفي من خط الصاغة قطعوا رأسه تحت داره عند حانوته، وسبب ذلك أنه كان يتداخل في نصارى القبط

والذين يتعاطون الفِرَد ويوزعونها، وتولى فردة أهل الصاغة وسوق السلاح وتجاهر بأمور نقمت عليه، وأضر أشخاصًا وأُغرِي به فحبس أيامًا، ثم قتل بأمر الوزير وترك مرميًّا ثلاث ليالٍ ثم دفن، وفي صبيحة قتله طاف المشاعلي بالخطة ودوايرها مثل الجمالية والضبيبة والنحاسين وباب الزهومة وخان الخليلي، فجبى من أرباب الحوانيت دراهم ما بين خمسة أنصاف فضة وعشرة، وعند شيله جبى القلقات أيضًا ما يزيد على الماية قرش، وذلك من جملة عوايدهم القبيحة.

وفيه هرب السيد أحمد الزرو فلم يعلم له خبر وذلك بعدما أطلق بضمانة السيد أسعد وابن محرم، فكتب الوزير عدة فرمانات وأرسلها صحبة هجانة إلى جهة الشام، وختموا على دوره، ولم يعلم هروبه إلا بعد أربعة أيام لما داخله من الخوف بقتل الصيرفي المذكور.

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه عقد إبراهيم بك الكبير عقد ابنته عديلة هانم التي كانت تحت إبراهيم بك الصغير المعروف بالوالي الذي غرق بواقعة الفرنسيس بإنبابة — على الأمير سليمان كاشف مملوك زوجها الأول على صداق ألفي ريال، وحضر العقد الشيخ السادات والسيد عمر النقيب والفيومي وبعض الأعيان.

وفي يوم الجمعة غايته قُتِل شخص أيضًا بسوق السلاح، وهو من ناحية المنصورة، وجبى المشاعلية والقلقات دراهم من أرباب الحوانيت مثل ذلك المذكور فيما تقدم.

وانقضى هذا الشهر وحوادثه التي منها الارتباك في أمر حصص الالتزام والمزاد في المحلول، وعدم الراحة والاستقرار على شي يرتاح الناس عليه، ومثل ذلك الرزق الأحباسية والأوقاف.

وحضر شخص تولى النظر والتفتيش على جميع الأوقاف المصرية السلطانية وغيرها وبيده دفاتر ذلك، فجمع المباشرين واستملاهم، وكذلك كاتب المحاسبة وبث المعينين لإحضار النظار بين يديه وحسابهم على الإيراد والمصرف، وأظهر أنه يريد بذلك تعمير المساجد الكاينة بالقرى المصرية، وانضمت إليه الأغوات وطلب كل من كان له أدنى علاقة بذلك، واستمروا على ذلك بطول السنة، ثم انكشف الأمر وظهر أن المراد من ذلك ليس إلا تحصيل الدراهم فقط، وأخذ المصالحات والرشوات بقدر الإمكان بعد التعنت في التحرير والتعلل بإثبات المدعي في الإيراد والمصرف، خصوصًا إذا كان الشخص ضعيفًا وليس من أرباب الوجاهة والمتوجهين أو بينه وبين الكتبة حزازة باطنية، ثم يحررون دفترًا ويحررون الفايظ، ثم يطلبون منه إيراد ثلاث سنوات أو أربع ولم يزل حتى يصالح

على نفسه بما أمكنه، ثم يختمون له ذلك الدفتر ويتركونه وما يدين إن شاء عمر، وإن شاء أَخَّر، فإن انتهت إليهم بعد ذلك شكوى في ناظر وقف سبقت له مصالحة لا تُسمع شكوى الشاكي، ولا يُلتفت إليها ويفعلون هذا الفعل في كل سنة.

ومنها زيادة النيل الزيادة المفرطة عن المعتاد وعن العام الماضي أيضًا حتى غطى الذراع الذي زاده الفرنساوية على عامود المقياس، فإن الفرنساوية لما غيروا معالم المقياس رفعوا الخشبة المركبة على العامود، وزادوا فوق العامود قطعة رخام مربعة مهندمة، وجعلوا ارتفاعها مقدار ذراع مقسوم بأربعة وعشرين قيراطًا، وركبوا عليها الخشبة فسترها الماء أيضًا، ودخل الماء بيوت الجيزة ومصر القديمة وغرقت الروضة، ولم يقع في هذا النيل حظوظ ولا نزهة للناس كعادتهم في البرك والخلجان والمراكب، وذلك لاشتغال الناس بالهموم المتوالية، وخصوصًا الخوف من أذى العسكر وانحراف طباعهم وأوضاعهم وعدم المراكب وتخريب الفرنسيس أماكن النزاهة وقطع الأشجار وتلف المقاصف التي كانت تجلس بها أولاد البلد مثل دهليز الملك والجسر والرصيف وغير ذلك مثل الكازروني والمغربي وناحية قنطرة السد وقصر العيني والقصور.

ومنها أن محمد بك المعروف بالمنفوخ المرادي حصل عنده وحشة من قبطان باشا، فحضر إلى ناحية الأهرام بالجيزة، وطلب الحضور عند الوزير يستجير به، فذهب إليه خشداشه عثمان بك البرديسي وحادثه وأشار عليه بالرجوع إلى جهة القبطان فأقام أيامًا ثم رجع إلى ناحية إسكندرية، والسبب في ذلك ما حصل في الوقعة التي قتل بها أحمد بك الحسيني، قيل إن ذلك بنفاقه عليه، واتضح ذلك للقبطان، وأحضرت العرب مراسلته إليهم بذلك فانحرف عليه القبطان، فلما علم ذلك داخله الخوف ثم أرسل إليه الأمرا والقبطان أمانًا فرجع بعد أيام.

ومنها حضور الجمع الكثير من أهالي الصعيد هروبًا من الألفي وما أوقعه بهم من الجور والمظالم والتقارير والضرايب والغرايم، وحضر أيضًا الشيخ عبد المنعم الجرجاوي والشيخ العارف وخلافهم يتشكون مما أنزله على بلادهم، وطلب متروكات الأموات وأحضر ورثتهم وأولادهم وأطفالهم ومن توسط أو ضبط أو تعاطى شيًّا من القضاة والفقها وحبسهم وعاقبهم وطالبهم وطلب استئصال ما بأيديهم ونحو ذلك، كل ذلك بأمر من الدولة وغير ذلك معين، فحضروا فصالحوا على تركة سليم كاشف باثنين وعشرين ألف ريال بعد أن ختموا على دوره، وبعد أن أزعجوا حريمه وعياله ونطوا من الحيطان، ثم حضروا إلى مصر وأمثال ذلك.

ومنها كثرة تعدي العسكر بالأذية للعامة وأرباب الحرف فيأتي الشخص منهم ويجلس على بعض الحوانيت، ثم يقوم فيدعي ضياع كيسه أو سقوط شي منه، وإن أمكنه اختلاس شي فعل، أو يبدلون الدنانير الزيوف الناقصة النقص الفاحش بالدراهم الفضة قهرًا، أو يلاقشون النسا في مجامع الأسواق من غير احتشام ولا حيا، وإذا صرفوا دراهم أو أبدلوها اختلسوا منها، وانتشروا في القرى والبلدان ففعلوا كل قبيح، فتذهب الجماعة منهم إلى القرية وبيدهم ورقة مكتوبة باللغة التركية، ويوهمونهم أنهم حضروا إليهم بأوامر إما رفع المظالم أو ما يبتدعونه من الكلام المزور، ويطلبون حق طريقهم مبلغًا عظيمًا ويقبضون على مشايخ القرية، ويلزمونهم بالكلف الفاحشة ويخطفون الأغنام، ويهجمون على النسا وغير ذلك مما لا يحيط به العلم، فطفشت الفلاحون وحضر أكثرهم إلى المدينة حتى امتلأت الطرق والأزقة منهم، أو يركب العسكري حمار المكاري قهرًا ويخرج به إلى جهة الخلا فيقتل المكاري ويذهب بالحمار فيبيعه بساحة الحمير، وإذا انفردوا بشخص أو بشخصين خارج المدينة أخذوا دراهمهم أو شلحوهم ثيابهم أو قتلوهم بعد ذلك، وتسلطوا على الناس بالسب والشتم ويجعلونهم كفرة وفرنسيس وغير ذلك، وتمنى أكثر الناس وخصوصًا الفلاحين أحكام الفرنساوية.

ومنها أن أكثرهم تسبب في المبيعات وساير أصناف المأكولات والخضارات، ويبيعونها بما أحبوا من الأسعار ولا يسري عليهم حكم المحتسب ولا غيره، وكذلك من تولى منهم رياسة حرفة من الحرف كالمعمارجية أو غيرهم قبض من أهل الحرفة معلوم أربع سنوات وتركهم وما يدينون، فيسعرون كل صنف بمرادهم وليس له هو التفات لشي سوى ما يأخذه من دراهم الشكاوى، فغلا بسبب ذلك الجبس والجير وأجر الفعلة والبنايين خصوصًا، وقد احتاج الناس لبِنَا ما هدمه الفرنسيس وما تخرب في الحروب بمصر وبولاق وجهات خارج البلد، حتى وصل الإردب الجبس إلى ماية وعشرين نصف فضة، والجير بخمسين نصف فضة، وأجرة البنَّا أربعين فضة، والفاعل عشرين، وأما الغلة فرخيصة، وكذلك باقي الحبوب بكثرتها مع أن الرغيف ثلاث أواقٍ بنصف لما ذكر من عدم الالتفات إلى الأحكام والتسعيرات.

واستهل جمادى الثانية بيوم السبت سنة ١٢١٦

فيه تفكك الجسر الكبير المنصوب من الروضة إلى الجيزة؛ وذلك من شدة الماء وقوته فتحللت رباطاته وانتزعت مراسيه، وانتشرت أخشابه وتفرقت سفنه وانحدرت إلى بحري.

وفي ليلة الأحد ثانيه حصلت زلزلة في ثالث ساعة من الليل.

وفي يوم الاثنين ثالثه قطعوا رأس مصطفى المقدم المعروف بالطاراتي بين المفارق بباب الشعرية، وذلك بعد حبسه أيامًا عديدة وضربه وعقابه حتى تورمت قدماه، وطاف مع المعينين عدة أيام يتداين بواقي ما قرر عليه، ودخل دارًا نافذة وأجلس الملازمين له ببابها وهم لا يعلمون بنفوذها، وأوهم أنه يريد التداين من صاحب الدار، ونَفَذَ من الجهة الأخرى واختفى في بعض الزوايا، فاستعوقه الجماعة ودخلوا إلى الدار فلم يجدوه وعلموا بنفوذها، فقبضوا على خدمة الدار وضربوهم فلم يجدوا عندهم علمًا منه، فأطلقوهم وأوقعوا عليه الفحص والتفتيش فرآه شخص ممن صادره في أيام الفردة، فصادفه في صبحها خارج باب القرافة فقبض عليه وأحضره بين يدي جماعة القلق فدل عليه، فقبضوا عليه وقتلوه بعد القبض عليه بثلاثة أيام، وتركوه مرميًّا تحت الأرجل وسط الطريق وكثرة الازدحام ثلاث ليالٍ، وفعلوا عادتهم في جبي الدراهم من تلك الخطة.

وفيه ورد فرمان من محمد باشا والي مصر بأن يتأهبوا لموكبه على القانون القديم، فكتبوا تنابيه للوجاقلية والأجناد بالتهي للموكب.

وفي يوم الثلاثا وصل شمس الدين بك أميراخور كبير ومرجان أغا دار السعادة، فأرسلوا تنابيه إلى الوجاقلية والأمرا والمشايخ ومحمد باشا وإبراهيم باشا، فاجتمعوا ببيت الوزير، وحضر المذكوران بعد الظهر فخرج الوزير ولاقاهما من المجلس الخارج فسلماه كيسًا بداخله خط شريف، فأخذه وقبله وأحضرا له بقجة بداخلها خلعة سمور عظيمة فلبسها، وسيفًا تقلد به، وشلنج جوهر وضعه على رأسه ودخل صحبتهما إلى القاعة حيث الجمع، ففتح الكيس وأخرج منه الفرمان ففتحه وأخرج منه ورقة صغيرة فسلمها للريس أفندي فقراها باللغة التركية والقوم قيام على أقدامهم، مضمونها الخطاب لحضرة الوزير الحاج يوسف باشا وحسين باشا القبطان والباشات والأمرا والعساكر المجاهدين والثنا عليهم والشكر لصنيعهم وما فتحه الله على يديهم وإخراجهم الفرنسيس ونحو ذلك، ثم وعظ بعض الأفندية بكلمات معتادة ودعوا للسلطان والوزير والعساكر الإسلامية، وتقدم إبراهيم باشا ومحمد باشا وطاهر باشا وباقي الأمرا فقبَّلوا ذيل الخلعة وانصرفوا، وضربوا مدافع كثيرة من القلعة في ذلك الوقت، وفي ذلك اليوم ألبس الوزير الأمرا والباشات فراوي وخلعًا وشلنجات ذهب على روسهم.

وفيه حضرت أطواخ بولاية جدة لمحمد باشا توسون أغات الجبجية، وهو إنسان لا بأس به.

وفيه حضر القاضي الجديد من الروم ووصل إلى بولاق وهو صاحب المنصب، فأقام ثلاثة أيام وصحبته عياله وحريمه، فلما كان يوم السبت ثامنه حضر بموكبه إلى المحكمة، وذهب إليه الأعيان في صبحها وسلموا عليه وله مسيس بالعلم.

وفي يوم الثلاثا حادي عشره عمل الوزير الديوان وحضر عنده الأمرا، فقبض على إبراهيم بك الكبير وباقي الأمرا الصناجق وحبسهم، وأرسل طاهر باشا بطايفة من العسكر الأرنؤد إلى محمد بك الألفي بالصعيد، وكان أشيع هروبه إلى جهة الواحات.

وذهبت طايفة إلى سليم بك أبي دياب وكان مقيمًا بالمنيل، فلما أخذ الخبر طلب الهرب وترك حملته، فلما حضرت العسكر إليه فلم يجدوه، فنهبوا القرية وأخذوا جماله وهي نحو السبعين وهجنه وهي نيف وثلاثون هجينًا، وذهبت إليه طايفة بناحية طرا فقاتلهم ووقع بينهم بعض قتلى ومجاريح، ثم هرب إلى جهة قبلي من على الحاجر، ووقفت طايفة العسكر والأرنؤد بالأخطاط والجهات، وخارج البلد يقبضون على من يصادفونه من المماليك والأجناد.

ونودي في ذلك اليوم بالأمن والأمان على الرعية والوجاقلية، وأطلق الوزير مرزوق بك ورضوان كتخدا إبراهيم بك وسليمان أغا كتخداه المسمى بالحنفي.

وأحاطت العسكر بالأمرا المعتقلين واختفى باقيهم، ونودي عليهم وبالتوعد لمن أخفاهم أو آواهم، وباتوا بليلة كانت أسوأ عليهم من ليلة كسرتهم وهزيمتهم من الفرنسيس، وخاب أملهم وضاع تعبهم وطمعهم وكان في ظنهم أن العثملي يرجع إلى بلاده، ويترك لهم مصر ويعودون إلى حالتهم الأولى يتصرفون في الأقاليم كيفما شاءوا، فاستمروا في الحبس.

ثم تبين أن سليم بك أبا دياب ذهب إلى عند الإنكليز، والتجا إليهم بالجيزة وألبس الوزير سليمان أغا تابع صالح أغا زِيَّ العثمانيين، وجعله سلخور، وأمره أن يتهيأ ليسافر إلى إسلامبول في عرض الدولة.

وفي يوم الاثنين سابع عشره سافر إسماعيل أفندي قبون كاتب حوالة إلى رشيد باستدعاء من الباشا والي مصر، وورد الخبر بوصول كسوة للكعبة من حضرة السلطان، فلما كان يوم الأربعا حضر واحد أفندي وآخرون وصحبتهم الكسوة، فنادوا بمرورها في صبحها يوم الخميس، فلما أصبح يوم الخميس المذكور ركب الأعيان والمشايخ والأشاير

وعثمان كتخدا المنوه بذكره لإمارة الحج، وجمع من الجاويشية والعساكر والقاضي ونقيب الأشراف وأعيان الفقها، وذهبوا إلى بولاق وأحضروها وهم أمامها وفردوا قطع الحزام المصنوع من المخيش ثلاث قطع والخمسة مطوية، وكذلك البرقع ومقام الخليل، كل ذلك مصنوع بالمخيش العال والكتابة غليظة مجوفة متقنة، وباقي الكسوة في سحاحير على الجمال وعليها أغطية جوخ أخضر، ففرح الناس بذلك وكان يومًا مشهودًا.

وأخبر من حضر أنه عندما وصل الخبر بفتح مصر أمر حضرة السلطان بعملها، فصنعت في ثلاثين يومًا، وعند فراغها أمرهم بالسير ليلًا وكان الريح مخالفًا، فعندما حلوا المراسي اعتدل الريح بمشيئة الله تعالى، وحضروا إلى إسكندرية في أحد عشر يومًا.

وفيه وردت الأخبار بأن حسين باشا القبطان لم يزل يتحيل وينصب الفخاخ للأمرا الذين عنده، وهم محترزون منه وخايفون من الوقوع في حباله، فكانوا لا يأتون إليه إلا وهم متسلحون ومحترزون وهو يلاطفهم ويبش في وجوههم إلى أن كان اليوم الموعود به عزم عليهم في الغليون الكبير الذي يقال له أزج عنبرلي، فلما طلعوا إلى الغليون وجلسوا فلم يجدوا القبودان فأحسوا بالشر، وقيل إنه كان بصحبتهم فحضر إليه رسول وأخبره أنه حضر معه ثلاثة من السعاة بمكاتبة، فقام ليرى تلك المراسلة فما هو إلا أن حضر إليهم بعض الأمرا، وأعلمهم أنه ورد خط شريف باستدعاهم إلى حضرة مولانا السلطان، وأمرهم بنزع السلاح فأبوا، ونهض محمد بك المنفوخ وسل سيفه وضرب ذلك الكبير فقتله، فما وسع البقية إلا أنهم فعلوا كفعله، وقاتلوا مَن بالغليون من العساكر وقصدوا الفرار فقتل عثمان بك المرادي الكبير وعثمان بك الأشقر ومراد بك الصغير وعلي بك أيوب ومحمد بك المنفوخ ومحمد بك الحسيني الذي تأمر عوضًا عن أحمد بك الحسيني وإبراهيم كتخدا السناري، وقبض على الكثير منهم وأنزلوهم المراكب، وفر البقية مجروحين إلى عند الإنكليز، وكانوا واقعين عليهم من ابتدا الأمر فاغتاظ الإنكليز وانحازوا إلى إسكندرية، وطردوا من بها من العثمانيين وأغلقوا أبواب الأبراج، وحضر منهم عدة وافرة وهم طوابير بالسلاح والمدافع، واحتاطوا بقبطان باشا من البر والبحر، فتهيا عساكره لحربهم فمنعهم، فطلب الإنجليز بروزه بعساكره لحربهم، فقال: لم يكن بيننا وبينكم حرب، واستمر جالسًا في صيوانه فحضر إليه كبير الإنكليز، وتكلم معه كثيرًا وصمم على أخذ بقية الأمرا المسجونين، فأطلقهم له فتسلمهم وأخذ أيضًا المقتولين ونقل عرضي الأمرا من محطتهم إلى جهة الإسكندرية، وعملوا مشهدًا للقتلى مشى به عساكر الإنجليز على طريقتهم في موتى عظماهم، ووصل الخبر إلى من بالجيزة من الإنكليز،

وذلك ثاني يوم من قبض الوزير على الأمرا، ففعلوا كفعلهم وأخذوا حذرهم وضربوا بعض المدافع ليلًا، وشرعوا في ترتيب آلة الحرب.

وفي ذلك اليوم طلع محمد باشا طوسون والي جدة الساكن ببيت طرا إلى القلعة، وصعد معه جملة من العسكر وشرعوا في نقل قمح ودقيق وقومانية وملوا الصهاريج، وشاع ذلك بين الناس فارتاعوا وداخلهم الوسواس من ذلك، واستمروا ينقلون إلى القلعة مدافع وبارودًا وآلات حرب.

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه حضر كبير الإنجليز الذي بالجيزة، فألبسه الوزير فروة وشلنجًا، وفي ذلك اليوم خلع الوزير على عثمان أغا المعروف بقبي كتخدا، وقلده على إمارة الحج.

وفي ذلك اليوم وقع بين عسكر المغاربة والإنكشارية فتنة ووقفوا قبالة بعضهم ما بين الغورية والفحامين، وأغلقت الناس حوانيتهم بسوق الغورية والعقادين والصاغة والنحاسين، ولم يزالوا على ذلك حتى حضر أغات الإنكشارية، وسكنت الفتنة بين الفريقين.

وفي الخميس سابع عشرينه مروا بزفة عروس بسوق النحاسين وبها بعض الإنكشارية، فحصلت فيهم ضجة ووقع فيهم فشل، فخطفوا ما على العروس وبعض النسا من المصاغ المزينات به، وفي أثنا ذلك مر شخص مغربي فضربه عسكري رومي ببارودة فسقط ميتًا عند الأشرفية، فبلغ ذلك عسكر المغاربة فأخذوا سلاحهم وسلوا سيوفهم، وهاجت حماقتهم وطلعوا يرمحون من كل جهة وهم يضربون البندق ويصرخون، فأغلقت الناس الحوانيت وهرب قلق الأشرفية بجماعته وكذلك قلق الصنادقية، وفزعت الناس ولم يزالوا على ذلك من وقت الظهر إلى الغروب، ثم حال بينهم الليل وقتل المغاربة أربعة أشخاص وأصبحوا محترسين من بعضهم، فحضر أغات الإنكشارية على تخوف، وجلس بسبيل الغورية وحضر الكثير من عقلا الإنكشارية، وأقاموا بالغورية وحوالي جهة الكعكيين والشوايين حيث سكن المغاربة واستمر السوق مغلوقًا ذلك اليوم، ورجعت القلقات إلى مراكزها، وبردت القضية وكأنهم اصطلحوا وراحت على من راح.

وانقضى هذا الشهر بحوادثه التي منها استمرار نقل الأدوات إلى القلعة، وكذلك مراكز باقي القلاع مع أنهم خربوا أكثرها.

ومنها زيادة تعدي العسكر على السوقة والمحترفين والنسا، وأخذ ثياب من ينفردون به من الناس في أيام قليلة.

ومنها استمرار مكث النيل على الأرض وعدم هبوطه حتى دخل شهر هاتور وفات أوان الزراعة، وعدم تصرف الملتزمين وهجاج الفلاحين من الأرياف لما نزل بهم من جور العسكر وعسفهم في البلاد، حتى امتلأت المدينة من الفلاحين، ونودي عليهم عدة مرار بذهابهم إلى بلادهم.

ومنها أن الوزير أمر المصرلية بتغيير زيهم، وأن يلبسوا زي العثمانية فلبس أرباب الأقلام والأفندية والقلقات القواويق الخضر والعنتريات، وضيقوا أكمامهم، ولبس مصطفى أغا وكيل دار السعادة سابقًا وسليمان أغا تابع صالح أغا وخلافهما.

واستهل شهر رجب الفرد سنة ١٢١٦

فكان أوله يوم الأحد، في ثانيه سافر سليمان أغا تابع صالح أغا إلى إسلامبول، وفيه أمر الوزير الأمرا المحبوسين بأن يكتبوا كتابًا إلى الإنكليز بأنهم أتباع السلطان وتحت طاعته، وأمره إن شاء أبقاهم في إمارتهم، وإن شاء قلدهم مناصب في ولايات أخرى، وإن شاء طلبهم يذهبون إليه، فلا دخل لكم بيننا وبينه وكلام في معنى ذلك، فأرسلوا يقولون إن هذا الكلام لا عبرة به فإنهم مسجونون وتحت أمركم ومكتوب المقهور المكره لا يُعمَل به، فإن كان ولا بد فأرسلوهم إلينا لنخاطبهم ونعلم ضميرهم وحقيقة حالهم.

فلما كان ليلة الاثنين تاسعه أحضر الوزير إبراهيم بك والأمرا، وأعلمهم أن قصده إرسالهم إلى بر الجيزة عند الإنجليز ليتفسحوا ذلك اليوم ويخبروهم أنهم مطيعون للسلطان وتحت أوامره، وأن المراسلة التي أرسلوها عن طيب قلب منهم وليسوا مكرهين في ذلك، فأظهر إبراهيم بك التمنع عن الذهاب، وأنه لا غرض له في الذهاب إلى مخالفي الدين فجزم عليه ووعده خيرًا، وعاهدهم وحلفهم.

فنزلوا وركبوا من عنده في الصباح وما صدقوا بالخلاص، وعدوا إلى الجيزة وذهبوا إلى عند الإنجليز، فتبعهم أتباعهم ومماليكهم يرمحون إليهم ويلحقون بهم فأقاموا هناك ولم يرجعوا، فانتظر الوزير رجوعهم خمسة أيام وأرسل إليهم يدعوهم إلى الرجوع حكم عهدهم، فامتنع إبراهيم بك وتكلم بما في ضميره من قهره من الوزير وخيانته له.

وفي يوم السبت عملوا جمعية ببيت الشيخ السادات، واجتمع المشايخ والوجاقلية وذلك بأمر من الوزير، وأرسل إليهم مكاتبة وفي ضمنها النصيحة والرجوع إلى الطاعة، فأرسلوا في جواب الرسالة يقولون إنهم ليسوا مخالفين ولا عاصين وإنهم مطيعون لأمر الدولة، وإنما تأخرهم بسبب خوفهم وخصوصًا ما وقع لإخوانهم بإسكندرية، وإنهم لم

يذهبوا إلى عند الإنجليز إلا لعلمهم أنهم عسكر السلطان ومن المساعدين له على أعدايه، ومتى ظهر لهم أمر يرتاحون فيه رجعوا إلى الطاعة ونحو ذلك من الكلام.

وفي يوم الجمعة سابع عشرينه حضر عابدي بك نسيب مولانا الوزير، فخرج إليه غالب أعيان العثمانية والجاويشية وطاهر باشا وعسكر الأرنؤد وتلقوه، ودخل بحموله في موكب جليل، وكان حضرة الوزير حاصلًا عنده توعك، وغالب أوقاته محتجب عن ملاقاة الناس.

وفيه ورد الخبر بسفر قبطان باشا من ساحل أبي قير إلى الديار الرومية في منتصف الشهر، وأما محمد باشا الوالي على مصر، فإنه لم يزل مقيمًا بأبي قير وحضر خازنداره وسكن ببيت البكري بالأزبكية.

واستهل شهر شعبان بيوم الثلاثا سنة ١٢١٦

فيه حضر يوسف أفندي وبيده مرسوم بولايته على نقابة الأشراف، فبات ببولاق وأرسل ناسًا يعلمون بحضوره فلم يخرج لملاقاته أحد، ثم إن بعض الناس أحضر إليه فرسًا فركبه في ثاني يوم وحضر إلى مصر، وأشاع أنه متولي نقابة الإشراف ومشيخة المدرسة الحبانية.

وخبر ذلك الإنسان أنه كان يبيع الخردة واليميش بحانوت بخان الخليلي، وهو من متصوفة الأتراك الذين يتعاطون الوعظ والإقرا باللغة التركية، فمات شيخ رواق الأروام بالأزهر، فاشتاقت نفسه للمشيخة على الرواق المذكور فتولاها بمعونة بعض سفهاهم، فنقم عليه الطايفة أمورًا واختلاسات من الوقف فتعصبوا عليه وعزلوه وولوا مكانه السيد حسين أفندي المولَّى الآن، فحنق من ذلك وداخله قهر عظيم وحقد على حسين أفندي المذكور، وأضمر له في نفسه المكروه فدعاه يومًا إلى داره ودس له سمًّا في شرابه، فنجاه الله من ذلك، وشربت ابنة يوسف أفندي الداعي تلك الكاسة المسمومة غلطًا وماتت وشاع ذلك، وتواترت حكايته بين الناس ورجع كيده عليه وذاق وبال أمره، كما قيل:

ومن يحتفر بيرًا ليوقع غيره   سيُوقَع بالبير الذي هو حافر

ثم إنه سافر إلى إسلامبول وأقام هناك مدة إقامة الفرنسيس بمصر، ولم يزل يتحيل ويتداخل في بعض حواشي الدولة، وأعرض بطلب النقابة ومشيخة الحبانية فأعطوه ذلك

لعدم علمهم بشأنه، وظنهم أنه أهل لذلك بقوله لهم إنه كان شيخًا على الأزهر ومعرفته بالعلم.

فلما حصل بمصر وظهر أمره تجمعت أعيان الأشراف، وقالوا: لا يكون هذا حاكمًا ولا نقيبًا علينا أبدًا، وتُنُوقِل خبره وظهر حاله لأكابر الدولة وحضرة الصدر الأعظم فلم يصغوا إليه ولم يسعفوه وأهمل أمره، وهكذا شأن رويسا الدولة أدام الله بقاهم، إذا تبين لهم الصواب في قضية لا يعدلون إلى خلافه.

وفيه من الحوادث أنه تقيد بأبواب القاهرة بعض من نصارى القبط، ومعهم بعض من العسكر فصاروا يأخذون دراهم من كل من وجدوا معهم شيًّا سوا كان داخلًا أو خارجًا بحسب اجتهادهم، وكذلك ما يجلب من الأرياف وزاد تعديهم فعم الضرر وعظم الخطب، وغلت الأسعار وكل من ورد بشي يبيعه يشتط في ثمنه، ويحتج بأنه دفع عليه كذا وكذا من دراهم المكس، فلا يسع المشتري إلا التسليم لقوله والتصديق له وقبول عذره.

والسبب في ذلك أن الذين تقيدوا بديوان العشور بساحل بولاق دس عليهم بعض المتقيدين معهم من الأقباط أن كثيرًا من المتاجر التي يؤخذ عليها العشور يذهب بها أربابها من طريق البر ويدخلون بها في أوقات الغفلة تحاشيًا عن دفع ما عليها، وبذلك لا يجتمع المال المقرر بالديوان من ذلك، فأذن كبرا الديوان بذلك فانفتح لهم بذلك الباب، فولجوه ولم يحسبوا للعاقبة من حساب وزادوا في الجور والفضايح، وأظهروا ما في نفوسهم من القبايح، فساءت الظنون واستغاث المستغيثون، وأكثر سخاف الأحلام بما لا طايل تحته من الكلام كما قيل في هذا المعنى:

وكنا نستطب إذا مَرِضنا فصار الداء من قِبَل الطبيب

إلى أن زاد التشكي وأُنهِيَ الأمر إلى الوزير فأمر بإبطال ذلك وانجلت تلك الغمة.

وفيه أيضًا أعرض طايفة القبانية، وتشكوا مما رُتِّبَ عليهم من الجمرك السنوي، فأطلق لهم الأمر برفعه عنهم.

وفيه قبضوا على رجل من المفسدين بإقليم المنوفية يقال له راضي النجار، وأحضروه إلى مصر وقطعت رأسه بالرميلة.

وفيه كتب فرمان إلى ناحية البحرية وصورته:

صدر الفرمان العالي السلطاني، وأمرنا الجليل الخاقاني إلى قدوة النواب المتشرعين نايب البحيرة زيد علمه، وإلى كامل المشايخ من عربان الهنادي والأفراد والجمعيات والبهجة وبني عونة عمومًا زيد في عشيرتهم، بعد وصول التوقيع الرفيع الهمايوني الحكمي، تحيطون علمًا أنكم أنهيتم إلى ديواننا الهمايوني أنكم من قديم الزمان منازلكم أبًا عن جد في فيافي البحيرة وفدافدها، وأنكم تحت قدم الطاعة والمحافظة للرعايا والطرقات الواقعة بناحية البحيرة، والتمستم من عواطف مراحم سلطنتنا السنية ودولتنا الخاقانية استقراركم في منازلكم القديمة، كما كنتم حكم السنين الخوالي، فحيث إنه جرت العادة أن قبايل العربان في الديار المصرية، كل قبيلة لها منزلة مخصوصة بهم لا ينازعهم فيها غيرهم.

ومنزلة البحيرة من قديم الزمان منزلكم، فبحسب التماسكم من مراحم دولتنا العلية قد أقررناكم في منازلكم المزبورة كما كنتم قديمًا نازلين بها من غير منازع لكم بالشروط التي تعهدتهم بها وقبلتموها في حضور صدرنا الأعظم، وكتبتم بها سندًا عليكم، وهي أن توفوا بعدم التعدي وإيصال الرزية والمضرة ولو مقدار ذرة إلى الرعايا وديعة خالق البرايا، والمحافظة على الطرقات، وعدم إتلاف شي من مزروعات أهل البلاد وإضاعة مواشيهم.

وأن لا تُسكِنوا عندكم شقيًّا من اللصوص وقطاع الطريق ونهب أموالى الناس وقتل النفوس بغير حق شرعي.

وقد نذرتم على أنفسكم أنه متى اختل شرط من هذه الشروط المذكورة، تقومون بدفع مايتي ألف قرش إلى خزينة مصر.

فبنا على ذلك أصدرنا فرماننا الشريف، وأمرنا العالي المنيف؛ ليكون معلومكم أنه من قاعدة الديار المصرية كل قبيلة من العربان لها منزلة تنزلها مخصوصة بها.

وقد أقررناكم في منازلكم القديمة في فيافي البحيرة، وفدافدها بالشروط السابقة الذكر التي التزمتموها، والنذور التي قبلتموها وتعهدتم بها، وكتبتم على أنفسكم سندًا أنه متى اختل شرط من الشروط المذكورة بعد بيان دفعكم المايتي ألف قرش يكون إخراجكم من البحيرة وبلادها وفيافها، والطلوع من حقكم.

فاعلموا بموجب مضمون أمرنا الشريف كما هو مشروح، وتجنبوا خلاف ما هو مسطور وموضوح، اعلموه واعتمدوه غاية الاعتماد والحذر ثم الحذر من المخالفة.

وكتب بمضمونه حجة وأمضى عليها قاضي العسكر وقيدت بالسجل، وهي من إنشا صاحبنا اللبيب الأديب النظام الناثر جامع فضايل المآثر السيد إسماعيل الشهير بالخشاب، ونصه:

لما ورد الفرمان الشريف الواجب القبول والإجلال والإعظام والتشاريف، اليانعة أزاهر رياض فصاحته، المحلاة بعقود البلاغة أجياد معاني عبارته، المشتمل على فصول من الترغيب والترهيب، التي يعجز كل بليغ لبيب عن سلوك أسلوبها العجيب.

من حضرة مولانا الصدر الأعظم والمشير المفخم عضد الدولة العلية، ولسانها وحسامها الماضي وسنانها، من انجلى عنا ظلام الشرك بصباح غرته السنية، وأشرق ضيا حسن سيرته المرضية، مولانا الوزير يوسف باشا بلغه الله من المرادات ما شا.

خطابًا إلى ساير الحكام والمتشرعين والنواب وسكان إقليم البحيرة من قبايل الأعراب، ومن التحق بهم من الأبنا والذراري والعشاير المنجمعين معهم في تلك الفدافد والبراري، وما تضمنه من تأمينهم في منازلهم وأوطانهم وعشيرتهم وجيرانهم، والنظر إليهم بعين الإحسان والرعاية، وإدخالهم سرادق الحفظ والوقاية بشرط أن يكونوا على قدم الطاعة، وأن يسلكوا سبيل السنة والجماعة، وأن يتجنبوا الخلاف، ويعاملوا من يمر بهم بالإكرام والإعزاز والإنصاف، واردين مشرب الوفاق بالاتفاق، غير مثيرين للفتن والنزاع والشقاق، وأن لا يتجمعوا على الضلال ويتحزبوا، ولا يقطعوا الطريق على من يمر بهم ويتعصبوا ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾.

وأقطع حضرة مولانا الصدر الأعظم المشار إليه، خلَّد الله جزيل نعمه وفضله عليه، كل قبيلة منهم منازلهم المخصوصة بهم المعهودة، وأظلهم بظلال زمانه الظليلة الممدودة حين التمسوا ذلك من مراحم دولته، وعوارف

عواطف رأفته، بعد التزامهم بما سلف من الشروط على الوجه المشروح المحرر المضبوط، وعلى أنهم إن عصوا أمره وخالفوه، ونسوا ما تُلِيَ عليهم أو نسخوه أو قطعوا الطريق ونهبوا الأموال، أو آووا شقيًّا ممن يفعل ذلك بحال من الأحوال، أخذتهم صاعقة العذاب الهون، وحلَّ بهم من العذاب ما لا يطيقون، ووقعوا من غضب هذه الدولة العلية عليهم في العذاب الشديد، ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد، بعد أن تسلب أموالهم، ويتلاشى حالهم حتى يصيروا لا عين ولا أثر، ولا مخبر ولا خبر، ولا معالم ولا معاهد، ولا مشارع ولا موارد، جزا بما أسلفوا، وعقابًا على ما اقترفوا إذا خالفوا، وعاهد ريساهم حضرة مولانا الصدر الأعظم المشار إليه على ما تقدم ذكره، وكتب لهم بذلك التوقيع السلطاني، والأمر الخاقاني المتضمن لما تقدم من المعاني، المتوج بالعلامة الشريفة والطرة السلطانية المنيفة المبدا بذكره، المؤرخ بتاريخه، وحضر به إلى حضرة مولانا شيخ الإسلام الموَمى إليه أعلاه كل من فلان وفلان، وهم مشايخ عربان البحيرة المرقومون.

ولما تأمل فيه فأحاط علمه الكريم ببديع معانيه ونزه طرفه في رياض فصوله، ورآه جاريًا على قواعد الشرع وأصوله، والتمس منه الجماعة المذكورون كتابة حجة متضمنة لفحواه، مؤكدة له مقوية لمعناه، أمر بكتابة هذا المرسوم على الوجه المشروح المرقوم، وقيد ذلك بالسجل المحفوظ ليراجع عند الاحتياج إليه والاحتجاج به، انتهى.

وفي خامسه نزل محمد باشا توسون والي جدة من القلعة في موكب، وتوجه إلى العادلية قاصدًا السفر إلى جدة.

وفي يوم الأربعا تاسعه قبضوا على ثلاثة من النصارى الأروام المتزيين بزي العساكر الإنكشارية، ويعملون القبايح بالرعية، فرموا رقابهم، أحدهم بالدرب الأحمر والثاني بسوق السلاح عند الرفاعي والثالث بالرميلة.

وفي يوم الخميس عاشره أيضًا قطعوا راس علي جلبي تابع حسين أغا شنن بباب الخرق بين المفارق بأمر من الوزير، والسبب في ذلك أن المرحوم يوسف باشا المذكور الكبير المتوفى بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، كان أودع عنده حسين أغا شنن وديعة، فلما ملك الفرنسيس مصر وجرى ما جرى من ورود العرضي والصلح ونقضه، فاعتقد قصار العقول أن الأمر انتهى للفرنسيس، فتجاوزوا

الحد وأغروا ببعضهم وتتبعوا العورات، وكشفوا عن المستورات، ودلوا الفرنسيس على المخبآت، وتقربوا إليهم بكل ما وصلت إليه همتهم، وراجت به سلعتهم والمسكين المقتول مد يده إلى بعض ودايع سيده، فاختلس منها وتوسع في نفسه وركب الخيول، واتخذ له خدمًا وتداخل مع الفرنسيس وحواشيهم، فاستخفوا عقله واستفسروا منه فأخبرهم بالودايع والخبايا فاستخرجوها ونقلوها، وكانت شيًّا كثيرًا جدًّا، وأظهر أن ذلك لم يكن بواسطته ليواري ما اختلسه لنفسه؛ ليكون له عذر في ذلك، فلما حضر له سيده صحبة العرضي ذهب إليه، وتملق وربط في رقبته منديلًا، فأهمل أمره إلى هذا الوقت حتى اطمأن خاطره، ثم إنه أخبر بقصته الوزير لعلمه أنه سيطالب بوديعة يوسف باشا، فأمره بأن يرفع قصته إلى القاضي، ويثبت تلك الدعوى لتبرأ ساحته عند الدولة ففعل، ثم أمر الوزير بقتل علي جلبي المذكور فقتل وترك من مرميًّا ثلاثة أيام بلياليها.

شهر رمضان المعظم سنة ١٢١٦

استهل بيوم الأربعا ولم يعمل فيه شنك الرؤيا على العادة خوفًا من عربدة العساكر، والمحتسب كان غايبًا، فركب كتخداه بدلًا عنه بموكبه فقط، ولم يركب معه مشايخ الحرف فذهب إلى المحكمة وثبت الهلال تلك الليلة ونودي بالصوم من الغد.

وفيه أمر الوزير محمد باشا العربي بالسفر إلى البلاد الشامية، فبرز خيامه إلى خارج باب النصر، وخرج هو في ثالثه وسافر وأشيع سفر الوزير أيضًا، وذلك بعد أن حضرت أجوبة من الباب الأعلى، وفي ثالثه ارتحل محمد باشا المذكور.

وفي خامسه انتقل ريس أفندي من بيت الألفي، وسكن في بيت إسماعيل بك، وشرعوا في تعميره وإصلاحه لسكن والي مصر.

وفي ثاني عشره وصل محمد باشا والي مصر إلى شلقان.

وفي ثالث عشره ضربت عدة مدافع من الجيزة صباحًا ومسا، فقيل إنه حضر ستة قناصل إلى الجيزة.

وخامس عشره حضر القناصل المذكورون إلى بيت الوزير وقابلوه، فخلع عليهم خلعًا ورجعوا إلى أماكنهم بالجيزة.

وفي ذلك اليوم وصل محمد باشا والي مصر إلى جهة بولاق ونصب وطاقه بالقرب من المكان المعروف بالحلي، ثم انتقل إلى جهة قبة النصر، فلما كان يوم الجمعة سابع عشره وصل إلى المدينة من باب النصر في موكبه وطوايفه على غير الهيئة المعتادة، ولم يلبس

الطلخان تأدبًا مع الوزير لحصوله بمصر، فتوجه إلى بيت الوزير وأفطر معه، وفي تلك الليلة عزل خليل أفندي الرجائي من دفتردارية الدولة، وقلد عوضه حسن أفندي باش محاسب، وسببه أن الوزير طلب خلعًا ليخلعها على والي مصر وقناصل الإنكليز فتأخر حضورها فحنق، وسأل عن سبب تأخير المطلوب، فقال الرسول: إن الخازندار قال حتى استأذن الدفتردار، فحنق الوزير وأمر بحبس الخازندار، وعزل الدفتردار وهرب السفير الذي كان بينهما.

وفيه انتقل الأمرا المصرلية المرادية من الجيزة إلى جزيرة الذهب ونصبوا وطاقهم بها، وأرسلوا ما كان عندهم من الحريم إلى دورهم بمصر، واستمر إبراهيم بك وعثمان بك الحسيني ومحمد بك المبدول وقاسم بك أبو سيف بالجيزة، ولم يعلم حقيقة حالهم، ثم في ثاني يوم لحق إبراهيم بك وباقي الجماعة بالآخرين، وخرج إليهم طلبهم ومتاعهم وأغراضهم.

فلما كان ليلة الاثنين تاسع عشره ركبوا ليلًا بأجمعهم إلى الصعيد من الجهة الغربية، وتخلف عنهم قاسم بك أبو سيف لمرضه، وكذلك تخلف عنهم محمد أغا أغات المتفرقة وآخرون.

وفي عشرينه نودي بالأمان على المماليك وأتباعهم، ومن تخلف عنهم أو انقطع منهم وكذلك في ثاني يوم، وفيه قلد محمد باشا والي مصر حسن أغا وألبسه على جرجا.

وفي ثامن عشرينه عزل الباشا محمد أغا المعروف بالزربة من الكتخداية، وهو من المصرلية وولاه كشوفية الغربية، وتقلد عوضه في الكتخداية يوسف أغا أمين الضربخانة سابقًا، وتقلد كشوفية المنوفية وتقلد كشوفية القليوبية.

وفي ليلة الأربعا تاسع عشرينه ذهب يوسف أفندي إلى عند والي مصر، فقلده نقابة الأشراف وألبسه فروة بعد أن كان أهمل أمره.

وفيه عزل أغات الإنكشارية، وتولى آخر عوضه من العثمانية، ونزل المعزول إلى بولاق ليسافر إلى جهة الصعيد.

شهر شوال سنة ١٢١٦

استهل بيوم الخميس، في ثالثه يوم السبت خرج جاليش الوزير إلى قبة النصر، ونُودي بخروج العساكر ويكون آخر خروجهم يوم الاثنين، فشرعوا في الخروج بأجمالهم ودوابهم، فلما كان يوم الاثنين خامسه خرج الوزير على حين غفلة إلى قبة النصر، وتتابع خروج الأثقال والأحمال والعساكر، وحصل منهم في الناس عربدة وأذية.

وأخذ بعضهم من عطارين القصرين ثلاثة أرطال بن ثمنهاماية وعشرون نصفًا فرمى له عشرين نصفًا، فصرخ الرجل، وقال: أعطني حقي فضربه وقتله؛ فأغلق الناس الحوانيت وانكفوا في دورهم، فاستمرت جميع حوانيت البلدة مغلوقة حتى سافرت العساكر وانتقلت من قبة النصر.

ولازم حضرة محمد باشا والي مصر وطاهر باشا على المرور والطواف بالشوارع بالتبديل وثياب التخفيف ليلًا ونهارًا، ولولا ذلك لحصل من العسكر ما لا خير فيه.

وفيه كتبت فرمانات وألصقت بالشوارع ومفارق الطرق، مضمونها: بأن لا أحد يتعرض بالأذية لغيره، وكل من كان له دعوة أو شكية فليرفع قصته إلى الباشا.

وكل إنسان يمشي في زيه وقانونه القديم.

ويلازموا على الصلوات بالجماعة في المساجد، ويوقدون قناديل ليلًا على البيوت والمساجد والوكايل والخانات التي بالشوارع.

ولا يمر أحد من العسكر من بعد الغروب، والذي يمشي بعد الغروب من أهل البلد يكون معه فانوس أو سراج.

ويبيعون ويشترون بالحظ والمصلحة، ولا أحد يُخفِي عنده أحدًا من عسكر العرضي، والذي يبقى منهم بعد سفر الوزير من غير ورقة بيده يعاقب.

وإن القهاوي المحدثة جميعها تغلق، ولا يفتح إلا القهاوي القديمة الكبار، ولا يبيت أحد من العسكر في قهوة، ولا يبيعون المسكرات ولا يشترونها إلا الكفرة سرًّا وأمثال ذلك، فانسرت القلوب بتلك الفرمانات واستبشروا بالعدل.

وفيه خرجت عساكر وسافرت إلى جهة قبلي وعدتهم ستة آلاف، وذلك بسبب الأمرا المصرلية الهربانين، وقرر لهم بأن من أتى برأس صنجق فله ألف دينار، أو كاشف فله تلثماية، أو جندي أو مملوك فله ماية.

وفي يوم السبت ركب الوزير من قبة النصر، وارتحل العرضي إلى الخانكة وعند ركوبه حضر إليه السيد عمر أفندي النقيب وبعض المتعممين لوداعه، فأعطاهم صررًا وقروا له الفاتحة.

وركب وخرج أيضًا في ذلك اليوم بقية المشايخ، وذهبوا إلى الخانكة أيضًا وودعوه ورجعوا.

وفي يوم الاثنين ثاني عشره أحضر الباشا محمد أغا الوالي وسليم أغا المحتسب وأمر برمي رقابهما، فقطعوا رأس الوالي تحت بيت الباشا على الجسر، والمحتسب عند باب الهوا، وختم على دورهما في تلك الساعة، وشاع الخبر في البلد فارتاع الناس لذلك واستعظموه، وداخل الخوف أهل الحرف مثل الجزارين والخبازين وغيرهم، وعلقوا اللحم الكثير بحوانيتهم، وباعوه بتسعة أنصاف بعد أن كانوا يبيعونه بأحد عشر مع قلته واحتكاره، وكانوا نبهوا عليهم قبل ذلك فلم يستمعوا.

وفي صبحها يوم الثلاثا قلد علي أغا الشعراوي الزعامة عوضًا عن محمد أغا المقتول، وزين الفقار كتخدا أمين احتساب عوضًا عن سليم أغا أرنؤد المقتول أيضًا.

واجتمعوا ببيت القاضي وحضر أرباب الحرف، وعملوا قايمة تسعيرة لجميع المبيعات من المأكولات وغيرها، فعملوا اللحم الضاني بثمانية أنصاف، والماعز بسبعة، والجاموس بستة، وأن لا يباع فيه شي من السقط مثل الكبدة والقلب وغير ذلك، والسمن المسلى بماية وثمانين نصفًا العشرة أرطال، بعد أن كانت بثلثماية وأربعين، والزبد العشرة بماية وستين بعد أن كانت بمايتين وأربعين، وجميع الخضراوات تباع بالرطل حتى الفجل والليمون والجبن الذي بخيره بثلاثة أنصاف بعد عشرة، والخبز رطل بنصف فضة، وكذلك جميع الأشيا العطرية والأقمشة العشرة أحد عشر، والراوية الما بعشرة أنصاف بعد عشرين وغير ذلك.

ورسموا بأن الرطل في الأوزان مطلقًا يكون قباني اثنتي عشرة وقية، وأبطلوا الرطل الزياتي الذي يوزن به الأدهان والأجبان والخضراوات، وهو أربع عشرة وقية، فلم يستمر من هذه الأوامر بعد ذلك سوى نقص الأرطال.

ولما برزت هذه الرسوم هرع الناس لشرا اللحم والمأكولات حتى فرغ الخبز من الأفران، وشق المحتسب فقبض على جماعة من الخبازين، وخزم آنافهم وعلق فيها الخبز، كذلك الجزارون خزمهم وعلق في آنافهم اللحم، وأكثر حضرة الباشا وعظما أتباعه من التجسس وتبديل الشكل والملبوس والمرور والمشي في الأزقة والأسواق، حتى أخافوا الناس وانكف العسكر عن الأذية ولزموا الأدب، ومشى كل أحد في طريقته وأدبه، ومشت النسا كعادتهن في الأسواق لقضا أشغالهن، فلم يتعرض لهن أحد من العسكر كما كانوا يفعلون.

وفي يوم الخميس خامس عشره ارتحل الوزير من بلبيس، وفي يوم السبت سابع عشره سافر خليل أفندي الرجائي الدفتردار المعزول في البحر من طريق دمياط، وانتقل شريف أفندي الدفتردار إلى الدار التي كان بها الأول، وهي دار البارودي بباب الخرق.

وفي يوم الاثنين تاسع عشره كان موكب أمير الحاج عثمان بك، وصحبته المحمل على العادة وخرج في أبهة ورونق وانسرت القلوب في ذلك اليوم إلى لقاه، ونجز له جميع اللوازم مثل الصرة وعوايد العربان وغير ذلك، وكان المتقيد بتشهيل ذلك وبجميع اللوازم حضرة شريف محمد أفندي الدفتردار.

وفي يوم الثلاثا سابع عشرينه شنقوا ثلاثة أنفار في جهات مختلفة تزيوا بزي العسكر يقال إنهم من الفرنسيس افتقدوهم من العسكر المتوجه إلى الحج.

وفي ذلك اليوم عمل حضرة الباشا ديوانًا، وأرسل الجاويشية إلى جميع المشايخ والعلما، وخلع عليهم خلعًا سنية زيادة على العادة أكثر من سبعين خلعة، وكذلك على الوجاقلية والأفندية وجبر خاطر الجميع، وكانت العادة في هذا التلبيس أن يكون عند قدومه، والسبب في تأخيره لهذا الوقت تعويق حضور المراكب التي بها تلك الخلع.

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه انتقل أمير الحاج بالركب من الحصوة إلى البركة، وفيه ركب حضرة محمد باشا إلى الإمام الشافعي، فزاره وأنعم على الخَدَمة بستين ألف فضة، وألبسهم خلعًا وفرق دنانير ودراهم كثيرة في غير محلها، وكذلك يوم الجمعة ركب وتوجه إلى المشهد الحسيني فصلى الجمعة، وخلع على الإمام الراتب والخطيب وكبير الخدمة فراوي وفرق دراهم كثيرة في طريقه، ورجع من ناحية الجمالية وكان في موكب جليل على الغاية.

وفيه أمر المشار إليه بنصب عدة مشانق عند أبواب المدينة برسم الباعة والمتسببين والخبازين وغيرهم، وأكثر أرباب الدرك من المرور والتجسس والتخويف، وعلقوا عدة أناس من الباعة على حوانيتهم وخزموهم من آنافهم، فرخص السعر وكثرت البضايع والمأكولات.

وحصل الأمن في الطرق وانكفت العربان وقطاع الطريق، فحضرت الفلاحون من البلاد وكثر السمن والجبن والأغنام وكبر العيش وكثر وجوده، وانحط سعر السمن عن التسعيرة عشرين نصفًا لكثرته، ولله الحمد.

وهاب الناس هذا الباشا وخافوه، وصاروا يترنمون به في البلاد والأرياف، ويغنون بذكره حتى الصبيان في الأسواق، ويقولون: سيدي يا محمد باشا يا صاحب الدهب الأصفر وغير ذلك، وكان في مبتدأ أمره يظنه الظمآن ما.

شهر القعدة سنة ١٢١٦

استهل بيوم السبت، فيه نهبت العربان قافلة التجار الواصلة من السويس، وفي ثانيه حضر السيد أحمد الزرو الخليلي التاجر بوكالة الصابون بديوان الباشا، وتداعى على جماعة من التجار، وثبت له عليهم عشرة آلاف ريال فأمر الباشا بسجنهم.

وفي رابعه يوم الثلاثا حضر السيد أحمد المذكور إلى بيت الباشا، فأمر بقتله فقبض عليه جماعة من العسكر، وقطعوا رأسه عند المشنقة حيث قنطرة المغربي على قارعة الطريق، وختموا على موجوده، وأخذ الباشا ما ثبت له على المحبوسين، والسبب في ذلك أن بعضهم أوشى إلى الباشا أنه كان يحب الفرنسيس ويميل إليهم ويسالمهم، وعند خروجهم هرب إلى الطور خوفًا من العثمانية، ثم حضر بأمان من الوزير.

وفي يوم الجمعة حضر المشار إليه إلى الجامع الأزهر بالموكب، فصلى به الجمعة وخلع على الخطيب فروة سمور، وفرَّق ونثر دراهم ودنانير على الناس في ذهابه وإيابه، وتقيد قبى كتخداه وإسماعيل أفندي شقبون بتوزيع دراهم على الطلبة والمجاوِرين بالأروقة والعميان والفقرا، ففرقوا فيهم نحو خمسة أكياس.

وفيه عمل الشيخ عبد الله الشرقاوي وليمة لزواج ابنه ودعا حضرة المشار إليه، فحضر في يوم الأحد ثانيه، وحضر أيضًا شريف أفندي وعثمان كتخدا الدولة فتغدوا عنده، وأنعم على ولد الشيخ بخمسة أكياس رومية وألبسه فروة سمور، وفرق على الخدم والفراشين والقراء دنانير ودراهم بكثرة، وكذلك دفع عثمان كتخدا وشريف أفندي كل واحد منهم كيسًا وانصرفوا.

وفي يوم الأربعا خامسه حضر الباشا محمد أغا المعروف بالوسيع أغات المغاربة، وأمر بقتله فقطعوا راسه على الجسر ببركة الأزبكية قبالة بيت الباشا لأمور نقمها عليه، وكتبت في ورقة وضعت عند راسه.

وفي يوم الخميس سادسه توفي قاسم بك أبو سيف على فراشه، وفي منتصفه وردت الأخبار من الجهة البحرية بضياع نحو الخمسين مركبًا حلت مراسيها من ثغر إسكندرية مشحونة بمتاجر وبضايع، وكانت معوقة بكرنتيلة الإنكليز، فلما أذنوا لهم بالسراح فما صدقوا بذلك فصادفتهم فرتونة خرجت عليهم فضاعوا بأجمعهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفيه طلب الباشا المشايخ، وتكلم معهم في شأن الشيخ خليل البكري، وعزله عن وظيفته وسأل رأيهم في ذلك، فقالوا له: الرأي لحضرتكم، فقال: إن الشيخ خليل لا

يصلح لسجادة الصديق، وأريد عزله عنها من غير ضرر عليه بل أعطيه أقطاعًا لنفقته، والقصد أن تروا رأيكم فيمن يصلح لذلك ومن يستحق، فطلبوا المهلة إلى غد وانحط الرأي بعد اختلاف كثير على تقليد ذلك لمحمد سعد من أولاد جلال الدين، فلما حضروا في اليوم الثاني أخبروه بذلك وأنه يستحقها إلا أنه فقير، فقال: إن الفقر ليس بعيب، فأحضروه وألبسه فروة سمور وأركبه فرسًا بعباءة مزركشة وأنعم عليه بثماني ألف درهم، وكان من الفقرا المحتاجين للدرهم الفرد، ولما ذهب للسلام على الشيخ السادات خلع أيضًا فروة سمور عليه.

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه توفي إلى رحمة الله الشيخ مصطفى الصاوي الشافعي، وكان عالمًا نجيبًا وشاعرًا لبيبًا وقد ناهز الستين.

وفيه جهزت عدة من العسكر إلى قبلي.

وفيه نودي بأن خراج الفدان ماية وعشرون نصفًا، وكذلك نودي برفع عوايد القاضي والأفندي التي كانت تؤخذ على إثبات الجامكية والجراية والرفق بعوايد تقاسيط الالتزام والأقطاع، وكتبوا بذلك أوراقًا وألصقت بالأسواق وفي آخرها لا ظلم اليوم، أي مما تقرر إلا قبل اليوم.

فإن الفدان بلغ في بعض القرى بمصاريفه ومغارمه أربعة آلاف نصف فضة، وأما بدعة القاضي وعوايد التقاسيط فزادت عن أيام الوزير، وزاد على ذلك إهمال الأوراق ببيت الباشا لأجل العلامة شهرين وأربعة حتى يسأم صاحبها، وتحفى أقدامه من كثرة الذهاب والمجي، ومقاساة الذل من الخدم والأتباع، ودفع البقشيش، والرشوة على التعجيل أو يتركها، وربما ضاعت بعد طول المدة فيحتاج إلى استيناف العمل.

شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢١٦

استهل بيوم الأحد، في رابعه حضر خمسة أشخاص من الكشاف القبالي من أتباع إبراهيم بك الوالي إلى مصر بأمان، فقابلوا حضرة والي مصر وأنعم عليهم وألبسهم خلعًا، وفيه أنعم على خدامهم.

وفيه عمل الإنكليز كرنتيلة بالجيزة ومنعوا من يدخلها ومن يخرج منها، وذلك لتوهم وقوع الطاعون وورود الأخبار بكثرته في جهة قبلي وبعض البلاد البحرية، وأما المدينة ففيها بعض تنقير.

وفي يوم الاثنين تاسعه كان يوم الوقوف بعرفة، وعملوا في ذلك اليوم شنكًا ومدافع وحضرت أغنام وعجول كثيرة للأضحية، حتى امتلت منها الطرقات وازدحمت الناس وأفراد العسكر على الشرا.

وغيمت السما في ذلك اليوم وأمطرت مطرًا كثيرًا حتى توحلت الأزقة.

ونودي بفتح الحوانيت والقهاوي والمزينين ليلًا، وإظهار الفرح والسرو وإظهار بهجة العيد، واستمر ضرب المدافع في الأوقات الخمسة، ونودي أيضًا بالمواظبة على الاجتماع للصلوات في المساجد، وحضور الجمعة من قبل الصلاة بنصف ساعة.

وأن يسقوا العطاش من الأسبلة ولا يبيعون ماها.

وأشيع سفر الإنكليز وسفر عثمان كتخدا الدولة وتشهيل الخزينة، وفي خامس عشره حضر قاصد من الديار الرومية بمكاتبات وتقرير نقابة الأشراف للسيد عمر أفندي مكرم وعزل يوسف أفندي، فلما كان في صبحها يوم الأحد ركب السيد عمر المذكور وتوجه إلى عند الباشا فألبسه خلعة سمور ثم حضر إلى عند الدفتردار كذلك، وكانت مدة ولاية يوسف أفندي المعزول شهرين ونصفًا.

وفي يوم الأربعا ثامن عشره خرج أحمد أغا خورشيد أمير الإسكندرية إلى بولاق قاصدًا السفر إلى منصبه، وركب الباشا لوداعه في عصريته، وضربوا عدة مدافع من بولاق وبر إنبابة.

ونودي في ذلك اليوم بأن لا أحدًا يواري أحدًا من الإنكليز أو يخبيه وكل من فعل ذلك عوقب.

وفي خامس عشرينه قبضوا على امرأة سرقت أمتعة من حمام وشنقوها عند باب زويلة.

موجز أحداث هذا العام

وانقضت هذه السنة وما تجدد بها من الحوادث التي من جملتها أن شريف أفندي الدفتردار أحدث على الرزق الأحباسية المرصدة على الخيرات والمساجد وغيرها مال حماية على كل فدان عشرة أنصاف فضة وأقل وأكثر في جميع الأراضي المصرية القبلية والبحرية، وحرروا بذلك دفاتر فكل من كان تحت يده شي من ذلك قل أو كثر يُكتَب له عرضحال، ويذهب به إلى ديوان الدفتردار فيعلم عليه علامته، وهي قوله «قيد» بمعنى أنه يطلب قيوده من محله التي تثبت دعواه، ثم يذهب بذلك العرضحال إلى كاتب الرزق، فيكشف

عليها في الدفاتر المختصة بالإقليم الذي فيه الإرصاد بموجب الإذن بتلك العلامة، فيكتب له ذلك تحتها بعد أن يأخذ منه دراهم ويطيب خاطره بحسب كثرة الطين وقلته وحال الطالب، ويكتب تحته علامته، فيرجع به إلى الدفتردار فيكتب تحته علامة غير الأولى، فيذهب به إلى كاتب الميري فيطالبه حينئذ بسنداته وحجج تصرفه ومن أين وصل إليه ذلك.

فإن سهلت عليه الدنيا ودفع له ما أرضاه كتب له تحت ذلك عبارة بالتركي لثبوت ذلك، وإلا تعنت على الطالب بضروب من العلل وكلفه بثبوت كل دقيقة يراها في سنداته وعطل شغله، فما يسع ذلك الشخص إلا بذل همته في تتميم غرضه بأي وجه كان، إما أن يستدين أو يبيع ثيابه ويدفع ما لزمه.

فإن ترك ذلك وأهمله بعد اطلاعهم عليه حلوه عنه ورفعوه وكتبوه لمن يدفع حلوانه ثلاث سنوات أو أكثر، وكتبوا له سندًا جديدًا يكون هو المعول عليه بعد، ويقيد بالدفاتر ويبطل اسم الأول وما بيده من الوقفيات والحجج والإفراجات القديمة، ولو كانت عن أسلافه.

ثم يرجع كذلك إلى الدفتردار فيكتب له علامة لكتابة الأعلام، فيذهب به إلى الإعلامجي فيكتب له عبارة أيضًا في معنى ما تقدم، ويختم تحتها بختم كبير فيه اسم الدفتردار، ويأخذ على ذلك دراهم أيضًا.

وبعد ذلك يرجع إلى الدفتردار فيقرر ما يقرره عليها من المال يقال له «مال الحماية» ثم يذهب بها إلى بيت الباشا ليصحح عليها بعلامته.

ويطول عند ذلك انتظاره لذلك ويتفق إهمالها الشهرين والثلاثة عند الفرمانجي، وصاحبها يغدو ويروح في كل يوم حتى تحفى قدماه، ولا يسهل به تركها بعد ما قاساه من التعب وصرفه من الدراهم.

فإذا تمت علامتها دفع أيضًا المعتاد الذي على ذلك، ورجع بها إلى بيت الدفتردار، فعند ذلك يطلبون منه ما تقرر عليها فيدفعه عن تلك السنة.

ثم يكتبون له سندًا جديدًا ويطالب بمصروفه أيضًا، وهو شي له صرة أيضًا فلا يجد بدًّا من دفعه ولا يزال كذلك يغدو ويروح مدة أيام حتى يتم له المراد.

ومنها المعروف بالجامكية ومرتبات الغلال بالأنبار، وذلك أن من جملة الأسباب في رواج حال أهل مصر المتوسطين وغناهم ومدار حال معاشهم وإيرادهم في السابق هذين الشيئين وهما الجامكية والغلال التي يقال لها الجرايات رتبها الملوك السالفة من الأموال الميرية للعساكر المنتسبة للوجاقات والمرابطين بالقلاع الكاينة حوالي الإقليم.

ومنها ما هو للأيتام والمشايخ والمتقاعدين ونحوهم، وكانت من أرواج الإيراد لأهل مصر وخصوصًا أهل الطبقة الذين ليس لهم إقطاع ولا زراعات ولا تجارات، كأهل العلم ومساتير أولاد البلد والأرامل ونحوهم، وثبت وتقرر إيرادها وصرفها في كل ثلاثة أشهر من أول القرن العاشر إلى أواخر الثاني عشر بحيث تقرر في الأذهان عدم اختلالها أصلًا.

ولما صارت بهذه المثابة تناقلوها بالبيع والشرا والفراغ، وتغالوا في أثمانها ورغبوا فيها، وخصوصًا لسلامتها من عوارض الهدم والبنا كما في العقار، وأوقفوها وأرصدوها ورتبوها على جهات الخيرات والصهاريج والمكاتب ومصالح المساجد ونفقات أهل الحرمين وبيت أهل المقدس.

وأفتى العلما بصحة وقفها لعلة عدم تطرق الخلل، فلما اختلت الأحوال وحدثت الفتن وطمع الحكام والولاة في الأموال الميرية ضعف شأنها ورخص سعرها وانحط قدرها وافتقر أربابها، ولم تزل في الانحطاط والتسفل حتى بيع الأصل والإيراد بالغبن الفاحش جدًّا، وتعطل بسبب ذلك متعلقاتها، ولم يزل حالها في اضطراب إلى أن وصل هولا القادمون، وجلس شريف أفندي الدفتردار المذكور، ورأى الناس فيه مخايل الخير لما شاهدوه فيه من البشاشة وإظهار الرفق والمكارم عرض الناس عليه شأن العلوفة المذكورة والغلال فلم يمانع في ذلك.

وكتب الإذن على الأوراق كعادته وذهب بها أربابها إلى ديوان الكتبة، وكبيرهم يسمى حسن أفندي باش محاسب وهو من العثمانيين عارض في حسابها، وقال: إن العثماني اسم لواحد الأقجة وصرفه عندنا بالروم كل ثلاث أقجات بنصف فضة، وما في دفاتركم يزيد في الحساب الثلث، فعورض وقيل له: إن الأقجة المصري كل اثنين بنصف بخلاف اصطلاح الروم وهذا أمر تداولنا عليه من قديم، ولم يزل حتى فقد ذلك المشروع، ومشوا على فقد الثلاث ورضي الناس بذلك لظنهم رواج الباقي.

وعند استقرار الأمر بذلك أخذوا يتعنتون على الناس في الثبوت، وقد كان الناس اصطلحوا في أكثرها عند فراغها على عدم تغيير الأسما التي رقمت بها، وخصوصًا بعد ضعفها فيبيعها البايع ويأخذها المشتري بتمسك البيع فقط، ويترك سند الأصل بما فيه من الاسم القديم عنده أو تكون باسم الشخص ويموت وتبقى عند أولاده، فجعلوا معظمها بهذه الصورة، وأخذوه لأنفسهم وأعطوا منهم لأغراضهم بعد رفع الثلث الأصل وثلث الإيراد، وضاعت على أربابها مع كونهم فقرا.

وكذلك فعلوا في أوراق الغلال وجعلوها بدراهم عن كل إردب خمسون نصفًا غلا أو رخص، وزادوا في القيود التي تكتب على العرضحالات المصطلحين عليها بأن يكتب

عليها أيضًا قاضي العسكر بعد حسابهم مقدار العلوفة والغلال، ويأخذ على كل عثماني نصفين أو أقل أو أكثر وعلى كل إردب قرشًا روميًّا.

وكل ذلك حيلة على أخذ المال بطريق شيطاني، وحرروا ما حرروه ودفعوا للناس ما دفعوه مقسطًا على الجمع والشهور، ورضوا بذلك وفرحوا به لظنهم دوامه، واستعوضوا الله فيما ذهب لهم، وختموا الدفتر على مقدار ما عرض عليهم، وما ظهر بعد ذلك لا يعمل به ويذهب في المحلول.

ولما انقضت هذه السنة الأخرى وافتتح الناس الطلب قيل لهم: إن الذي أخذتموه هو عن السنة القابلة وقد قبضتموها معجلة، وعزل شريف أفندي الدفتردار في إثرها، ووصل خليل أفندي الرجائي، واضطربت الأحوال ولم ينفع القيل والقال كما يأتي.

وأما من مات في هذه السنة

فمات الشيخ العمدة الإمام خاتمة العلما الأعلام، ومسك ختام الجهابذة ذوي الأفهام، ومن افتخر به عصره على الأعصار، وصاح بلبل فصاحته في الأمصار، يتيمة الدهر وشامة وجه أهل العصر، العالم المحقق والنحرير المدقق بديع الزمان والتاج المرصع على روس الأقران، الناظم الناثر الفصيح الباهر الشيخ مصطفى بن أحمد المعروف بالصاوي، والده كان من أعيان التجار بمصر، وأصل مرباهم بالسويس بساحل القلزم، وصاوي نسبة إلى بلدة بشرقية بلبيس تسمى الصوة وهي على غير القياس، وهي بلدة والده ثم انتقل منها إلى السويس وكان يبيع بها الما، وولد له بها المترجم فارتحل به إلى مصر وسكن بحارة الحسينية مدة، وأتى بولده المترجم إلى الجامع الأزهر واشتغل بالقراءة فحفظ القرآن والمتون، واشتغل بالعلم وحضر دروس الأشياخ ولازم الشيخ عيسى البراوي وتخرج به ومهر، وأنجب وأقرا الدروس وختم الختوم وشهد له الفضلا، وكان لطيف الذات مليح الصفات رقيق حواشي الطبع مشارًا إليه في الأفراد والجمع، مهذب الأخلاق جميل الأعراق، اللطف حشو إهابه، والفضل لا يلبس غير جلبابه.

لو مثل اللطف جسمًا لكان للُّطف روحًا

إذا نزل بنادٍ ارتحلت الهموم، وارتضع من أخلاف أخلاقه بنت الكروم، تقاريره عذبة رايقة، وتحاريره فايقة، ذهنه وقاد ونظمه مستجاد «فمن نظمه قوله»:

أقبل الأنس يجتلي بسرور ... وتولى الحزن الذي نحن فيه
وتناءت همومنا بعد قرب ... وتناهت لذات ما نرتجيه
واجتمعنا بليلة هي تَزْري ... بالضحى إذ صحا وما قد يليه
ودت الشمس أن يكون لها مثـ ... ـل ضيا حسنها فما ترتضيه
واجتلونا المدام أشهى مدام ... مَعْ نديم يا حسن ما نجتليه
حيث كانت أكوابنا كنجوم ... كلما قد شربتها قلت إيه
واحتسينا كاساتها فطربنا ... بشذاها وراق ما نحتسيه
واجتنينا من نظم دُر حبيب ... نثره رايق كخمرة فيه
فرعى الله ليلة قد تقضَّت ... بالهنا والمنا وعِزٍّ وتيه
وسقى الله عهدنا قطر سُحب ... رايقات تجلو المرابع تيه
مذ صفا ودُّنا برغم حسود ... مع كيد العذول ذي التشويه
يا لها ليلة حكت جنة الخلـ ... ـد وفيها ما نفسُنا تشتهيه
ليلة الأنس هل تعودي لصبٍّ ... صبة الوجد دايمًا تعتريه
تجمعي شمله بأحمد من قد ... حمد الله فعل ما يصطفيه
هاك تجلى إليك خود عروس ... ثوبها العز والبَهَا ترتديه
وهْيَ تتلو عليك يا خير مولى ... ليس مهري سوى الرضا فاعطنيه

وله:

نزلنا بهذا القصر والنيل تحته ... فلله قصر قد تعاظم بالمد
مع العالِم النحرير أكرم ماجد ... إمام همام جامع عَلَم فرد
فأين ابن هاني من فصاحة نطقه ... وأين أويس لا يضاهيه في الزهد
تأمل فما أثر كعين مشاهد ... وأبصر فما قرب لديه كما البعد
وما هي إلا البحر لكنه حلا ... وما هو إلا البر بالدين والعهد
وأعني به شيخي البراوي من به ... تحلى زمان العز في الجيد بالعقد

أقول لمن رام الوصول لقدره تمنيت أمرًا مستحيلًا بلا حد
فهذا مقام ليس يُعطَى لغيره وحاشاه أن يحصى بسرد ولا عد
فيا أيها الملتاذ إن رُمْت علمه تحدث عن البحر المحيط عن الجهد
ومن لي وقد قَصَّرت في مدح سيدي ومعظم إسنادي وذي الحل والعقد
كذلك مولانا الشريف محمد هو العلوي الأصل قد فاز بالسعد
وينسب للمختار أشرف مُرسَل عليه صلاة الله طابت كما الند

وله:

لحاظك تُزري بالحسام المهند وريقك لا يرويه غير المبرد
وطرفك ذا السفاك قد سفك الدما وقَدُّك ذا السفاح في الصب معتدي
فيا وجهه كم قد هديت لحسنه ويا شعره كم قد أضليت مهتدي
وما ليَ لا أصبو بضوء جبينه وثغر شهي باللآلي منضد
ولام عذاريه تدور بخده كتمام آس مع بنفسجه الندي
وخضرة ريحان بعارضه الذي يعارض قلبي في هواه وأكبدي
يريك ربيعًا بالبهاء بنانه على ورد خديه الزهي المورد
أروم حياة وهو يطلب قتلتي بسيف معد للقتال ومرصد
فيا حسن لولاك ما كان محسن فأحسن لمضنى ساهر الجفن مسهد
يبيت يعاني أعظم السقم دايمًا سلوا ليله واستشهدوا الشهب تشهد
ويسند إرسال السحاب لدمعه مسلسل أحزان بوجد مجدد
يقول العذول ارجع فإنيَ ناصح ورأييَ لا يروي سوى عن مسدد
فقلت له دعني فرأيك فاسد وقولك بهتان بزُور مفند

وله:

من لمضنى أحشاؤه تتلاهب ما الفضا مثلها ولا يتقارب
جفنه ساهر وحزن جفاه مستمر ودمعه يتساكب
يا خليليه من حوادث دهر حاربته فصار يُدعَى المحارب

لو رآه المتيمون لصاحوا ... ما لهذا الصدود ود يعاقب
فرعاه الإله من مستهام ... ما أراد الوصال إلا يراقب
وحبيب ممنع ذو جمال ... وطبيب لمهجة الصب ما طب
حسن محسن بذات وفعل ... كل حسن لذاته يتناسب
حيثما وجهه له حسنات ... إن جنى الذنب فهْو ليس يحاسب
يا غزالًا رفقًا بصب كئيبٍ ... قد نأه الزمان ممن يحابب
وخفِ الله في محبيك وارحم ... من تلظى وغير شكلك ما حب

ولما عمر الفقير جامع هذه الشوارد داره التي بالصنادقية بالقرب من الأزهر في سنة إحدى وتسعين ومایة وألف، عمل المترجم أبياتًا وتاريخًا رقمت بطراز مجلس العقد الداخل وهي:

خليلَيَّ هذا الروض فاحت زهوره ... ولاح على الأكوان حقًّا ظهوره
وزاد ثناء عبق الجو طيبه ... فمنه عبير المسك طاب عبوره
سما في سماء الكون فانتهج العلا ... برفعته وازداد سرًّا سروره
ألم تر أجسام الوجود تراقصت ... وجاء التهاني باسمات ثغوره
مكان على التقوى تأسس مجده ... ومن سور التوفيق والهدي سوره
وفردوس عدن فاح فوح نسيمه ... وحفته ولدان النعيم وحوره
ومجلس أنس كل ما فيه مشرق ... ومقعد صدق قد تسامى حبوره
بناء يروق العين حسن جماله ... ورونقه يشفي الصدور صدوره
ومن مجد بانيه تزايد بهجة ... وقلد من در المعالي نحوره
عزيز بني بيت المكارم فانثنت ... تغني به حمدًا ومدحًا طيوره
وأحيا رسوم المجد والفخر والتقى ... وزانت بأعلام الكمال سطوره
فلا زال فيه الفضل تسمو شموسه ... وتنمو على كل البدور بدوره
ودام به سعد السعود مؤرخًا ... حمى العز بالمولى الجبرتي نوره

وله في صيوان:

وصيوان حوى عزًا وفخرًا	عليه من البها حسن متمم
كروض الأنس فيه الورق غنت	وبلبال السرور لها ترنم
على الإيوان يزهو بارتفاع	ويهزو بالخيام وبالمخيم
فتحسبه وذا الإشراق فيه	سماء الجود قد ظلت مكرم
يقول السعد في تاريخه بي	على مجد الوزير العز خَيَّم

ومن نثره ما كتبه تقريظًا على المؤلَّف الذي ألفه العلامة الشيخ محمد عبد اللطيف الطحلاوي الذي ضاها به عنوان الشرف للعلامة السيوطي قوله:

حمد المولى يضيق نطاق المنطق عن شكره، ويعجز لسان اللسن عن الإفصاح بذكره، يدني لب الموحد إلى فهم مقامات التوحيد، ويعرفه سبل التهجد والتحميد، ويسعده بنهاية الوصول إلى مقاصد فقه الأصول، وصلاةً وسلامًا على المحمود بأكمل ثنا الممدوح بأجمل ضيا وسنا، وعلى آله وصحبه وأتباعه وأحبابه ما ألف كتاب، وكللت تيجان الربى بلآلئ السحاب.

أما بعد قد سرحت طرفي في رياض هذا التأليف الرايق، وفرحت بصري بالمشاهدة لمحاسن هذا التصنيف الفايق، واقتطفت بيدي ثمرات أوراقه واستضأت بأنوار إشراقه، وحليت سمعي بدرر فوايده، وفكري بغرر عوايده، وعرضت على فهمي لآلي جواهره، فلاحت لعيني بدور زواهره، فإذا هو عقد نظم من درر العلوم وتحلت به غواني الفهوم، رشيق الألفاظ والمعاني، رقيق التراكيب والمباني، لم ينسج ناسج على منواله، ولم يأت بليغ بمثاله، قد أفحم فصحا الرجال وألقت له البلغا العصي والحبال، وأعجز الفصحا كبيرًا وصغيرًا، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، يفوق بحسنه كل مولف ويروق برونقه على كل مصنف، جمع فيه من العلوم أشرفها وأشرقها، ومن المعارف أرقَّها وأروقها، فهو مجموع جامع مانع، وروض يافع يانع، فلا شك أنه صنعة قادر وصبغة لبيب ماهر، وكيف لا وهو العلامة الإمام الفهامة الهمام المحقق الفاضل المدقق الكامل، جامع شمل المعارف حايز أنواع اللطايف، وحيد الكمالات اللدنية ومزيد المحاسن الخِلْقية والخُلُقية مولانا

الشيخ محمد عبد اللطيف الطحلاوى قابل الله صنيعه بحسن القبول، وبلَّغه من خير الدارين كل مأمول، وأدام الكريم النفع بوجوده، وأقام لديه جزيل إحسانه وجوده، ما كرت الليالي ومرت الأيام وقطر غيث الغمام، والحمد لله وحده وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده.

ومن نثره أيضًا هذه المراسلة:

بسم الله الرحمن الرحيم نحمدك يا من أجريت المقادير على وفق الإرادة، وجعلت المطالب سببًا للإفادة والاستفادة، ونشكرك على ما أوليتنا من سوابغ الإحسان، ومنحتنا من سوابق الفضل والامتنان، ونصلي ونسلم على نبيك سيد ولد عدنان، إلى آخره.

وأيضًا إن أحلى ما تحلت به تيجان الرسايل، وأعلى ما تجلت به مظاهر المقاصد والوسايل، وأبهى ما رقمه البنان من بديع المعاني والبيان، وأشهر ما فاهت به الأقلام وفاحت به نوافح مسك الختام، إهداء تسليم تفوح فوايح المسك من طيب نشره، وتلوح لوايح الإقبال من وجوه بشره، وتبتسم ثغور الأماني من شمايل شموله، وتتنسم نسمات التهاني من إقباله وقبوله، وإسداء تحيات يعبق شذاها ويشرق نورها وضياها، تفوق الشموس نورًا وتروق الخواطر منها سرورًا، نقدم ذلك ونهديه ونظهره ونبديه لحضرة ذوي المهابة والفخار والعلو والاقتدار، الجامعين بين المتاجر والمفاخر، الحايزين لجمال الأول والآخر، القاطنين بخير البلاد القايمين بمصالح العباد، مصابيح الدنيا وبهجتها، وكواكب البلاد وتحفتها، حماة حرم يجبى إليه الثمرات، وزينة محل تُقضَى به الحاجات، عين أعيان المكاسب والتجارة، وزين أبنا المطالب والإشارة، نعني بذلك فلانًا وفلانًا أسبغ الله عليهم سوابغ الإنعام، وأسبل عليهم حلل الجود والإكرام، وأصلح لهم الأحوال، وبلغهم الأماني والآمال، وبسط لهم الأرزاق، وحباهم بلطفه الخلاق.

أما بعد بسط كف الرجا، ومد سواعد القصد والالتجا بدعوات مقرونة بالإنابة، ليس لها حاجب عن أبواب الإجابة، فمما يعرض عليكم وينهى بعد السلام إليكم، أنه قد وصل إلينا رقيمكم المكنون، المحتوي على الدر المصون، فشممنا منه نفحات مكية حرمية، ونسيمات سحرية بهية، فتعطرنا بطيب مسكها الأذفر، وتطيبنا بعبير عنبرها الأزهر، ذكرتم أنكم بذلتم المجهود في طلب المقصود، إلى آخره.

وله غير ذلك كثير، وحاله وفضله شهير، ولم يزل يملي ويفيد، ويقرر ويعيد، حتى قطفت يد الأجل نواره، وأطفأت رياح المنية أنواره، وذلك يوم الاثنين رابع عشرين شهر القعدة من السنة.

ورثاه الشيخ إسماعيل الزرقاني بقوله:

تداولت الأيام بالعسر واليسر وتلك شئون الحق في مطلق الدهر
فكيف أرى قلبي على فقد إلفه حزينًا ودمع العين من فيضه يجري
فقال لنا في سيد الخلق أسوة فقد دمعت عيناه حزنًا كما تدري
وهذا الذي أمسى حليف ضريحه إلى فضله تصبو الأنام مدى العمر
إمام له فضل الرواية والحجا فمن نقله يملي ومن عقله يقري
قوى فهمه صارت بنور معيدها ترى من مبادي الحال عاقبة الأمر
عتبت على الأيام في نثر عقدها وقد غاب من أثنائه معدن الدر
فقالت وما لي ذاك حبر موفق أحب لقا الله أسرع للأجر
تلقته أملاك النعيم تحفه وتنقله من ورد نهر إلى قصر
إلى أن يرى وجه العزيز مكانه ويبقى حميدًا في الترقي مع البشر
بمقعد صدق صار عند مليكه فيا مصطفاه فزت مرتفع القدر

ومات الأمير عثمان بك الأشقر الإبراهيمي، وهو من مماليك إبراهيم بك الكبير الموجود الآن، اشتراه ورباه وأعتقه وجعله خازنداره مدة، ثم قلده الإمارة والصنجقية في سنة اثنتين وتسعين وماية وألف، وعرف بالأشقر لشقرته.

ولما انتقل أستاذه إلى بيت سيده محمد بك بعطفة قوصون سكن مكانه بدرب الجماميز، وصار له مماليك وأتباع وانتظم في عداد الأمرا.

وخرج مع سيده في الحوادث وتغرب معه في البلاد القبلية، وطلع أميرًا بالحج في سنة عشر ومايتين وألف، وعاد في أمن وأمان.

ولما حصلت حادثة الفرنسيس كان هو مع من كان بالبر الغربي وذهب إلى الصعيد، ثم مر من خلف الجبل ولحق بأستاذه ببر الشام، ولم يزل حتى رجع مع أستاذه والأمرا بصحبة عرضي الوزير في المرة الثانية.

ثم سافر مع حسين باشا القبودان فقتل مع من قتل بأبي قير، ودفن بالإسكندرية، وكان ذا حشمة وسكون وحسن عشرة مع ما فيه من الشح.

ومات الأمير عثمان بك الجوخدار المعروف بالطنبرجي المرادي، وهو من مماليك مراد بك، اشتراه ورباه ورقاه وقلده الإمارة والصنجقية في سنة سبع وتسعين وماية وألف.

ولما وصل حسن باشا الجزايرلي إلى مصر، وخرج مع سيده وباقي الأمرا من مصر على الصورة المتقدمة، ووقع بينهم ما وقع من الحروب والمهادنة، حضر هو وحسين بك المعروف بشفت وعبد الرحمن بك الإبراهيمي إلى مصر رهاين.

ولما سافر حسن باشا إلى الروم أخذهم صحبته بإغرا إسماعيل بك فأقاموا هناك، ثم نفوهم إلى ليميا فاستمروا بها، ومات بها حسين بك خشداشه المذكور.

ثم رجع المترجم وعبد الرحمن بك بعد وقوع الطاعون وموت إسماعيل بك وأتباعهما إلى مصر، فلم يزالوا حتى حصل ما حصل من ورود الفرنسيس وموت مراد بك في أخريات أيامهم، فوقع اختيار المرادية على تأميره عوضًا عن سيده بإشارة خشداشه محمد بك الألفي، وانتقل بعشيرته إلى الجهة البحرية وانضموا إلى عرضي الوزير ووصلوا إلى مصر.

فكان هو وإبراهيم بك الألفي ثاني اثنين يركبان معًا وينزلان معًا، ولم يزل حتى سافر القبودان بعد ما مكر مكره مع الوزير سرًّا على خيانة المصريين، فأرسل يستدعيه هو وعثمان بك البرديسي، فسافرا امتثالًا للأمر فأوقع بهما ما تقدم، وقتل المترجم ونجا البرديسي ودفن بالإسكندرية.

وكان أميرًا لا بأس به وجيه الشكل عظيم اللحية ساكن الجأش فيه تؤدة وعقل، وسبب تلقبه بالطنبرجي أنه كان في عنفوان أمره مولعًا بسماع الآلات وضرب الطنبور، وربما باشر ضربه بيديه مع الإتقان لذلك، فغلبت عليه الشهرة بذلك.

ومات الأمير مراد بك المعروف بالصغير، وهو من مماليك محمد بك أبي الدهب وانتمى إلى سليمان بك الأغا واستمر ملازمًا له ومنسوبًا إليه مدة أعوام، وكان يعرف بمراد كاشف، وله إيراد واسع ومماليك.

تقلد الإمارة والصنجقية في سنة ست ومايتين وألف، فزادت وجاهته، ولم يزل كذلك حتى سافر مع عثمان بك الأشقر وأحمد بك الحسني مع القبودان، وقتل كذلك بأبي قير ودفن بالإسكندرية.

ومات الأمير قاسم بك أبو سيف وهو مملوك عثمان بك أبي سيف الذي سافر بالخزينة، ومات بالروم وذلك سنة ثمانين وماية وألف، وهي آخر خزينة رأيناها سافرت إلى إسلامبول على الوضع القديم.

وعثمان بك هذا مملوك عثمان بك أبي سيف الذي كان من جملة القاتلين لعلي بك الدمياطي وخليل بك قطامش ومحمد بك قطامش في ولاية راغب باشا كما تقدم، وخدم المترجم مراد بك وكان يعرف بقاسم كاشف أبي سيف.

وكان له أقطاع والتزام وإيراد، واشتهر ذكره في أيام مراد بك، وبنى داره التي بالناصرية وأنفق عليها أموالًا جمة.

وكان له ملَكَة وفكرة في هندسة البنا، واستأجر قطعة عظيمة من أراضي البركة الناصرية تجاه داره من وقف المولوية، وسورها بالبنا وبنى في داخلها قصرًا مزخرفًا برحبة متسعة، وقسم تلك الأرض بتقاسيم المزارع، وحولها طرق ممهدة مستطيلة ومجارٍ للمياه التي تصل إليها أيام النيل ومجارٍ أخرى عالية مبنية بالمون والخافقي من داخلها تجري فيها المياه من السواقي، ويحيط بذلك جميعه أشجار الصفصاف المتدانية القطاف، وبداخل تلك البركة المنقسمة النخيل والأشجار ومزارع المقاثي والبرسيم والغلة وغيرها يسرح فيها النظر من ساير جهاتها، وتنشرح النفوس في أرجاها ومساحاتها، وجعل السواقي في ناحية تجتمع مياهها في حوض، وبأسفله أنابيب تتدفق منها المياه إلى حوض أسفل منه.

وعنده مجلس ومساطب للجلوس وتجري منه المياه إلى المجاري المخففة المرتفعة، ومنها تنصب من مصبات من حجر إلى أحواض أسفل منها صغار، وتجري إلى مساقي المزارع، وعند كل مصب منها محل للجلوس وعليه أشجار تظله وبوسطه أيضًا ساقية بفوهتين تجري منها المياه أيضًا، والقصر يشرف على ذلك كله وحول رحبة القصر وطرق المشاة كروم العنب والتكاعيب.

وأباح للناس الدخول إليها والتنزه في رياضها والتفسح في غياضها، والسروح في خلالها والتفيوء في ظلالها، وسماها «حديقة الصفصاف والآس لمن يريد الحظ والايناس»، ونقش ذلك في لوح من الرخام وسمره في أصل شجرة يقراها الداخلون إليها، فأقبل الناس على الذهاب إليها للنزهة ووردوا عليها من كل جهة، وعملوا فيها قهاوي ومساقي ومفارش وأنخاخًا يفرشها القهوجية للعامة وقللًا وأباريق.

واجتمع بها الخاص والعام، وصار بها مغانٍ وآلات وغوانٍ ومطربات، والكل يرى بعضهم بعضًا وجعل بها كراسي للجلوس وكنيفات لقضا الحاجة، وجعل للقصر فرشًا ومساند ولوازم ومخادع لنفسه ولمن يأتي إليه بقصد النزاهة من أعيان الأمرا والأكابر، فيبيتون به الليالي ولا يحتاجون لسوى الطعام، فيأتي إليهم من دورهم.

وزاد بها الحال حتى امتنع من الدخول إليها أهل الحيا والحشمة، وأنشا تجاهها أيضًا على يسار السالك إلى طريق الخلا بستانًا آخر على خلاف وضعها، وأخبرني المترجم أيضًا من لفظه أنه أنشا بستانًا بناحية قبلي أعجب وأغرب من ذلك.

ولما حضر حسن باشا الجزايرلي إلى مصر، وخرج منها أُمَرَاها تخلف المترجم عن مخدومه، واستقر بمصر فقلدوه الإمارة والصنجقية في سنة إحدى ومايتين وألف، فعظمت إمرته وزادت شهرته، وتقلد إمارة الحج مرتين.

ولما أوقع العثمانية بالأمرا المصرلية ما أوقعوه، وانفصلوا من حبس الوزير وانضموا إلى الإنكليز بالجيزة، ثم انتقلوا إلى جزيرة الذهب وارتحلوا منها إلى قبلي تخلف عنهم المترجم لمرض اعتراه، وحضر إلى مصر ولازم الفراش ولم يزل حتى مات في يوم الخميس سادس القعدة من السنة، وكان يخضب لحيته بالسواد مدة سنين رحمه الله.

ومات إبراهيم كتخدا السناري الأسود وأصله من برابرة دنقلة، وكان بوابًا في مدينة المنصورة وفيه نباهة فتداخل في الغز القاطنين هناك مثل الشابوري وغيره بكتابة الرقى وضرب الرمل ونحو ذلك، ولبس ثيابًا بيضا، ثم تعاشر مع بعضهم وركب فرسًا وانتقل إلى الصعيد مع من اختلط بهم، وتداخل في أتباع مصطفى بك الكبير.

ولم يزل حتى اعتشر بالأمير المذكور وتعلم اللغة التركية، فاستعمله في مراسلاته وقضاياه فنقل فتنة ونميمة بين الأمرا، فأراد مراد بك قتله فالتجا إلى حسين بك وخدمه مدة، ثم تحيل والتجا إلى مراد بك وعاشره وأحبه ولازمه في الغربة والأسفار.

واشتهر ذكره وكثر ماله وصار له التزام وإيراد، وبنى داره التي بالناصرية وصرف عليها أموالًا، واشترى المماليك الحسان والسراري البيض، وتداخل في القضايا والمهمات العظيمة والأمور الجسيمة، وصار من أعظم الأعيان المشار إليهم بمصر، ونما ذكره وعظم شأنه وباشر بنفسه الأمور من غير مشورة الأمرا، فكان يحل ما يعقده الأمرا الكبار.

ولما تحجب مخدومه بقصر الجيزة كان المترجم لسان حاله في الأمر والنهي، وبيده مقاليد الأشيا الكلية والجزئية ولا يحجب عن ملاقاة مخدومه في أي وقت شا، فينهي إليه ما يريد تنفيذه بحسب غرضه، واتخذ له أتباعًا وخدمًا يقضون القضايا ويسعون في المهمات، ويتوسطون لأرباب الحاجات ويصانعهم الناس حتى الأكابر، ويسعون إلى دورهم وصاروا من أرباب الوجاهات والثروات.

ولم يزل ظاهر الأمر نامي الذكر حتى وقعت الحوادث، وسافر الفرنساوية ودخل العثمانية ورجع قبودان باشا إلى أبي قير، فأرسل يطلبه في جملة مَن استدعاهم إليه، وقتل مع من قتل ودفن بالإسكندرية.